محمد الغزالي

مع الله

دراسات في الدعوة والدعاة

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

مَعَ اللّـه

هذا عنوان يوحي باديَ الرأي أن الكتاب الذي يتناوله القارىء يتضمن معاني كثيرة من ذلك اللون المثير للخشوع، الباعث على الإنابة، الصاعد بالناس من دنياهم المعتمة إلى آفاق الملأ الأعلى.

لعله صلوات قانتة تغمر المحاريب بالأسى الرقيق.

أو دعوات مُحتبسة ترسلها عاطفة مُلتاعة، وينغمها صوت شجيّ، يأذن[1] لها رب العالمين، حين يتردد صداها بين الأرجاء، كما أذن لنبيه داود حين أَوَّبت الجبال معه، وحوّمت الطير حول تسبيحه وتحميده.

أو لعل الكتاب مَجْلىً لآثار الإبداع العظيم في السموات والأرض، يحصي ما وصل إليه العلم الإنساني من عظمة الخالق في ملكوتٍ رَحْبٍ، وعوالِمَ تَغزو بالدهش لُبَّ المتأمل في صفحاتها، الغائص وراء أسرارها، المقدِّس لجلال اللّه في علوها وسفلها وعرشها وفرشها.

إن الكتاب ليس هذا، ولا ذاك.

إنه مع اللّه على نحو آخر، نحو يدرج مع الإنسان في واقعه المشحون بالحركة، ويلتصق به في دنياه الطافحة بالنزاع.

---

(١) يأذن: يستمع.

وهو يحرس الإيمان في تلك الميادين العملية، ويتابع خَطوَهُ هنا وهناك ليطمئن على سلامة الوجهة واستواء الطريق.

أجل، فكم من لحظات مشرقة يصنعها التفكير العالي، أو تضيئها السُبُحات الطُّهور. فإذا تعرضت لعراك الأحياء، وتيار الحياة فكما تتعرض الشعلة اللطيفة للرياح الهوج، لا تلبث أن تذهب بها.. ثم يعتكر الظلام.

أو كما يحتفظ الخطيب الناشىء بالكلمات التي يريد إلقاءها، فإذا وقف بين الناس شدهته روعة الموقف فلا يدري ما يقول.

* * *

إن هناك إيماناً أساسه الخيال، أو الشعور الموقوت، أو التأثر العاجل.

وإيجاد هذا الإيمان سهل، وسموُّ المرء به حيناً ممكن.

ولكن الإسلام يبتغي إيماناً يصحب المرء في أحيانه كلها، ويصبغ أحواله المتباينة بصبغة ثابتة، ويظل معه في صحواته وغفواته، في بيعه وشرائه، في صداقته وخصومته، في فرحه وفي ترحه، في وحدته وعشرته.

وهو بهذا الإيمان يكون مع اللّه، أو يكون اللّه معه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾(١).

والإسلام حين شرع الصلوات التي تَقِفُ الإنسان بين يدي ربه مناجياً ومنادياً فرض عليه فيها قراءات تصله باللّه عن هذا الطريق العملي.

فهو مع فاتحة الكتاب يقرأ آياتٍ ذات موضوعات وثيقة الأواصر بدنيا الناس.

فيها الوعظ الزاجر، وفيها التشريع المتعلِّق تارة بالمواريث، وتارة بالدُّيُون، وتارة بالحروب، وتارة بالآداب العامة.

وفيها الكَلِمُ الوصَّاف للكون، الجوّاب مع الأفلاك، المتحدث عما سكن في الليل والنهار.

---

(١) سورة النحل: اية ١٢٨.

وفيها القَصَصُ المتتبع للأحداث، الراوي لأفعال الأوَّلين ومصايرهم، كي يعتبر بها أولو الأبصار.

هذه الصلوات هي مناجاة للّٰه لا ريب، ولكنها مناجاة لـرب يطلب من عباده أن يطلبوا وجهه، وهم في مشاغل العيش، وقضايا الدنيا الملأى بالعُقَد.

وأن يجعلوا هذه الساعات بين يديه دعائم لإحسان ما يليها من سائر العمر.

والمشكلة ـ في نظري ـ هي كيف نمد ساعات الصفاء الروحي في حياتنا، فلا تطغَى عليها طباع السوء، ولا تجرفها أكدار الدنيا وأهواؤها؟

إن بدايات الخير في بعض الناس قد تنقطع فلا تتصل أبداً. لماذا؟

لأن المرء إذا استرسل مع داعي الفتنة، واستجاب لإغراء الشيطان، كان كالسابح ضدَّ الشاطىء.

مهما ضرب بذراعيه فالغرق لا محالة مدركه.

ومهما ارتفعت الأصوات به فأنَّى يجد صخرة يرسو عليها؟

والناس في الحياة كذلك. إنهم غرقَى في بحرها حتماً، ما لم يتوبوا إلى اللّٰه بين الحين والحين، مُعوِّلين عليه وحده.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

* * *

وهذا الكتاب الموجِّه إلى اللّٰه يتمشى مع الإسلام الحنيف، ويعتمد أصوله وحدها.

ذلك أن الإسلام ـ كما نعتقد ـ هو الأديان كلُّها من بدء الخلق إلى ميراث اللّٰه للسموات والأرض.

فالقرآن الكريم ـ في نظرنا ـ هو الوثيقة الفذَّة الجامعة لمعاقد الوحي

---

(١) سورة الأنعام: آية ٧١.

الإلهي، المُفرَّق على الأعصار الماضية، والمبلِّغ للأمم الأولى.

وهو وثيقة ضنَّت بها السماء على البلى والتشويه، فبقيت وستبقى التعبير الأوحد الأصح عن مراد الله من خلقه قاطبة.

ومحمد صلى اللَّه عليه وسلم ــ في فهمنا نحن المسلمين ــ الإنسانُ الذي التقت في شخصه أمجاد النبوات القديمة وجهودها النبيلة لتزكية البشر، وقيادتهم إلى اللَّه، وتبصيرهم بالصراط المستقيم.

فنحن إذ نتبعه، فعن حبٍّ للَّه، والتماس لرضاه.

ونحن إذ نكرمه فإنما نكرم في سيرته كل مُعَلِّم نفث في رُوعِنَا الحق، وأودع في بصائرنا النور.

والإسلام ــ في نظرنا ــ هو الوحدة الدينية التي تؤاخي بين الأنبياء، وتوقِّر صحائفهم، وتصون تراثهم، وتحقق في هذا العالم أهدافهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[١].

ومن ثَمَّ فنحن نرى في هذا الإسلام الجامع، الكفاية المشبعة للأزمات الروحية والفكرية التي يعانيها الناس؛ ويتطلّعون منها إلى مخرج.

ونرى فيه النهج الذي ينفي متاعب الحَيْرة والشرود، ويُبعد أسباب الغضب والطرد، ويصل الإنسان باللَّه صلة ناعمة كريمة.

* * *

وهذا الكتاب للدعاة وليس للعامة.. ألَّفته لهم، ودرست جملة من أبوابه معهم.

ذلك أن مشيخة الأزهر رأت ــ مشكورة ــ أن أحاضر في تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين، وأن ألقي على الطلاب كلماتٍ في

(١) سورة النساء: آية ١٣٦.

«الدعوة إلى اللّه» وفق منهج مرسوم، وقد صادف هذا التكليف هوىً في نفسي، فنشطت للنهوض به.

وإن كنت أعترف بأن حال الطلبة تقبض الصدر، وتملأ النفس كآبة.

وهيهات أن يتكون منهم ـ بهذا الوضع ـ جهاز للدعاية الإسلامية الناجحة!!

ولا بد من إعادة النظر في هذه الكلية شكلاً وموضوعاً كي تحقق بعض الآمال المعلقة عليها.

إن تكوين الدعاة يعني تكوين الأمة.

فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين.

وأثر الرجل العبقري فيمن حوله كأثر المطر في الأرض الموات، وأثرِ الشعاع في المكان المتألق.

وكم من شعوب رَسَفَت دهراً في قيود الهوان، حتى قيض اللّه لها القائد الذي نفخ فيها من روحه ريح الحرية، فتحولت ـ بعد ركود ـ إلى إعصار يجتاح الطغاة، ويدك معاقلهم.

وأذكر أني سمعت رجلاً من كبار أساتذتي ينوِّه بهذا المعنى، ويقول: أنا أؤمن بالواحد!! وهي تورية لطيفة.

يشير ـ طيّب اللّه ثراه، وبلل بالرحمة ذكراه ـ إلى أن الفرد الكبير يخلق العجائب في النفوس، ويستطيع أن يجمع المتفرق، ويعلم الجَهول، ويقرب البعيد، ويلمس بجهده الساحر ما حوله، فإذا هو يسوقه صوب ما يريد.

وهو يستشهد لقوله هذا بأن اللّه بعدما وصف المذلة التي عاناها قديماً بنو إسرائيل، وحينما شاء أن يرفعهم من وضاعة، ويمكّن لهم بعد زلزال، ذكر جل شأنه نبأ الرجل الذي سوف يُجري على يديه هذا التحوُّل الغريب فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة القصص: آية ٧.

ولا عجب فهل تاريخ العالم إلا صحائف لنفر من الناس لمعت أسماؤهم في شتى الآفاق، بينما استخفت ألوف مؤلفة من أسماء الدهماء؟

إن الشيوعية الكذوب، تماري في هذه الحقيقة، وتزعم أن الأفراد مهما عظموا لا وزن لهم، وأن الفضل كله للجماهير.

وليت شعري ما يصنع الرعاع وحدهم في هذه الدنيا؟

إنهم يظلون في أماكنهم حيارَى حتى يجيء السوَّاق الممتاز، فيُصرِّفهم هنا وهنالك.

ومن هنا أرى أن سبيل النهضة الناجحة لا يتمهد إلا إذا استطعنا ــ على عجل ــ بناء جماعات من الدعاة المدرَّبين البواسل.

ينطلقون في أقطار العالم الإسلامي ليرأبوا صدعه، ويجمعوا شمله، ويمسِّكوه برسالته، ويبصِّروه بغايته، ويتعهدوا مسيره، ويقوِّموا عوجه، ويذودوا عنه كيد الخصوم، ومكر الأعداء، وعبث الجهال، وسَفاه المفتونين.

الإسلام أحوج الأديان الآن إلى من يتعلمه على حقيقته النازلة من رب العالمين، ثم يكرس حياته لإنعاش المسلمين به، بعدما سقطوا في غيبوبة طويلة عِلَّتُها الأولى والأخيرة الجهل الطامس البليد.

الإسلام أحوج الأديان الآن إلى الدعاة الذين يغسلون عنه ما التصق به من خرافات، ويُقْصُون من طريقه الحواجز التي شَعَّبَتْ أهله، وقسمتهم طوائف، ومذاهب.

﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١).

الإسلام فقير إلى رجولات متجرِّدة تهب حياتها لله، وتجعل مماتها فيه، متأسية بالإمام الأعظم الذي نزل على لسانه:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ . . . ﴾(٢).

* * *

(١) سورة المؤمنون: آية ٥٣.

(٢) سورة الأنعام: آيتي ١٦٢، ١٦٣.

سيكون هؤلاءِ الدعاةُ طلائعَ النور في أمة طال عليها الليل.

وبوادرَ اليقظة في أمة تأخر بها النوم.

وأملَ العالم في عصر أجدبت فيه الدنيا من رسل الرحمة واليقين، وامتلأت بزبانية الأثرة والإلحاد.

وأنا ـ والحق يقال ـ لا أرهب من الأخطار المحدقة بالإسلام أن خصومه يملكون كذا وكذا من أسباب الموت، وكذا وكذا من وسائل الغلب.

إنني لا أكترث بتلك القوى المعدَّة، ولا ما يكمن فيها من دمار.

وإنما أوجل أشد الوجل، وأفزع أكبر الفزع، عندما أرى المسلمين يتحللون من عهودهم مع اللَّه، وينسلخون من لباس التقوى، وينساقون ـ بغباوة ـ مع الاستعمار المهدِّم لقوانا الروحية، والمقطع لحبالنا الدينية.

إنني أحزن إذ أرى حفلاً تُسقَى فيه الخمر، أو مجمعاً تموت فيه الصلاة، أو شارعاً يموج بالكاسيات العاريات تتبعها الأبصار النَّهِمَة، أو نادياً يمتلىء بالأحاديث اللاغية والأفكار المنحطة، أو قرية تعيش في أكفان الجاهلية وتقاليدها، أو مدينة تضطرب في نفايات الحضارة الغربية ومباذلها لا تعرف غيرها.

إن هذه جميعاً عوارض الفناء، وجوالب الهزيمة.

بل هي الانتحار المؤكَّد، والضياع لرسالتنا وكياننا، والإياس من تأييد اللَّه لنا وعونه معنا.

ولا بد للحفاظ على حياتنا، والإبقاء على تراثنا، والنجاة من عدونا.

لا بد أن نعود سراعاً إلى إسلامنا جملة وتفصيلاً، لنكون مع اللَّه، ويكون اللَّه معنا.

وعبء هذا العمل على الدعاة الأذكياء الأتقياء، الدعاة الذين ألّفْتُ لهم هذا الكتاب.

وأخيراً، لقد ساءلت نفسي: هل أنا أهلٌ لهذا العمل؟

لماذا لم أدعه لمن هو أزكى مني نفساً وأحسن خُلُقاً؟

ثم قلت: أجعله توبة نصوحاً، وعهداً على الخير والصدق، وأستعين اللّه على الوفاء.

وذكرت في مطالعاتي لكتاب «الأمالي» ما رواه الأصمعي قال:

«بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم وأنا كثير الذنوب، مسرف على نفسي، غيرُ حامدٍ لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة اللّه عز وجل.

قد بلوتها فلم أجد لها شكراً في الرخاء، ولا صبراً على البلاء.

ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمر نفسه لَتُرِكَ الأمر بالخير والنهي عن المنكر.

ولكنَّ محادثةَ الإخوان حياةٌ للقلوب وجلاء للنفوس وتذكير من النسيان».

ثم قال: «. . . واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إدبار، وآخر حياتها الموت. فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه.

ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره. .».

بهذا الفهم كتبنا، وعلى هذه النية مضينا.

وندعو اللّه مع ألوف المؤمنين أمثالنا:

﴿. . . رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]؟

محمد الغزالي

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٧.

التّعْريفُ بالدَّعْوَة

التَّعْرِيفُ بالدَّعْوَة

ربما تجد في الشوارع أناساً يسيرون لغير وجهة، تتعلق أبصارهم بالبضائع المعروضة في المحال المقامة على الجانبين، أو يشاهدون أشخاص السائرين أمثالهم في الطريق.

وربما تجد آخَرين يسعَون مسرعين لإدراك مَلْهَىً بريءٍ أو خبيث.

وقد تجد غيرهم منطلقاً إلى مُرتَزَقِهِ الذي يعيش منه، فهو يهرع إليه عارفاً ماذا سيصنع، ومتى يؤوب.

إن الناس في الحياة العامة صنوف شتى:

بعضهم يعيش لا يدرك إلا أن الحياة قُدِّرت له، فهو يتحرك فوق ظهر الأرض كيفما اتفق.

وبعضهم تحبسه هموم الرزق، فهو لا يعرف إلا تحصيلَ القوت له ولأهله.

وآخرون يبحثون عن السرور في مظانّهِ ليستمتعوا بما أمكن من لذات الدنيا.

وأغلب الناس كذلك، يختلف عليه الليل والنهار وهو محاصَر بمآربه القريبة، مصروف بالمادة عمَّا وراءها، محجوب بالمظاهر عن الحقائق الكبيرة، ناسياً أن «اللَّه» خلقه لحكمة، واستعمره في الأرض لأجَلٍ، وكلَّفه في عُمُره المحدود بأعمال، وضرب له موعداً للقاء رهيب يحاسبه فيه على ما فعل وترك وقدَّم وأخَّر.

في غمرة هذه الدنيا الفاتنة يرتفع صوت النبوة، لينبه الناس إلى ما سَهَوا عنه، وليحذرهم مما انخدعوا به، وليُذكِّرَهُم بالزاد الذي يَقْدُمُون على ربهم به.

في غمرة هذه الدنيا، وفي انطلاق كل امرىء إلى غرضه الأثير عنده، يرتفع صوت النبوة شارحاً للناس الغاية العليا من مَحياهم، ومندداً بالسبل المنحرفة التي توزَّعتهم، وحادياً إلى الطريق اللاحبة التي قلُّوا فيها، واستوحشت منهم، إنه صوت الحق المنزَّه البريء، الضامن لسعادة العاجلة والآجلة معاً:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[1].

لقد بعث اللَّه الرسل مبشرين ومنذرين، ليعرِّفوا جماهير البشر باللَّه، وبما أمر به، وبما نهى عنه، وليقودوهم قيادة حسنة إلى الصراط المستقيم.

والصراط المستقيم خط معنوي ترسمه حسب طبيعة كل إنسان إرشاداتُ الوحي الأعلى.

فهناك نداءات مستمرة من اللَّه لعباده، تبين لهم الوجهة التي يَنشُدونها، والأعمال التي يؤدونها، والأغلاط التي يهجرونها.

وهناك بواعث تمضي بالإنسان قُدُماً إلى غايته الصحيحة، وتعينه على مقاومة المثبطات التي تخذل قواه، والمعضلات التي تعوج به.

ولما كان الناس خطَّائين بطبيعتهم، وكانت أهواؤهم تغلب على أحوالهم، فإن نقلهم إلى الصواب وتثبيتهم عليه يحتاج إلى جهد متصل ودعوة مستمرة، كما يحتاج إلى تلطف وإصرار.

ولذلك جاء الأمر بالدعوة في مواطنَ كثيرةٍ من القرآن الكريم:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[2]، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[3]، ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]،

---

(١) سورة المؤمنون: آيات ٧٢ ــ ٧٤.
(٢) سورة الشورى: آية ١٥.
(٣) سورة يوسف: آية ١٠٨.
(٤) سورة الحج: آية ٦٧.

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[1]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾[2]، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[3]

والدعوة إلى اللّٰه ليست صيحة مبهمة، أو صرخة غامضة.

إنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين.

وقد تتغاير العصور في أنصبتها من الارتقاء الماديِّ والقوى الذهنية والعاطفية، لكن الإنسان في أيِّ جيل لا يعدم من هداية اللّٰه ما يكفيه ويغنيه.

أعني أن رسالات اللّٰه حيثما ظهرت كانت من الكمال بالقدر الذي يملأ على الإنسان أقطار نفسه وحسه، فلا يتطلب وراءها مزيداً.

في عصر التوراة كانت النصائح التي نزلت على موسى بحسب الناس يومئذ:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾[4].

وعندما صعدت الإنسانية في مدراج النضج الفكري، واتسعت آفاقها العامة جاء القرآن الكريم في أسلوب أعمق وأرحب، واتخذ فيه الحديث عن اللّٰه وعن الدار الآخرة صُوَراً من البيان العالي والإقناع العلميّ تَطّرد مع ما يبلغه الناس آخر الدهر من ذكاء وإحاطة.

وتَضَمَّنَ كذلك من القواعد والأحكام ما لا حاجة للناس بعده إلى إضافة أخرى تصلح بها النفوس أو المجتمعات أو الدول:

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٢) سورة فصلت: آية ٣٣.

(٣) سورة يونس: آية ٢٥.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٤٥.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وعندما نتأمل في الآيات التي أمرت بالدعوة إلى اللّٰه، نجدها أبرزت الخصائص التي تقترن بطبيعة الدعوة، وتناولت الأحوال التي تلابسها من قِبَلِ خصومها، وواضعي العقبات أمامها.

فالدعوة إلى اللّٰه حق، وكل دعوة إلى غيره باطل.
ومنهجها مستقيم، وكل منهج وراءها مُعْوَجّ.
وهي تقوم على العقل والهدى، وغيرها يقوم على الحمق والهوى.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾(٢).

نرى أن الدعوة إلى اللّٰه طريق مأنوسة، لم يفتتحها محمد صلى اللّٰه عليه وسلم، إنما مشى فيها على أعقاب من سبقوه من إخوانه المرسلين الذين أوحى لهم اللّٰه:

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٣).

وأن معالم هذه الدعوة لا ترسمها اجتهادات الأنبياء، ولا تنبع من فلسفات فكرية خاصة، بل هي توقيف من اللّٰه وتمشٍّ مع أمره، وأن البعد عنها هو مَيل مع الشهوات واتباع للضلالات.

وفي قوله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾(٤).

ترى أن الدعوة ليس فيها ما يخفى، وأنها لا تضم جوانبَ تُحجب عن البعض وتباح للبعض الآخر.

---

(١) سورة النحل: آية ١٨٩.
(٢) سورة الشورى: آية ١٥.
(٣) سورة الشورى: آية ١٣.
(٤) سورة يوسف: آية ١٠٨.

إنها واضحة مكشوفة للعامة والخاصة، مستعلنة بكل دقيق وجليل فيها.

وأن نداء البشر إليها قوامه البصر والمنطق والصدق، ودعامته الدليل الذي لا يقهر، ولا تنال منه الشبهات.

وفي قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

ترى الوصاة بالمضي في الدعوة دونَ اكتراث بنزاع المخالفين، ولجَاجتهم.

فإن الذي وُفِّقَ إلى الهدى المستقيم لا ينبغي أن يهتم لمعارضة الذين حُرِموا الهداية والاستقامة.

وهكذا يتكرر الأمر بالدعوة في سائر الآيات.

فترى أن الإقناع بها يجب أن ينهض على الحَصَافة وإحسان العِظَة والاحتجاج.

وأن الدعاة هم أصدق الناس قيلاً، وأشرفهم طريقاً.

وأن عملهم المستمدَّ من وحي اللَّه إنما هو تيسير لأسباب السلامة في الدنيا والآخرة، وإطفاء للفتن العاجلة والآجلة.

وثمرة الجهاد الطويل للدعاة إلى اللَّه هي من حظ الناس وحدهم.

فاللَّه غني عن عباده.

والرجال الكرام من أنبيائه لا يرتقبون من الناس شيئاً لقاء عملهم.

إن هذا النداء المتكرر على ألسنة المرسلين ليس إلا مظهراً من رحمة اللَّه العامة وعطفه على المعلولين والحائرين.

إن الأمم إذا لم تنتعش برسالات السماء، فهي جماهير من موتى القلوب، أو هي ألوف من الرِّمم الهامدة، وإنْ حَرَّكَتْها الغرائزُ السافلة.

ولذلك يقول اللَّه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢).

---

(١) سورة الحج: آية ٦٧.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٤.

والأمم مهما ارتقت من الناحية النظرية أو الصناعية، فإن بُعدها عن اللَّه يزين لها من الجرائم ما تنحط به إلى الدَّرْك الأسفل، وما تتعرض به لأوخم العواقب.

ولذلك ورد في القرآن العزيز: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

على أن الناس لا تهتدي إلى الحق بقيام دعاة له يتلون آيات اللَّه.

بل لا بد أن يقوم المدْعُوُّون بجهد آخَرَ يفقهون به الدعوة، ويليِّنون مشاعرهم وأعضاءهم للسير معها.

لا بد من يقظة الضمير الشخصيّ بعد يقظة العقل لاستيعاب ما أُلقي إليه.

والدعوة لا تتم إلا بسلامة الذهن الذي يتصورها، والذي تتماسك فيه حقائقها.

فمع ضعف العقل وقلة الوَعْيِ لا يُنْتَظر قيام دعوة.

وتدبَّرْ قول اللَّه سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

تجد المستوى الأدبيَّ العالي ضرورياً لِتَحَمُّلِها.

وبعد حسن الفقه يجيء حسن القبول وكمال الإذعان:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾(٤).

أما الذين لا يفهمون الدعوة، أو الذين يفهمونها ولا ينطبعون بها، فلا تصح بينهم رسالة.

---

(١) سورة الأحقاف: آيتي ٣١ ــ ٣٢.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٠٥.
(٣) سورة فصلت: آيات ١ ــ ٣.
(٤) سورة آل عمران: آية ١٩٣.

لا بد من حركة يتجاوب بها العقل والضمير مع أمر اللَّه، ويُثبت بها الإنسان استعداده للاستقامة مع هُداه.

وفي الصراط المستقيم الذي يدعو إليه رب العالمين، وفي الطرق المنحرفة التي وقفت بأفواهها الشياطين، يقول اللَّه جل شأنه:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وعن ابن مسعود رضي اللَّه عنه: أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال:

«ضرب اللَّه مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جَنَبَتَي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب سُتُور مُرخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا على الصراط ولا تَعْوَجُّوا.

وفوق ذلك داعٍ يدعو، كلما هَمَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحْه، فإنك إن تفتحْه تلِجْه.

ثُمَّ فسّره، فأخبر أن الصراط هو الإسلام، وأن الأبواب المفتّحة محارمُ اللَّه، وأن الستور المرخاة حدود اللَّه.

والداعي على رأس الصراط هو القرآن، والداعي من فوقه هو واعظ اللَّه في قلب كل مؤمن». يعني الضمير العاصم من الإثم، الواقي من الشرود.

فالقرآن يقود المرء على النهج القويم، واستحضارُ وحيه يُغري بالثبات فيه وعدم الانحراف يمنة أو يسرة.

وهذا الانحراف مظنة الزيغ بعد تخطِّي الحدود وتمزيق الأستار.

* * *

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣.

الحَاجَةُ إلى الدَّعْوَة

الناس لا يستغنون عن رزق اللّه ولا عن هدايته.

هم فقراء إليه فيما يطعم أبدانهم من جوع، وفيما يزكّي أرواحهم من كدر.

ومهما أوتي بعضُهم من ذكاء أو صفاء، فإنه لن يستطيع تدبير شأنه وإصلاح أمره بعيداً عن وحي اللّه وتعليم أنبيائه.

إن مواهبَ الإنسان الماديةَ والأدبيةَ كبيرة، وربما مرت به أوقات يُحس فيها أنه بحسبه ما وصل إليه بتفكيره، وأسعفته فيه قواه.

بَيْدَ أن هذا الغرور لن يجرَّ في عواقبه إلا الشر.

وسيكدح الإنسان ويمضي وحده، محروماً من عناية السماء.

ثم يلتفت إلى مكاسبه بعدما جرى شوطاً طويلاً، فلا يرى شيئاً.

بل سيرى أن جهوده التي ذهل فيها عن ربه كانت عليه وبالاً.

إذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللّه لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ولعل مصداق ذلك حال العالم من نصف قرن.

إنه يتقلب بين فلسفات شتى، بعضها ينكر اللّه أصلاً، والبعض الآخر يسيء معرفته، ويغلب هواه على وحيه.

فماذا جنى العالم من جحده للألوهية، أو جهله بحقيقتها وحقوقها؟

شقاء يرجم العالم بالدماء في أيام الحروب، ويرجمه بالقلق في أيام السلام.

فهو بين الحروب الباردة والساخنة، محطوم الأعصاب، فارغ الفؤاد.

وقد يكون هناك فريق من البشر ميسر اللذائذ، مفلت الزمام، يرتع في الدنيا مثلما ترتع الأنعام في الربيع.

فأي شيء في هذا؟ عجول تُسَمَّن للذبح.

فإما أعطبتها فتن الحياة التي ارتكست فيها، وإما أُخِّر لها جزاؤها في جهنم، فهي هنالك تدعو ثبوراً، وتصلى سعيراً.

إن الحاجة إلى وحي الله، وقيادة المرسلين لا تنقطع أبداً.

والذين يقولون: إن هناك غِنىً عن الدين هم في الواقع أقوام لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بلقائه بعد الممات، ولا يتصورون قيامه جل شأنه على نفوسهم وأعمالهم في هذه الحياة.

وقد تَمرُقُ على شفاههم كلمات: «الله»، «الفضيلة»، «المثل العليا» دون أن يكون لهذه الكلمات مدلول حقيقي في أنفسهم.

إنه نوع من الشقشقة الفارغة، ليس وراءها جد في الصلة بالله، والأخذ عنه وتحكيم شرعه، والتهيؤ لحسابه في يوم الدين.

وقد مرت بالعالم أعصار طوال، ليس من بينها عصر خفت فيه حاجته إلى دعوة الله، وصوت الوحي، لكنّ هذا العصرَ الذي نعيش فيه هو أشدُّ العصور فقراً إلى الاتصال بالسماء، والانعطاف إلى الدين، والتوقير لكلمات الله.

ذلك أن الرُّقِيَّ العقليَّ المحض الذي بلغته الإنسانية يجعل مستقبلها على حافة الهاوية، إن لم يقترن هذا الرُّقِيُّ العقليُّ باكتمال روحيٍّ معتمد على الله ورسله.

إن الذكاء الحادّ في الرجل الخبيث سلاح شر، وأداة فتك.

وما يَعيب أحدُ الذكاء، وإنما يَعيب النفس الرديئة التي تُسخِّره في الآثام.

ونحن الآن في فترة من تاريخ الدنيا يظن الإنسان فيها أنه امتلك الفضاء، وأوتي مفاتحه، فهل ذلك بشير خير؟ كلا.

إن الجفاف الروحيّ، والانقطاع الرهيب عن الله رب العالمين،

والصدود الغريب عن تراث النبيين، وغلبة الأثرة والجشع على الأقوياء، وسيادة المنطق الماديّ في كل شيء؛ إن هذا نذير شُؤم.

وأيُّ تقدم يحرزه العلم في تلك الميـادين لا يبعث على التفاؤل، ما لم يصحبه عَود سريع إلى اللّه، وإعزاز لأمره، وإعلاء لشرعه.

* * *

إننا ــ مع احترامنا البالغ للعقل الإنساني، والضمير الإنساني ــ لا نرى فيهما غَناء عن كلام اللّه، وسنن المرسلين.

ذلك أن هناك معارف تتصل بذات اللّه، وما ينبغي له، وما كَلَّف به عباده من فروض، لا مجال لتلقيها إلا من منبـىءٍ عن اللّه، موثوق بأخباره.

وأعرف أن بعض الناس يزهد في معاني العقيدة، وضروب العبادة.

لا لشيء إلا لأنه في أعماق نفسـه مكذب بـوجود اللّه، مستهـزىء بما أوجب من صلاة وصيام مهما أظهر غير ذلك.

ثم إن هناك أحكاماً شخصية واجتماعية ودولية فَصَّلها الحق تبارك اسمه، في وحيه الصادق.

والاستمساك بها إنفاذ لأمر اللّه، وضمان لمصالح الناس مهما جادل المجادلون.

وقد تصل بعض الفلسفات إلى أطراف مهوشة مبهمة من حقائق الإيمان.

وقد تصل بعض المذاهب الاجتماعية والاقتصادية إلى أجزاء صغيرة أو كبيرة من رعاية المصالح العامة.

بَيد أن ذلك لا يُغني عن الحق النازل من عند اللّه، ولا يسد أبداً مَسَدَّه، بل إن الافتتان به لا يزيد العالم إلا ضلالاً وبلبلة.

لقد رأينا أُناساً في ظل العقل الإنساني والضمير الإنساني ــ أَجَلْ في ظِلِّهما وباسمهما ــ يرون الإلحاد تفكيراً حسناً، والزنا عملاً عادياً، والربا قاعدة عادلة، وظلم الأمم المختلفة شيئاً لا حرج فيه، واحتقار جنس مّا حقاً لجنس آخر.

والحضارة التي تسود الشرق والغرب جميعاً، إن أَغْضَتْ عن قيام فكرة الألوهية وسلَّمت لبعض الأتباع الحانين عليها، فهي ــ في ظل العقل والضمير كما يقال ــ لا تسمح بامتدادها إلى خُلُق أو سلوك أو سياسة.

كأن الخلق والسلوك والسياسة يجب أن تعزل عن اللّه!

لم؟ لأن بينها وبين اللّه عداوة لا تهدأ.

فما قيمة عقل يصد عن اللّه؟ وضمير يستسيغ ذلك الصدود؟

وأيُّ خير للناس إذا حرموا السير مع وصايا ربهم وتوجيهاته؟

إن الوحي الإلهيّ، دواء لعلل، وإسعاد من نَصَب:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

فمتى يستغني العليل عن الشفاء، والشقي عن الرحمة؟

* * *

وإذا قلنا: إن الناس بحاجة إلى الدين، وإلى الدعوة الدينية، فإنما نعني الإسلام الحنيف، لا أيَّ تديُّن مبهم.

فإن هناك أقواماً ــ بإيحاء من عقائدَ معينةٍ ــ ينقضون ﴿ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٢).

نعم، إن هناك من أهل الفكر من يحارب المادية الزاحفة بأي طراز من الإيمان.

وقد رأينا من يسوي في القيمة الروحية بين «غاندي» و«عيسى» و«محمد» عليهما الصلاة والسلام. وهذا ضلال بعيد.

فإن التدين العليل أقصر الطرق وأسهلها أمام هجوم المادية الواسع.

إن هناك أناساً «مؤمنين» يركعون بين يدي صنم في معبد، ويستمدون منه العون، أو يرمقون ــ بإجلال ومهابة ــ ألواح الصور التي تضم ملامح القديسين والقديسات كما تخيلها راسموها.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٢. (٢) سورة الرعد: آية ٢٥.

وهذا الضرب من الاعتقاد مبني على تصور ضال لحقيقة الألوهية.

وهيهات أن نعترف به أو نعول عليه.

وهو ــ في بُعده عن الحق ــ يساوي جحود الألوهية ابتداء، وإن كان هذا بُعداً من جهة اليسار، وذاك بُعداً من جهة اليمين.

إننا نعني بالدين، الإسلام وحده.

وقد علمت أن الإسلام يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويضم من علامات الخير ما يصله بأهل الأرض عن طريق المعايشة السلمية إن لم يكن عن طريق الاقتناع الحر.

ومن هنا نؤكد أن حاجة العالم إلى الإسلام هي حاجته إلى كل علم صحيح، وإلى كل خطة صالحة.

والعالم محتاج إلى أن يعرف اللّٰه كما عرَّف نفسه إلى عباده في القرآن الكريم.

فإن صور الوجود الإلهي بلغت في أسلوب القرآن قمة لم يبلغها كتاب آخر.

والنفس الإنسانية لا تدرك أطرافاً من الكمال الأعلى يغرس في أعماقها أروع العقائد، وأرسخ الإيمان، إلا إذا اتصلت بهذا القرآن، واستمعت إليه، وفتحت أنظارها لهديه:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(١).

والعالم بحاجة إلى أن يعرف «محمداً» صلى اللّٰه عليه وسلم، وأن يدرس سيرته دراسة بعيدة عن الافتراء والتزيُّد، ليأخذ من الإحاطة بهذه السيرة أمجد درس فيما تستطيع المواهب البشرية بلوغه من خير وفضل وجلالة وسناء.

وسيعرف كل دارس لحقيقة هذا الإنسان الكبير أن المثل التي ذكرها أصحاب النظريات الخلقية العليا قد تجسدت في هذا الرجل، واستحالت سنناً وضيئاً هادياً يُثير الحب والإعزاز والاقتداء.

---

(١) سورة الرعد: آية ٣٠.

العالم محتاج إلى أن يدرك جملة الحقائق التي جاء بها الإسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات.

فإن هذه الحقائق هداية نافعة له، والعمل بها ـ مجتمعةً ـ يُحصِّل خيراً جزيلاً ويَنفي شراً كثيراً.

وبين أيدي الناس الآن أجزاء من الفطرة التي شرح الإسلام فروعها، وكل جزء منها بارز في حياة قطر من الأقطار بروزاً جديراً بالاحترام.

إنني معجب برحابة الحرية الميسرة للفرد في العالم الغربي.

ومعجب بكفالة الضرورات المطلوبة للناس في العالم الشرقي.

ومعجب بطمأنينة القلب التي يخلقها اليقين في العالم الإسلامي.

غير أن الدين ليس واحدة فقط من هذه الحالات المبعثرة على جنبات العالم العريض.

إنه حقيقة سماوية تشع ذلك الخير كله، وتنفح الناس بجدواه.

ولو أن الأقدار يسَّرَت تقريبه وتحقيقه للعالمين لاستفاد منه البشر أجمعون.

ولكن كم خسر العالم من انحطاط المسلمين(١)؟

إن من أشد الرزايا على الناس انقسام حقائق الفطرة بينهم، وذهاب كل فريق منهم بشطر منقوص، يكمله بوحي الشيطان، ثم يعيش به وكأن بين يديه الحق كاملاً.

في أوروبا وأمريكا لا يذكرون اللَّه، ولا يحسبون له في أعمالهم حساباً.

ويكدحون في الأرض وفق قوانين المادة التي يعرفونها معرفة جيدة ويطبقون أحكامها بدقة بادية.

وعندنا قلما تسأم شفاهنا من تكرار ألفاظ الذكر، نقول:

باسم اللَّه، وعلى بركة اللَّه، وإن شاء اللَّه، ولا قوة إلا باللَّه، وإنا للَّه، والحمد للَّه.

---

(١) تحت هذا العنوان ألّف الأستاذ أبو الحسن الندوي كبير علماء الهند كتاباً قيماً جديراً بالدراسة.

ولكن أعمالنا التي نعالجها قلّما تنضبط مع سنن اللّه في خلقه!

قال الأستاذ «محمد زكي عبدالقادر» ــ يصف عودته من أوروبا وأميركا، ووصوله إلى الاسكندرية ــ:

«ابتسامة رقيقة مع جواز السفر، وكلمة فيها محبة وإعزاز لم أسمعها منذ أمد طويل. الحمد للّه على السلامة.

ونزلنا إلى الجمرك في ضجة ضخمة، والحقائب تلقى ذات اليمين وذات الشمال.

والحمالون من مواطنينا ينقلونها بأجسادهم الفتية وأذرعهم القوية.

ويدور هذا الحوار: يا معلم حاسب تنكسر حاجة. فيجيب الآخر: توكل على اللّه، خل قلبك من حديد.

لغة لم أسمعها في أوروبا ولا أمريكا.

كنت إذا قلت لأحد ــ حين يَعِدُ بأنه سيفعل كذا ــ: إن شاء اللّه، نظر إليّ في استغراب، كأني أكلمه بلغة لا يفهمها ولا يألفها.

وحدث ــ وأنا في مقر الأمم المتحدة ــ أن تلقيت دعوة لزيارة ولاية «فرمونت» في أقصى الشمال من أمريكا، وجاءت الآنسة المختصة تقول لي:

إن المسافة طويلة تبلغ ٩٠٠ ميل، وقد حجزت لك مقعداً بالطائرة المسافرة في التاسعة من صباح الخميس المقبل.

وشكرتها قائلاً: إن شاء اللّه، وأردفت: لقد اعتدنا في بلادنا أن نقول هذه الكلمة. وشرحت لها معناها. وبدا لي أنها تسمع شيئاً جديداً ــ على فكرها وحسها ــ.

وجاء صباح الخميس ودق جرس «التليفون» في الساعة السادسة، وإذا المتحدث شركة الطيران تعتذر عن تأخير الموعد لرداءة الجو، ولم أسافر.

والتقيت بالآنسة المختصة فقلت لها: إن اللّه لم يشأ أن أسافر. أرأيت لماذا نقدم مشيئة اللّه عندما نعتزم القيام بعمل؟

هذا تقليد جميل من تقاليد الشرق.

قالت: إن عندكم الكثير من التقاليد الجميلة، أما نحن فلا نفعل هذا.

قال الأستاذ: «أجل هم لا يفعلون، ومع ذلك فما أكثر ذهابهم إلى الكنائس، وما أبرز إيمانهم بالدين، والتزامهم بطقوسه وتقاليده وتعاليمه.

إن الأديان كلها نبعت من الشرق، فلما انتقلت إلى الغرب فقدت الكثير من روحها، وأضحت بعض شؤون الحياة التي لها وقتها ومكانها ـ لا تتعداهما ـ فلم تدخل في الحياة العملية ولم تتسرب إلى القلوب على الصورة التي تسربت بها إلى قلوبنا نحن الشرقيين».

* * *

وهذا تعليل شعريّ لا علميّ، وتصوير الخلاف على أنه تفاوت بين طباع أهل الشرق وأهل الغرب فرار مقصود من الواقع.

فالتفاوت هنا بين دين ودين، بين الإسلام وأثره العميق في ربط الناس باللَّه، والنصرانية وفلسفتها السطحية في توجيه الخُلُق والسلوك.

إن القارتين الكبيرتين «أوروبا» و«أمريكا» تعيشان في عزلة عن اللَّه وغربة عن الوحي، وإن كثرت في أرجائهما الكنائس.

لأن المادية السائدة أقوى وأعتى من أن تصدها عقيدة مزعزعة الأسس العقلية والروحية. إلا أن الأمر كما شرحنا آنفاً.

فإن تجزئة الحقيقة على هذا النحو إشاعة للباطل في الشرق والغرب معاً. فلا بد من استجماع الأسباب المادية إلى جانب ذكر اللَّه.

أما أن يعتمد الغربيون على الأسباب بعيداً عن الخالق الأعلى، أو يعتمد الشرقيون على اللَّه مهملين أسبابه التي مهدها، فذلك شرود عن الصواب.

والإسلام يقوم برعاية الحق من جميع وجوهه، وتلك هي أوامر اللَّه التي يجب إنفاذها.

ولا خير في الناس، ولا بركة في الدنيا إلا إذا قويت الصلة باللَّه، واحترمت السنن التي وضعها.

قال الأستاذ الصاوي في إحدى كلماته «ما قلّ ودلّ»:

«العلم لا يكفي، لا بد من الإيمان».

لقد تعلمنا في صغرنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنها الأساس الطيب لكل ما في الدنيا من خير، وما في الآخرة من رحمة.

ولكن ها هوذا العلم الحديث نفسه يشهد اليوم أن الصلاة كالماء العذب تجعل النبات ينمو ويزدهر إذا ما صلى الزارع له.

أما إذا تركه وشأنه فإن البذرة في الأرض قد تتعفن، وتفسد، ولا ترى نور الشمس، أو تخرج ثم يذوي نبتها ويذبل.

هذه هي الحقيقة التي أسفرت عنها التجربة في بعض المعامل الأمريكية في «لوس أنجلوس».

ولعلها تردع العلماء الذين يؤمنون بالعلم وحده والذين ينكرون أن للروح تأثيرها الساحر في الكائنات، وأن خير الزاد التقوى، كما قال اللّٰه جل شأنه.

فمنذ عام **١٩٥٢** وهم يُجرون في مؤسسة البحث الديني شتّى التجارب للتدليل على قوة الإيمان تدليلاً علمياً.

وإذا كنا نستطيع أن ننقل أفكارنا من رأس بشر إلى رأس آخر؛ أفلا يمكن أن نُلقي إشعاعات الفكر على شكل صلاة ودعاء ونداء؟

وهل تؤدي الابتهالات التقية في عالمنا الذي يجري وراء المادة الخسيسة ويكاد يكفر بكل ما عداها إلى هذه النتائج العظيمة؟

لقد وضعوا في أحواض الزرع حبوباً صلوا لها وباركوها.

ثم وضعوا حبوباً في أحواض أخرى بلا صلاة ولا دعاء.

فنبتت الأولى نباتاً حسناً، وظلت الأخرى في فقر وجدب.

سبحانك ربي، إنك أنت الزارع الأكبر، وما كنا نحن الزارعين».

أقول: وهذا الكلام كذلك يمثل جوانب من الحق، ونخشى أن يَحيف على الجانب المهم، وأن يتخذ منه الماديون مجالاً لسخريتهم.

إن الإسلام ماديّ روحيّ، أو هو ــ كما قررنا ــ الفطرة كاملة.

ولما كان أي عمل يحتاج في تمامه إلى جملة أسباب بعضها في أيدينا، وبعضها موكول إلى الله، فيجب أن نعلم أن الله لن يقوم عنا بما وكل إلينا فعله.

وفي حالة الزرع هذه لا بد أن نبذر ونحرث ونسقي، والله بعد ذلك يمنع الآفات المفاجئة، ويهيىء الجو بما ييسر الإنضاج، ويتعهد بلطفه ما صنعنا.

وفي الحالات الأخيرة تُجدي الصلوات والابتهالات، وتُرتقب بعد ذلك البركات.

وحاجة العالم إلى معرفة هذا الجانب لا بد منها، وهو ما يجحده الماديون، ويؤكده المؤمنون.

* * *

وَلْنَشْرَح هنا كلمة من كلمات الإيمان يرددها المسلمون كثيراً، خصوصاً عندما يسمعون المؤذن يستحثهم على الصلاة والفلاح وخير العمل.

أعني كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

إن هذه الكلمة لا ريب في صدقها، وفي استحباب تكرارها.

بيد أن الدنيا مشحونة بكلمات الحق التي يُراد بها باطل.

ومن المحزن أن يُسَاء إلى الحق نفسه بِسَوْقِ كلماته حيث لا مساق لها.

إننا مرة أخرى نعود إلى قضايا الأسباب والمسببات لنقول: إنها حق، وإن الله بنى عليها نظام الأرض والسماء وما بينهما.

وارتباط الأسباب بالمسببات مُلاحَظ من قديم الزمان، ومطَّرد الثبوت كما نرى.

وما دام النظام الكونيّ قائماً فسيبقى هذا الارتباط خالداً.

وشرائع الإسلام قامت على اعتماد هذه الحقيقة.

فالماء للسقيا وللطهارة سبب لا يتخلف، والأكل للشبع، والشمس للنهار، والنار للإحراق، والسكين للقطع، والسلاح للحرب.

بل العمل الصالح للثواب، والعمل الطالح للعقاب.

تلك كلها أسباب لا بد من استكمالها، ولا يُعفى أحد من تقديمها.

ونحن نرى القوانين العلمية تُسجَّل وتُدرَس على أساس أن الرباط بين الأسباب والمسببات لا فكاك منه.

ولم يزعم أحد أن قانون الروافع أو الأجسام الطافية مثلاً يُصَدَّق في مكان، ويُكَذَّب في مكان، أو يَثْبُت في سَنَة ويتغير في أخرى.

ومن ثَمَّ فكل محاولة لخداع هذه الأسباب أو تجاوزها فاشلة حتماً.

والمؤمن والكافر سواء في ضرورة الخضوع لها والأخذ بها؛ وكل من زعم بأن اللَّه أمر بغير هذا، أو يقبل غير هذا فهو كـذب على الدين؛ ولا مجال هنا البتة لذكر كلمة «لا حول ولا قوة إلا باللَّه» على أنها توهين للرباط القائم بين الأسباب والمسببات؛ أما إذا ذُكرتْ بمعنى أن هذه العلاقة من قَدَر اللَّه في الأشياء، ومشيئته المحكمة في خصائصها فلا حرج؛ على أن الذي نؤكده، ولا يستطيـع الماديُّون مخالفتنا فيه، أن هناك قوانين كونية كثيرة لَمَّا نعرفها.

وأن هذه القوانين يمكن أن يكون لها مدخل كبير في شؤون عالمنا هذا الذي نحيا فيه.

وأن هذه القوانين المجهولة تنِدُّ عن إرادتنا وقدرتنا؛ وإن أَثَّرْت في حاضرنا ومستقبلنا.

وذلك كله في عالم المادة الذي أحرزنا فيه سهماً من علم.

فكيف بعالم الروح الذي لا نعرف من حقائقه شيئاً؟

إن الجنين يتكوّن فلا يعرف أحد ما الذي يَكْمُن فيه من خصال الأبوين وما الذي يبرز.

وما الذي يتطرق إليه من أحوال الأجداد ــ للأب والأم معاً ــ وما الذي يخطئه؟.

وفي رُكام هذا الجهل تتخلَّق السلالة البشرية بما فيها من صفات هائلة التفاوت، صفات لها أعمق الآثار في صنع المستقبل.

فقد تجعل الجنين يولد ليأخذ طريقه إلى القمة أو إلى الهاوية.

فإذا كانت الأسباب التي تنتج هذا كله ليست بين أيدينا، فهل يُلام مؤمن، يعلم أنها بين يدي اللّه فيقول: «لا حول ولا قوة إلا باللّه»؟

ولْنَدَعْ هذا المثال الماديّ.

إن الروح الذي يحركنا قد تنهمر فيه أمواج من الأمل تبعثنا على نشاط غريب نشاط لا يلحقه فُتور؛ ولا يعوقه تشاؤم؛ ولا يهزمه قَيد.

وقد نُحس انقباضاً يجعل حركتنا إلى أدنى الأشياء منا ثقيلاً رذيلاً.

فهل يُلام المؤمن الذي يعلم أن القلوب بين أصابع الرحمن، إذا قال: «لا حول ولا قوة إلا باللّه»؟.

لقد ظهر لي أن المحافظة على نجاح العمل، لا تقل خطراً عن إنشائه، وأن إنشاء عمل مّا قد يكون في مقدورنا، لكن استبقاءه محفوفاً بالعناية يغلب أن يكون خارجاً عن طَوقنا.

فهل يُلام مؤمن يعلم أن انتظام الأسباب المختلفة وتأدِّيها إلى نتائجها ليس ملكه، ولكنه ملك اللّه، فهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا باللّه»؟.

إن ذلك هو مجال تلك الكلمة.

وهي ــ بلا ريب ــ من شارات الإيمان.

* * *

أُمَّةٌ وَرِسَالَة

جُلُّ الأمم الآن ـ إن لم يكن كلها ـ يسعى لرفع مستوى معيشته، وتكثير الضرورات والمرفهات لمختلف الطبقات.

وهذا شيء حسن، فمن ذا الذي يكره العافية والسَّعة والاسترواح؟.

إن كدح الناس للحصول على مزيد من خير اللّه، والاستمكان في أرضه عمل مفهوم البواعث.

إلا أننا لا نرضى لأبناء آدم، ولا يرضى عاقل لنفسه أن تكون الغاية القصوى من الحياة هي البطن الملآن، والبدن المزدان، فذلك هدف حيوانيّ لا إنسانيّ.

ووقوف الحكومات والشعوب عنده هبوط بقيمة العالَم ورسالته، ونزول عن المكانة التي أرادها له، وذهول عن الحق الذي يقول لنا في استنكار:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾(١).

إن للإنسانية غاية أرقى من توفير الخبز لآكليه. غاية تَرادَف النبيون لتوضيحها، ثم جاء عميدهم الخاتم، صاحب الرسالة العظمى، ليصنع أُمَّةً تمثلها وتقوم عليها، وترفع علمها في الآفاق.

---

(١) سورة المؤمنون: آيتي ١١٥، ١١٦.

وظيفة هذه الأمة بين شتى الأجناس والأوطان أن تدعم الخير وأن تُعلي صوت المعروف وأن تحمي شارة الإيمان، وأن تجعل من كيانها مَوئلاً للفضائل، وأن تَكره الآثام وتتنكّر لفاعليها، وتُعقّب على أخطائهم وخطاياهم بالتفنيد والرد.

وظيفة هذه الأمة حراسة وحي السماء وإبقاء مناره عالياً يومض بالإشعاع الهادي كي يهتدي به السارون في ظلمات البر والبحر.

والأمة التي تحمل هذا العِبْءَ أو تتولّى هذا المنصب أو تُرَشَّح لهذا الشرف هي الأمة الإسلامية.

وقد أوضح اللّٰه ذلك في كتابه العزيز حيث قال:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(1).

وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾(2).

وبيَّن أن منزلة الناس أجمعين من هذه الأمة كمنزلة هذه الأمة من رسولها.

فكما جاء الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم من عند اللّٰه معلماً ومبشراً ونذيراً، وكما أخرج هذه الأمة بإذن اللّٰه من العمى إلى الهدى، فعلى أتباعه أن يُشيعوا الحق الذي شُرِّفوا به؛ وأن ينشروا الرسالة التي نزلت بينهم، وأن يكونوا جسراً تعبر إليه الهداية لِتَعُمَّ أرجاء الأرض.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾(3).

---

(1) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

(2) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(3) سورة البقرة: آية ١٤٣.

والسلف الصالح الذي تَلقَّى آيات القرآن وسَعِدَ بصُحبة النبي صلى الله عليه وسلم فَهِمَ وظيفته على هذا النحو:

فهم أن أداء الدعوة واجب، وأن إبلاغ رسالات الله حق، وأن حبس أنوار الإسلام في حيِّزٍ من الأرض جريمة.

وعلى ذلك الأساس تكوّنت الأمة الإسلامية تَكَوُّناً متميز الطبيعة والحركة، مستبين المبنى والمعنى، تزدوج مُثُلُهَا العليا مع قواها المادية، كما يزدوج الروح والجسد، لا يُتَصوَّرُ بينهما فكاك.

* * *

وشعور المسلمين بفرائض الإسلام عليهم جعل نشاطهم الأدبي يتخذ عدة طرائق، تنتهي كلها بخدمة دينهم في الداخل والخارج:

(أ) فَتَعَلُّمُ الإسلام وتعليمه أحيا ألوف المدارس لحفظ القرآن وتعهده، ولِفقه السنّة وصيانة كل ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من توجيهات عامة.

(ب) واستدعى ذلك نهضة شاملة لآداب اللغة العربية وقواعدها حتى ساوت علوم اللغة علوم الدين في درجتها.

ولا عجب فإن الوسائل والمقاصد متلازمة الوجود.

والإسلام إذا ضمرت العربية وذبلت فهو مهدد بأفتك الأخطار.

وسترى مصداق ذلك فيما نقصه عليك بعد حين.

(ج) استبحرت المعارف التشريعية، وتكونت مذاهب في صور العبادات وقوانين المعاملات من أقوى وأزهى ما عرفت الدنيا.

(د) انتشرت دراسات الخُلُق والسلوك مع ما يسمى بـ «التصوف» وشاعت بين العامة والخاصة شيوعاً واسع النطاق.

(هـ) تطوع المسلمون من تلقاء أنفسهم للمحافظة على المجتمع ضد السيئات والمناكر، إذ إن طبيعة الإسلام تلزم كل مؤمن بإقرار المعروف ومطاردة المنكر.

والقوى الشعبية ـ لا السلطات الحكومية ـ هي التي تولت حياطة الأمة من شرور كثيرة، وإن كانت الحكومات ـ من الناحية التنفيذية ـ هي صاحبة الاختصاص.

وقيام الجماهير في الداخل بذلك الواجب أبقى شعائر الإسلام حية في المجتمع، وجعل أمام العصاة والمنحلين حواجز مرهبة، وفسح المجال أمام السطوة الأدبية على الضمائر والعواطف.

وكانت السعادة العظمى لأي مسلم أن يشرح صدر أيِّ إنسان للإسلام، وأن ينقله من كفره القديم إلى رحاب هذا الدين.

والمسلم الذي يوفق إلى إدخال شخص مًّا في الإسلام تراه مبتهج النفس، بادي البِشْرِ، متألق الجبين.

وتتعاون الجماعة المؤمنة ـ غالباً ـ على كفالة القادم الجديد، وتوثيق الأواصر العاطفية معه.

* * *

وقد امتد الإسلام إلى أغلب البقاع المعروفة في العالم، وتشبثت جذوره بألوف مؤلفة من المدائن والقرى في «آسيا» و «إفريقيا» و «أوروبا».

وتراخت العصور عليه وهو ينساح في أرض اللّٰه بقوة رائعة، ليس لها مدد إلا حماس المؤمنين، وقدرتهم على الإقناع بالحق والمقاومة للباطل.

وقد عرضت للأمة الإسلامية فترات انهزمت فيها أمام أعدائها.

أو بتعبير أدق، انهزمت فيها أمام نداء الواجب الذي يملي عليها ضرورات الوفاء لرسالتها، فكان تفريطها في جنب الدعوة ـ التي زكت بها ـ سبباً في ذهاب ريحها وانهيار مجدها.

لقد انحلت الخلافة التركية الأخيرة عن نيف وثلاثين دولة مبعثرة في قارات الأرض ينتسب أغلبها إلى الإسلام انتساباً اسمياً، وتضطرب دعوته في أنحائها اضطراباً بعيد المدى، يحتاج شرحه إلى قليل من الإسهاب.

يا عجباً، كيف تبددت هذه القوة العظيمة، وأقفرت تلك المعالم النضرة؟

مَـدَارِسُ آيَـاتٍ خَلَتْ مِنْ تِـلاَوَةٍ   وَمَنْـزِلُ وَحْيٍ مُقْفِـرُ الْعَـرَصَـاتِ

الواقع أن ذلك الانكسار لم يقع بغتة، ولم تلتق أسبابه فجأة.

إن الأمة الإسلامية ــ كما قلنا ــ صاحبة رسالة، وحاملة دعوة، ووريثة وحي يجب أن تبلغه، وأن تظهره بالعمل.

بيد أنها نسيت ذلك أو تناسته، وضعف أخذها به، ووفاؤها له على اختلاف الليل والنهار.

واطَّرد هذا التفريط أولاً في شكل متواليات حسابية، وأخيراً في شكل متضاعفات هندسية.

وقد تَقِفُهُ بين الحين والحين نهضات المصلحين، وصيحات المذكرين.

إلا أن الأمر عَزَّ على العلاج في العصور الأخيرة، فلم تستفق هذه الأمة إلا والأجـانب قد أحاطوا بها، وأنشبوا أظافيرهم في أعناقها، وشرعوا في الإجهاز عليها.

ولولا عناية من السماء مسعفة لكانت اليوم تحت أطباق التراب.

وظهرت بوادر الانفصال بين الأمة ورسالتها في أكثر من ميدان.

ففي حقل التعليم ذبلت الدراسات الإسلامية، ونبتت خلالها أشواك كثيرة.

وفشت الظنون والخرافات والإسرائيليات والنصرانيات والإغريقيات، حتى لَكَأَنَّ حصادَ هذه الدراسات طينٌ لا قمح، وحسك لا تمر.

والعِلم الإسلامي اليوم متوارٍ في معاهد خاصة، بعد ما عُزل عن الحياة العامة، وساء تقويمه، وقلَّ التعويل عليه.

وفي حقل التشريع ساد القحط كل ناحية وعجز الفقه سنين عدداً أن يحكم المعاملات المتجددة، وأن يضبطها باسم اللَّه في مجراها العتيد.

ووقف الاجتهاد عند صور انقضى زمانها وأهلوها.

فلما زحفت الحياة الحديثة كان من الشلل بحيث لم تقم له حركة، أو يحسب له حساب، وهو الآن محبوس في بعض قضايا الأسرة، معزول

أتم العزل عما وراءها من نشاط اجتماعي، محلّي أو دوليّ.

وتبع هوان المعرفة الدينية انسحاب يكاد يكون شاملاً من آفاق الحياة كلها، وتضعضعت قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أمام مدنية وافدة عارمة تحل الحرام وتحرم الحلال.

وتوقف ــ بداهةً ــ سَيرُ الدعوة الإسلامية في الأرض، وجهادها القديم لإدخال الناس أفواجاً في دين اللّٰه.

وكيف لا تتوقف وهي تكافح لتحتفظ بحياتها فحسب أمام سياسات ماكرة وعداوات فاجرة؟.

ويمكننا أن نومىء إلى عدة أمور، هي ــ في نظرنا ــ مظهر لتفريط المسلمين التاريخي في رسالتهم، وتقصيرهم في خدمتها:

١ ــ ضعف أجهزة الدعاية الخارجية للإسلام، أو انعدامُها، وترك تعليم الأجانب لجهود الأفراد ونشاطهم الخاص.

ومعروف أن انتشار الإسلام في أواسط إفريقيا، وأغلب آسيا يرجع إلى ذلك الجهاد الفردي المسالم الدؤوب.

وهو جهاد لم ترسمه خطط منظمة، ولم تستفد من أرباحه عيون يقظة، بل لم تحرس ثمراته قوى معدَّة.

والسبب في هذا التقصير المعيب، أن الدول الإسلامية كثيراً ما شغلتها منافع خاصة أو سياسات قصيرة النظر، بل كثيراً ما قامت على أنقاض المُثُل الدينية الرفيعة.

وهذا الاعتلال في أداة الحكم أضَرَّ بسير الإسلام في أرجاء الأرض أبلغ الضرر.

والواقع، أن كثيراً من الحكومات الإسلامية في التاريخ القديم كانت عقباتٍ في طريق انطلاق الدعاة لأداء واجبهم على نحو واضح ونهج مرسوم.

٢ ــ مع أن أمماً كثيرة عَرَّبَها الإسلامُ ومحا عنها خصائصها اللغوية والثقافية القديمة، فإن العربية لم تلق ما ينبغي لها من رعاية وحفاوة، خصوصاً فنون الأدب المختلفة.

فقد غلبت العُجمة على عصور طويلة، واصطبغت بها أداة الحكم حيناً من الدهر.

وتولى المناصب الكبرى أناسٌ عاطلون من حلية البيان وسلامة المنطق.

وأوت الكتابة والبلاغة والشعر إلى طبقات من المحترفين والمرتزقة.

ثم انتهى الأمر في القرون الأخيرة إلى أن علماء الإسلام ــ وفيهم جمهرة من خريجي الأزهر ــ كانوا غرباء عن الأدب، بل كانت حاستهم البيانية ميتة.

وغريب أن تكون معجزة الإسلام الكبرى آية بلاغية، وأن تكون اللغةُ العربية أساسَ هذا الدين وترجمانَ عباداته، ومع ذلك تهون إلى هذا الحد.

والواجب أن تعود للأدب مكانته، وأن تتضافر الجهود على تقوية مادته، وتجلية رونقه، وإمداده بأسباب النماء والازدهار.

٣ ــ هناك خلافات علمية، ومذهبية، حفرت فجواتٍ عميقةً بين المسلمين، وقَطعتهم في الأرض أُمماً متدابرة، وهم في واقع أمرهم وطبيعة دينهم أمة واحدة.

والدارس لهذه الخلافات يتكشّف له على عجل أنها افتُعِلَتْ افتعالاً، وبُولغ في استبقاء آثارها وتفتيق جراحاتها، بل في نقل حزازات شخصية، أو نزعات قبلية إلى ميدان العقيدة والتشريع، وذاك ما لا يجوز بقاؤه إن جاز ابتداؤه.

وكلما زادت حصيلة العلم الديني، وتوفرت مواد الدراسة الصحيحة انكمشت هذه الخلافات، واتحدت الأمة الإسلامية منهجاً وهدفاً.

ولذلك نحن نرى التقريب بين هذه المذاهب فرضاً لا بد من أدائه، وأخذ الأجيال الجديدة به.

كما نرى ضرورة إحسان النظر في دراسة التاريخ الإسلامي، وتنقيته من الشوائب التي تعكر صفاءه.

٤ ــ الأمة صاحبة الرسالة لا تنسى وظيفتها الاجتماعية في تصرفاتها العالمية والمحلية على سواء.

بل هي تستصحب أهدافها الروحية والثقافية في علاقاتها القريبة والبعيدة، وتؤكد شخصيتها المعنوية في كل اتجاه.

وتسخر أدواتها الخاصة في بلوغ غاياتها كما يسخر الجسم أجهزته ومشاعره في تيسير مآربه.

ويقتضي ذلك أن تساق وجوه شتى من النشاط العام لخدمة الإسلام، وجمع القلوب عليه.

وإذا كان اللَّه جل شأنه قد جعل لتأليف القلوب سهماً من الزكاة المفروضة، فما ذلك إلا رمز للتوصل بضُروب البِر المختلفة كي يُقبل الناس على الدِّين، وكي تدرك العامة أنه دين يُعطِي ولا يأخذ، ويبذل الفضول للمحتاجين، ولا يرزؤهم شيئاً.

وبعض الأديان الآن تدس عقائدها المعلولة وسط مساعدات شخصية كثيرة.

وكان حريّاً بالمسلمين أن يسبقوا إلى نشر الحق وإلى تربيته في القلوب بألوان العون المادي والأدبي التي كُلِّفُوا بها.

بيد أنهم ــ للأسف ــ تركوا الحق يخدم نفسه بنفسه، وينصر قضاياه اعتماداً على ما فيها من صواب.

ونسوا أن تلفيقَ الشُّبَه وتجميعَ الحِيَل يمكن أن يَصُدَّ الجماهير عن الإيمان، ويُعَلِّقَ أبصارهم بخِدَعٍ لا قيمةَ لها.

وقد كان ذلك من أسباب انحسار المد الإسلامي في بعض الأقطار.

إن قصة تفريطنا في رسالة الإسلام طويلة الفصول ضافية الذيول، ولسنا بصدد سردها.

وإنما نشير إلى نقاط محدودة منها، مهيبين بأُولي النُّهَى ألَّا يَجُرُّوا أخطاء الماضي وهم يمهدون لمستقبل مرموق.

وللإسلام أعداء لا تهدأ لهم نفس، ولا ينكسر لهم ضغن، وهم يُنشئون الأذى إنشاءً، فهل نعينهم على أنفسنا باستدامة الأخطاء؟

إن طماعية خصومنا في تحطيم ديننا، وفي صرفنا عنه، أكَّدَتْها ألوف الدلالات والأعمال.

وقد استقل الاستعمار ما ظفر به من غلب، فزادت جهوده لكي ينسى المسلمون أن لهم دعوة واجبة الأداء، بل لكي ينسى المسلمون أن لهم ديناً واجب الاتباع.

إنه يريد أن يضربوا صفحاً عن القرون التي خلت، والتاريخ الذي مضى، والحضارة التي أشرقت لها ظلمات الدنيا دهراً طويلاً.

* * *

أضرار تغيير الكتابة العربية:

ومن أخبث المؤامرات لصرف المسلمين عن دينهم، الدعوة إلى تغيير الكتابة العربية:

إما إلى الحروف اللاتينية، كما فعلت تركيا بعد ارتداد حكامها. وإما إلى حروف أخرى تحل مكان هذه الحروف التي عرفناها وعرفها آباؤنا وخَطُّوا بها ألوف الألوف من المجلدات والرسائل. ولم ذلك؟

قال الخبثاء: للتفاوت القائم بين لغة النطق وطريقة الكتابة.

وهذا أقبح تعليل يمكن أن يذكره إنسان دارس للغات البشر.

فإن التفاوت القائم بين ما يكتب وما ينطق هو أقل ما يكون في العربية، وأسوأ ما يكون في الإنجليزية والفرنسية.

إن صيغ الأفعال الفرنسية ــ وعددها ثمانية عشر فعلاً ــ تحمل كل صيغة منها عدداً من الحروف الميتة يبلغ الستة أحياناً، تكتب ولا تنطق، وتنتشر في اللغة كلها كما تنتشر العثرات في طريق رديء.

وإلى جانب هذا فإن الحروف الساكنة تتجمع مثنى وثلاث في أوائل الكلمات وأواخرها بصورة مزرية لا يمكن تعليلها، ولا يمكن أن يرتبط بها معنى محترم، أو غير محترم. وإثقالها للذهن في علم الإملاء حقيقة لا شك فيها.

ويطَّرد كذلك في هذه اللغة إغفال النطق بعلامات الجمع في الأدوات والأسماء. كما يطَّرد النطق بحروف كثيرة على غير ما تكتب به.

ومع هذه المقابح فاللغة الفرنسية ـ في نظر البعض ـ أيسر من اللغة العربية.

ويجب ـ في نظرهم ـ أن نحول لغتنا لتتوافق لغة الكتابة مع ما ينطق، ولتتساوى اللغة العربية مع اللغات العظمى.

ونحن لا ندري ما يقال لهذا الجور، ولا ما يوصف به هذا التبجح.

والغرض من هذا النشاط ظاهر، وهو فصل مسلمي اليوم عن تاريخهم الروحي والثقافي بعد إلقاء ستار كثيف على ماضيهم العلمي كله.

وفي هذا الميدان نفسه يعمل آخرون من ذوي الثقافة الإنجليزية لبلوغ هذا الغرض.

واللغة الإنجليزية ـ من ناحية الكتابة والإملاء ـ أحط من زميلتها الفرنسية ولولا قوة أهلها ما انتشرت.

ولكن التبشير الاستعماري يغطي كل عيوبها، ويطيل الألسنة في قدح لغتنا وذم قواعدها وإهانة حروفها.

والغرض هو حفر فجوة غائرة بين ماضينا الإسلامي وحاضرنا. أجل بيننا وبين ثقافة القرآن وروحه، استجابة لهجوم الغرب الأخير المفعم بالمفاتن والخوادع.

وهاك ما نشرته إحدى الصحف اليومية في سلسلة حارة مُلِحَّةٍ من الدعاية لتغيير الكتابة العربية:

قالت الصحيفة: «إن الدنيا تتطور، وهي تجري تحاول أن تلحق بالمستقبل، والمستقبل عبارة عن سرعة وصواريخ، سرعة على الأرض، وصواريخ تندفع إلى الشمس، سرعة حتى في أسلوب العرض والقراءة والشراء.

اختزال لكل التفاصيل. فالصيغة التلغرافية هي المفهومة المقررة الآن.

إننا نتسابق مع الزمن نحاول الجري مع عقرب الثواني قبل عقرب الدقائق...».

وتسأل أيها القارىء: ماذا بعد هذه الصيحات المفتعلة كلها؟

فإذا الاقتراح الذي يرحب به الكاتب ويروج له: أن المجمع اللغوي يفكر في اختصار لغة سيبويه.

إن الدنيا تجري وتلهث من شدة الجري كما يقول الكاتب، فيجب أن نغير حروف اللغة العربية وحدها.

أما اللغتان الإنجليزية والفرنسية، وسائر اللغات الأخرى فإن الدنيا بالنسبة لها واقفة.

إنها لغات مقدسة القواعد، أو لعلها لغات سبقت الدنيا الجارية.

إني لأستغرب الصفاقة التي كست هذه الوجوه.

وإنه ليسرنا أن ينتصب أديب العربية العظيم الأستاذ «عباس محمود العقاد» ليحارب هذه النزعة الخبيثة، سواء وهي تهاجم قواعد اللغة، أم وهي تهاجم قواعد الكتابة. قال ــ رداً على الدكتور طه حسين وأمثاله ــ تحت عنوان: «الإباحية اللغوية»:

«إن مسألة اللغة الفصحى سيطول الخوض فيها ما دام أعداؤها يحسبون أنهم يملكون القضاء عليها، وأننا نطلب منهم الترجمة بها والإبقاء على حياتها.

ولكننا نعتقد أن اللغة التي تطلب الرحمة من أعدائها ضائعة قبل أن يضيعها أولئك الأعداء.

كما نعتقد أن محاربة الفصحى لا تأتي من أناس يخلصون في البحث عن لغة أيسر منها وأحق بالبقاء.

وإنما يحارب الفصحى من يريدون محو هذه اللغة لمحو جميع المعالم التي ترتبط بها في العقيدة والأخلاق وتراث الفكر والثقافة.

ودون ذلك تتحطم معاول الهدم في أيدي الجبابرة العتاة.

فما بالك بمعاول الهدم في أيدي العجاف المهازيل؟

اللغة الفصحى باقية ما بقيت الحاجة إلى لغة عامة مشتركة بين بلاد كثيرة وأزمنة متلاحقة.

ولن تستغني اللغة العامة عن قواعد متفق عليها، لأن اللغة المرتجلة بلا قاعدة ربما صلحت لوقتها ومكانها، ولا تصلح لجميع الأوقات وجميع الأمكنة.

ماذا حدث في اللغات الأوروبية الدارجة بعد إهمال اللاتينية؟.

لم تذهب القواعد النحوية والصرفية، بل قامت في اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية الحديثة، قواعد مطّردة أصعب على المتعلم من القواعد اللاتينية.

فالذين يريدون مَحْوَ الفصحى لا يخلصون حين يزعمون أنهم يطلبون الخلاص من القواعد التي يصعب على المتعلمين أن يتقنوها ويلتزموها.

فإن القواعد المهروب منها آتية ـ لا محالة ـ بعد استقرار اللهجة الدارجة على حال من الأحوال.

وإنما يطلبون محو «اللغة الفصحى» لأنها قوام ثقافة كاملة هي المقصودة بالهدم والإلغاء.

أما رسوم الحروف باللغة العربية فالبحث فيها سهل واضح لا يتسع فيه مجال الخلاف، إلا أن المختلقين ينسون طبيعة اللغة العربية، ويغيب عنهم أنها لغة اشتقاق وليست لغة «نحت» كاللغة اللاتينية وأخواتها.

فلا سبيل إلى كتابة لغات الاشتقاق ولغات النحت بطريقة واحدة في الرسم على الإطلاق.

إن التركي ـ مثلاً ـ يقول طاقم وطقم بكسر القاف، وطقم بسكونها، ولا يختلف المعنى.

ولكن الفرق بين الفعل «عَلِم» والاسم «عالم» في اللغة العربية إنما هو الفرق في حركة خفيفة من حركات حرف العين.

فليست الحروف منفصلة بأيِّ وجه من الوجوه عن الأوزان والحركات:

ليست الألف في «رَمَىٰ» حرفاً أبجدياً فقط، ولكنها حركة في وزن تشترك فيه مادة الكلمة بجميع مشتقاتها.

فإذا كتبتها «ألفاً»[١] كما تنطقها لم تخلص من الياء في «يَرْمِي» ولا في «رَمْياً رِمَايَةً» ولا في «مرميَّات» أو ما وراء ذلك من ضروب المشتقات.

وأنت تقول قضى يقضي قضاء، وتجمع «قضاء» على قضاءات.

وتقول سما يسمو سماء، وتجمع سماء على سماوات!

فالمسألة في لغات الاشتقاق هي مسألة الوزن في جميع مشتقات الكلمة، وليست مسألةَ حرف في لفظة واحدة.

وهذه هي الحقيقة التي ينساها أو يجهلها من لا يفرقون بين أحوال الكتابة في العربية وأصولها في لغات النحت على اختلافها.

وهي في جملتها تتغير معانيها بزيادة المقاطع أو حذفها ولا شأن لها باختلاف الأوزان والحركات.

والحكاية هنا أيضاً حكاية جهل أو عجلة لا تَثْبُتُ على الرويَّة والتمحيص، ولا يصعب التفاهم عليها مع التثبت والأناة». اهـ كلام العقاد.

وهذا دفاع جيد، ونداء إلى العقل له خطره عند من يفكرون بعقولهم.

أما إذا كان الهجوم على اللغة العربية يستهدف مآرب خاصة، ويخدم أهواء كامنة، ويراد منه الإتيان على قواعد الإسلام، فإن الإقناع لا مكان له مع هؤلاء.

إن إماتة اللغة العربية تستتبع حتماً موتَ الإسلام.

إذْ إن القرآن العربي سيتحول إلى أثر يوضع في المتاحف، والرسول العربي سيدفن تراثه مِن سُنَّة وسيرة دفناً لا نشور منه إلا أن يكون هوايةً لبعض الدارسين.

والاستعمار دائب على بلوغ ذلك الهدف.

وقد أفلح في خلق جيل يتقن قواعد اللغات كلها إلا اللغة العربية وحدها، فهو يجهلها، ولا يستحي أبداً من إعلان هذا الجهل.

---

(١) يقترح الدكتور طه حسين أن توافق لغة الكتابة النطق ــ طبعاً ــ في العربية وحدها!!!

فإذا ذهبتْ قواعد البلاغة، ثم قواعد النحو والصرف، ثم قواعد الكتابة آخِرَ الأمر، فإنَّ هذا التدرج مُنتهٍ إلى مستقره، وهو ذهاب اللغة نفسِها، وذهاب الإسلام معها.

إنَّ المسلمين من شتى الأجناس يقدسون اللغة العربية.

الهندي والصيني والتركي يرون بقاء هذه اللغة فريضة دينية، ويقدمونها على لغاتهم الأولى.

لأن هذه اللغة العربية لسان الوحي ورباط الروح، وآصرة العقيدة المشتركة.

وأي تهوين فيها فهو تفريط مخوف العقبى.

بل إن الاستعمار يحارب «القومية العربية» مدفوعاً بضغينته على الإسلام.

فإن هذه القومية سواء كانت تجديداً لنعرة جاهلية، أم تمشياً مع أساليب الحياة المستحدثة فإنها ــ في نظر الاستعمار ــ قد تضمن الخلود لِلُّغة التي يحارِبها مِن قَرْن.

وإذا خلدت هذه اللغة، فإن التراث الأدبي للإسلام سيتاح له حياة جديدة، وذلك ما يكرهه أشد الكراهية ويريد إسدال آلاف من الحُجُب عليه، حتى لا تقع عليه عين ولا يستنير به قلب.

وهاك جملةً من التعريفات للقومية العربية أو الوحدة العربية تدرك منها قيمة اللغة في حفظ الأمة، وصيانة ثروتها وتاريخها.

ومنها يستبين لك أن اللغات عموماً ليست فقط أداةَ تعبيرٍ أو وسيلةَ تفاهم بين أصحابها ولكنها أساس تجمُّع عقلي وعاطفي بعيد الآماد.

وأن اللغةَ العربيةَ خاصةً بناءُ أمةٍ، وقوامُ دِينٍ، وضمانُ حياةٍ، وأن تقويم الألسنة بها ذريعة إلى حفظ الوحي الأعلى، وتنقيل عقائده بين شتى الأجيال وعلى كَرِّ الدهور.

ونحن نستعرض هذه التعريفات(١)، مرجئين إبداء الرأي في النزعة

---

(١) عن مجلة العلوم السياسية ــ عبدالحي نصار.

الموحية بها إلى موضع آخر من كتابنا.

وإنما نثبت هذه التعريفات لإبراز قيمة اللغة في حياة الأمة، وبيان ما ينشأ عن اضمحلال اللغة من هبوط الجماعة، وذهاب ريحها.

مقومات الوحدة العربية :

مقومات الوحدة العربية كثيرة ومتشعبة ويختلف الكُتَّاب في تحديدها.

فهي عند «ساطع الحصري» تنحصر في :

١ ــ الاشتراك في اللغة.

٢ ــ الاشتراك في التاريخ.

٣ ــ الاعتقاد بوحدة الأصل أو النشأة.

٤ ــ التشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي، ونزعات الحال، وآمال الاستقبال.

٥ ــ ويضاف إليها الدين في بعض الأحيان[1].

وهي عند بيير كيلر: الاشتراك في التقاليد، والجنس، والدين، والثقافة، واللغة.

وهي عند الدكتورة «نجلاء عزالدين»: الوحدة الجغرافية، واللغة، والتراث العربي.

وهي عند «حازم زكي نسيبه»: اللغة، والجنس، والتقاليد، والتاريخ، والآمال المشتركة، والدين.

وهي عند الدكتور «أحمد موسى»: اللغة، والثقافة، والدين، والحذر من الاستعمار.

وهي عند الأستاذ «جب»: الدين، والتاريخ، واللغة، والثقافة.

هذا ويمكن حصر هذه العوامل بصفة عامة في اللغة والدين، والتاريخ المشترك، والجوار الجغرافي المشترك، ووحدة الأصل (الجنس) والثقافة

---

(١) آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (ساطع الحصري) وقد أورد الأستاذ الكاتب أربعة عشر مرجعاً عربياً وفرنجياً استقى منها بقية التعريفات لم نر ضرورة لذكرها هنا.

المشتركة، والتكامل الاقتصادي، والخطر المشترك، ووحدة العادات والتقاليد والنظرة إلى الحياة.

ويكاد يُجمع الكُتَّاب على أن أول هذه العوامل أو أكثرها أهمية هو اللغة. ولكن ما هي اللغة؟

اللغة كما يعرفها «أوتوجسبرسن» عبارة عن «وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد».

وهي أيضاً «وسيلة للتفاهم وأداة تساعد على الوعي وتسجيل الأفكار».

وليست لغة شعب من الشعوب مجرد وسيلة يتخاطب بها ذلك الشعب، بل إنها تصبح بعد زمن الوسيلة التي يعبر بها من يتكلمونها عن روحهم.

اللغة كعامل للوحدة:

اللغة عامل من عوامل ربط الفرد بجماعته (جسبرسن).

واللغة عنصر أساسي من عناصر تكوين المجتمع تمتزج بروحه ــ منذ طفولته ــ وتلازم تطوره العقلي في كل مظهر من مظاهر هذا التطور.

ومع ذلك فإنه من الصعب ــ كما قال «جسبرسن» ــ تَعرُّف مدى مكانة الدور الذي تلعبه اللغة في سلوكنا الاجتماعي.

وتعتبر اللغة جزءاً لا يتجزأ من المجتمع، وبالتالي عاملاً من عوامل وحدته.

واللغة جزء كبير من كيان الشعب الروحي، وهي رمز لوحدته الروحية بل هي ركنها الأعظم.

ويشترك «منتشيني» و «أيوانوف» في اعتبار اللغة عنصراً أساسياً في تكوين الأمة.

وفي هذا يقول العلامة «بلنتشلي»: (متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته).

وفي المنقول عن العلامة «بلنتشلي»: يقول «ساطع الحصري»: (إن وحدة اللغة هي أهم وأمتن الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وهي أفضل العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيات الأمم).

وهناك من يخالف هذا الرأي القائل بأن اللغة من عوامل الوحدة في الأمة.

ومن هؤلاء «أنطون سعادة» مؤسس الحزب القومي السوري.

ثم قال الأستاذ «عبدالحي نصار»:

«كانت اللغة العربية ولا تزال أعظم العوامل الفعالة في توحيد العرب.

ويقول المعارضون: إن لغة الشعوب العربية غير واحدة ــ يعنون تباين اللهجات ــ ولكن هناك فرق واضح بين اللغة واللهجة.

فاللغة الفصحى واحدة في الدول العربية كافة.

أما اللهجة العربية فتختلف من دولة إلى أخرى كما تختلف داخل الدولة الواحدة.

وهذا الاختلاف في اللهجة موجود في لغات الأمم جميعاً بدرجة لا تزيد عنها الأمة العربية.

وفوق ذلك نجد أن اللغة الفصحى هي الرابطة يالحية للعرب ــ وهي اللغة المستخدمة في المدارس والصحافة والإذاعة ودور الحكومة.. الخ.

واللغة العربية هي لسان الإسلام، وقد ظهرت كاملة في القرآن الكريم الذي حفظها وأحياها.

وهي ــ كما قال «رينان» في «تاريخ اللغات السامية» ــ: لغة على غاية رفيعة من الكمال، سلسة، غنية.

ويقال: إن العرب قبل الإسلام كانوا يتكلمون لغة مشتركة في الجزيرة العربية وفي أرض الهلال الخصيب.

بل إن إبراهيم عليه السلام كان يتكلم العربية.

وليس معنى هذا أنه كان يتكلم العربية السائدة اليوم، وإنما اللغة العربية المقصودة هي لغة الأقوام التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها في تلك الحقبة.

وقد كانت لغة واحدة من اليمن إلى مشارف العراق والشام وتُخوم فلسطين وسيناء».

لقد أفضنا في الاستشهاد لما نريد، بغية إفهام القاصرين أن إضعاف العربية تهديد للإسلام، تهديد باجتثاث أصوله، ومحاولة متعمدة للخلاص منه.

ولأمر مًّا قام «الجامع الأزهر»، وقامت جميع المدارس الإسلامية بتدريس اللغة إلى جانب الشريعة، وإحياء قواعدها إلى جوار قواعده.

فَلْنَحْذَر الخبثاءَ مِن أعداء الإسلام، ولنحذر معهم المغفلين الذين ينجرفون في تيارهم، ويخدمون ــ عن غباء ــ أغراضَهم.

ونعود إلى موضوعنا:

إن أمتنا لم تكن ذنباً لإحدى «الامبراطوريات» التي ظهرت في التاريخ.

ولن تكون ذنباً لإحدى الجبهات القائمة الآن في العالم.

إن أمتنا أمة ذات رسالة لا يجوز أن تتخلى عنها، ولا أن تجهل قيمتها، ولا أن تتقهقر عن حملها.

وهذه الرسالة تثمر الخير لأصحابها، وللناس طُرّاً. إنها رسالة الحق والسلم والعدالة.

إن الإسلام يُوَطِّدُ مكان الإنسان في الأرض، إذ يُحْسِنُ صِلَتَهُ بالسماء.

وهو إذ يعد بالآجلة؛ فلكي يُصلح هذه الدارَ العاجلة، ويضمن ما بعدها.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

وإذا كانت حاجة العالم إلى إرشادات ربه لا تنقضي، فإن بقاء أمتنا وبقاء رسالتها معها ضرورة إنسانية ملحة.

ومن ثَمَّ، وجب أن تدور جميع أجهزتنا العاملة لتُحقق هذه الغاية.

وَلْنَمْضِ قُدُماً في تلك السبيل، سبيل الإسلام الحنيف، ودعوته الجليلة.

---

(١) سورة القصص: آية ٨٣.

مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعْوَة

ما حكم أولئك الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام؟

إنه لخليق بنا قبل التعرض للجواب على هذا السؤال أن نسأل نحن أنفسنا: ما حكم الذين لم يبلِّغوا دعوة الإسلام؟

إن الدعاء إلى الإسلام ليس نداء إلى حلقة مزاد، أوحفل ترفيه، أو مباراة رياضية.

ليس نداء إلى نافلة يأتيها من شاء ويدعها من شاء، وهومن قبلُ ومن بعدُ مطمئن إلى ما عنده، مستكمل العدة لمواجهة مستقبله، شاعر بأن شيئاً مُهمَّاً لا ينقصه.

كلا. كلا. إن الدعوة إلى الإسلام إرشاد إلى أنْفَسِ حَقٍّ في الوجود، وتوجيه إلى خير الدنيا والآخرة معاً، وإنقاذ من أسباب الهلاك التي تتهدد المرء في عاجلته وترتقبه في آجلته، إن الدعوة إلى الإسلام تمكينٌ للأمم من معرفة سبيل تكتنفها الهدايات والرحمات، وتمتلىء بآثار النبيين السابقين، ويتحصَّنُ الناس فيها من إغواء الشياطين:

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ومن ثَمَّ فإن الذين يَقْدِرُونَ على إسداءِ هذا الصنيع للعالم ثم يَضِنُّون به، والذين يستطيعون رفع هذا المنار ثم يحجُبُونَ أشعته عن الحائـرين والمستبصرين، هم عند الله أشد الناس جُرماً، وأحقهم بالبوار.

(١) سورة الروم: آية ٣٠.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢).

والآية الأخيرة شرحت بعض أسباب الكتمان، وحجب الحق عن الأنظار، وهو حب الدنيا، وتَشَهِّي لذاذاتها، وإيثار الراحة في ظل الصمت على الجهد في ظل المصارحة وإظهار حكم اللّٰه.

والواقع أن كل مسلم مطالب بالإيمان، وبحراسته ضد العدوان، وبترغيب الناس فيه بالعمل وباللسان.

ومطالب كذلك بِكُرْه الباطل وعداوة ما يستوي العامة والخاصة في إدراك قُبْحه، كالزنا والربا والكذب والبَذَاء.

وهذا هو محور الركن الركين في الإسلام، ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمَّا ما دَقَّ عن أنظار الجمهور من أمور الخلاف وضروب الجدل فهو متروك لأهل الذكر، يتناولونه بما لديهم من سَعَةٍ في العلم، وإحاطةٍ بفروعه.

غير أن أمر الدعوة هان لدى المسلمين ـ خصوصاً في فترات الانكسار من تاريخهم ـ فاضطرب ميزان الخير والشر، ثم استفحل الخطر فأمسى الضلال يركض في كل ناحية لا يجد عائقاً ولا ساخطاً.

وبذلك ركدت ريح الدعوة إلى اللّٰه، وكادت معالمها تضمحل في سطوة

(١) سورة البقرة: آيتي ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) سورة البقرة: آية ١٧٤.

الفساد. الحقيقة الْمُرَّة أن أمَّةَ الدعوة إلى اللَّه فرَّطت في جَنْبِ اللَّه، ولم تَخْلُفْ رسولَها العظيمَ في طبيعة الإشعاع والإسعاد التي اقترنت ببعثته، والتي جعلت منه صلى اللَّه عليه وسلم صبحاً يجتاحُ الظلمات بجيش من السنا لا آخر له.

ونتساءل بعد ذلك: ما حكم الذين شردوا عن ذلك الصراط المستقيم، وضلوا عن هذا الدين الكريم؟

وما حكم أولئك الذين لم تبلغهم دعوة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، أو بلغتهم في صورة مستكرهة لا تغري بإيمان، ولا تفسح صدراً لإسلام؟

إن هؤلاء كثير، ففي العالم اليوم ما يزيد على ألفي مليون إنسان.

كم تظن عدد المنتسبين إلى الإسلام بينهم؟ قرابة خمسمائة مليون.

أما البقية الضخمة ففيها ألف مليون «وثني» و«شيوعي» لا صلة لهم بالسماء، ولا يتبعون أحداً من الأنبياء.

وهناك نحو خمسمائة مليون «نصراني» يخلطون في عقائدهم بين التوحيد والشرك.

وتَصرِفُهُم في أنحاء الأرض فلسفات خُلُقية ومذاهب تشريعية لا يضبطها إيمان سليم، بل لا يمكن حساب أصحابها بين المتدينين إلا على تجوُّز بالغ.

والمسلمون المنضوون تحت علم النبوة الأخيرة، فيهم جماهير ترث الإسلام اسماً فحسب، وتتبع في حياتها ما بثه الأوروبيون من أنظمة وقوانين موضوعة، أغلبها من إملاء الهوى، واتباع الشيطان.

ونحن عندما نبحث أحوال الأمم الكثيفة التي لم تدخل الإسلام، ونفكر في مصيرها عند اللَّه، لا بد أن نضع نصب أعيننا الحقائق التالية:

١ ــ إن هناك ألوفاً مؤلفة تعتبر في حكم من لم تبلغه الدعوة أصلاً، وإن مرت على بعثة الرسول صاحب الدعوة أربعة عشر قرناً.

فهي إما أن تجهل كل شيء عن محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وقرآنه وسائر تعاليمه.

وإما أن تعلم من ذلك مفتريات روجها أعداء الإسلام وحشوها بما في أدمغتهم من أكاذيب.

ولعلها معذورة في صدودها عن ذلك الدين لأنها لم تتلق الحق من أصحابه، ولم تسمع لهم قيلاً.

وهؤلاء يشبهون أهل الفترة من العرب الذين سبقوا البعثة، وقد يقال فيهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(1).

غير أنه ينضاف إلى ما سبق شيء آخر، وهو أن اللَّه زَوّد الإنسان بعقل يحسن به التفكير والحكم والنقد والرد.

وجعل في طاقة هذا العقل أن يتعرف على الخالق، وأن يطمئن إلى وحدانيته.

كما زَوَّد الإنسان بقلب يعرف به الخير والشر، ويرضى به العدل، ويسخط به الظلم.

وبهذه الخصائص الإنسانية يُكَلَّف الإنسان ـ ولو لم يأته نبي ـ أن يبتعد عن الإلحاد والشرك، وأن ينفر من الظلم، والفساد.

وربما لم يطالب بجملة العبادات التي يبينها المرسلون.

لكنه مكلف بأركان الحقيقة العظمى في حياة البشر، وهي اليقين في إلـه واحد وفعل الخير جهد الاستطاعة. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(2).

وهذا الميثاق لا يعني إلا الفطرة التي ركزها اللَّه في الأنفس، ورد أعذار الغافلين عن ندائها، المقلدين لآبائهم في الضلال برغم إقامتها، وإمكان استجابتها.

ولما كان الناس متفاوتين في يقظتهم النفسية والفكرية، ومدى

---

(1) سورة الإسراء: آية ١٥.

(2) سورة الأعراف: آيتي ١٧٢ ـ ١٧٣.

استعدادهم الذي جبلوا عليه، فإن حسابهم على ما قدموا موكول إلى بارئهم وحده. وهو ــ جل شأنه ــ الذي يقدر تفريطهم بحسب ما آتاهم.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾(١).

وهناك أقوام على مواريث من ديانتي «موسى» و«عيسى» كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلهم يعتقدون أنهم محقون، وأنهم يؤدون ما يرضي رب العالمين.

وقامت كذلك على بصائرهم حُجُب جَهَّلَتْهُمْ بالقرآن، وحرمتهم من نوره.

وحكمهم، إذا آمنوا بالله على نحو صحيح وعملوا الصالحات، في حدود ما يعرفون أنهم لا يعذبون، ما لم يَشُبْ إيمانَهم تثليثٌ أو تجسيم، أو حلول، أو اتحاد.

وذلك كنفر من مفكري الشرق والغرب، يؤمنون بإله واحد منزه، ويتقربون إليه بسلامة الضمير وإحسان العمل.

بَيْدَ أنهم لا يعرفون «محمداً» صلى الله عليه وسلم، لأن أحداً لم يعرفهم به، ولم يشرح لهم أصول دينه، وهم يرون المرسلين جميعاً ــ وبينهم «عيسى ابن مريم» ــ رجالاً طيبين يستحقون الإجلال والشكر لما قدموا من خير للناس.

وما تقول في فيلسوف أوروبي، يُشرح له طرف من الإسلام، فيقول: إذا كان هذا هو الإسلام فنحن جميعاً مسلمون.

إن الكفر الحقيقي أن يعرض الحق على رجل، فيستبينه ويتمكن من اعتناقه ومع ذلك يُعرض عنه لمآرب أخرى.

ومع أن تيقننا من أن الإيمان الصحيح، ليس له باب إلا هذا الرسول الكريم، محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم؛ فنحن ننظر إلى المحرومين من اتّباعه في نطاق الإنصاف، الذي تعلمناه من رسالته صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة الطلاق: آية ٧.

ومن الخير أن نذكر هنا شرحاً وافياً للموضوع كله للإمامين: الشيخ «محمد عبده» والشيخ «محمد رشيد رضا» في أثناء تفسير الآية «٦٢» من سورة البقرة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

قال صاحب المنار: أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود، فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً، فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم وبوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه.

فذلك اللّه الذي يقول:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾(٢).

سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفرٍ بآيات اللّه، وانصراف عن العبرة، واستعصاء على الموعظة، وخروج عن حدود الشريعة، واعتداء على أحكامها.

اقترف ذلك سلفهم، وتبعهم عليه خلفهم، فحقت عليهم كلمة ربك.

فلو قرَّ الخطاب عندها، ولم يتلها من رحمته ما بعدها، لحقَّ على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو اللّه متنفس.

بل لكان ذلك القنوط لازماً لكل عاصٍ، قابضاً على نفس كل معتدٍ، لا فرق بين اليهود وغيرهم.

فإن سبب ما نزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع اللّه لهم. وسنن اللّه في خلقه لا تتغير، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل.

لهذا جاء قوله تعالى: ﴿إنَّ الذِينَ آمنُوا﴾ إلخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة.

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمناً لجميع من تمسك بهدي نبيٍّ سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية، ليدل على أن الجَزاء السابق وإن حكي على أنه من خطأ اليهود خاصة، لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة وهي الفسوق عن أوامر اللّٰه وانتهاك حرماته.

فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب اللّٰه ما سقط عليهم.

وعلى أن اللّٰه جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من مِلةِ يهود، بل:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(1).

وأما أنساب الشعوب، وما تدين به من دين، وما تتخذه من ملة، فكل ذلك لا أثر له في رضاء اللّٰه ولا غضبه، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم.

بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان باللّٰه تعالى بأن يكون التصديق به سطوعاً على النفس من مشرق البرهان، أو جَيشاناً في القلب من عين الوجدان؛ فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خالياً من شوب التشبيه والتمثيل، ويكون اليقين في نسبة الأفعال إليه خالصاً من وساوس الوهم والتخييل، ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهي.

فإذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع أغضىٰ هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعاً.

وإذا أطلق نظره فيما بين يديه، مما سلطه اللّٰه عليه، شعر في نفسه عزَّةً باللّٰه، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه.

لا يعدو حَدًّاً ضُرب له، ولا يقف دون غاية قدِّر له أن يصل إليها.

---

(1) سورة البقرة: آية ٦١.

فيكون عبداً للّه وحده، سيِّداً لكل شيء بعده.

كتب ما تقدم الأستاذ الإمام بقلمه إذ اقترحت أن يكتب تفسير الآية كما قرره في درسه وإنني أتمه على المنهج الذي جريت عليه فأقول:

هذا هو الإيمان المرضي عند اللّه تعالى الذي يكون أصلاً لتهذيب أخلاق صاحبه، ومصدر الأعمال الحسنة في مسلكه.

وللإيمان إطلاق آخر، وهو التصديق بالدين في الجملة (أي الإيمان باللّه: وبأن ما جاء به فلان النبـي مثلاً هو صحيح غير مكذوب على اللّه تعالى).

ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الأديان السماوية، فهو إطلاق صحيح لغة وعرفاً كما تقدم في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

أي: إنهم يصدقون بأن للعالم إلهاً، وبأن بعد الموت بعثاً، ولكنَّ هذا الإيمان ليس مطابقاً في تفصيله للحق المقبول، ولا للإذعان الذي له السلطان الأعلى على النفوس في تزكيتها وتهذيبها وحملها على الأعمال الصالحة.

وهذا الإطلاق هو الذي عناه الأستاذ الإمام بقوله: لا أثر له في رضا اللّه ولا غضبه» الخ.

وهو كون الدين جنسيةً لمن ينتسب إليه.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾(٢).

مراد به المسلمون الذين اتَّبَعُوا محمداً صلى اللّه عليه وسلم والذين سيتَّبِعُونَه إلى يوم القيامة، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾(٢).

يراد به هذه الفرق من الناس التي عُرفت بهذه الأسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين، وأُطلِق على بعضهم لفظ «يهود»، والذين هادوا، وعلى بعضهم لفظ النصارى، وعلى بعضهم لفظ الصابئين.

---

(١) سورة البقرة: آية ٨. (٢) سورة البقرة: آية ٦٢.

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1].

وهذا بدل مما قبله، أي من آمن منهم باللّه إيماناً صحيحاً ــ وتقدم شرحه ووصفه آنفاً ــ وآمن باليوم الآخر كذلك، وقد تقدم تفسيرهما في أوائل السورة[2].

وَعمِلَ عَملاً صَالحاً تصلح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه.

وما العمل الصالح بمجهول في عرف هؤلاء الأقوام، وقد بينته كتبهم أتم بيان.

﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

أي إن حكم اللّه العادل فيهم سواء، وهو يعاملهم بسُنّةٍ واحدة لا يحابي فيها فريقاً ولا يظلم فريقاً.

وحكم هذه السُنَّة أن لهم أجرهم المعلوم بوعد اللّه لهم على لسان رسولهم، ولا خوف عليهم من عذاب اللّه يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم.

وتقدم هذا التعبير في الآية (٣٨) مع تفسيره[4].

فالآية بيان لِسُنّةِ اللّه تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت، فهو على حد قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٢.
(٢) انظر تفسير المنار.
(٣) سورة البقرة: الآية ٦٢.
(٤) انظر تفسير المنار.
(٥) سورة النساء: آيتي ١٢٣ ــ ١٢٤.

فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل ﴿مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الخ على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ.

ولا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي صلى اللّه عليه وسلم، لأن الكلام في معاملة اللّه تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها؛ الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلاً.

فاللّه يقول: إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية، وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس.

ولذلك نفى كون الأمر عند اللّه بحسب أَمَانِيِّ المسلمين أو أَمَانِيِّ أهل الكتاب، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين:

نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً.

وقالت النصارى مثل ذلك.

فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم، ونبينا ــ صلى اللّه عليه وسلم ــ بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أُمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الآية.

وروى نحوه عن مسروق وقتادة.

وأخرج البخاري في التاريخ من حديث أنس مرفوعاً:

«لَيْسَ الإيمانُ بالتَّمَنِّي، وَلٰكِنْ مَا وَقَرَ في الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ. إنَّ قَوْماً أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَة حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلاَ حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَبُوا، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لأَحْسَنُوا الْعَمَلَ».

والحكمة في عناية اللّٰه تعالى بالنعي على المغترين بالانتساب إلى الدين أيًّا كان ظاهرة. فإن هذا الغرور هو الذي صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب إليه وجعله جنسية فقط.

وترك العمل لازم أو ملزوم، لعدم الفقه في الدين، أي عدم فهم حِكَمِه وأسراره، وتبع هذا في الأمم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبي صلى اللّٰه عليه وسلم. لأن المغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظراً صحيحاً لا سيما إذا كان مخالفاً له.

وذكر الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة.

والخلاف المشهور فيها: وهو أن جمهور أهل السنة يقول: إنهم ناجون، لأنه لا تكليف إلا بشرع، وهؤلاء لم تبلغهم دعوة.

ومن قال: إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل، عَدَّهم غير ناجين. وهذا رأي المعتزلة وجماعة من الحنفية.

وجمهور الأشاعرة على أنه لا يمكن إدراك ذلك إلا بالشرع.

ثم إن محل النظر في أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين ما كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئاً من أحكام دينهم خالصاً من الشوائب سالماً من النزعات الفاسدة.

وأما مثل اليهود فلا يصح أن يُسَمَّوا أهل فترة، فإنهم على نسيانهم حظًّا مما ذُكِّروا به وتحريفِهم بعضَ ما حفظوا قد بقي جوهر دينهم معروفاً لم يُغَشِّ أحكامه ما يمنع الاهتداء بها.

واللّٰه تعالى يقول: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾(1).

وكذلك المسيحيون لا يُسَمَّون أهل فترة، لأن عندهم في التوراة ووصايا الأنبياء ما عند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح، وروح الدعوة موجودة عندهم.

---

(1) سورة المائدة: آية ٤٣.

ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا، ولا يأخذون بتلك الأحكام، ولا عذر لهم يحول دون العقوبة.

وأما الصابئون فإن كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما، في كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد، فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم وإن كان الخلط عندهم أكثر، والبعد عن الأصل أشد.

حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب، وأحاطت بهم البدع من كل جانب. على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارىٰ.

فإن عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة تؤثر عن المسيح عليه السلام.

والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتوًّا وطمعاً وإسرافاً في حظوظ الدنيا.

ويقال: إن الصابئة ملّة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين.

ولكن قد اختلط عليهم الأمر، كما اختلط على الحنفاء من العرب، إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب.

فإن كانوا أقرب إليهم، فلهم حكمهم، وإلا فهم كاليهود والنصارى يُسألون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب، حتى يأتيهم هدىً آخر؛ كأنْ تَبلُغَهم دعوةُ الإسلام فإن لم يفعلوا فهم مؤاخذون.

ذلك، وقد علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر، أوبلغهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل إليهم شيء صحيح من شرائعهم، فهم يؤمنون بهم إيماناً إجمالياً كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بإبراهيم وإسماعيل، ولا يعرفون من دينهما شيئاً خالصاً كما تقدم آنفاً.

وحجة الأشاعرة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: آية ١٥.

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١).

وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أي نبي في رُكْني الدين الركينين، وهما الإيمان بالله وباليوم الآخر.

فمن بلغته وجب عليه الإيمان بهذين الأصلين، وإن لم يكن النبي مرسلاً إليهم.

وذهب جمهور الحنفية، وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل، فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول، وإنما يجيء الرسل مؤكدين لما يفهم العقل، موضحين له ومبينين أموراً لا يستقل بإدراكها، كأحوال الآخرة، وكيفيات العبادة التي تُرضي الله تعالى.

وأوَّلوا آية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢).

قالوا: إن المراد بالتعذيب هو الاستئصال في الدنيا بإفناء الأمة واستذلالها، والذهاب باستقلالها، وينافيه ما يدل عليه استعمال «وَمَا كنَّا» من إرادة نفي الشأن الدال على عموم السلب، ولهم في كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها.

وعن الإمام الغزالي: أن الناس في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة من لم يعلم بها بالمرة ـ أي كأهل أمريكا لذلك العهد ـ وهؤلاء ناجون حتماً. (أي إن لم تكن بَلَغتْهم دعوة أُخرىٰ صحيحة).

ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالاً أو عناداً أو استكْباراً، وهؤلاء مؤاخذون حتماً.

ومن بلغته على غير وجهها أو مع فقد شرطها، وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر؛ وهؤلاء في معنى الصنف الأول.

هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام.

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء: آية ١٥.

(وأقول) عبارته في كتاب «فيصل التفرقة» في هذا الصنف هي:

وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى اللّه عليه وسلم، ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد، ادَّعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع (لعنه اللّه) تحدّى بالنبوة كاذباً.

فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول.

فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه، لم يسمعوا ضد أوصافه.

وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب.

وأقول في حل معنى الآية على هذا: إن أهل الأديان الإلهية ـ وهم الذين بلغتهم دعوة نبي على وجهها وبشرطها ـ إذا آمنوا باللّه واليوم الآخر على الوجه الذي بَيَّنه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند اللّه تعالى.

وإذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبّهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شيء، بل يتناولهم الوعيد المذكور في الآيات الأخرى.

وكذلك حال الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم.

فإن الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والإرادة التي تحرك الأعضاء في الأعمال.

فإن نازعه في سلطانه طائف من الشهوة فإنه لا يلبث أن يقهره:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١).

ثم أزيد الآن على ما تقدم أن كل هذه الأقوال والتفصيلات إنما هي في المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها.

ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها، أو مطلقاً ناجين على

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠١.

سواء، وأن يكونوا كلهم في الجنة كأتباع الرسل في الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

إذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شرّاً من عدمه، بالنسبة إلى أكثر الناس.

والمعقول الموافق للنصوص أن اللّه تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة مًّا بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما».

* * *

ويظهر أن بعض القارئين فهم من كلام الإمامين، الشيخ «محمد عبده»، والشيخ «رشيد رضا» أنهما يصححان إيمان أهل الكتاب ويحكمان لهما بالنجاة على الإطلاق.

وهذا غلط بعيد، ما كان ينبغي أن يسبق إلى ذهن رشيد.

فالكلام الذي نقلناه يعطي بعض اعتبار لأناس لم تبلغهم الدعوة على وجه صحيح، أما الذين وصلتهم رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم، وتمكنوا من إدراكها على نحو مستقيم ثم انصرفوا عنها دون تصديق لها وإذعان؛ فهيهات أن يسلكوا في عداد المهتدين الناجين.

ولكي يُحكَمَ على اليهوديّ أو النصرانيّ بأنه مؤمن حقاً يجب أن ينضم إلى إيمانه بكتابه إيمان بالذي أُنزل على محمد صلى اللّه عليه وسلم، وذلك كما قال اللّه:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(1).

فإذا اختلفت بين هذه الكتب عقائد ومبادىء، كان حكم القرآن أرجح، وهداه أَولى بالاتباع.

ولا يصح ــ مع تكذيب محمد صلى اللّه عليه وسلم ــ إيمان باللّه ولا عمل صالح.

---

(1) سورة آل عمران: آية ١٩٩.

فإن معرفة اللّه كما صَوَّرها موسى وعيسى عليهما السلام، وكما يليق بجلال اللّه، وكما تتنزه عن الأوهام والأخطاء، لا طريق لها إلا القرآن الكريم.

أي إن التجسيم والشرك والاتحاد وغير ذلك تتنافى مع صحة اليقين، ولا يصح مع وجودها إيمان.

ثم إن المؤمن الخالص، العارف بربه معرفة صحيحة لا يُتصور فيه أن يكفر بمحمد صلى اللّه عليه وسلم.

إذ كيف يكفر به، وإيمانه مساوٍ لما عند هذا الرسول الكريم؟ ومصدق لما جاء به؟

ثم هل يُعَدُّ تكذيب المصلحين عملاً صالحاً؟

إن من المستحيل الحكم بالخير لرجل من أهل الكتاب يكذب محمداً صلى اللّه عليه وسلم بعد ما علم أن الرسول حق وجاءته البينات.

وإنما نحن نلتمس العذر ــ كما أوضحنا ــ لمن حُرموا نعمة التبليغ.

ذلك.. والقرآن إذ أثنى على أهل الكتاب فهو لا يسوق هذا الثناء عامّاً، بل يخص منهم أولئك الذين صدقوا رسوله الخاتم، وقبلوا ما جاء به.

واسمع مديحه للنصارى، وتنويهه بما في أفئدتهم من رحمة:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ... ﴾[1].

فمن هؤلاء النصارى؟ وما موقفهم من الرسول وقرآنه؟:

﴿ ... وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: آية ٨٢.

(٢) سورة المائدة: آيتي ٨٣ ــ ٨٤.

هؤلاء هم الذين يُسلكون في عداد المؤمنين.

أما المكذبون لمحمد، المناوئون لرسالته، المخاصمون لأمته، فهيهات هيهات.

والقارىء يستبين مما تمهَّد أن الناس ثلاثة نفر:

مؤمن، وكافر، وجاهل.

فالمؤمن هو الذي آمن باللَّه وحده، وصدق بجميع أنبيائه، وأسلم وجهه للَّه وهو محسن، مستهدياً في طريقه إلى ربه بأنوار الوحي الذي تَنَزَّلَ من عند اللَّه على رسول العالمين، الجامع لما تفرق من حكمة بين الأنبياء السابقين، وهو «محمد» بن عبداللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم.

ونحن نجزم بأن هذا المؤمن ناجٍ لأن اللَّه أخبرنا بذلك فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُۚ ﴾(1).

والكافر هو الذي عرضت عليه هذه الحقيقة عرضاً لا يشوبه لَبْس، ولا يخالطه تحريف ولا تشويه، فعقلها كما جاءت من عند اللَّه، ومع ذلك آثر جحدها، واختار إنكارها، ورفض الإذعان لها، مع استطاعته أن يهدي قلبه، ويُرضي ربه.

فذلك كافر نجزم بأنه هالك بائر.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ﴾(2)

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾(3).

---

(1) سورة الحج: آية ١٤ (2) سورة محمد: آية ٢٨. (3) سورة الزمر: آيتي ٧١ ــ ٧٢.

﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾(١).

وتاريخ الأمم التي دمر اللَّه عليها ـ كما يحكيه لنا القرآن الكريم ـ هو تاريخ أقوام بَلَغتهم الدعوة جليّةً نقية، فكذبوا المرسلين، على طول ما وعظتهم وكثرة ما نصحتهم.

فلما لم يبق لهم عذر، ولم تتصل لهم حجة نزل بهم العقاب.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(٢).

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾(٣).

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾(٥).

أما الجاهل، فهو رجل لم تبلغ دعوة الحق مسامعه ليستجيب لها أو يرتد عنها، فهو يعيش حسب ما قُيِّض له من أفكار، أو ما ارتبط به من وراثات.

ونحن إذا تأملنا في هذا الصنف من الناس نجدهم أقساماً شتّى، بين رَعَاعٍ وخاصة وبين أذكياء وهَمَل، وبين كتابيين، ووثنيين.. إلخ.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٤.
(٢) سورة طه: آية ٤٨.
(٣) سورة الأعراف: آيتي ١٠١ ـ ١٠٢.
(٤) سورة البقرة: آية ١٧٥.
(٥) سورة العنكبوت: آية ٦٨.

وإصدار حكم جامع، أو إيضاح مصير مشترك، يضم أولئك جميعاً أمر عسير.

ففيهم من يُسِّرت له بقايا وحي صالح، فهو يعمل بها مخلصاً، ولو عرف غيرها لسارع إليه.

وفيهم من نضج فيه كمال الفطرة فهو يحترم العقل، ويرعى الحقوق، ويتجنب الدنايا.

وفيهم الْغُفْلُ الذي يعطي قياده من امتلكه ويسير خلف غيره لأنه لا يحسن إلا التقليد.

وفيهم الذي يسخر بجزء من الدين ويستعد للسخرية من سائر أجزائه إذا عُرضت عليه.

وفيهم من ينكر عالم الغيب جملةً وتفصيلاً، ويقر بعالم الشهادة وحده.

وفيهم من يملك قدرة البحث والتنقيب ولكنه يعطلها تكاسلاً.. إلخ.

ومن ثَمَّ قلنا: إن هؤلاء الذين لم توقظهم من غفواتهم النفسية والعقلية دعوة الإسلام لا يعدون كفاراً بها.

كيف وهم لم يُوَصَّلْ لهم القول، كي يدخلوا في نطاق الآية:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

وأغلب الظن أن وزر هؤلاء يقع على الأمة الإسلامية، الأمة التي فرطت في رسالتها وتنكرت لمواريثها، وحرمت العالم من النور الذي شرفها الله به.

انظر إلى قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

هذه الآية تبين حكم الله فيمن يجهل دينه.

فإنه لما احتدم النزاع بين الإسلام الواضح الوفيّ المسالم، وبين ناكثي

---

(١) سورة القصص: آية ٥١.

(٢) سورة التوبة: آية ٦.

العهود وبغاة السوء من خصومه المتربصين به، وشاء اللّٰه عز وجل أن ينزل هؤلاء على قواعد الأدب الصارم، وأن يلغي المعاهدات التي طالما عبثوا بها، لم يجعل العقاب يتناول الجميع:

ففيهم ناس خالو الذهن من العوام، أو من المخدوعين المغرَّرِ بهم، أو الجهال بحقيقة الدعوة وإن بلغهم شيء عنها.

الواحد من هؤلاء يحب أن يسمع كلام اللّٰه كما نزل من عنده، دون تحريف ولا تَزَيُّد ولا نقص.

فإذا وعاه، لم نكلفه فوراً بالإيمان.

بل يجب أن نوصله إلى المكان الذي يملك فيه جأشه، ويطمئن فيه على نفسه وحُرُماته، ويبني حكمه على ما يُعرض عليه وهو في حرية وعافية.

ذلك أن هذا وأمثاله معذورون في بعدهم عن الإسلام: ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون﴾.

فإن آمن بعد هذه الفرص المتاحة، فهو منا.

وإن كفر، واعتزل تركناه.

وإن كفر واعتدى قاتلناه.

إننا لا نشتري خصومة من يجهلنا.

ولا نعتبر علينا من ينأى بكفره عنا.

* * *

وقد يفيد في بيان ما قلناه عن الذين لم تبلغهم الدعوة أن نثبت هنا كلاماً(١) حسناً للدكتور «عبدالحليم محمود» من رسالته «أوروبا والإسلام» قال:

ما الذي يمنع الغربيين من الدخول في الإسلام زُرافاتٍ ووحداناً؟

إن الإسلام واضح جليّ، وإن تعاليمه سهلة ميسورة تنسجم مع العقل والمنطق.

---

(١) نقلناه بتصرف يسير.

فما السر في عدم أخذ الأوروبيين بهذا الدين وعدم اعتناقهم له في سرعة بالغة وفي كثرة هائلة؟

الواقع أن العوامل التي تمنع الأوروبيين من اعتناق الإسلام كثيرة قوية.

ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع إلى المسلمين أنفسهم.

ولنتحدث أولاً عن العوامل الخارجية:

١ ــ أول هذه العوامل «الكنيسة»:

لقد أتقنت الكنيسة فن التنظيم، فلا ارتجال فيها لخطة، ولا اضطراب لسياسة، كل شيء فيها مُعَدٌّ مرتب مدروس، بُحِثَ عن رَوِيَّة وأُعِدَّ إعداداً تاماً.

وكان مما أعدته مشروعان كبيران:

أحدهما: للتبشير بين أتباع الأديان الأخرى.

والثاني: لصد الهجوم عن الديانة المسيحية نفسها من مختلف النقاد؛ حتى يقنع بها أتباعها.

أما فيما يتعلق بالتبشير، فإن من الضرورات الأولى لديهم أن يعرف المبعوث لغة المرسل إليهم، وأن يدرس عاداتهم، وتقاليدهم، وديانتهم، ومواطن الضعف فيهم، والوسائل التي تجذبهم، وأن يعلم ــ فضلاً عن ذلك ــ بعض مبادىء الطب والخدمات العامة، ويعلم قبل ذلك وبعده طريقة الهجوم على الديانة المتوطنة؛ وأسلوب الدعوة للديانة المسيحية.

وأما صد الهجوم على المسيحية فيقوم على شيء خطير يعنينا ــ نحن المسلمين ــ أن نعرفه وهو الدراسة المستمرة المتجددة لأحدث الوسائل في تشويه الديانات الأخرى.

وقد برعوا في نشر الأضاليل عن كل دين حتى تتكون لدى الجمهور المسيحي فكرة أنه لا حقيقة لإيمانٍ مًّا وَرَاء ما تقدمه الكنيسة لروّادها.

وما نشر من أضاليلهم عن الإسلام لا يحصر ولا يعَدُّ.

إنها أضاليل تنشر متتابعة متكررة، وتتردد في صور مختلفة، وينتهي بها التكرار والترديد إلى ظنها حقيقة لا شك فيها.

وتبلغ بهم الصفاقة أن يعكسوا الحقائق عكساً تامًّا.

فالدين الإسلامي مثلاً ــ وهو دين التوحيد الخالص، ودين التنزيه التام ــ يشيعون عنه أنه دين عبادة الأوثان.

ويكررون ذلك في مختلف الأمكنة والأزمنة، وينتهي المسيحيون أنفسهم إلى الاعتقاد بأن هذا الدين إنما هو: عبادة الأوثان.

وهكذا تسير الدعاية تضليلاً، وتشويهاً، وعكساً للحقائق.

ومن أهم الوسائل أيضاً لتحصين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان. وهو: نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرِّم قراءة أي كتاب ترى فيه خطراً على المسيحية.

سواء كان هذا الكتاب هجوماً عنيفاً على المسيحية، أم دعاية بارعةً للإسلام، أم نمطاً ممتازاً من الإهابة بسعة الأفق وتحرير الفكر.

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق في شأن كثير من الكتب الجيدة.

واستعملت هذا الحق أيضاً ضد كثير من الكاتبين.

وكان موقفها من كل كاتب لا يمكنها أن تستولي عليه، بوسائل الرغبة والرهبة، أن تحرم قراءة كتبه، وأن تحرمه هو من رحمة السماء.

٢ ــ أما الأسباب التي ترجع إلى المسلمين فهي لا تقل خطراً عن الأولى:

إن أية دعوة مهما بلغت من السموِّ لا يمكن أن تجتذب إليها الأنظار ما لم يكن لها جهاز دعاية.

الأحزاب لا تقوم بغير الدعاية، بل البضائع لا تروج بغير دعاية.

وقد أخذت الدعاية في العصر الحديث، مكاناً يجعلها في الدرجة الأولى من الخطر حتى أصبحت علماً يُدرس، وهيئاتٍ تدعم.

يعرف ذلك المسلمون جيداً، يعرفه تجارهم، ورجال الأحزاب منهم، ويعرفه كل مثقف.

ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الإسلام.

أين دعاتنا في الشرق أو في الغرب؟ أين مبعوثونا؟

أين المبشرون منا؟ لا شيء من ذلك مطلقاً.

ومن المعروف أن مبعوثي الحكومة، ومبعوثي «الأزهر» إلى الأقطار الخارجية، إنما بُعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية في مدارس إسلامية ابتدائية، أو إعدادية أو ثانوية.

ليس لنا في الخارج قط مبعوثون لتعليم الإسلام.

وإذا كان الدين الإسلامي ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية، رغم الهجوم عليه، ورغم العقبات التي تعترض طريقه.

ولنقارن ذلك كله بالبعثات التبشيرية، ومن أمامها ومن خلفها المستشفيات، والملاجىء، والمدارس، والمعاهد، والمال يُغدَق، والوظائف تُهَيَّأ.

ولنتصور كَفَّتَيْ ميزان:

إحداهما لا شيء فيها، وتلك هي كفة المسلمين بالنسبة للإسلام.

والأخرى فيها كل شيء، وتلك هي كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية.

وسبب آخر تحدث عنه «جمال الدين الأفغاني»، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ذلك هو حالة المسلمين.

وكثيراً ما قال «جمال الدين» إن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين، فرقت بينهم الأهواء والشهوات، وقعدت بهم الصغائر، وانصرفوا عن عظائم الأمور، وأصبحوا مستعبَدين مستذَلين.

ولو كان الإسلام ديناً قوياً لما كان المسلمون هكذا.

ينظر الغربيون إلى المسلمين في العصر الحاضر، وينسون شيئين:

ينسون أن المسلمين في العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام؛ وتكاد الصلة بينهم وبينه تكون اسمية.

وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام، وأيام أن كانت الدنيا لهم.

ولعل المسلمين يعودون إلى دينهم كما نزل صافياً نقياً، ويستمسكون به فيكونون مرآةً حقيقية يتمثل فيها الإسلام الحنيف.

وآداب الإسلام كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلاً قوياً مهذباً كريم النفس.

ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الإسلام، فكانوا شرَّ دعاية له.

* * *

السُّنَن العَامّة في دَعْوَةِ الرُّسُل الى الدِّين

السُّنَن العَامّة في دَعْوَةِ الرُّسُل إلى الدِّين

الوفاء للحق، والقيام على أمره، ومواجهة الناس أجمعين به، من أولى الخصال التي يحيا بها الدعاة إلى اللَّه، وتعد صبغة لازمة لسلوكهم، بل جزءاً خطيراً من كيانهم.

فهم ــ على بعد الشُّقة بينهم وبين الضائقين بهم وعلى وحشة القطيعة وطول الخلاف ــ يظلون ثابتين على دعواتهم، يشرحون أصولها بدقة، ويبينون حدودها بأمانة، ولا يتلوَّن الحق في رسالاتهم لرغبة أو رهبة.

إنهم أوفر أحلاماً، وأقوى أركاناً من أن يستخِفَّهم مستهزيء يحاول النَّيْلَ منهم.

ولقد استمع رسولُ اللَّه إلى نداء المشركين الساخر حين قالوا:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾(١).

فما تظن أثر ذلك النداء في فجاج الأرض أو أقطار السماء؟

لقد تاه صداه وانقطع مداه، وما تحرك له من جانب المرسلين الكبار شعور قلق.

واسمع إلى هذا النفر الراسخ في كفره، المكين في باطله وهو يعلق على الرسالة وصاحبها:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾(٢).

(١) سورة الحجر: آيتي ٦ ــ ٧.
(٢) سورة الفرقان: آيتي ٤١ ــ ٤٢.

إن هـذا الاستفهام المفعم بـروح الاستفـزاز والتكـذيب والتحـدي والتحقير، يخرج من نفوس أصحابه ليسقط تحت مواطىء الأقدام، فما يستفز من نفوس الدعاة شعوراً بِهَوانٍ أو غُربة.

إنهم في إيمانهم أرسخ أقداماً وأمكن أحلاماً وأنور بصائر من أولئك الضالين المخدوعين.

إن الداعية يعيش في الحق الذي شرفه اللَّه به مثلما يعيش الناس في أنوار الضحوة الكبرى.

فهو بأشعته وحدها يهتدي، وعلى ضوئها يسير.

ومِن ثَمَّ فمن المستحيل أن يخشى عُرفاً سائداً أو تقاليد مقررة، إذا كان هذا أو ذاك ضدَّ ما يعرف من حق.

ومن المستحيل أن يتملّق الجماهير أو يطلب رضاها.

كيف وهو يرى العامة مرضىً وفي يده هو شفاؤهم؟ ويراهم قاصرين وعنده وحده العلم الذي يرفع مستواهم؟

ومن المستحيل أن يتهيّب في ذات اللَّه بطش ذي سلطان، سواء أكان مخوف الظلم أم محقق العنت.

فهو يعامل ربه قبل أن يعامل عباده أياً كانوا.

وهو يوقن بأن الحياة والموت، والرزق والأجل، والخفض والرفع، والأمن والقلق، ترجع حتماً إلى مالك الملك جلّ شأنه.

ومن المستحيل أن يَغُرَّه طمع أو يَجُرَّه هوىً، أو تغريه رغبة أو تدنيه رهبة.

فإن شأن الرسالة التي انتصب لأدائها فوق هذه الوساوس جميعاً.

والسُنَّة العامة في أنبياء اللَّه قاطبة أنهم في نظرتهم إلى جلال اللَّه، تتضاءل في أعينهم شخوص المخلوقين ويذوب ما ينسب إليهم من بأس وإرهاب.

قال اللَّه جل شأنه: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ

وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(١).

والآية نزلت عندما كُلِّفَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم أن يهدم تقليد التَّبَنِّي الذي كان شائعاً في العرب.

وكيف كُلِّف بهدمه؟ بأن يتزوج امرأة مُتَبَنَّاه زيد، الذي طالما دعاه الناس زيدَ بنَ محمدٍ.

وبهذا الزواج المفروض يجتاح الإسلام عملياً كل أثر لتسوية الأدعياء بالأقرباء.

ويبدو زيد ــ المدعو بابن محمد ــ على حقيقته في النسب، وتحيا امرأته مع رجلها الجديد على صفته الصحيحة، لا على أنه والد رَجُلها القديم:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾(٢).

بيد أن هذا التكليف شق على رسول اللّه أعظم المشقة، وتأذت نفسه من أن يتحدث الناس أنه أخذ امرأة ابنه، وكان ينبغي البعد عنها.

فردَّ اللّه سبحانه هذا التوجُّس، وعاتب نبيه فيه، مُظهِراً له أن المرسلين لا يتهيّبون في ذات اللّه ونصرة الحق أحاديثَ الناس وما يرسلونه من إشاعات أو يقيمونه من اعتراضات.

* * *

والأنبياء واضحون في رسالاتهم، ليس في دعواتهم جانب غامض أو غرض مستور. يقول اللّه في موسى وهارون:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٣).

وهم بهذا المنهج المشرق يلقون الناس كلهم، الصديق والعدو، لا يحاولون طيَّ شيء من رسالاتهم يتألم منه هذا، أو المواربة في وصف حقيقة يكرهها ذاك.

---

(١) سورة الأحزاب: آيتي ٣٨ ــ ٣٩.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٤٠.
(٣) سورة الصافات: آيتي ١١٧ ــ ١١٨.

وهم بهذا الوضوح في رسالاتهم يفاصلون الناس على الكفر أو الإيمان:

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[1].

وقد كان من الممكن أن تعرض الدعوات على الكارهين والناقمين بأسلوب مُلْتَوٍ كَلِيل الحدّ يُهادن الشهواتِ ويُسالم الإفكَ والخرافاتِ إلى حين، ولكن الله عز وجل رفض هذا الأسلوب قال:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[2].

وقد تمنى المشركون لو نزل رسول الله عن بعض ما يدعو إليه، وأبدَوا استعدادهم لتصديق ما يلائم أفكارهم وأمزجتهم من رسالته.

لكن الحق لا يتجزأ والإيمان به كذلك لا ينقسم.

ومن هنا حرّض الله نبيه أن يبقى على دعوته الكاملة، ورسالته الشاملة، غير مكترث بما يقترحه الكافرون:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[3].

وظل رسول الله بدعوته كلها، يشرح أصولها ويوضح سبيلها.

ولم تفتر عزيمته في مهاجمة الأصنام، وتسفيه عابديها، والتنديد بجهالتهم.

فلما حدثه عمه أبو طالب أن يدع هذا الدين، وأن يصون نفسه من خصومة المناوئين قال:

«يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

وتمر السنون بطيئة ثقيلة معنتة موجعة، والكفاح بين الحق والباطل لا تهدأ حدته وقد نقلته الأيام من ميادين الكلام إلى ميادين القتال.

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٢.

(٢) سورة القلم: آيتي ٨ ــ ٩.

(٣) سورة هود: آية ١٢.

ومع ذلك فبعد بضع عشرة سنة من هذه الكلمة التي قالها الرسول لِعَمِّه تسمعه يقول لبديل بن ورقاء الخزاعي في موقف الحديبية:

«إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا مادَدْتُهم ويُخَلُّوا بيني وبين الناس: فإن أَظْهَرْ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فعلوا، وإلا فقد جمُّوا. وإن هم أبَوْا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن اللّه أمره».

إنه إصرار لم تزده الليالي إلا قوة، وثبات يربو مع الزمن ولا ينقص.

وربما سألتَ: ما العدة في هذا النضال؟ وما الوسائل التي اعتمدت عليها الدعوة في بلوغ أهدافها؟.

والجواب أن الدين لا يتذرع في الوصول إلى غاياته إلا بطرقها نفسها.

وتدرك طبيعة هذه الطرق من قول اللّه لنبيه:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(١).

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾(٢).

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(٣).

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(٤).

فالمثابرة على الدعوة، والاستعانة على وعثاء الطريق بطول الصبر، وحسن التأسِّي بصدق الاعتماد على اللّه، وتفاني الداعية نفسه في حقيقة رسالته، هو طريق النجاح.

ومحاولة الإفلات من هذه السُنَّة العامة لا يُتاح لأحد.

---

(١) سورة طه: آية ١٣٠.

(٢) سورة الروم: آية ٦٠.

(٣) سورة ص: آية ١٧.

(٤) سورة الأحقاف: آية ٣٥.

وفي هذا يقول الله لنبيه:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١).

أجل: إن أنباء المرسلين تتابعت على كر الدهور مؤكدة هذه الحقيقة، ومؤكدة كذلك أن عُقبى الصبر الجميل جميلة، وأن نصر الله يجيء في نهاية المطاف كما يجيء الصباح بعد اعتكار الظلام.

وقوانين المجتمع الإنساني في ذلك تشبه قوانين الحياة المادية لا تنخرم ولا تتخلف.

واسمع إلى يوسف وهو يقول لإخوته:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

إن هذه الآية كأي قانون ماديّ في علم الطبيعة أو الكيمياء تشير إلى أن الفرد الذي يستجمع هاتين الخلتين من معنى الإحسان لا بد أن يدركه التوفيق وتلحظه العناية وينجح في حياته حيث يخفق الآخرون الذين يقصرون في هذا المضمار.

ولذلك يقول إخوة يوسف له:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾(٣).

وإيثار الله ليوسف لم يكن عطاءً من غير مؤهِّل، بل أتى بعد مراحل شاسعة من الكفاح والعفاف والمصابرة والتجمل.

وكما تصدق هذه السُنَّة في حياة الأفراد تصدق في حياة الجماعات.

فإن الأمم لا تُرزق التمكين في الأرض ولا تنال حظاً من عناية الله إلا إذا مرت بأدوار من العمل المضني والجهاد الشاق، وصبرت على تكاليف الرسالات التي تحملها، والتقدم الذي تنشده.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٣٤.

(٢) سورة يوسف: آية ٩٠.

(٣) سورة يوسف: آية ٩١.

والقرآن الكريم يذكر السر في تسويد الأقدمين من بني إسرائيل:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١).

فالصبر الطويل، واليقين الراسخ، هما عدة الإمامة في الأرض، والصدارة بين الناس.

والسُنَّة العامّة المطردة من مبدأ الحياة إلى منتهاها في كل كفاح بين الحق والباطل قد شرحها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(٢).

وينبغي أن نسائل أنفسنا، ما هو الحق الذي ينتصر، وما هو الباطل الذي يندحر؟

فإن في صفحات الحياة مشاهد قد تجعل الإنسان يرتاب فيما يقال له، وهو يكاد يلمس استقرار الإلحاد والفساد في مواطن كثيرة.

والجواب أنه ليس كل ما يوصف بأنه حق يحمل هذه التسمية عن جدارة.

ولا كل ما يوصف بأنه باطل يوصم بهذا العنوان عن صدق.

والحق الذي يكتب له الخلود يجب ليظفر بهذه الثمرة أن تكون إلى جانبه خصائصه كلها.

إننا إذا قلنا: الطيارة أسرع من الدابة، فلا نعني طيارة مكسورة الأجنحة نافدة الوقود، إن طيارة بهذه المثابة يسبقها حمار معطوب الحوافر.

إن من خصائص الحق ــ إلى جانب سلامة جوهره ــ أنه ضياء للعقل، وصدىً للفطرة، ومفتاح للخير، وسياج للمصلحة، وصلة لا يُعلَىٰ عليها في ربط الأمم بالحياة وبربِّها تبارك اسمه.

---

(١) سورة السجدة: آية ٢٤.
(٢) سورة الرعد: آية ١٧.

ومن خصائص الباطل أنه اتباع للوهم، ومغالطة للفطرة، واستجابة لطبائع السوء، واقتراف للمآثم وعبادة للشيطان.

وقد تتكاثر هذه الخصائص وتبرز، وقد تتضاءل وتضمر.

وقد يموج بعضها في بعض، ويخلط الأتباع بين شيء من هذا وشيء من ذاك.

بيد أنه من الكذب على اللّه وعلى الواقع أن ننتظر انتصار حق إذا تأملت فيما حوله لم تجد إلا خصائص الباطل كلها من غباء وشهوة وعوج.

إن الحق عندما يكون حرباً بين الوثنية والتوحيد، فهو حرب بين العقل المتأبِّي على الخرافة، المتجاوب مع ما في الكون كله من علم ومعرفة، وبين عقل آخر مستغلق منحط يسجد لحجر أو عِجل أو ما شابههما.

ومن البديهي أن انتصار الأول هو امتداد للمعرفة ، وكرامة للإنسان، ومنفعة للناس ينطبق عليه قول اللّه:

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(١).

لكن ما الحال إذا عَقِم الحق فلم يلد نفعاً، واكفهرّ وجهُه فلم يتضمن بِشْراً، ورمقْتَ أصحابه فوجدتَهم مُلتفّين حول اسمٍ فارغ لا لُبَّ له؟

أنَّى يُكتب لهذا الحق المزيف نصر أو يسجل له خلود؟

إن المسلمين ـ ونقولها آسفين ـ ظلموا الحق الذي توارثوا آياته في صحائفهم.

لقد التصقوا به وهم يرتكبون خطأين جسيمين:

أحدهما في جانب الحياة نفسها، فلم يفقهوها ولم يوثقوا أواصرهم بها.

والآخر في جانب اللّه، إذ لم يفقهوا هداه ولم يسيروا على سننه.

فكانت النتيجة أن تنكرت لهم الحياة فهانوا فيها، وأن سخط اللّه عليهم فلم يسعفهم بنصرٍ هُم أحوج الناس إليه.

---

(١) سورة الرعد: آية ١٧.

فإذا انخذل الإسلام وتلك حالته ــ مطمورة في أحوال أهله ــ فإن ذلك ليس قدحاً في سنن اللّه العامة، ولا تكذيباً للنتائج المحتومة في كل صراع يدور بين الكفر والإيمان.

إن انتصار الحق أمر لا بد منه، وغلبة أهله على غيرهم في نهاية المطاف قانون لازم دائم. وقد تسبق ذلك مراحل طويلة، ولكن هذه المراحل ليست تسويفاً لنتيجة ينبغي حلول أوانها، بل هي ــ في الأغلب ــ فترة من الزمن يكتمل فيها معنى الحق في نفوس حملته، ويمتزج بحياتهم الباطنة والظاهرة على سواء.

فترة يخلصون فيها من نزعات الهوى الخفي والجلي، وتتم فيهم القدرة على إفراغ الحياة الإنسانية في القالب الذي يريدون، وتسييرها نحو الوجهة التي يبتغون.

فإذا بلغ هذا الاستعداد تمامه، فما من شك أن الباطل مندحر، وأن رايته منكسة، وأن أتباعه زائلون.

وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع هذه الحقيقة، وذكر ــ بجلاء ــ أن النصر حليف هذا الحق الناضج، وأن الباطل زاهق أمامه لا محالة:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[(١)].

فهذا تهديد لأعداء الإسلام أن بقاءهم على الخديعة، وإشاعتهم للأكاذيب، واتباعهم للهوى سوف يوردهم ــ حتماً ــ المصير الذي ورده المكذبون الأوائل.

وهو مصير لا ينجو منه ظالم أبداً. وفي سورة أخرى يقول:

---

(١) سورة الأحزاب: آيات ٦٠ ــ ٦٢.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(١).

فالمعارك التي تنشب بين الإيمان والكفر تنتهي بالمعركة الفاصلة آخر الأمر وتطّرد بها سنة اللّه في المستقدمين والمستأخرين.

وكما يندحر الباطل في ميدان التفكير والنظر تنكسر شوكته في رحاب الحياة:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾(٢).

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٣).

فعقبى الإعراض عن الحق والغرور بالضلال ثابتة.

وما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين.

ولا بد أن يدرك الأمم الجائرة ما يقمع بطرها ويطمس على بصرها.

وعندما يحيق بالمجرم سوء صنيعه يستيقظ في نفسه ما أنامه الغرور من قبل، فيصحو بعد فوات الوقت ويعترف بما كان ينكر، بل بما كان يجحد، وكثيراً ما نسمع الكلمات الأخيرة التي يرسلها المحكوم عليهم بالإعدام وهم مقودون إلى حبل المشنقة، إنها كلمات مليئة بالندم والتوبة ناضحة بالإيمان والاستسلام للّه.

بَيْدَ أن ذلك الرشاد المفاجىء لا يغني عن أصحابه، ولا يؤخر عنهم العقوبة.

لقد حكم فرعون حقبة من الدهر، كانت حافلة بالجبروت والفساد، مشحونة بالبغي والقتل، فلما أدركه الغرق قال:

﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ

---

(١) سورة الفتح: آيتي ٢٢ ــ ٢٣.
(٢) سورة الأنبياء: آية ١٨.
(٣) سورة فاطر: آيتي ٤٢ ــ ٤٣.

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(1).

إن هذه اليقظات الغريبة في ضمائر المجرمين لا تدل على خير.

ومن يدري لعلها حيلة الجبان للفرار من القصاص.

ومن ثَمَّ رأينا اللَّه جل جلاله لا يدع الأمم الضالة بمثل هذا الاحتيال:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(2).

ونحن نلحظ أن عذاب الاستئصال الذي اجتاح كثيراً من المكذبين السابقين قد استحال شيئاً آخر بالنسبة إلى مشركي مكة.

فإن موقفهم قد ألجأ الرسول إلى الهجرة وظهر كأن دولة الوثنية قد سيطرت على الموقف، وأن الهزيمة قد لحقت بالإيمان وصحبه.

لكن هذا الظاهر المتبادر إلى الأذهان لا يلبث أن يزول، إذا عرف أن دولة الوثنية لم يمض عليها إلا قليل حتى تلاشت في موطنها نفسه، وأن سدنتها ذابوا في حرارة الإيمان المنتصر كما يذوب الجليد على ألسنة اللهب.

وصدق اللَّه سبحانه في قوله:

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾(3).

أجل إنهم ما لبثوا إلا بضع سنين ثم تهدمت الأصنام حول الكعبة، تحت سطوة التوحيد المنتصر.

وانطلق صوت الرجال الذين بعثهم محمد صلى اللَّه عليه وسلم في أرجاء مكة يقولون في الموسم الجامع: لا يحج بعد العام مشرك.

* * *

(1) سورة يونس: آيتي ٩٠ ــ ٩١.

(2) سورة غافر: آية ٨٥.

(3) سورة الإسراء: آيتي ٧٦ ــ ٧٧.

منذ نشط العمران البشري على وجه الأرض والناس تستهويهم مآرب شتى، وتتوزعهم طرائق مختلفة.

وكثرتهم ــ وهذا أمر محزن ــ يغلبها الجهل، وتنحرف عن سواء السبيل.

شرف الإنسان عقله، ولكن العقل طالما نُحِّيَ عن قيادة الأفراد والجماعات.

وجمال الإنسان صفاء فطرته، واستقامة سجيته، ولكن الفطر الصافية والسجايا المستقيمة طالما احتجبت وراء غواشٍ من الأَثَرَة والظلم والهَوَى.

وكما تفتك أسراب الديدان، وأنواع الآفات بأشجار القطن والفاكهة، هجمت علل خطيرة على الجنس الإنساني فعوّجتْ سيره، وشوّهت فكره، ومسخت ما برأه الله عليه من فطرة، وما زانه به من عقل:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وكان جهد النبيين الأول هو علاج هذا الخلل في السلوك الإنساني ومداواة تلك العلل التي تفتك بالكرامة وتنذر في العاجلة والآجلة بسوء المنقلَب.

هذه أمة شاع فيها غمط الحقوق وبخس الكيل والميزان.

وهذه أمة شاع فيها الكبر والجبروت واجتياح الضعاف.

وهذه أمة أسرفت في شهواتها وتعدت الإناث إلى الذكران.

وهذه، وهذه.

أمم كثيرة تَطَرَّقَ المرض النفسيُّ إلى قلبها ولُبِّها، وذُهِلت من قبل ومن بعد عن معرفة ربها.

فكان كل رسول يبذل قُصاراه في سَوْق الشفاء لها، ومحاولة النجاة بها من عواقب الكفر والفسوق والعصيان.

وإنك لتسمع القرآن الكريم يُجْمِلُ تواريخ هذه الأمم وعمل الدعاة الكبار في إرشادها إلى الحق وقيادتها إلى الله فتراه يلزم هذا النسق وهو يقص مصارع خمس من الأمم:

---

(١) سورة سبأ: آية ٢٠.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(١).

إن هذا النسق اطرد في التأريخ لقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

تشابهت الرسالات، وتشابهت الإجابات، وتشابهت المصاير التي طوت الكل، وذاك ما يدعو إلى الاستغراب والعجب:

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

هؤلاء الأنبياء المخلصون عمدوا إلى محاربة الخرافة الأولى في تفكير الإنسان، وهي تقديس الأصنام والأبقار وما إليها، وفتح البصائر المغلقة حتى تعرف ربها الحق وحده.

فإذا عرفته حرصت على إرضائه، وبعدت عن مساخطه، واستعدت للقائه.

ومن ثَمَّ أمكن فِطامُها عن الرذائل التي هوت فيها وتيسر شفاؤها من العلل الغليظة التي رانت عليها.

إن الأمراض الاجتماعية شديدة الفتك بعيدة الأثر.

وكما يصنع الزهري مثلاً بالأجنّة في بطون الأمهات، مِن تلفٍ في الأجهزة وعطب في الحواس، تصنع الخرافات والشهوات بالأفئدة والأعمال.

وكثيراً ما أنظر إلى الأجيال الناشئة في قرانا المصرية فأرى البول الدموي نزف قواها وشل نماءها، وكسا الوجوه بصفرة كابية.

فإذا قارنت بين أولئك الولدان البائسين، وأترابهم من أبناء البيئات النقية شعرت ببعد البون إذ ترى هؤلاء يشبون في عافية وتتورد وجوههم من قوة الحياة ووفرة الصحة.

---

(١) سورة الشعراء: آيات ١٢٣ ــ ١٢٧. (٢) الذاريات: آيات ٥٢ ــ ٥٥.

إن الفطرة الإنسانية قد تحكمها بيئات ظالمة مظلمة، فإذا هي صريعة جهالة طامسة وأهواء طافحة، وعِوَج شنيع.

بل إن هذه الفطرة الكريمة يصيبها من الغمار ما يصيب الحقول الغَنَّاء إذا هجمت عليها قوافل الجراد.

ولم يعرف العالم في تاريخه الطويل أزكى ولا أرقى من رسل اللَّه في الذياد عن هذه الفطرة.

وقد قرأنا في كتاب اللَّه كيف برز كل طبيب منهم يشفي النفوس من سقامها ويرجع إليها رشادها العازب، ويهديها إلى سواء الصراط.

وفي دعوات الأنبياء الأولين نلحظ بساطة العرض، وسهولة الفكرة، ورقة الإخلاص، وجلاء الغاية، وتدفق الرحمة، وصدق النصيحة، وقوة التوجيه إلى اللَّه والإعداد للقائه.

بَيْدَ أن كل واحد منهم كان محدود الطاقة في علاج ما يلقَى من أمراض، إذ كان جهده محلياً غايته ملافاة ما يقع، واستنقاذ من يستجيبون.

أما الرسالة الخاتمة، فلم تكن «مشروعاً» صغيراً لإصلاح قرية موبوءة.

بل كانت برنامجاً واسع الدائرة رحيب الأكناف، يستهدف وضع خطط لوقاية العالم كله، ورسم سياسات كثيرة للإصلاح والاستشفاء، وحشد قوى جبارة لتطهير الأرض من جراثيم الفساد.

إن هذه الرسالة تتميز في دعوتها بأنها جهد إنشائي متكامل لخلق عالم أفضل يتعاون فيه الفرد والمجتمع على نشدان الكمال، وإقرار الفضيلة، على أساس من معرفة اللَّه جل شأنه.

ومحور الإصلاح في الرسالة الآخرة، جعل الإنسان إنساناً.

وهذا شيء يدعو إلى العجب!

هل جعل الإنسان إنساناً غاية تقوم لها رسالة، ويقترن بها خير، وينتج عنها كمال مرموق؟

نقول: نعم، وذاك محور الإصلاح الإلهي للعالم كله.

إن أقوى شيء في الوجود الآن قد يكون التفجير الذري، وربما كان في القرن السابق الطاقة الكهربائية.

والوجود مشحون بقوى هائلة عرف منها ما عرف وستر منها ما ستر.

بيد أن أعظم قوة في هذا العالم وأبرز الكشوف فيه ليست تلك الطاقات المادية، بل إنها... الطاقة الإنسانية..!

هذا الإنسان الذي يسير بقدميه الصغيرتين على الأرض، ويخطر بقامته الضئيلة.

هذا الإنسان الذي لو تجمع جنسه كله من شتى القارات في صعيد واحد ما زحم مساحة يؤبه لها من هذه الأرض التي يدرج فوقها.

ولو قيست أرضه تلك بالأعداد الكثيفة من الكواكب التي تسبح في الفضاء ما ساوت شيئاً.

هذا الإنسان الغريب هو أخطر شيء في الكون.

لقد خلقت له السموات والأرض وسخر له الشمس والقمر.

وصدق الشاعر إذ يقول:

وتزعم أنك خلق صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر؟

لكن هذا الإنسان العظيم بما رُشِّحَ له، وما مُكِّنَ منه، قد تَعرِضُ له أوهام تمسخه فإذا هو ساجد لحجر، أو تائه وراء شهوة سافلة!

ومن هنا تدافعت وصايا الرسالة الإسلامية لتبصر الإنسان بقدره، وتصونه من الدنايا، وتحفظ عليه خصائصه العليا.

إنه كبير بقلبه، فكيف يدع قلبه نهباً للغش والهوى والظلم.

إنه كبير بعقله، فكيف يدع عقله فريسة للجهل والخرافة.

إن الإسلام يعتمد في حماية الإنسان من علل الكفر والفسوق على إيقاظ لبه وقلبه وتبصيره بمكانته وفضله، واستبقائه إنساناً لا يتدلى ــ بتعطيل مواهبه ــ إلى درك الحيوانية السحيق.

واسمع إلى الصيحة الأولى في تنبيه الغافلين:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(١).

التفكر، هو المطلب الأول. صحوة العقل بعد غفوته ليرى رأيه فيما يُعْرَضُ عليه والعقل قد تقيده أغلال التقليد الأعمى فلا يملك الحرية الواجبة.

ومن هنا شدد الإسلام النكير على أحلاس التقليد وصرعى كل عرف غبيٍّ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(٢).

كما قضت الإرادة العليا بأن الذين يستجيبون لدواعي الجحود، ولا يسيرون وفق معالم الرشاد، لا بد من تضليل مسعاهم، وتركهم يخبطون في مواطن الغفلة التي رمَوا بأنفسهم فيها:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(٣).

* * *

شرع القرآن الكريم يلفت الإنسان إلى ما بين يديه وما خلفه من السماء والأرض، ويوثق أواصره بمظاهر الكون الذي يعيش في رحابه.

ويجعل من هذا وذاك المادة التي تُكَوِّن إيمانه بربه، وتعرِّفه بما ينبغي له من تسبيح وتحميد، وما يجب عليه نحوه من إنابة وعبادة.

---

(١) سورة سبأ: آية ٤٦.

(٢) سورة الزخرف: آيات ٢٣ ـ ٢٥. (٣) سورة الأعراف: آية ١٤٦.

والنهج الفذ لذلك هو بصر العقل بآيات اللّه وملكوته.

وانظر إلى هذا الضرب من الاستدلال والهداية، لتعرف أن المراد منه هو إيقاظ الإنسان، وإحياء خواصه الذهنية والنفسية ليعرف ربه معرفة اليقين:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

التفكر، والتذكر، والتعقل، ثم الشكر. هذه هي أسباب اليقين وطرائقه الصحيحة، ومدارها ـ على ما ترى ـ الحركة الذاتية في الإنسان نفسه.

هذه هي الحركة التي تصور وظيفته في الحياة ومنزلته في الكون وتؤكد أولاً وآخراً قيمته الخاصة ومكانته الجليلة.

ومعنى هذا أن الإنسان مُكلَّف باستخدام حواسِّه على نطاق واسع، فالسماع الغافل أو النظر الأبله، أو النطق الغبي، هبوط لا يليق بامرىء يحترم نفسه ويدرك كيف كَرَّمَه خالقه وفضَّله تفضيلاً.

الإنسان الحق: عميق النظر، فقيه السمع، راشد القول.

---

(١) سورة النحل: آيات ١٠ ـ ١٤.

ولما كان الإسلام ـ كما بينا ـ يستهدف جعل الإنسان إنساناً فهو يجعل الكفر نتيجة طبيعية لانطماس المشاعر وبلادة الحواس:

﴿.. وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾(١).

﴿... يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾(٢).

وعدم استطاعتهم السماع أو استبانتهم الرؤية لا ترجع ـ بداهةً ـ إلى رَمَدٍ أو صَمَم، إنما يرجع إلى أن القوم عطَّلوا مواهبهم، وذهِلوا عن قيمتها العليا، أو سمحوا للدَّنَايا أن تصرفها في الأباطيل.

وقد يستغرق الغافل في ذهوله فإذا ناديته لم يصل إليه الصوت إلا خافت النبرة ضائع المعنى، فكأنه ـ وهو قريبٌ منك ـ على مسافة ميل.

﴿.. وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٣).

بل قد يصل الموت الأدبي بهؤلاء الجاحدين المذهولين أن تصل صدى الدعوات إلى آذانهم، فلا يفقهون منها ـ على شدة وضوحها ـ إلا ما تفقهه القطعان عندما يصفر لها الراعي لتشرب أو لتسير.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٤).

إن الإسلام جاء ليرد للإنسان اعتباره المفقود، وليحفظ عليه قدره المهدد أي ليجعله إنساناً حقًّا، إنساناً مستقيم الفطرة كما خلقه اللّه، ذكي العقل، حديد النظر، واعيَ السمع، صائب القول، سديد الحكم. وهذه

---

(١) سورة الكهف: آيتي ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) سورة هود: آية ٢٠.
(٣) سورة فصلت: آية ٤٤.
(٤) سورة البقرة: آية ١٧١.

الخصال هي مقومات الإنسان، وهي بعينها مقومات الإيمان، فإذا تطرق الانحراف إلى شيء منها فانتظار الإيمان الحق جهد ضائع.

ومن ثم يقول الله لنبيه:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

إن الإسلام عالج الإنسانية بأصح دواء يمكن أن يُقدَّم لها، وذلك بالتعويل على المقاومة الذاتية للإنسان، أو المناعة الخاصة الكامنة فيه، وحشدها في صعيد واحد لتصدّ أي هجوم يُغْرِي بالكفر والفسوق والعصيان.

وذلك سرُّ الحديث الطويل في كتاب الله، والمناشدة المستمرة للإنسان، ألا يُسِفَّ وألا يخون فكره، وألا يجحد سمعه وبصره، وألا يتدلى إلى دَرْكٍ لا يليق به.

ذاك سر التساؤل المترادف: ﴿أفلا تـذكَّرونَ﴾، ﴿أفـلا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أفلا تتفكَّرونَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٢).

والواقع أن كل ضعف يتطرق إلى القوى العقلية، أو إلى مقدرة الحواس في الملاحظة والوعي، فهو هدم لجزءٍ مساوٍ من حقائق الإيمان وعاطفة التدين.

إن الإسلام حاسم في أنه يريد إنساناً مفتوح البصر والبصيرة، لأنه يريد إيماناً عميق الجذور، وثيق الضمانات.

أما حيث يغلب الجهل ويرين الهوى وتستحكم الغفلة، فإنا نكون بإزاء حيوان لا إنسان:

---

(١) سورة يونس: آيات ٤٣ ـ ٤٤. (٢) سورة الحج: آية ٤٦.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

هل يوجد أسلوب آخر لتكميل الإنسان وتبصيره الحق وتعريفه الخير؟

هل يوجد شيء آخر، بعد أن يتقدم الوحي الأعلى فيحرك الواقف ويصلح المختل من هذا الجهاز الإنساني العجيب، ثم يدفعه باسم اللّٰه في طريق عتيدة واضحة الأهداف موائمة لطبيعته الزاكية كما تتواءم المسافة بين شريطَي السكة الحديد وبين عجلات القطار المنسابة فوقهما؟.

لا يوجد شيء آخر إلا ذلك الإسلام، وذلك أساس خلوده.

ولقد قال أحد العلماء: إذا ثبت أن الإسلام هو الصراط المستقيم فلن يكون بعد محمد نبي، ولا بعد دينه دين.

ذلك أن الخط المستقيم هو أقصر صلة بين نقطتين، ومِنْ ثَمَّ فلا يمكن أن يتعدد.

ولقد رأيت مبلغ الاستقامة في تعاليم هذا الدين، وكيف أنه رسم سياسة للإصلاح العام لا عوج فيها ولا تعقيب عليها.

ومن المستحيل تصور قادم آخر من السماء يزيد حرفاً أو يغير وضعاً من جملة الشرائع التي جاء بها محمد بن عبداللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

والحقيقة أنَّ كل ألم، أو اضطراب، أو فوضى، تهز كيان العالم بين الحين والحين إنما مَرَدُّها إلى عدم أخذه بهذا الدين وشروده عن صراطه المستقيم.

إن الإسلام هو كلمة الحق الخاتمة، الجامعة المانعة، التي لا يتصور جديد بعدها، إلا أن يكون هذا الجديد لغواً لا معنى له، أو عبثاً لا خير فيه.

* * *

ويسيرٌ علينا بعد هذا الوصف المجمَل للإسلام أن نرى فروقاً بين دعوته، والدعوات التي سبقته.

---

(١) سورة الفرقان: آيتي ٤٣ ــ ٤٤.

إن الرسالات السابقة كانت محليةً، موقوتة، محدودةَ الزمان والمكان.

جهدُ أصحابها ــ دون غَمْطٍ أو انتقاص ــ إنقاذُ قبيلة من الناس من جهالات أو ضلالات فشت فيهم وكادت تُودي بهم.

فهم صلوات اللّه عليهم أطباء حاولوا أن يشفوا أقوامهم من عِلَلٍ غِلاظ، وأَقَلُّهُم استُجيب له، وكثرتهم جُحِدَ حَقُّها ونُكِرَ فضلُها. وهلكت أممهم صريعة بأدواء الكفر والعناد.

كذلك كان شأن «هود» في عاد، و«صالح» في ثمود، و«شعيب» في مدين، و«لوط» في قرى المؤتفكة.

أما الرسالتان الكبيرتان اللتان نهض بهما «موسى» و«عيسى» فسرعانَ ما تَسَرَّب التحريف إليهما، وغلب الدَّخَن الكثير على أصولهما وفروعهما.

هذا هو حصاد الماضي كله عندما نتأمل في مصاير النبوات الأولى، والدعوات السابقة.

أما الرسالة العظمى التي اضطلع بها خاتم الدعاة وسيد الهداة صلى اللّه عليه وسلم فإن القَدَر الأعلى زودها بما حفظ عليها صلاحيتها المطلقة، وأبقاها إلى يوم الناس هذا، وإلى أن ينفخ في الصور، جماعَ الأشفية التي يتخلص بها العالم من سقامه، وينبوعَ الرحمة التي يستريح بها من آلامه، وإن جحد الجاحدون:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(١).

إن المقارنة العابرة بين الرسالات الأولى والرسالة الخاتمة يظهر فيها الإسلام، وقد تفرد، في طوله، وعرضه، وعمقه.

فطوله يستغرق الأزمنة ويساير الخلود ويتجدد على الأعصار فليس بعده وحي ولا حاجة إلى شيء من ذلك.

(١) سورة الإسراء: آية ٨٢.

وعرضه يستوعب الأجناس كلها، في القارات الخمس فهو يضمهم في رحابه ويسعهم في جنابه، لا يختلف أسود عن أبيض أو أحمر.

وعمقه يشمل الحقائق التي يفتقر إليها العالم في شؤونه جميعاً، ما فرط في شيء منها، ولا قصر في فتوى أو قصَّر في جواب.

لقد تضمن الإسلام من العقائد ما لا يرقى إليه شك، ومن العبادات ما يحفظ على القلب سناءه، ومن المعاملات ما يشبع نهمة العالم مع كل تطور، ومن الأخلاق ما يدعم الفضيلة ويمحق الشرور.

وحَمَلَتُه ـ في انتصارهم أو انكسارهم ـ يخضعون للسنن العامة التي شرحنا جملتها آنفاً.

وما بُدٌّ من رعاية هذه السنن في كل عراك بين الإيمان والكفر، وفي كل سباق إلى امتلاك زمام الحياة.

* * *

كيف انتشر الإسلام (١)

من بضعة قرون وجذوة النشاط العقلي في بلاد الإسلام تبرد رويداً رويداً، والستور الحاجبة تسدل على الفتوح الأدبية العالية التي اقترنت بظهور الإسلام وانتشاره في أرجاء العالمين.

وإنه لمحزن أن يفقد المسلمون أولى الخصائص الروحية والفكرية لدينهم العظيم وأن يرتدُّوا قليلاً قليلاً إلى الجاهلية التي تَخَلَّصَ منها أسلافهم الكبار، بل التي خلَّصوا منها سائر الأجناس.

وأَدْعىٰ إلى المزيد من الحزن أن يجيء هذا الارتكاس في فترة النهوض المادي الخطير الذي شمل أوروبا، والذي اهتبل فرصتَه أعداءُ الإسلام فسخروه تسخيراً تاماً ضدَّ هذا الدين وضد الأمم الداخلة فيه.

في دور التخلف العلميّ الذي شاننا وأوهن قوانا، وبعثر تراثنا الثقافي في حواضر الغرب، أو طواه تحت طبقات من الإهمال، في هذا الدور ظهر «الاستشراق» ليكون رائداً ذكياً أمام حركة المد التي أقبلت من أوروبا، واستكشافاً يدُلُّ الغزاة على العورات المتوارية والثغور المهملة.

والمستشرقون نفر من الناس جَنَّدهم الاستعمار ليكونوا في ميدان العلم أداة لطعن الإسلام وتشويه حقائقه واصطناع الفتوق فيه.

وأسلوبهم الأثير أن يَلبِسُوا الحقَّ بالباطل، وأن يمزجوا ـ بِشتَّى الحِيَل ـ بين بعض المعارف الصحيحة والأكاذيب المفتراة، في سياق يبدو لقليل الدراية أنه بحث محايد لا ريب فيه.

(١) ردود مسهبة على أقاويل المستشرقين ومفترياتهم.

وجمهرة المستشرقين يَرَوْن أن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم دَعِيٌّ لا يحمل رسالة من السماء، وأن قرآنه تلفيق من عند نفسه، وأنه استطاع ـ في ظروف مواتية ـ أن ينتضي السيف ويجهز على أعدائه.

وعلى العكس من ذلك كله يرون أن النصرانية حق، وأن كتبها وحي مقدس، وأن استدامة وجودها ضرورة، وأن تحطيم الإسلام أمامها فريضة حتم.

ويختلف المستشرقون في الطرق التي توصلهم إلى هذه الغاية.

فمنهم من يغلبه حقده فينثر من كنانته وابلاً من الشتائم المقذِعة ضدَّ النبيِ صلى اللَّه عليه وسلم وصحابته وشريعته.

ومنهم من يطوي ضغنه ويتحين الفرص المناسبة لإبداء مطاعنه.

ومنهم من هو أكثر حَصَافة وأوفر كَيَاسة فتراه يستعرض الإسلام بأدب، ويروي تاريخه أو يسرد معالمه بدقة.

بيد أن ما وقر في نفسه من تكذيب ـ للنبوة، وما يتبعها ـ يجعله ـ في استنتاجه من الوقائع الثابتة ـ مَيَّالاً للتحريف والتظنن.

ومنهم من تروعه سطوة الحق في هذا الدين، فيؤمن بعقله وإن بقي كافراً بقلبه.

ولعله يزعم أن محمداً صلى اللَّه عليه وسلم كان صادقاً لدى نفسه، أي إنه ـ وإن لم يرسله اللَّه ـ كان مقتنعاً فعلاً بأنه رسول.

ومنهم من يستحيي ـ أمام فيضان الحقائق الذي يلقاه وهو يدرس الإسلام ويتدبر تاريخه ـ أن يحترم الخرافة الزاعمة بأن الإسلام انتشر بالسيف، وهو إنما يحترم عقله إذ يصدر هذا الحكم، ومع ذلك تبدو منه هَنَات في تناول الرسالة الإسلامية نفسها.

علتها ما ذكرناه آنفاً من أن المستشرقين عموماً يشتغلون لحساب الاستعمار، وأنهم جزء من جيش يَهُدُّ في بناء الإسلام وينقُضُ ما ظَلَّ سامقاً دهراً طويلاً من أمجاد أمته.

قال الدكتور «حسن إبراهيم»:

إن بعض المستشرقين يريد أن يقلل من قيمة الرسالة، وأن يحكم على صاحبها حكماً جائراً.

ودوافعهم في ذلك، التعصب لدينهم، والبغض للإسلام، والمقت لنبيه.

وهم يطبقون على الإسلام أنماطاً من النقد المتطرف والتفكير المتعسف.

خذ مثلاً الأب «لامانس» اليسوعي وهو ــ في نظرنا ــ مَثَلٌ لجمهرة المستشرقين الكاثوليك.

إن هذا الباحث ــ برغم أنه من أوسع الأخصائيين اطلاعاً ــ فهو من أشدهم تعصباً وأبينهم تحزُّباً.

تراه حين يعرض للمسائل الإسلامية يحيد عن الطريق المستقيم.

وقد وقف على مدى هذا التحيز الذي جعله دائم التحامل على الإسلام وأهله مسيو «أميل درمنجم»، ففند في كتابه «حياة محمد» ما يقوله «لامانس» هذا عن الدعوة الإسلامية

وهاك نموذجاً لما كتبه:

«إن الأب «لامانس» يرى مثلاً أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آي القرآن يحكم بأن الحديث موضوع، وأنه دُسَّ على النبي!

لماذا؟ اعتماداً على ورود معناه في القرآن وعلى تأييد الكتاب له!

ومن ثَمَّ لا يعتبره «لامانس» صحيح الرواية ولا يثق به.

فحدثني بربك كيف يمكن تدوين التاريخ إذن؟

إذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمعت دلالتان، فبدلاً من أن تقوّي إحداهما الأخرى وتزكيها فإنها تكذّبها وتجرحها.

ثم تساءل «درمنجم» لماذا لا يكون مثل هذا الحديث شارحاً للقرآن؟

وهب الحديث جاء بمزيد من المعاني، فلماذا نهمل الأسانيد التي وردت به، وكيف يطلب من الناقد تجاوزها؟».

ومثل آخر، يدلك على ما يبلغه البحث من إسفاف في تناول الحقائق وتفسيرها، وذلك بدافع من سوء الظن، والانقياد إلى الغفلة.

في القرآن الكريم حروف مفردة تبتدىء بها أحياناً بعض السور.

وقد تكلم العلماء في هذه الحروف واختلفت آراؤهم في تأويلها.

بيد أن مجال الاختلاف ــ على سعته ــ لم يتجاوز حدود الفكر العادي، حتى جاء أخيراً نفر من المستشرقين برأي يحار المرء كيف دار بخواطرهم.

لقد جعلوا هذه الحروف أوائل أسماء لرجال من الصحابة قاموا بجمع القرآن!

إنه تفكير يشبه تفكير الحشرات في طبيعة الملأ الأعلى، ولا يستحق بداهةً إلا أن نلقاه بالهزء.

قال الدكتور «صبحي الصالح» ــ مُفنِّداً هذه الأقوال ــ:

«ولكن أغرب ما في الباب، وأبعده عن الحق والصواب، ما ذهب إليه المستشرق الألماني نولدكه (Noldeke) في رأيه الأول، الذي عدل عنه فيما بعد، من الحكم بأن أوائل السور دخيلة على نص القرآن: ففي الطبعة الأولى لكتابه عن تاريخ القرآن بالاشتراك مع شفالي (Schwally) تظهر ــ لأول مرة في تاريخ الدراسات القرآنية ــ نظرية لا ترى في أوائل السور إلا حروفاً أولى أو أخيرة مأخوذة من أسماء بعض الصحابة الذين كانت عندهم نسخ من سور قرآنية معينة.

فالسين من «سعد بن أبي وقاص»، والميم من «المغيرة»، والنون من «عثمان بن عفان»، والهاء من «أبـي هريرة» وهكذا.

ومع أن «نولدكه» شعر بخطأ نظريته فرجع عنها، ومع أن شفـالي أهملها، وأغفل ذكرها فيما بعد في الطبعة الثانية، فإن المستشرقين بُهل (Bwhl) وهرشفيلد (Hirschfeld) قد تحمَّسا لها من جديد وتبنَّياها، غافلين عن مدى بُعدها عن المنطق السليم!!

وحسبنا أن المستشرق (بلاشير) يُظهر تهافت هذه النظرية بما لا يدع مجالاً لتقبلها أو احترامها.

فهو يستبعد مع لوت (Loth) ومع (Bauer) من بعده أن يُدخل المؤمنون الذين ذكرت أسماؤهم آنفاً ــ وهم مَنْ هم وَرَعاً وتُقَىً ــ عناصر غير قرآنية في

الكتاب المنزل الذي لا يزيد عليه ما ليس منه إلا ضعيف الإيمان، قليل اليقين.

ويرى (بلاشير) فوق ذلك: «أنه ليس من المعقول بحال من الأحوال أن يحتفظ أصحاب المصاحف المختلفة في نُسخهم ذاتها بالحروف الأولى من أسماء معاصريهم، إن علموا أنه لا يقصد بها إلا ذلك».

ويضاف إلى هذه الملاحظة القيمة أننا لا نكاد نجد مبرراً لحرص «أبيّ» أو «عليّ» أو «ابن مسعود» على أن يحتفظوا في مصاحفهم بالحروف الأولى من أسماء أشخاص كانوا ينافسونهم في استنساخ القرآن وجمعه.

وينتهي الأستاذ «بلاشير» إلى ضرورة الرجوع إلى النظرية الإسلامية نفسها، باستخراج مختلف الآراء وتمحيصها ومقابلة بعضها ببعض.

ونحن نقول: إن البحث العلمي في الإسلام، إن كان به عيب، فهو فرط الحرية التي استمتع بها، والرحابة التي جعلته يقبل كثيراً من النظريات والفروض الضعيفة، ويضفي عليها حياة ليست جديرة بها.

ولسنا نأْسَى على تلك الحال، وإن شغلتنا بما لا طائل تحته. وأيّاً ما كان الأمر فإن علينا أن نتوقع من أعداء الإسلام طائفة أخرى من المزاعم والتُّرهات لا آخر لها.. وستخرج الحقيقة في نهاية المطاف ألَّاقةً باهرة.

* * *

وللمستشرقين تراث ضخم في نقد الإسلام، ومدحه وقدحه، وهو تراث قائم رائج، وله آثار بعيدة المدى بين الأجيال الجديدة.

ونحن على أية حال نتلقّى بحوث المستشرقين بما تستحقه من تأمُّل وحذر.

ولئن كنا لا نستطيع تجاهل ما فيها أحياناً من دسٍّ وجَورٍ وجهالة، فإننا لا ننتقص ما قد يرد فيها من صواب وذكاء، وحسن إدراك وأصالة حكم.

وبين يديَّ كتاب كبير عن الدعوة إلى الإسلام ألفه بالإنجليزية «سير توماس أرنولد» وهو بحث واسع في تاريخ نشر العقيدة، تَوَفَّر على وضعه هذا المستشرق المجتهد الدؤوب.

وفي الكتاب وثائق قيمة تكشف عن طبيعة انتشار الإسلام في أغلب أقطار العالم أو فيها كلها.

وقد بذل الرجل جهداً واضحاً ليكون منصفاً في أسلوبه واستدلاله.

وأحسب أن التوفيق لا يخطئنا إذا قلنا: إن هذا المستشرق من أعدل إخوانه رأياً، وأنفذهم بصراً، وأميلهم إلى أدب اللفظ وإثبات الحق.

ومع ذلك فإن سيره مع عقيدته القديمة، وإخلاصه لوظيفته العتيدة، وخضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية والسياسية جعله يميل عن الصواب قليلاً وهو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الإسلامية وعن وسائل امتداد الإسلام في الأرض.

ونحن ــ بداهة ــ لا نطلب من الرجل أن يؤمن برسالة محمد صلى اللّٰه وسلم، إذ هو ــ كغيره من المستشرقين ــ يجحدها ولكننا نرى أن الحياد العلمي الدقيق يقتضي التسوية بين رسالتي «عيسى» و«محمد» جميعاً، فلا يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر.

كما أننا لا نكلفه الاقتناع بأن تعاليم الإسلام وحْيٌ، وأن إقبال الناس عليها يرجع قبل كل شيء إلى صدقها وخلوص أصحابها. فذلك شيء قد يكذبه، ولا حرج عليه منا.

ولكننا نستغرب منه أن يقول: «ينبغي أن يعلم القارىء ــ منذ البداية ــ أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية! وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم.

وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي مما نجده مفرقاً في صفحات التاريخ الإسلامي.

فقد عُنِيَ الكُتَّاب الأوروبيون ببيان هذه الحالات حتى لم يعد ثَمَّة خوف من إغفالها..».

اضطهادات إسلامية!

ما هذه الخرافة؟ أين هي؟ ومتى وقعت؟ وعلى من؟

إن «السير توماس أرنولد» نفسه أول شاهد على تكذيب هذه الفرية.

لقد استعرض في كتابه كيف انتشر الإسلام، من الصين وأندونيسيا شرقاً، إلى الأندلس والمغرب و «غينا» و «غانا» غرباً.

وتتبع دخول الناس في هذا الدين في أنحاء القارات الثلاث، فلم يجد أثراً لاضطهاد ديني يمكن أن يكتب عنه أو يشير إليه.

ومع ذلك فهو يقول: إنه لا يحصي حالات الاضطهاد اكتفاء بما صنع كُتَّاب أوروبا! الذين لم يَفُتْهُم تسجيلها!!

عجباً. لماذا لم يقل الرجل: إنه لم يعثر ــ في بحثه الطويل ــ على أيّ اضطهاد خلافاً لما زعم كُتَّاب أوروبا؟

ولكن غلبة الكره التقليدي للإسلام على ذهن الرجل جعلته يلقي الكلام على هذا النحو.

فلما أعوزه دليل مًّا على ما ذكره، نقل عن «سويرس» أن «مروان» آخر ملوك بني أمية قال لأقباط مصر:

«كل من لا يدخل في ديني ويصلي صلاتي ويتبع رأيي من أهل مصر قتلته وصلبته».

وهذه ــ لا ريب ــ كلمة مكذوبة!!

وما يعرف لها في التاريخ المصري أثر ولا مكان.

وما حكى مؤرخ قط أن أحداً من حكام مصر قتل قبطياً وصلبه لأنه آثر البقاء على نصرانيته!

كذلك ما أشار إليه المؤلف من أن «الحاكم بأمر اللَّه» اضطهد غير المسلمين، فـ «الحاكم» رجل مجنون أصاب حمقه المسلمين قبل غيرهم، وقُتِلَ آخرَ الأمر لسفهه.

فكيف يقال: إنه صاحب سياسة اضطهاد لأهل الكتاب؟

إن القول بوقوع اضطهاد ديني لقسر الأمم على قبول الإسلام خَيْفُ

شنيع على التاريخ، وإلصاق تُهَمٍ لا أصل لها بدين هو أبعد ما يكون عن هذا النعت.

على أن المستشرق الباحث يعتذر عن هذا الاضطهاد المتخيل ويقول: إن الإسلام في هذا كالنصرانية[1]، وإن التأريخ للدعوات يجب أن ينظر فيه إلى مسلك أصحابها الفاقهين لروحها، لا إلى نَزَقِ بعض الحكام. وهاك عبارته كاملة:

«في بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر (Liudger) والقديس ويليهاد (Willehad) بين السكسونيين الوثنيين، أكثر مما يصغي إلى أخبار التعميدات المسيحية، التي كان «شارلمان» يفرضها عليهم بحد السيف.

وكذلك المبشرون في بلاد الدانمرك وهم القديس انسجار (Ansgar) وحلفاؤه، إنهم أحق بصفة التبشير من الملك كنوت (Cnut)، الذي استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب.

وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد (Gottfried) والأسقف كريستان (Ghristian) من نجاح ضئيل في تنصير البروسيين والوثنيين، إذ كان نجاحهما أقل مما صادفه مَنْ سبقهما، فإنهم كانوا بحق أكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف (Bertheren of the Sword) وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار.

ولقد فرض فرسان (Militiaechrist ordofratram) المسيحية على شعب لينونيا فرضاً.

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية في هذه البلاد، هم رهبان ماينهارد وتيودوريك (Meinhard and theodoric).

وهم في ذلك أشد أثراً وأعظم شأناً من أولئك الفرسان المجاهدين الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية.

---

(١) سترى في مباحث الكتاب أن التسامح الإسلامي فذ، لا نظير له أبداً.

وإن الوسائل العنيفة التي كان يلجأ إليها أحياناً الرسل اليسوعيون لا يمكن أن تنقص الشرف الذي يتصف به أمثال القديس فرانسيس كسافير (Francis Xavir) وسائر المبشرين من هذه الطائفة.

كذلك لم يكن فالنتين (Valentyn) بأقل من رسل أمبونيا (Amboyna) في هذه السبيل.

فقد وجه في سنة ١٦٩٩ إلى راجوات (Rajwat) هذه الجزيرة مرسوماً يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم إذا ما طاف بهم راعي الكنيسة».

ثم قال «السير توماس أرنولد»:

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية، فإننا نجد نشاط الدعوة في اطِّرادٍ مستمر.

وقد يلي عصر الحماسة التي أظهرها «الرسل» في نشر الدين فترة جمود وعدم اكتراث.

وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة اللَّه».

كذلك كانت الدعاية الإسلامية في شتى عهود التاريخ الإسلامي بين مدٍّ وجزر.

ولكن لما كانت الغيرة التي عُرِفَ بها هؤلاء العاملون على نشر الدين ظاهرة جلية في بث كل من الديانتين، رأينا من المناسب أن نفرد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة، بحيث لا ينأى بنا ذلك الاتجاه، عن ذكر غيره من المعلومات التي تتعلق بالحياة الدينية.

على أن نحصر عنايتنا في دراسة مظهر من مظاهره، يكون له مميزاته الخاصة.

على ذلك ففي مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الدعوة، منفصلة عن أخبار الاضطهاد في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ العقيدة الإسلامية. ولو أنه قد يكون هناك ما يُسَوِّغ الخلط بين هاتين الديانتين أحياناً.

فكما أن الدين المسيحي لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التي اتخذها في فيكن (Viken) ـ القسم الجنوبي من النرويج ـ الملك «أولاف تراجفيسون» (Olaf Trygvesson) الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا

الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل انتشر الدين المسيحي في «فيكن» بأسرها.

وكما أن وصية القديس «لويس» لم تتخذ أصلاً لمهمة التبشير المسيحي، تلك الوصية التي تقول: «عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها، فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذي يجب أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء».

«فكذلك ظهر دعاة مسلمون، لم يكن شعارهم في وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التي فاه بها «مروان» آخر خلفاء بني أمية».

هكذا يقول: «السير توماس» في مقارنته التي تبدو منصفة!!

ونحن نرفض رفضاً باتاً أي تسوية بين تاريخ النصرانية وتاريخ الإسلام في هذا المجال.

فـ «مروان» ـ الملقب بالحمار ـ لم يزعم أحد أنه من رجال الفقه أو أئمة التشريع.

ذلك، لو افترضنا ـ جدلاً ـ صحة الكلمة التي تلصق به.

فكيف، مع أن الكلام المنسوب إليه مكذوب؟

أما القديس «لويس» صاحب الوصية المذكورة بطعن الكفار في أحشائهم فهو عَلَمٌ مطاع الأمر، نافذ الوصية.

وقد سار التاريخ المسيحي في المجرى الذي حفرته هذه الكلمة وأمثالها.

والحكم الإسلامي ـ في أسوأ عهوده ـ لم يمتشق الحسام أبداً لإرغام أحد على اعتناق الدين.

والدليل على ذلك من السياحة الرحبة التي طَوَّفَتْ بالمستشرق الكبير في فجاج الأرض الإسلامية كلها، والاستيعاب الشامل الذي قدمه لنا وهو يشرح دخول الإسلام أغلب هذه الأقطار.

إنه لم ير فيها ظلاً لاضطهاد، بل رأى فيها السماحة بعينها، فكيف يقع في هذا الخطأ؟

إنه الكره التقليدي للإسلام! ومع ذلك فلنتجاوز هذا الموضع.

لقد قلنا: إن جمهرة المستشرقين لا يرون محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم رسولاً كلفه اللّٰه بدين وأيده في بيانه ونصرته بالوحي.

إنه ــ على أحسن الفروض ــ رجل عبقريّ أريب، ذكيّ الدراسة والسياسة، واتته الفرص وأسعفته الحظوظ، فبلغ بنفسه ودعوته ما بلغ.

والسير «توماس أرنولد» يعتنق هذه الفكرة، ويفسر على ضوئها طائفة من تصرفات النبي التي عرضت له وهو ماض في بحثه الذي تناولناه.

والرجل في ميدان العلم أشرف من نفر آخرين ــ مستشرقين ومبشرين ــ يندفعون بغباوة إلى مهاجمة الإسلام ونبيِّه بكليمات هي إلى أسلوب الرِّعاع أقرب.

ونحن لا نؤاخذ أحداً من باحثي الغرب إذا أنكر نبوة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم.

فالمكذبون لصاحب الرسالة العظمى كثيرون، حفل بهم العهد الأول، ولم ينقرضوا على مر العصور، وما أظن الأرض ستخلو منهم يوماً.

ونحن لا ندري سر هذا التكذيب.

أهو طعن في تعاليم هذه الرسالة؟ وإنكار لصلاحيتها، وإفادة الناس منها؟ أم هو استكثار على رجل من الناس أن يصطفيه اللّٰه لعمل مَّا؟

من قديم تنزل القرآن الكريم يستغرب هذا الموقف:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾(1).

والمستشرقون الذين ينسبون محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم إلى الادعاء، كالوثنيين الذين ينسبونه إلى السحر، مخطئون ــ في نظرنا ــ أشد الخطأ.

---

(1) سورة يونس: آيتي ١ ــ ٢.

فَمَنْ مِنَ النبيين جميعاً أجدر بالنبوة من محمد صلى اللّٰه عليه وسلم؟

إنه في سيرته، ودعوته، وتراثـه الفكري والروحي، وأثره في العالمين، أحق بالرسالة من أي امرىء آخر.

إن أحداً من المرسلين الكبار لم يغرس في النفوس حب اللّٰه وإجلاله، وإفراده بالعظمة والمجد، والتوسل إليه بالرغبة والرهبة، مثلما فعل محمد بن عبداللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

إن القرآن الكريم أول كتاب في الحياة، وآخر كتاب في الحياة، يشحن الأفئدة باليقين النقي، ويوثق رباطها باللّٰه، على نحو لا يستطيـع كتاب آخر أن يقترب من أفقه.

وليس في هذا الكتاب شيء شخصي لـ «محمد» صلى اللّٰه عليه وسلم يرتفع به عن مستوى العباد، أو يخفف عنه شيئاً من أعباء التكاليف، بل فيه هذا التجرد المحض.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

إن النبوة إذا ثبتت لرجل مًا عن طريق التأمل في سريرته وسلوكه وقدرته على سوق الناس إلى اللّٰه بالحب الخالص، فأولى الناس بها هو محمد بن عبداللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

وإذا كانت النبوة حقاً لأوسع الناس ثروة في الأفكار والمشاعر التي ارتفع بها العالم وزكا، والتوجيهات التي دفعته دفعـاً إلى سواء السبيـل، فمن كـ «محمد» صلى اللّٰه عليه وسلم في هذا المضمار؟

قال الشيـخ محمد المدني:

«لقد استطاع محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه أن يقضي بدين التوحيد على الوثنية في جميع صورها قضاءً تاماً.

---

(١) سورة الأنعام: آيتي ١٦٢ ــ ١٦٣.

فحطَّم الأصنام، وأهدر السلطة الروحية للبشر، ووجه العقل الإنساني توجيهاً قويًّاً عملياً إلى أن التحريم والتحليل إنما هما للَّه وحده، وأنه لا واسطة بينه وبين عباده في رضوانه أو في حرمانه.

واستطاع أن يقر في الناس ــ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ــ مبدأ المساواة لأنهم جميعاً من أصل واحد «كلكم لآدم، وآدم من تراب»،

لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح.

ولم تكن الإنسانية قد أذعنت لهذا المبدأ بل كانت الشعوب تَصْلَى نيران التفرقة وتعيش في جحيم الطبقات.

وهكذا تآخى بنو آدم، وأحيوا فيما بينهم وشيجة الرحم الأولى، ووجهوا تنافسهم وتسابقهم إلى العمل الصالح الذي يرفع بعضهم فوق بعض.

واستطاع أن يغرس في الناس مبدأ التكافل.

فالمجتمع وحدة متضامنة، يعين قويه ضعيفه، ويؤخذ من غنيه ليرد على فقيره.

لا فرق في ذلك بين مجتمع الأسرة، ومجتمع القرية، ومجتمع الأمة، ومجتمع العالم.

الإسلام هو الذي قرر هذا المبدأ، يوم كانت القاعدة في العالم هي استئثار الأقوياء بكل شيء من دون الضعفاء.

واستطاع أن يركز في الناس قانوناً رحيماً عادلاً شاملاً يكفل لهم السعادة والصلاح، ويدرأ عنهم الشقاوة والفساد.

ذلك القانون الذي يجمع بين إصلاح المرء فيما بينه وبين نفسه، وإصلاحه فيما بينه وبين الناس.

والذي يقيم من المرء على نفسه حارساً ووازعاً، ويجعله ينظر إلى قواعد السلوك والمعاملة في المجتمع نظرته إلى ما هو مطالب به من العبادة، فيلتمس الثواب بما يفعل ويخشى العقاب فيما يترك.

والذي يبني كل معاملة على أسس من المحبة والرحمة والعدل، وينظر إليها من ناحية الفضيلة وما ينبغي أن يكون بين الناس من تكرم وإحسان.

واستطاع صلوات اللّٰه وسلامه عليه أن ينظر إلى العدل نظرة رحبة فلا يفرق بين متبعيه ومخالفيه.

وقد كانت هذه التفرقة ــ وما زالت ــ سراً من أسرار الويل والشقاء في العالم».

ذلكم هو «محمد» صلى اللّٰه عليه وسلم.

والحق أن المستشرقين تنكبوا طرق العلم والعدل والحياد والإنصاف حين تلقفوا نبوة غيره بالإقرار، واستقبلوا هذه النبوة بالفتور والصد.

ثم راحوا يفسرون سيرة الرسول تفسيرهم لسلوك رجل مبتوت العلاقة بالسماء. كل ما عنده، موفور من الذكاء والدهاء.

وصاحب كتاب «الدعوة إلى الإسلام» لم يشذ عن خطة رفاقه، وهو يتابع أعمال الرسول، ويصف جهاده.

ولذلك تراه يتناول سيرة النبي مع اليهود، ومحاسنته لهم ــ وهي محاسنة تنبع من أصالة الدعوة في السماحة ــ فإذا هو يصف احتيال زعيم سياسي يكسب هؤلاء لغرض، ويدع هؤلاء لغرض.

وتراه مرة أخرى يتحدث عن تحويل القبلة ــ وذاك عمل لا يتم إلا بِوَحْي أعلى ــ فإذا هو ينظر إلى الأمر كله على أنه حركة قومية تستهدف أن يستقل العرب بوجهتهم الأثيرة إلى بيتهم القديم.

وبذلك يظهر الإسلام وكأنه نهضة قومية خاصة.

ويبدو رسوله وكأنه زعيم يشبه أولئك الذين ينادون بالحرية والاستقلال في بعض البلدان المختلفة.

وهاك ما كتبه تحت عنوان: (الهجرة إلى المدينة: بداية الحياة القومية للإسلام).

قال: «كان أول ما عُنِيَ به «محمد» صلى اللّٰه عليه وسلم بعد أن دخل (المدينة) ــ كما سميت منذ ذلك الوقت ــ أن يبني مسجداً ليكون مقاماً للصلاة

ومجمعاً عامًّاً لأصحابه الذين كانوا ــ حتى ذلك الحين ــ يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم.

وكان المصلون قد تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس.

وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود الذين حاول «محمد» صلى اللّه عليه وسلم استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة.

لقد دأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية.

فلما أخفقت آماله في استمالتهم إليه، وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون «محمداً» نبياً لهم أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة (سورة ٢: آية ١٤٤)!

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة.

إذ كان ذلك في الواقع بداية للحياة القومية في الإسلام.

فقد جعل من الكعبة في مكة مركزاً دينياً للمسلمين كافة، كما كانت في الأزمان الغابرة مقصداً لحج القبائل العربية جميعاً.

ونظير ذلك في المكانة ما كان من جعله الحج إلى مكة ــ تلك العادة العربية القديمة ــ فريضة من فرائض الإسلام، فأصبح هذا العمل شعيرة مقدسة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته».

* * *

وهذا الكلام من أوله إلى آخره تخليط وشرود.

فإن الإسلام لم يختص اليهود بتلطفه وإحسانه، حتى يكون متهماً في أدبه مع هؤلاء القوم.

إن الإسلام سبق بالمياسرة والتَّجَمُّلِ في علاقاته مع عبدة الأوثان وأهل الكتاب جميعاً.

ولم يجنح إلى القتال إلا بعدما أحرجه العدوان وتهدد حياته.

أما القبلة الأولى فقد اتَّجه المسلمون إليها في مكة، قبل أن يعاشروا يهود، أو يُكَوِّنوا معهم صلة مَّا.

وذلك طبيعي في دين يعترف بالنبوات القديمة ويصدق أصولها ويخالف الوثنية الضاربة في أرجاء الجزيرة ويخاصم شركها.

فلما حقت كلمة اللّه على أهل الكتاب، وبدا من مسلكهم إزاء الرسالة الجديدة أنهم مصرون على حربها، وأنهم ــ بهذه الحرب ــ ينسلخون عن قواعد الدين كما جاء بها شيخ الأنبياء «إبراهيم»، صرف اللَّه المسلمين عن القبلة التي تجمعهم مع اليهود والنصارى إلى القبلة التي بنى إبراهيم نفسُه أركانها وأقام معالمها.

وقبائل العرب كانت تنطلق صوب الكعبة لعبادة الأصنام المنصوبة حولها، لا لتوحيد اللّه بالصلاة إليها.

فلا شبه بين فعل الرسول وبين صنيع أهل الجاهلية.

والبيت العتيق ليس بناءً عربيّاً يحج إليه جنس معين شاده لنفسه حتى يكون شارة عنصرية.

بل هو أثر الرجل الذي ينتمي إليه اليهود والعرب جميعاً، وتنتسب الديانات الكتابية كلها إليه، أثر إبراهيم الخليل صلوات اللّه وسلامه عليه.

ولكن المستشرقين يصبغون الحقائق بلون ينضح بتكذيبهم للإسلام وتخيُّلهم العليل لحقيقة الرسالة الخاتمة.

وَمُضِيّاً مع فكرة أن الإسلام دين قومي للعرب وحدهم ترى «السير وليم موير» يسطر هذا اللغو المضحك، فيزعم أن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة ــ على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ــ لم تخطر ببال «محمد» نفسه!

ثم يقول: وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كانت فكرته غامضة!

إذ إن عالمه الذي يفكر فيه إنما هو بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يُهَيَّأ إلا لها.

ويزعم الرجل أن «محمداً» لم يوجه دعوته ـ منذ بعث إلى أن مات ـ إلا للعرب دون غيرهم. !

ثم يقول هذا القسيس مـويـر ـ بعد لغط حول عموم الدعوة ـ: «وهكذا قد نرى أن عالميَّة الإسلام غُرِسَتْ بين تعاليم الإسلام.

ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج»!

نقول: وهذا كله كلام فارغ. ويؤسفنا أن يذكَر في مجال بحث علمي ومحترم.

وقد طواه «السير توماس أرنولد» فلم يأبه له، وذكر ـ في بساطة ـ الحقيقة العلمية في الموضوع تحت عنوان «الإسلام دين عالمي» قائلاً:

«لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إنَّ للعالَمِ أجمع نصيباً فيها.

ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يُدعَى إليه الناس كافة.

ولكي تكون هذه الدعوة عامة، ولكي تحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي يروى أن «محمداً» بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى ملوك ذلك العصر.

في هذه السنة أرسل الرسول كتباً إلى «هرقل» قيصر الروم، وإلى «كسرى» فارس، وإلى حاكم «اليمن» وإلى حاكم «مصر» وإلى النجاشي في بلاد الحبشة. وقد قيل: إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم من «محمد» عبداللّه ورسوله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد أسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، وإن تَتَوَلَّ فإن إثم الإكارين عليك.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(1).

على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أُرسِلَتْ إليهم ضرباً من الخَرق فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء.

وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام، فقال قال اللّه تعالى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾(2).

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(3).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(4).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(5).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(6).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(7).

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق عندما كان أهل مكة يُمعنون في النفور من كلام النبي (سورة ١٦: آية ٤٣، ١١٤ إلخ) وعندما عذبوا الرجال

---

(1) سورة آل عمران: آية ٦٤.
(2) سورة ص: آيتي ٨٧ — ٨٨.
(3) سورة يس: آيتي ٦٩ — ٧٠.
(4) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.
(5) سورة الفرقان: آية ١.
(6) سورة سبأ: آية ٢٨.
(7) سورة الصف: آية ٩.

المستضعفين الذين هداهم النبي إلى الإسلام حتى اضطروهم أن يكفروا من بعد إيمان (سورة ١٦: آية ١٠٨)، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في اللّٰه من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة ١٦: آية ٤٢، ١١١).

عند ذلك تلقى النبيُّ هذا الوعد المستغرب:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾[1].

وإن ما يعبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً في قول «محمد» متنبئاً بانتشار دعوته: إن «بلالاً» أول ثمار الحبشة وإن «صهيباً» أول ثمار الروم.

أما سلمان، وهو أول من أسلم من الفرس، فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة، اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة.

وهكذا يصرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي، وذلك قبل أن يدور بِخَلَدِ العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل.

وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لَتُشِير إلى دعوى عموم الرسالة وهي أن رسول اللّٰه قال لأصحابه:

وافوني بأجمعكم الغداة، وكان إذا صلى الفجر احتبس في مصلاه قليلاً، يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة رجال إلى عدة قبائل، وقال لهم: انصحوا اللّٰه في عباده. فإنه من استُرعِيَ شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم اللّٰه عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل «عيسى» ابن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد.

ثم قال «سير توماس أرنولد»:

«. . . ويؤيد دعوى عموم الرسالة، والحق في المطالبة بأن يستجيب لها

---

(١) سورة النحل: آية ٨٩.

جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله من قديم للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين (سورة ٣٣: آية ٤٠)، كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(١).

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾(٢).

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٤).

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٥).

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٦).

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٧).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٨).

---

(١) سورة يونس: آية ١٩.
(٢) سورة الأحقاف: آية ٩.
(٣) سورة البقرة: آية ٢١٣.
(٤) سورة النحل: آية ١٢٣.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٦١.
(٦) سورة البقرة: آية ١٣٥.
(٧) سورة آل عمران: آية ٩٥.
(٨) سورة آل عمران: آية ٩٦.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾(١).

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢).

والسير «توماس أرنولد» بهذه الشواهد التي ساقها، وبذلك الحكم الذي أصدره كان رجلاً عالماً عادلاً، لم يسمح للتعصب أن ينسج على عينيه غشاوة تُعَمِّي عليه الحق، ولا أن ينسج على ضميره حجاباً يجور به في الحكم.

ومن ثَمَّ قلنا: إن هذا المستشرق أدنى رفاقه جميعاً إلى النِّصْفَةِ وأقصاهم عن متابعة الهوى.

ولعلَّ من صَدْعِه بالحق أن يقرر ـ في هدوء ـ كون الدولة جزءاً من الإسلام.

فإنَّ بعض المفتونين ـ تأثراً بالغزو الثقافي الصليبي ـ كان يماري في شمول الإسلام للعقيدة والشريعة، والأدب النفسي ونظام المجتمع، ولشعائر العبادة، ومراسيم الحكم.

مع أن نصوص القرآن وسيرة الرسول قاطعتان في أن الإسلام دين روحي ومدني معاً، وأنه للفرد والجماعة والدولة دون تفريق.

وفي ذلك يقول صاحب «الدعوة إلى الإسلام» تحت عنوان «محمد مؤسس هيئة سياسية منظمة»:

«ولنعد الآن إلى تتبع حياة «محمد» في المدينة.

ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديراً حقيقياً، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شعب الجزيرة.

---

(١) سورة النساء: آية ١٢٥.

(٢) سورة الحج: آية ٧٨.

لم يكن يوجد إطلاقاً أيُّ منهج منظَّم للإدارة أو القضاء كالـذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث.

كـانت كـل قبيلة أوعشيـرة تؤلف جمـاعــة منفصلة ومستقلة تمـام الاستقلال، بل قد ينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة أنفسهم.

فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ القبيلة أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب.

بل لقد كان له مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الكثرة من أبناء قبيلته.

وأبعد من هذا، أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس عند انتهاء أمده.

إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي.

وإذا ما تضخمت قبيلة مَّا وتشعبت فروعاً كثيرة تمتع كل فرع منها بحياة منفصلة ووجود مستقل.

ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية اشتراكاً في الدفاع عن الجماعة، أو قياماً بِغَارات بالغةِ الخطورة.

ومن ثَمَّ نستطيع أن ندرك كيف تمكن «محمد» من أن يجعل نفسه في المدينة، على رأس جماعة من أتباعه، كبيرة العدد، آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه، دون إثارة أي شعور من القلق أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، كما كان يُنْتَظَر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة، أو في أي مجتمع منظم يماثلها.

وهكذا باشر «محمد» سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مـع فارق واحد، هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم.

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام ــ ولو من الوجهة النظرية على الأقل ــ نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام ديني».

واستطرد «سير توماس» يقول:

«كانت رغبة «محمد» ترمي إلى تأسيس دين جديد، وقد نجح في هذه السبيل.

ولكنه ــ في الوقت نفسه ــ أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تَميُّزاً تامّاً.

وكانت رغبته ــ بادىء الأمر ــ مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية اللّٰه.

إلا أنه ــ بجانب ذلك ــ عمل على هدم نظام الحكومة القديم في «مكة» مسقط رأسه وإقامة حكومة دينية مطلقة، وقام هو على رأسها خليفة لِلّٰهِ في الأرض بدلاً من حكومة الأرستقراطية القَبَليَّة، التي كانت الأُسَرُ الحاكمة تتوزَّع سياسة الشؤون العامة تحت لوائها».

* * *

ولنا هنا تعليقات ينبغي إثباتها:

صحيح أن قيام الدولة في الإسلام شيء لم يكن منه بد؛ بل هو في الكيان الإسلامي نمو طبيعي يشبه تدرج الكائن الحي في مراتب القوة والاكتمال وبلوغه مكانة يستطيع فيها إصلاح شؤونه وتقرير حقوقه.

وأغرب المطالب أن يتوجه بعض الناس إلى الإسلام بالاعتراض والتساؤل:

لماذا لم تبق أيها الدين رسالةً عائمةً مطارَدَةً تُعْرَضُ على الناس ــ إن سُمِح لها ــ وكأنها خيال حالم، أو تفكير فيلسوف صغير؟.

لماذا تحوَّلْتَ أيها الدين إلى فكرة تمد جذورها في أعماق المجتمع وتنشر أغصانها في أرجائه، وتصنع الأجيال الجديدة وفق ما تريد، وتدفع عن ثمارها المغيرين والخطافين؟.

ومن الذين يتوجهون بهذا التساؤل؟ الذين يتوجهون إلى الإسلام بهذا التساؤل، هم الذين أقاموا دولةً للوثنية تضيِّق الخناق على التوحيد، ودولةً

للصليبية تطارد المخالفين لرأيها في كل مكان، وتسد أمامهم منافذ الفضاء.

دولةً ظلت، ولا تزال، طوال عشرين قرناً وهي عدو لدود لمن لا يقتنع بثالوثها وقرابينها وتفكيرها المعقد العجيب.

هؤلاء وأولئك هم الذين أنكروا أن تقوم للإسلام دولة.

وهم الذين صاحوا ــ بعد أن تكسرت أنيابهم وهي تحاول عَضّ الإيمانِ المُدَرَّعِ ــ قائلين: إن هذه القوة لا معنى لها ويجب أن تَبِيد!

وَرَدُّنا على هؤلاء وأولئك، أن الدولة في الإسلام ركن هائل لدعم ما احتواه من إيمان وإحسان.

والقوة ليست عيباً. إنما العيب استغلالها السيِّءُ، وتسخيرها لفرض الهوى وإقرار الجور.

والجمال ليس عيباً. إنما العيب التوسل به لإشاعة الخنا، ونشر المنكر.

والسلطة ليست عيباً إذا باشر المرء بها أموره الخاصة ولم يحتج بها إلى تسوُّل عَوْنٍ أو الاستصراخ بمنقذ.

وتولِّي الحُكم، وإدارة دفته ليسا منقصةً إذا كانا إنفاذاً لأوامر اللَّه وإقامةً لحدوده في الأرض.

إن الدولة في الإسلام تنظيم وحراسة، وصون لتراث السماء وأمان لجماهير الناس، وسياج حول الدماء والأموال والأعراض.

ولم تكن الدولة ولن تكون في هذا الدين ذريعة فتك واغتصاب، ولا وسيلة فتنة واضطراب، ولا أداة لتحويل الناس قسراً عن عقائدهم، وما ارتضوه من ألوان الإيمان.

والإسلام لم يجعل من الحكم قنطرةً لإدخال الناس فيه كرهاً.

بل إن الإيمان الناشىء عن إكراه لا قيمة له عنده، وليس له عند اللَّه مثوبة.

وكما أن كلمة الكفر التي ينطق بها المؤمن كرهاً لا تخلعه من الإيمان، فكذلك كلمة الإسلام التي يتلفظ بها تحت الضغط لا تخرجه عن الكفر!

والإسلام دين يرد الأعمال إلى النيات، ولا يهمل أبداً شأن القلوب.

والزعم بأن الإسلام استغل الحُكم يوماً لمطاردة الكافرين وإرغامهم على اعتناقه زعم مكذوب من أوله لآخره، وخَلَّة في الآخرين يرمون بها الأبرياء شأنَ كل مُريب صفيق.

* * *

إن الشيء الذي يَغيظ أعداءَ الحقيقة، هو أنّ الإسلام زوَّدَتْه العنايةُ الإلهية بتعاليمَ تجعله صَلْبَ المَكْسَرِ، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة، ولا أن ينال منه بِيُسْرٍ.

بل نقدر أن نقول: لقد كان هذا الباطل يزأر في عَرَصَات الدنيا دون تَهَيُّبٍ، ويزعج الآمنين في كل قُطرٍ دون وَجَل.

فلما ظهر الإسلام، واشتبك الباطل معه ـ على عادته ـ عاد من هجومه مقصوم الظهر، مخضول الكف.

فراح يجأر بالشكوى أن الإسلام دين سيف، وأن الحكم في رحابه جعله صلب العود. نعم هو كذلك، وما عيب السيف إذا رد المعتدين؟ وما عيب الصلابة في الحق إذا استعصت على الفتانين؟

إن السؤال الذي يجب أن تتحدد الإجابة عليه هو: هل كان الحكم في الإسلام أساساً لفتنة غير المسلمين عن دينهم؟

هل كانت الدولة في خدمة الدعوة من حيثُ استغلالُ أجهزتها للفتنة والإعنات؟ والجواب نأخذه من كلام «سير توماس أرنولد» نفسه.

لقد ذكر الرجل في الباب الثالث عشر كيف أن الإسلام لا توجد فيه هيئة منظمة للدعاة، وأن انتشاره خضع ـ أولاً وآخراً ـ لحماسة الأفراد وقوة إيمانهم بصدق رسالتهم، وعظمة دعوتهم..

والإسلام ـ في هذا ـ يخالف النصرانية التي قامت فيها أجهزة منظمة للتبشير والدعاية على أوسع نطاق.

بل التي قامت لها دول تستأصل المخالفين، وتضِنُّ عليهم بحق الحياة.

قال «السير توماس أرنولد»:

«ومهما تكن المساوىء التي نجمت عن حاجة المسلمين إلى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشىء عن المسؤولية التي ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد.

ولما لم تكن هنالك واسطة بين المسلم وربه، فإن مسؤولية خلاص الشخص ملقاة على كاهله وحده.

وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلمُ ــ كما جرت العادة ــ أكثرَ تشدداً واهتماماً في أداء واجباته الدينية، وأشدَّ تحمُّلاً للمتاعب في سبيل تعليم مبادىء دينه وإقامة شعائره.

وبذلك يؤثر لنفسه ــ وقد رسخت في ذهنه أهمية هذه المبادىء وتلك الشعائر ــ أن يصبح رمزاً لخُلُق الداعي إلى دينه بين يدي الكافر.

ومهما تكن المبالغة عظيمة في القول، ومهما رَدَّدَ الباحثون القول بأن كل مسلم داعية إلى دينه يبقى هذا القول حقيقياً.

ونجد في ثَبَتٍ يتضمن أسماء دعاة من الهنود المسلمين، نُشِر في صحيفة إحدى جمعيات «لاهور» الدينية الخيرية، أسماء معلمي مدارس، وكُتَّابٍ للحكومة في مصلحتي القناة والأفيون، وتجارٍ (بينهم أحد العمال في عربات النقل بالجمال)، ومحررٍ بإحدى الصحف، ومُجَلِّدِ كُتُبٍ، وعاملٍ في مطبعة. ماذا صنع هؤلاء؟

خصَّص كل واحد من هؤلاء الناس ساعات فراغهم ــ بعد إنجاز عملهم اليومي ــ للدعوة إلى دينهم في الطرقات وأسواق المدن الهندية، ملتمسين اجتذاب مسلمين جُدُد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعاً، فكانوا يجادلونهم ويحملونهم على عقائدهم.

قال: «ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام لم يكن من

عمل الرجال وحدهم؛ بل لقد قام النساء المسلمات أيضاً بنصيبهن في هذه المهمة الدينية، فيرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة.

ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين عندما أغاروا على الأقطار الإسلامية.

وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم شمالي بحيرة «تشاد» مدارس للبنات، واستغلوا ما تحدثه النساء بعلاقات المصاهرة من نفوذ قويّ بين القبائل (كما كان لهن مثل هذا النفوذ بين جيرانهم من البربر) فبذلوا جهودهم لتكوين داعيات يجتذبن الآخرين إلى صفوف الإسلام.

وفي أفريقيا الشرقية الألمانية دخل في الإسلام هؤلاء الأهالي الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر أو أكثر للعمل في السكك الحديدية أو الأراضي الزراعية، دخلوا فيه على أيدي نساء مسلمات تعاقدوا معهن على زواج مؤقت.

فإن أولاءِ النساءَ كُنَّ يرفُضْنَ أن يتعامَلْنَ في شيء مع كافر لم يختتن بعدُ. فكان بعولتهن يتجنبون ذلك العار الذي يلحق من يحمل مثل هذا اللقب بأن يختتنوا وبذلك يقبلون الدخول في الجماعة الإسلامية.

وقد قيل: إن تقدم الإسلام ببلاد الحبشة في خلال النصف الأول من القرن الماضي إنما يرجع إلى حد كبير إلى ما بذله النساء المسلمات من الجهود...».

ثم قال «السير توماس أرنولد»:

حتى المسلم الأسير.. كان يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر إلى دينه!.

وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سيق أسيراً في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين وجيء به إلى بلاد Pechenegs في مستهل القرن الحادي عشر.

وقد بسط هذا الفقيه بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام فاعتقدوه في إخلاص، حتى إنه أخذ في الانتشار بين الشعب، وأقبلت عليه طوائف شتى. أما سائر الـ Pechenegs الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام فقد ارتابوا في تصرف مواطنيهم، وكرهوا منهم هذا التحوُّل، ثم انتهى الأمر إلى نشوب القتال بينهم.

وقاوم المسلمون ــ وكان عددهم يبلغ نحواً من اثني عشر ألفاً ــ هجمات الكفار في نجاح.

ومع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداً بما يزيد على الضعفين، فقد فشلوا أمامهم فشلاً ذريعاً.

ثم دخلت فلول المهزومين في دين المؤمنين القلائل المنتصرين.

ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتنق الإسلام، وكان من بينهم مسلمون نابهون تعلموا الفقه والتوحيد.

وفي عهد الأمبراطور جهم جير (١٦٠٥ ــ ١٦٢٨) كان هنالك عالم سُنِّي من علماء التوحيد يُدعىٰ «الشيخ أحمد مُجَدِّد» تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص.

ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين فقد نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة.

وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن»!

* * *

إن القرآن الكريم عبأ قلوب المسلمين بإيمان من طراز عال خاص، إيمانٍ جعل صلتهم بربهم لا تسبقها صلة، وحُبَّهم له لا يعدله حب.

وصحيح أن الإسلام لم تتهيأ له أجهزة دعاية منظمة ترسم خطط انتشاره، وتتعرف الميادين التي يسير فيها، والعقبات التي قد يلقاها، والخصوم الذين يحملون عليه عن جهالة أو عناد.

ومع ذلك فإن اليقين الفرديَّ، وحماسَ المسلم للّٰه ورسوله، سَدَّ مَسَدَّ هذا النقص إلى حَدٍّ بعيد.

إن المسلم كما يتحلّى بفضائل الصدق والحياء، ويَعُدُّ ذلك ضرورةً في خلائقه كإنسانٍ له ضميره اليَقِظ وكماله الواجب، يتحلى أيضاً بتعليم الجاهلين وإرشاد الحائرين، ويعد إضاءة نفوس الآخَرين بأنوار الحق الذي شرفه اللّٰه به عبادةً يتم بها إيمانه وتصلح عليها نفسه ويمهد بها لمستقبله عند ربه. وهو ــ بداهةً ــ لا يرجو من هذه الهداية، إلا أن يقوم بحق اللّٰه.

وإذا كان هنالك من كسب عاجل يرجوه في الدنيا فهو إخاء مؤمن جديد يضمُّه إلى حظيرة المؤمنين القُدامىٰ.

والدعوة إلى اللّٰه محكومة دائماً بأن العمل للّٰه، والهجرة للّٰه، والجهاد للّٰه. مفهومة دائماً في نطاق إخلاص النية، وتجريد القصد.

وقد كان الفسادُ في «شكل الدولة» أو «نظام الحكم» أسرعَ أنواع الخلل التي أصابت بلاد الإسلام.

إلا أن هذا الفساد لم يظهر في صورة إرغامٍ لغير المسلمين على الدخول في الإسلام.

بل على العكس، ظهر طوراً في استبقاء الجزية على من أسلم مع وجوب سقوطها عنه!

وظهر كذلك في زهد الدولة أن تقوم برسالة الدعوة على النحو المطلوب، واكتفاء الحكام بتولّي السلطة، أو بالنزاع عليها في الداخل، دون اكتراث بإرسال البعوث إلى الأقطار المحرومة من الدين كي تشرح حقيقته وتبرز ما فيه من خير للناس ورحمة للعالمين.

وقد رأيتَ أن الأفراد ــ مِنْ تِلقاء أنفسهم ــ قاموا بهذا العِبء، ونقلوا الإسلام إلى عشرات الأقطار، وأدخلوا فيه ــ بحسن التلطف ــ ألوفاً مؤلفة.

* * *

وقد قاتل المسلمون فعلاً.. وسوف يقاتلون ما بقيت المثيرات الداعية إلى امتشاق الحسام. نعم قاتلوا.

وقبل أن نضرب الأمثلة للظروف التي حملوا السلاح فيها نحب أن نبرز الصفة التي لا تنفك عن هذا القتال.

وهي أنه في سبيل اللَّه، لا في سبيل النفس والهوى، وطلباً للآخرة لا اغتصاباً للدنيا، وسرقة للأرض، واستعباداً للناس.

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(1).

وانظر كيف قدَّم القرآن أمام المجاهد في هذه الآية أن يموت، لا أن يبقى، وأن يُقتل لا أن ينتصر. وذلك كيما يجعل نظرته إلى الآخرة لا إلى الدنيا.

وهنا يجيء السؤال المتوقَّع: لم كان ذلكم القتال؟ وهاك الإجابةَ مفصلةً.

لا جدال أولاً في أن القتال كان دفاعاً عن النفس، وردّاً للعدوان، واحتفاظاً بما ارتضاه الإنسان لنفسه من إيمان مشروع، بل مطلوب.

وأن وزر أي حرب من هذا القبيل يقع على رؤوس الذين أشعلوها.

ولذلك لا نطيل الكلام في هذا النوع من القتال الذي خاضه المسلمون.

وإنما نتحدث في الحروب التي يُظَنُّ باديَ الرأي أنها أُعلِنَتْ مقترنةً بنشر الدين، وغادر المسلمون فيها مواطنهم إلى بلاد أخرى، هي التي دارت فيها المعارك، وأصابها من ذلك ضر شديد.

ونحب أن نسأل نحن ابتداء: ما الذي يُنْتَظَرُ أن تكون عليه العلاقة بين دولة مسلمة، ودولة أخرى تدين بغير الإسلام وتُحرِّم على رعاياها تحريماً حاسماً أن يستمعوا إلى القرآن، وأن يتدبروا آياته؟؟

بل ما الذي يُنْتَظَرُ إذا بطشت السلطة القائمة في بلدٍ مَّا بمن شرح اللَّه

---

(1) سورة النساء: آية ٧٤.

صدره للإسلام، فوثبت عليه وعلى أهله تُوقِعُ بهم ألوان النَّكال؟

لقد حدث في «مكة» قديماً أن تغيَّظت الحكومة الوثنية من الذين نبذوا عبادة الأصنام وآثروا عبادة اللّه وحده.

فأعلنت عليهم حرباً شعواء لتفتنهم عن عقيدتهم، فكانوا يجأرون بالدُّعاء.

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾(١).

ماذا يُرْتَقَبُ من الدولة الإسلامية وهي ترمق من بعيد هـذا المنظرَ المحزنَ؟ أتكون صديقة مخلصة الوُدِّ لهذا الحكم الجائر؟ كلا.

ماذا ننتظر منها، عدالة؟ ألا تنصح بحسن المعاملة لمن يدخلون في الإِسلام؟

فإذا كان هذا النصح مرفوضاً لأن السلطة المستبدة في الجانب الآخَر تُعِدُّ العُدَّةَ لاَ لِاستئصال الإسلام داخل نطاقها فحسب، بل لاجتياحه في الدولة التي تمثله، فماذا يكون الموقف؟

هل إذا قامت الحرب لكسر هذه السلطة الغاشمة، وترك الناس أحراراً، يُسلم منهم من يُسلم، ويكفر من يكفر.

هل تكون هذه الحرب هجوماً إسلامياً لنشر الدعوة؟

خذ مثلاً الحالة في «روسيا» أيام القياصرة الأولين.

إن الأمبراطور «فلاديمير» اعتنق النصرانية وترك الوثنية.

حسناً، فماذا صنع؟

يجيب «السير توماس أرنولد» قائلاً: في سنة ٩٨٨ جهر بالمسيحية، وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الأوثان التي عبدها أجداده.

ثم ماذا؟... أصدر مرسوماً بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيداً أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية.

---

(١) سورة النساء: آية ٧٥.

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس ـ الرسمية..».

لكن هناك فريقاً كبيراً من الشعب الروسي يعتنق الإسلام.

فماذا يكون موقفه؟

الموقف في نظر القياصرة الحاكمين أن تتخذ الإجراءات لتنصير المسلمين الموجودين ومنع أي امتداد في المستقبل لهذا الدين، وتسمية أصحابه كفاراً، والراغبين فيه ـ من النصارى ـ مرتدين!

قال «السير توماس أرنولد»:

«وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهوداً جِدِّية لتنصير القبائل الوثنية، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم وتركوا المسيحية إلى الإسلام.

وبذلت الحكومة كثيراً من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم من جديد.

ففي سنة ١٧٧٨ أمرت الأمبراطورة «كاترين» الثانية بأن يُوقِّع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية، وتجنُّب كل اتصال بالكفار ـ تعني المسلمين ـ والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما.

وعلى الرغم من هذا كله، لم يكن هؤلاء الذين أُطْلِقَ عليهم «التتار» والذين تم تعميدهم إلا مسيحيين اسماً. أما حنينهم إلى الإسلام فلم يفارقهم.

وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلّص مما بذلته الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، فتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام.

يقول المؤلف: والحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دُوِّنَتْ خطأً في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين.

ولكنهم على كل حال وقفوا في ثبات وقوة ضدَّ أية محاولة بُذِلَتْ لتنصيرهم».

فهل تركَتْهم الدولة ودينَهم الذي ارتضَوه؟ كلا!

يقول المؤلف:

ويظهر أن هؤلاء التتار ـ لكونهم قد ظلُّوا دائماً مسلمين بقلوبهم ـ

قاوموا التدابير الفعالة التي اتُخِذَتْ لتجعل اعتناقهم الاسمي للمسيحية حقيقة واقعة.

ففي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بُذِلَتْ جهود أُخرىٰ لتنصير هذه القبائل الإسلامية عن طريق إنشاء مدارسَ بينهم.

قال: «وكانوا ــ يعني الروس الحاكمين ــ يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا إليهم شبيبة ذلك الجيل.

إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين جماهير التتار.

فإن استمـالة مواطني «قازان» الراشدين ــ كما يقول أستاذ روسي ــ أمر صعب المنال، ولكننا نستجلب نفراً قليلاً من سكان القرى الواقعة في السهل، ونروضهم على كنيسة اللّه، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يُعْرضوا عنا أبداً.

لماذا؟ أهي بشاشة الإيمان خالطت قلوبهم؟ كلا.

ذلك أن القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائماً عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية مهما كانت الطريقة التي أُدخلوا بها ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويـل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه، مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر.

وبرغم أوامر الحكومة هذه نجحت الدعاية الإسلامية في جذب قرىً بأسرها إلى عقيدة الإسلام، ولا سيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي.

وحدث في سنة ١٨٨٣ أن سيق فلاحو التتار بقرية أبوزوف (Apozof) إلى محكمة «قازان» لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسي.

وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام ــ أي أن أسماءهم كتبت مسيحية ظلماً ــ، ومع ذلك حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر، ونُفِيَ كثير من الذين ارتدوا عن دينهم إلى سيبيريا».

* * *

ماذا يصنع الإسلام بإزاء حكومات من هذا القبيل؟

حكومات تُشَرِّعُ القوانين لاضطهاده، وترسم السياسات القريبة والبعيدة لتقييد نشاطه وشلِّ حِرَاكه، وتعذيب معتنقيه، وترويعهم في حالهم ومآلهم؟

ماذا يصنع الإسلام للرومان وللفرس ولأمثالهم، إذا كانت حكوماتهم من هذا الطراز المستبد المجنون الذي لا يسمح أبداً بحرية العقل والضمير.

إنني أعرف أن هناك باحثين أعمى الهوى فكرَهم يتجاهلون كل هاتيك الآثام ثم يقولون ــ بعد أن يُسَوِّغُوا الوضع في «روسيا» وفي غيرها ــ: لماذا قاتل الإسلام؟

إن الشيء الوحيد الذي يريح بالهم هو أن يستسلم الإسلام للذبح وأن يتقبل حَزَّ السكين على عنقه دون احتجاج أو نكير.

إن المسلمين الآن يلقَون أقبح العذاب في «فلسطين» وفي «الحبشة» وفي «الجزائر» وفي بقاع أخرى كثيرة.

فهل إذا نجدتهم قوة عادلة منصفة قال بعض الناس: هذا من الإسلام تعسف في نشر الدعوة، وتعصب ضد الآخرين؟!

إن الإسلام قاتل الرومان والفرس لا ليُدخِلَ الناسَ في الإسلام، بل ليثبت حرية التدين ويزيح العوائق أمام الضمير الإنساني والفكر الإنساني.

أيجرؤ أحد على القول بأن هذه الأمبراطوريات كان فيها ظل لتسامح في الدين، أو لتقارب بين مذهب ومذهب؟؟

وما لنا نذهب إلى الأمبراطوريات القديمة نستقي منها الشواهد؟

هذه إنجلترا البروتستنتية ما موقفها من حرية التدين؟

إن الحروب الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ظلت ــ خلال العصور الوسطى ــ أمداً طويلاً، وهي تنشر الفزع والهول في أوروبا.

كل مذهب يرى في أتباع المذهب الآخر كفاراً يجب استئصالهم.

وبعد دهر طويل من المذابح المتبادلة، تراضى القوم على نوع من

المعايشة السلمية يحقن الدماء، ويعطي كل فريق حرية التدين على النحو الذي يشاء.

والحق أن هذه الهدنة لا تنبثق من احترام معنى الحرية.

ولكن تداخل الطوائف المختلفة، وتشابك المصالح العمرانية والسياسية أكره الجميع على قبول الوضع القائم مع إكنان البغضاء له.

وهاك مثلين يدلان على طبيعة الأحوال في ظل الحكم البروتستنتي الإنجليزي:

١ ــ ذكرت جريدة «المقطم» بقلم رئيس تحريرها «خليل بك ثابت» ــ قبل خمسة عشر عاماً ــ الواقعة الآتية: في معرض تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى، قالت:

من طقوس «الكاثوليك» التي يمارسونها في كل البلاد، إقامة حفل سنوي يوم الأحد من عيد الفصح كل عام يدعى «زفة الجسد».

في هذا الحفل يحمل رجال الدين الكاثوليكي الصليب الكبير، ويطوفون في احتشاد ضخم ببعض أحياء المدن، ثم يعودون آخر الأمر إلى الكنيسة.

وهذا الاحتفال يقام سنويًّا في جميع البلاد الإسلامية التي تعيش فيها أية أقلية كاثوليكية، دون أي اعتراض من جانب السلطات الإسلامية.

أما في إنجلترا ــ حيث يقيم عدد كبير من الكاثوليك الإنجليز ــ فإن الحكومة الإنجليزية تمنعهم من إقامة هذا الاحتفال!

وقد أراد الرئيس الديني الأكبر للكاثوليك في «لندن» أن يمارس هذه الطقوس، فكتب إلى وزير الداخلية البريطانية كتاباً خلاصته:

بما أن الدستور البريطاني يضمن لجميع المواطنين حريتهم الدينية، فإني أحيطكم علماً بأنا سنحتفل بذكرى «زفة الجسد».

وسنقتصر على الطواف حول كنيستنا الكاثوليكية فقط.

فأجابه «وزير الداخلية» وكان حينئذ المستر «اسكويت» بكتاب جاء فيه:

بما أن الدين الرسمي لهذه البلاد البريطانية هو «البروتستانتية» فإن

الحكومة لا تسمح أبداً بإظهار طقوس أخرى غير الطقوس «البروتستانتية».

ولذلك فإن الأوامر أصدرت إلى الشرطة بمنع إقامة مثل هذه الحفلة خارج الكنيسة منعاً باتاً.

٢ ـ منذ نحو خمسين عاماً، وحينما كانت بريطانيا تحكم مئات الملايين من المسلمين، حاولت الطائفة الإسلامية في «لندن» مع بعض زعماء المسلمين الشرقيين إنشاء مسجد في «لندن».

فتبرع «نظام حيدر أباد الدكن» بمبلغ كبير، وكذلك نواب «بهوبال»، وأمثالهم من أمراء المسلمين في الهند، كما تبرعت الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات الإسلامية ببعض المبالغ لهذا المشروع.

ولم تُظهر الحكومة البريطانية معارضةً لهذه الرغبة.

وكل ما صنعت أن وعدت بأن محافظة «لندن» ستختار أرضاً مناسبة لإنشاء المسجد.

وتجددت المساعي مراراً من قبل الجالية الإسلامية، وتألفت لجان عديدة من السفراء المسلمين في لندن لتحقيق المشروع، خلال هذه الفترة الطويلة.

ولكن التعصب الديني المستحوذ على الإنجليز لم يسمح حتى اليوم بإنشاء هذا المسجد!

وبعد أكثر من خمسين سنة، لا يزال جواب الحكومة الإنجليزية كما هو: إن محافظة «لندن» تبحث عن الأرض المناسبة.

ولم يتم إنشاء هذا المسجد... ولن يتم.

ذلك... رغم أننا سمحنا بإقامة مئات من الكنائس البروتستانتية الإنجليزية في البلاد الإسلامية، في الماضي القريب والبعيد.

ولا تزال الكنائس والمعاهد الدينية البروتستانتية إلى يوم الناس هذا يسمح ببنائها في كل قطر من أقطار المسلمين.

وقد يتوهم بعض الناس أن في إنجلترا مسجداً يدعى مسجد «ووكنغ»

في بلدة «ووكنغ» الواقعة على بعد خمسين ميلاً من لندن.

والحقيقة أن هذا البناء هو عبارة عن غرفة صغيرة لا تزيد عن بضعة أمتار، وقد أنشأها القاديانيون المعروفة صلتهم الوثيقة بالإنجليز.

أما الإنجليز أنفسهم فبرغم ما لهم من علاقات كثيرة مع الشعوب الإسلامية فإنهم لم يقبلوا إنشاء مسجد واحد في لندن، مسجد واحد فحسب! وذلك على رغم الجهود العظيمة التي بذلت في هذه السبيل.

* * *

وإذا كان الإسلام يشتبك في قتال طويل مع السلطات الغاشمة كيما يكسر القيود التي وضعتها على حريات الضمائر والعقول وكيما تتجه الجماهير في إيمانها الوجهة التي تؤثرها دون حَرَج أو تَهَيُّبٍ، فهو كذلك يقاتل من أجل غاية أخرى، من أجل إقرار العدالة بين الناس ومنع الفساد في الأرض.

هَبْ أمةً مًا لم تتعرض للمسلمين من قريب أو من بعيد.

ولكن وقعت فيها فتن عمياء جعلت اختلاف المذاهب أو اختلاف الألوان يؤثر تأثيراً سيئاً على بعض الطوائف ويجعلها ضحية معرضة للعسف والإرهاق.

هل نقف محايدين بإزاء المآثم التي تُرتَكب، والضَّيْم الذي يتعرض له نفر من الناس؟؟ كلا.

إن إنعاش المضطهدين، لوجه اللّه!! وإنقاذهم من الهوان النازل بهم، هدف من أهداف الإسلام الذي يريد أن يسوق الرحمة إلى العالمين.

في «الهند» مثلاً كان يقع تفاوت مثير عرفه الناس أجمعون.

كان المتدينون ــ استجابة لعقائدهم ــ يُقَدِّسُون قطعان البقر، ويحملون روثها على الأعناق.

في حين تقع جماهير المنبوذين تحت طائلة هوان دائم، وتحقير مرير. . . أرأيت هذه النقائض المستغربة؟

إنسان تهدر كرامته، وحيوان تقبَّل قرونه وحوافره!!

فإذا اتسعت الدائرة التي تضم أولئك المنبوذين التعساء وبلغوا الألوف المؤلفة فهل يلام الإسلام إذا ساق جيوشه لتصحيح هذه الأوضاع المقلوبة؟

وهل يعتبر الفاتحون للهند مهاجمين لأنهم تدخلوا ـ باسم اللَّه ـ كي يحموا كرامة الإنسان؟

وما لنا نضرب المثل من أقطار وثنية؟

فَلْنُلْقِ نظرة على أوطان المسيحية نفسها بعدما ضَرِيَتْ فيها الفُرقة المذهبية، واستمكن القويُّ فيها من التهام الضعيف.

ترى هل رقَّ لقلته أو لضعفه؟

إننا نضرب المثل بصراخ زعيم مسيحي يجأر من أفعال الكاثوليك معه.

ومتى؟ بعد ظهور الإسلام بعدة قرون!

كأن البغضاء المذهبية لم تنقص ذرة بعد تغير الأوضاع وانتشار الإسلام، وتوقُّع شيء من التقرب بين أتباع الكنائس المختلفة.

إنها، لم تنقص، ولن تنقص.

قال السير «توماس أرنولد»: وربما كان يحق لـ «مقاريوس» بطريق «إنطاكية» في القرن السابع عشر أن يهنىء نفسه، حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون الكاثوليك على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

قال «مقاريوس»: إننا جميعاً قد ذرفنا دمعاً غزيراً على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين وربما كان عدد القتلى قد زاد على سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً.

فيها أيها الخونة، يا مردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم؟.. ولِمَ أسميهم البولنديين الملعونين؟ لأنهم أشد انحطاطاً وأكثر شراسة من عُبَّاد الأصنام المفسدين وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة

المسيحيين، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس.

أدام اللَّه بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهوداً أم سامرة.

أما هؤلاء البولنديون الملعونون فلم يقنعوا بأخذ الضرائب، والعشور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر.

بـل وضعوهم تحت سلطة اليهـود الظالمين أعـداء المسيح الـذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يتركوا لهم قُسُساً يُعَرِّفونهم أسرار دينهم.

حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظيَ رعاياهم من قبلُ بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية».

ثم قال السير «توماس أرنولد»: وكثيراً ما قدم الكُتَّاب المسيحيون الذين لا يُكِنُّون للعثمانيين محبة ولا وُدًّا، تقدمة المدح والثناء على فضائل المسلمين الأتراك.

فمن أولئك كاتب كان له رأي سيء في عقيدتهم يتحدث عنهم بقوله: «حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية ــ هكذا يقول ــ.

وفي الحق لو قرأ المسيحيون باهتمـام شريعـة المسلمين وتاريخهم وتدبروهما لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حدٍّ هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدُّقهم.

وإلى أي حَدٍّ هم متفانون في إخلاصهم، قانتون في مساجدهم.

وإلى أي حدٍّ هم مطيعون لرئيسهم الروحي!!

حتى إن الحاكم التركي العظيم نفسه لا يحاول أمراً إلا بعد مشورة المفتي.

وإلى أي حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم حيث وُجدوا وأياً كانت مشاغلهم؟

ما أشد مراعاتهم دائماً لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع.

وما أكثر توادَّ المسلمين وتراحمهم، وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالغرباء في نُزُلهم، سواء بالفقير أم بالنازح المسافر.

لو تأملنا عدالتهم، ونزاهتهم، وسائر فضائلهم الخلقية، لخجلنا من جمودنا، سواء في عبادتنا أم في تراحمنا، ولخجلنا من جورنا، وإفراطنا، وتعسفنا. فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا.

ولا شك أن عبادتهم وتقواهم، وأعمال الرحمة فيهم هي الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية».

ونحن نُدَوِّنُ صيحةَ هذا المؤرخ المسيحي من غير تعقيب ثم ندع «سير توماس أرنولد» يتابع كلامه، واستنتاجه ليقول:

«وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال:

نجد كثيرين من الإغريق، من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية، قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين، أنهم ـ حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء ـ كانوا يدخلون في دين «محمد» بمحض إرادتهم.

ولا بد أنه كان لِتَفَوُّق المجتمع التركي من الناحية الخُلُقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر، بقدر ما كان للطموح الشخصي من أثر في هذه السبيل...».

إن فضائل المسلمين الشخصية وتسامحهم الرائع في معاملة الآخرين واستهدافهم العدالة والرحمة مع الأجانب وإن اختلف الدين، كل ذلك جعل

عدوهم يشهد لهم بالخير، ويعترف ـ طائعاً أو كارهاً ـ بأن الإسلام قدَّم لسائر الأمم ضُروباً من الإحسان والإنصاف لا نظير لها، وأنه خطا بالعالم خطواتٍ فِساحاً في ميدان التسامح والرحمة، وأنه فعل ما فعل وزمام القوة بيده، والقدرة على سحق الخصوم لا تنقصه.

ولقد تعمدنا أن نفصل بعض التفصيل في هذا المعنى، لأن السير «توماس أرنولد» ذكر كلاماً بين يدي الفتوح الإسلامية لا ندري كيف أقره، أو كيف سمح لنفسه بتسطيره.

كلاماً لا ندري أننقم منه؟ أم نضحك عليه؟ أم نضرب صفحاً عنه باعتباره لغواً لا يمت إلى التاريخ العلمي بسبب؟؟

هذا الكلام يدور حول تعليل الفتوح الإسلامية بدوافع اقتصادية.

أي إن العرب كانوا جياعاً في جزيرتهم، ثم خرجوا بقيادة «محمد» وخلفائه بحثاً عن القوت!

والغريب أن لفيفاً من المستشرقين يكرر هذا القول!

ولا نقف طويلاً لنعلق على هذا السخف.

ولكننا ـ قبل أن نذكره ـ يجب أن نتأمل هذا التضارب الغريب في ذهن رجل فاقه كالسير «توماس أرنولد».

إن تفكير هذا الرجل يغفو حيناً ويصحو أحياناً كثيرة.

وهو ـ إذ يغفو ـ إنما يكون واقعاً تحت تأثير الرواسب الموروثة بين المسيحيين الذين يكرهون «محمداً» ويمقتون رسالته.

وفي خلال هذه الغفوة الفكرية يصدر ذلك القدح النابي في رسالة الإسلام وذلك الحكم الجائر على تاريخه.

أجل في خلال هذه الغفوة تمر قضايا لم يمحصها منطق ولم يضبطها عقل.

ثم يعاود الرجل صحوه وتعود إلى ذهنه وَمَضاتُه الذكية الناقدة المكتشفة

فيلزم الحياد ويذكر الواقع، ويسجل لهذا الدين محامده، ويسجل لتاريخه ما يستحقه من تقدير.

وربما كان القول بأن المسلمين الفاتحين خرجوا من جزيرتهم طلباً للقوت قياساً لماضي المسلمين الأولين على حاضر المستعمرين الإنجليز والفرنسيين وأضرابهم.

فإن الاستعمار الغربـي الحالي لا يحدوه مثل أعلى.

ولا يدري مِنْ ضَرْبِهِ في أقطار الأرض إلا أن ينتهب ويختلس.

والمعروف أن موارد انجلترا الداخلية لا تكفي الأهلين أكثر من ستة أسابيع، وأن عليهم ــ ليطعموا ــ أن ينطلقوا في آفاق العالمين ينشدون الرزق.

بيد أن من الشناعات العلمية التسوية بين ربانيين تركوا ديارهم في سبيل اللَّه، وخرجوا من بيوتهم والآخرة أحب لديهم من الدنيا، وبين خطافين تركوا قارتهم للإغارة على الناس، ونشدان الأقوات أو اللذائذ.

إن للفتح الإسلامي شأناً آخر غير ما يخبط فيه صغار النفوس.

ونحن نذكر ما يقوله هذا النفر من المتكلمين، ليفضح الكلامُ أصحابَه، وليُعْرَفَ مبلغُهم من العلم.

قال السير «توماس أرنولد» تحت عنوان «فتوح العرب وتوسع الجنس العربـي بعد وفاة محمد»:

«بعدوفاة «محمد» أرسل أبو بكر الجيش الذي كان النبـي قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، على الرغم من معارضة بعض المسلمين، الذين وجلوا من الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك، فأسكت احتجاجاتهم بقوله:

«لا أرد قضاء قضى به رسول اللَّه، ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبـي».

وكانت هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاح العرب فيها «سورية» و«فارس» و«إفريقية الشمالية».

فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الأمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها.

ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب أن نتتبع الفتوحات العربية، ولا أن نكشف عن هذه الظروف التي جعلت مثل هذا التوسع أمراً ممكناً.

وقد أجاد مؤرخ كبير، عرض المشكلة التي تواجهنا هنا في الكلمات الآتية:

قال: «هل كانت الحماسة الدينية الخالصة سر تلك الفتوح الضخمة؟

هل كانت تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة في الازدهار صافية تمام الصفاء، هي التي أَمَدَّتْ جيوش العرب بالنصر في كل موقعة من المواقع، وأقامت ـ في مثل هذا الزمن القصير ـ أعظم أمبراطورية شهدها العالم؟ إن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك (!).

إذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبـي، وقبلوا تعاليمه عن حرية، واقتناع صادق، ضئيلاً جداً (!).

على حين ـ نجد من ناحية أخرى ـ أن الكثرة إنما كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين إلا عن طريق الضغط عليهم، أو طمعاً في نفع دنيوي». يا للكذب!! ثم ماذا أيها المؤرخ الكبير؟ قال:

«وقد عَبَّر «خالد»، وهو سيف من سيوف اللّه، في أسلوب جد مؤثر عن هذا المزيج من القوة والإقناع، الذي أسلم عن طريقه هو وكثير من رجال قريش حين قال:

إن اللّه أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم، وأرادهم على أن يتبعوا النبـي.

قال: وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير فيما أحرزوا من انتصارات.

قال المؤرخ الكبير: وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب في ذلك الوقت منه بين أي شعب آخر.

وقد حمل هذا الشعور وحده الألوف المؤلفة، على أن يؤثروا مُوَاطنهم العربـيَّ ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى.

وكان أقوى من ذلك جذباً لهم إلى الإسلام، أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة إذ يجاهدون في سبيل الدين الجديد ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس، تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر.

ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الأمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام (!).

وإنما الذي حدث أنه تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية، حتى لقد ظن كثيرون أن ذلك الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب.

ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية، أو سبب القضاء على الدولة الرومانية.

وفي ضياء النصر الذي عُزِيَ إليه، حجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة الإسلامية.

ولكن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازية، تلك التي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس، لم تكن روح تَحَمُّسٍ وغيرة ترمي إلى تلقين الدعوة الجديدة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام.

بل كان الأمر على العكس من ذلك ــ هكذا يقول المؤرخ الكبير ــ

فإن البواعث الدينية ــ كما يظهر ــ لم تكن قد تسربت إلا قليلاً في نفوس أبطال الجيوش العربية. إذن، فما سر هذه الانطلاقة الفريدة؟

يقول: ويعتبر توسع الجنس العربي ــ على أصح تقدير ــ هجرة جماعة ناشطة، قوية البأس دفعها الجوع والحرمان، إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً، كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً».

* * *

جوع وحرمان وتطلع إلى ما في أيدي الجيرة الغنية المستضعفة!!

هذه هي بواعث الفتح الإسلامي!!! كما نقلها السير «توماس أرنولد»...

إن العرب الذين غبرت عليهم القرون وهم أقل الناس حظاً من القوى المادية والأدبية وسط دول ضاربة العروق في الحضارة والبأس، قد تَصَوَّرَهُم ذلك الذهنُ الْأَخْرَقُ وكأنهم «إنجلترا» تحارب أهل كينا.

ولما كان هذا الكلام لا يرتفع إلى درجة العلم الذي يناقَشُ فنحن نهمله . .

ولكن من الإنصاف لتاريخ الإنسانية وكبحاً لجماح المفترين أن نختم بحثنا بهذه الخلاصة عن مسلك الاستعمار الصليبي في البلاد التي نزل بها.

وهي خلاصة موجزة من كتاب «الصحو الأفريقي»(١) تأليف «بازل دافيدسون».

لقد توجه المؤلف بهذه الصيحة في مقدمته، قال:

إلى هؤلاء الذين لا تَخِزُهُمْ ضمائرهم لما تعانيه شعوب «أفريقيا» من ذل وهوان منذ نكبها الاستعمار الدولي . . .

إلى هؤلاء جميعاً أقول: تريَّثوا وسائلوا أنفسكم:

هل في مقدور شعب منحط أن يتحمل ما تحمله شعب أفريقية؟

ليس العجب في أفريقيا أن تكون شعوبها متأخرة.

ولكن العجب العجاب أن تبقى كل هذه الشعوب حَيَّةً برغم المهازل والمآسي التي نزلت بها.

* * *

وفي أثناء الكتابة عن حال السكان البؤساء في وصاية الجنس الأبيض «الراقي» يتساءل المؤلف: ما الذي يراه المسافر إلى أفريقية؟

إنه يحسب ــ لأول وهلة ــ أن ليس لهذا الشعب ماض ولا مستقبل.

الكآبة تخيم عليه وسط جوٍّ تسوده الحرارة، وأرض تمتد فوقها الغابات.

لكن المتأمل الباحث سرعان ما تصدمه الحقيقة.

---

(١) نشرت صحيفة المساء ١٩٥٨/١٠/٢٥ شرحاً وتعليقاً على هذا الكتاب لعبدالمنعم الحفني.

إن ثروة «أفريقيا» ينقلها المستعمرون إلى «أوروبا»، تاركين أصحاب البلاد الأصلاء في فقر مدقع.

والناس هناك يحسون هذه المرارة، ويستعيدون ـ في سبيل استرداد حقوقهم ـ قصص الكفاح الذي بدأه أجدادهم من سنين طوال..

بدأ استعمار «أفريقيا» في أوائل القرن الخامس عشر عندما بدأت حركات الاستكشاف الكبرى.

وفي سنة ١٤٤٤ شرع البرتغاليون يستوردون العبيد من ساحل الذهب «غانة».

وما كاد القرن السادس عشر يَحُل حتى كان عدد العبيد في بعض مناطق البرتغال أكثر من عدد البرتغاليين أنفسهم.

وبهذا صار الكشف الجغرافي سرقة، ثم تحولت السرقة إلى استعباد عام.

قال: إن أوروبا لا تنظر إلى «أفريقيا» إلا في ضوء منافعها الخاصة وما تمليه مصالحها فحسب؛ لذلك استعبدت الأفريقيين واستغلتهم أسوأ استغلال.

إن «ناسو سبينور» وصف شركة أفريقيا التي تأسست سنة ١٥٦٧ بأنها وجدت لكي تختطف أو تشتري أهالي «أفريقيا» ثم تسخرهم في العمل حتى الموت.

والإنجليز والهولنديون سواء في هذا الأمر، فهم يُسَخِّرُون الأفريقيين تسخيرهم للخيل وهم ـ مع ذلك ـ أكثر أمم أوروبا تديناً، وأعمقهم إيماناً!

ثم قال تحت عنوان «خلف المسيحية»:

ومع الاستعمار جاءَت أفواج المبشرين تدعو للنصرانية التي دخل فيها كثير من أبناء القارة «المظلمة». ألا ما أكثر الأطماع التي صحبت هؤلاء المبشرين!

وراء مثالية المسيح قَدِم اللصوص، كما يقول المونسيور «كوجيير».

ولقد أبحر اللصوص من بلادهم تحت عَلَم المثالية أيضاً وجلبت رحلاتهم إلى الشرق ثرواتٍ ضخمةً من الحرير والتوابل.

ويكفي أن نعرف أن سفينة «الجلدن هند» عندما عادت سنة ١٥٨٠ إلى

لندن ربح فيها أصحابها ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه إنجليزي، مع أن رأس المال كان ٥٠٠٠ جنيه.

وكان الأوروبيون يسعون ـ أول الأمر ـ خلف العبيد يختطفونهم لمآربهم ـ ثم خلف العاج والفضة والنحاس بعد ذلك.

كان المستعمرون في القارة الأميركية بحاجة ماسَّة إلى العبيد.

وكانت أوروبا أيضاً فقيرة إليهم بعد تطورها السريع نحو الصناعة وهجرة الفلاحين إلى المدن الكبرى، تاركين الأرض تتطلب العاملين فيها.

من هنا استورد الأوروبيون الملايين من أهل أفريقيا.

وليس يعلم أحد العدد الحقيقي للعبيد الذين تم جلبهم.

ولقد قدّر أحد المؤرخين البرتغاليين ـ استناداً إلى الوثائق المحفوظة بخزائن الحكومة البرتغالية ـ عدد الأفريقيين المختطفين من «أنجولا» وحدها بـ ١,٣٨٩,٠٠٠ بين سنتي ١٤٨٦، ١٦٤١.

وزادت تجارة الرقيق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ويقدرها الأب «جادين» بمعدل سنوي قدره ٢٥٠٠٠ عبد، خلال سنيّ القرن الثامن عشر، و ٣٠٠٠٠ عبد خلال سني القرن التاسع عشر.

أسهمت هذه الجموع الغفيرة ـ بكدها وجدها ـ في بناء الحضارة الأوروبية وفي نقلها إلى ربوع الأمريكتين.

ويقول المؤرخ الكبير «جلبرتو فريار»:

إن الدور الذي قام به العبد الأفريقي في البرازيل لهو أخطر من الدور الذي قام به الأوروبي المستعمر صاحب المزاعم الطولى في بناء الحضارة!!

فكيف كوفىء على هذا الجهد؟ وماذا صنعوا له . . ؟ ملأوا البلاد خمراً وبِغَاءً!

إن قلب المدينة الأفريقية النابض هو الحان، وهو مجمع السُّكَارى وثمرة التفكير الشيطاني للرأسمالية النهمة إلى المال الحرام.

وقد قدر عدد الحانات في مدينة «ليوبلدفيل» سنة ١٩٥٣ والتي تحمل تراخيص رسمية من الحكومة بنحو ٣٠٠ حانة في الحي الأوروبي، عدا ٤٠٠ حانة في الأحياء الأفريقية.

وتقدر الحانات في كل أنحاء المستعمرات الأفريقية بحان واحد لكل ٥٠٠ من السكان.

علماً بأن هذا العدد لا يشمل النوادي الصناعية والنوادي غير المرخصة.

أما عدد المومسات في ظل الحضارة الغربية فقد زاد زيادة كبيرة.

وفي كل مدينة لهن رابطة يشرف عليها تاجر أقمشة أوروبي يستخدمهن كعارضات أزياء، ويربح من وراء ذلك تلالاً من المال.

وهذا الانحلال غير طبيعي في أفريقيا فما سببه؟ ولم كان؟ ذلك لأنهن ــ كما شاءت أوروبا لهن ــ نسوة «أحرار» فما معنى تلك اللفظة؟

المرأة «الحُرَّة» هي ظاهرة جديدة في المجتمع الأفريقي.

فقد كانت المرأة الأفريقية ــ قبل الثورة الصناعية وقبل إنشاء المدن ــ تعيش في القرية، ولها مركزها الاجتماعي، وكانت تعمل وتكسب.

وكان لها حق التملك، وأهلية البيع والشراء، ولم تكن هناك عانسات في هذه الأيام البعيدة. إذ إن البنت ــ عند بلوغها سن الزواج ــ تتزوج بسرعة.

أما بعد إقامة المصانع وإنشاء المدن وهجرة الشباب إليها فإن المرأة لم تجد زوجاً لها في القرية وهاجرت مثله إلى المدينة، وفيها لم تجد عملاً، فأصبحت عضواً عديم القيمة تماماً.

ومن هنا انتشرت الدعارة، ووجدت المرأة من أرباحها الكثيرة عذراً لها.

حتى إنها احتقرت الزواج، واندفع الآباء ــ لفقرهم ــ يهبون بناتهم لهذه المهنة الخسيسة، فارتفعت أسعار الزوجات، وصارت مشكلة اجتماعية خطيرة».

* * *

هذه هي الأحوال المادية والروحية في ظلال الصليبية المنتصرة.

أتجد شبهاً بينها وبين أحوال البلاد التي دخلها المسلمون فعاشوا مع أصحابها إخوة، واختلط بعضهم بالبعض الآخر، لا يُدْرَى سَيِّدٌ من مسود ولا تابع من متبوع. . .؟

إننا نَتَلقَّى اتهامات المستشرقين لأسلافنا الصالحين، ثم نذكر أن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

على أن القارىء المعتدل بعدما ينتهي من قراءة كتاب السير «توماس أرنولد» يشعر بأن الهَنَاتِ التي وقعت به لا تنقص قدره ولا تبخس حقه.

فهو جهد علمي نفيس، وجملة من الوثائق التاريخية المحترمة.

وهو مليء بما يَرُدُّ أحاديث الإفك التي وُجِّهَتْ إلى المسلمين دون وَعْيٍ.

ويعتبر ــ في نظرنا ــ من أفضل الكتب التي أَرَّخت لسير الدعوة الإسلامية في العصور الأولى.

* * *

وقد ترددت مطاعن المستشرقين هذه، مقترنة ببعض الشبهات في كتاب آخر، هو «تاريخ العرب» لفيليب حتِّي.

والأستاذ «فيليب خوري حتي» يشبه سير «توماس أرنولد» في سعة اطلاعه، وطول باعه، وإحاطته الظاهرة بتاريخ العرب والمسلمين.

ولكنه يختلف عنه في أمورٍ ذات بال.

فهو أقل إنصافاً، وأسوأ ظناً، وأسرع إلى قذف التهم دون سبب، بل مع وجود أسباب التبرئة. . وسوقه للأحداث يَنُمُّ عن أنه مُصِرٌّ على خدمة غرض معين.

وإصراره على هذه الخدمة يخرج به ــ طوعاً أو كرهاً ــ عن مقتضيات السرد العلمي الدقيق، ذلك السرد الذي يحب أن يبدو فيه أو يحب أن يوصف به، والذي يجعل للكتابة حظاً من القيمة.

وقد قلنا، ونؤكد القول: إننا لا نرتقب من المستشرقين ــ كي نرضى عن بحوثهم ــ أن يؤمنوا برسالة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم.

بيد أننا نرتقب منهم أن يُنَحُّوا عن أنفسهم مواريث الضغينة وهم يُقَلِّبون أعماله وآثاره وألا يُنَفِّسوا عن تحاملهم وهم يقصُّون باسم العلم أنباءه وأنباء الأمة التي صنعها.

لقد أحصيت أكثر من سبعين موضعاً في كتاب تاريخ العرب «لفيليب حتي» لا تتفق مع طبيعة البحث النزيه.

ولا يمكن أن تقبل من رجل يصطنع الحياد في أسلوبه ويظهر متجرداً لخدمة العلم.

وبعضها يبلغ حداً مزرياً من التفاهة، وذلك عدا ما تجاوز عنه الأستاذ «محمد مبروك نافع» أو تعمَّد ــ كما ذكر في ترجمته ــ تهذيب عبارته، حتى لا يكون نبوُّها صارفاً للقارىء عن المضيِّ في الكتاب.

ومع ذلك فالكتاب مليء بالشُّبَه التي بُثَّتْ بمهارة هنا وهناك، وربما اكتشفها الراسخون في العلم من القراء النَّقَدَة، أما غيرهم فإنه يقع فريسةً لها..

ونحن سنتجاوز الأخطاء الْمُسِفَّةَ إلى الأخطاء التي تستحق التفنيد.

نعم سنترك مثلاً قوله: «بمجيء الإسلام زاد عدد الجن إذ هبطت مكانة الآلهة الوثنية إلى أمثال تلك المخلوقات»!! ص ١١٨.

وقوله: «وفي فترة من فترات الضعف أُغْرِيَ محمد الموحد فاعترف بقوة هذه الإلٰهات من آلهة مكة والمدينة، ووافق على فضلها ولكنه فيما بعد رجع عن ذلك»!! ص١١٩.

وقوله: «وتجد في القرآن الشبه الوحيد الواضح لبعض محتويات الكتب المقدسة الفارسية في تصوير الجنة والجحيم، وقد رسمت بريشة غمست في

ألوان مادية (سورة ٥٦ : ٨ ــ ٥٦). وهذه لها نظيرها في كتابات المجوس المتأخرة»!!! ص ١٥٤.

وقوله: ــ راوياً عن رفعت ــ : «إن البدوي في أيامنا هذه عندما يطوف حول الكعبة يردِّدُ باللغة العامية هذه الكلمات: ــ يا رب البيت. اشهد أني جيت. لا تقول ما جيت. اغفر لي ولوالدي. وإلا تغفر لي غصباً تغفر لي تراني حجيت» ص١٦٥.

وقوله: ولما أحس عبدالملك بحاجته إلى مركز للعبادة تعلو مكانته على كنيسة القبر المقدس، وينافس مسجد مكة الذي كان إذ ذاك في يدي منافسه على الخلافة «عبدالله ابن الزبير» ويصرف إليه جماهير الحُجَّاج، فإنه أسس في نفس الموقع ببيت المقدس قبة الصخرة ص٣٢٨.

وقوله: إن الجهاد في السنوات الحديثة يظفر باهتمام أقل في العالم الإسلامي ويرجع السبب في ذلك إلى ترامي أطراف البلاد الإسلامية وازدهارها تحت حكومات أجنبية ص١٦٨.

هذه الكلمات الفارغة وأشباهها كثيرة في أسلوب الكاتب، وهي كاشفة عن طريقته في فهم الإسلام، ونظنها من الخطأ بمكان يغني عن البيان.

وفي صفحة سنة ٣٠٢ يقول: لقد كان للقانون الروماني دون شك أثر في التشريع الأموي سواء أكان ذلك الأثر مباشراً أم عن طريق التلمود وغيره من الوسائل. ولكن مدى ذلك الأثر غير معروف تماماً.

وغريب أن يبني الرجل هذا الحكم الخطير على أثر مجهول المدى؛ ولكنها شهوة اتهام الإسلام، وانتقاص فضله، ورد تراثه العقلي إلى غيره.

وقد لاحظنا في عشرات المواضع أن المؤلف شديد الحرص على اتهام الإسلام بأمرين خطيرين:

أولهما: أن الجهاد سبيل للنهب والسلب، واستنزاف الأمم المغلوبة، والتسلط عليها بالقهر، وتقسيمها طبقات يُسْتَذَلُّ بعضها ــ كالمسلمين من غير

العرب مثلاً ـــ ، ويُسْتَرَقُّ الآخر لخدمة الفاتحين وملذاتهم.

والثاني: أن الإسلام لم يؤسس حضارة مَّا، وأن العقل الإسلامي ليس إلّا صدى لأفكار الأجيال الأولى، وأن المسلمين ليسوا أكثر من نَقَله لتراث غيرهم.

وربما زادوا فيه شيئاً، ولكنهم لم يبتكروا شيئاً البتة...!!

وكتاب «تاريخ العرب» تتكرر فيه هذه المثالب، بطريقة رتيبة، وسياسة مرسومة بحيث يخرج القارىء من أغلب الفصول وهو يشعر، بأن محمداً رجل نقل رسالته عن الأولين، فليس نبياً يوحَى إليه، وأن أمته جماعة من البشر استغلت ظروف القوة التي واتتها حيناً من الدهر فزحفت على الأمم المجاورة لتأكل خيرها، وتنهب أرضها، وتنتحل فلسفتها وتشريعها.

وأنه إذا كانت هناك مدنية تُـؤْثَر عنها فهي مدنية[1] الشعوب المغلوبة على أمرها اغتصبها العرب لأنفسهم، وذهبوا بفخرها زوراً وبهتاناً.

أما الإسلام فلم يكن، ولن يكون مصدر خير، لا لأهله، ولا للعالم!

ونرى لزاماً علينا أن نُفيض القول في هذين الأمرين متعرضين لما ذكر الأستاذ «فيليب حتي» من اتهامات، ترجع في جملتها إلى التعصب الكامن لا إلى البحث الرصين.

* * *

(١) من حق مؤلف «تاريخ العرب» وقد تعقبنا أخطاءه أن نثني على الجهد العلمي الشاق الذي يبدو في مادة الكتاب الغزيرة، وذلك الاستيعاب الرحب لنواحي الحياة الأدبية والعقلية في عصور كانت مغشاة بشتى الحجب... ثم في ذلك الترتيب الجميل للحوادث، والمقابلات التي قد يصحبها ضيق القلب ولكن لا تنقصها سعة الذهن.
والكتاب من هذه الجهة عمل يجب أن يعرف وأن يدرس..
والواقع أن المتأمل في الكتاب يحس أن المؤلف كثيراً ما ينجرف مع تيار الحقيقة الغالب فيحسن الوصف والتعليل، حتى إذا شعر ـ بإيحاء خفي ـ أن ذلك ربما كان شهادة حسنة للإسلام وأهله عاد إلى تعصبه يتهم المسلمين بأنهم نقلة فحسب، وأنهم تلامذة للإغريق والهنود والفرس، وأن فتوحهم ضرب من الاستعمار النهم...

لقد دأب الأستاذ «فيليب» على تنقص الجهاد الإسلامي، ورمى بواعثه بالسوء.

وتعمد في غير موضع أن يَصِمَ الفاتحين بأنهم كانوا يطيرون إلى المغانم.. وأنهم ـ بعدما استقر الأمر لهم ـ أثقلوا الشعوب المهزومة بأنواع المغارم، وألوان التحقير.

ومن ثَمَّ فإن اعتناق الإسلام يرجع ـ في نظره ـ إلى الفرار من الهوان المادي والأدبي.

نقول: وهذا الكلام، إفك كله.

فإن للإسلام في طريقه إلى القلوب صحائفَ بيضاً.

مَا أُثر عنه أنه اعتمد على غير الإقناع والتلطف، ولا قامت في دولته ـ على طول تاريخها ـ نظم سياسية أو اجتماعية تساند العقيدة بالبطش والجبروت، وتدفع إلى الدخول فيها بالإرهاب والإكراه.

ولسنا نعرف في تاريخ المذاهب والديانات ملة يترقرق السماح في روحها، والأدب في عرضها، والعدل في معاملة خصومها، كما نعرف ذلك في الإسلام.

لكن بعض المستشرقين، أو كثرتهم، عندما تواجه هذه الحقيقة، تحاول أن تتجاوزها دون تنويهٍ بها، أو تحاول ذكر أسباب مختلَقَة لها.

وقد يجد بعضهم الجراءةَ من نفسه على المماراة فيها، وتلمُّسَ شُبَهٍ شتَّى لتعكير صفوها.

ولما كانوا يدخلون مضمار البحث العلمي وفي صدورهم علل دفينة، ولهم مآرب أخرى فلا عجب إذا اضطربت أحكامهم أشد الاضطراب، خصوصاً فيما يتصل بالرسالة وصاحبها.

وماذا تنتظر من رجل يتناول الإسلام ابتداء وهو مقتنع بأن صاحبه دعيّ؟

فإذا شَدَهَتْه السيرة بأحداثها النقية شرع يدور حول نفسه باحثاً عن

مخرج يُرضِي به تكذيبه السابق، لا عن مخرج ينسجم به مع منطق الأحداث.

وماذا تنتظر من رجل لا يفهم إلّا أن الفتح الإسلامي غارة لطلب المغانم، وانتهاب الدنيا، فإذا صدمه ما اتسم به الفتح من ترفُّع ورحمة نُكِسَ على رأسه ليصطاد إشاعة يُجَسِّمها، أو خطأً يدندن حوله.

ولا أدري مَنْ ألوم وأنا أخط هذه السطور؟

مؤرخينا الذين أولعوا بسرد الصغائر، وتدوين كل تافهة وآبدة؟

أم المستشرقين الذين ينقبون عن شيء مًّا ليُرْوُوا به حقدهم المرير على هذا الدين؟

خذ مثلاً، جُنديّاً من الظرفاء في جبهة فارس، يظفر في أعقاب المعركة بأقراص من الخبز الرقيق، فيقول متفكهاً: لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذه الرقاق..

هذه الفكاهة التي رأى مؤرخونا أن يثبتوها، لأنهم مغرمون بتسطير الأخبار مهما تفهت، يجيء مستشرق ما فيقول: ألم أحدثكم بأن أسباب الفتح اقتصادية؟

ولو ظفر ثُوَّار الجزائر بكعكة فرنسية لتحولت الحرب الاستعمارية حسب هذا المنطق إلى عدوان جزائري!

وهاكَ قصةً أخرىٰ يرويها المؤرخون، ولا بأس أن يقف لديها المستشرقون.

جندي عربي يترك أسيرة فارسية من الأميرات نظير ألف درهم!!

فيقال له: كنت تستطيع أن تفتديها بأكثر من ذلك؟

فيقول الأعرابي: ما كنت أحسب هناك عدداً آخر يزيد على الألف..!

إن هذه القصة التي ينقلها ــ عنا طبعاً ــ الأستاذ «فيليب خوري حتي» لها دلالتها الناطقة بجهل الفاتحين، وانحطاط مستواهم.

كما يدل نبأ الفلاح الأميركي الذي اشترى شلالات «نياجرا» على غباوة الأميركان عموماً. . . !

ونحن لا نردد هذه التوافه إلاّ لغرض أهم نحب توضيحه.. هو أن الروايات الفردية المجردة المبتورة عن ملابساتها، لا يجوز أن يُفْهَمَ منها تاريخ ولا أن يُنتزعَ منها قضايا وأحكام..

فلنترك حكايات الأعراب السذَّج إلى حكاية يرويها المؤرخون عن زعيم عربي كبير هو «عمرو بن العاص»

هذا الرجل هو فاتح مصر، وقدرته العسكرية والإدارية ليست موضع جدال.

وقد ولاه عمر بن الخطاب حكم البلد الذي افتتحه فسار فيه سيرة محت من أذهان المصريين الذكريات السود عن حكم الرومان الأقدمين.

و«عمرو» رجل يرى في نفسه الجدارة لولاية مصر.

ويرى تنحيته عنها هضماً لكفايته أولاً وحجداً لصنيعه ثانياً.

فكيف إذا عزل عن مصر ليجيء بدلاً عنه رجل أهون شأناً، وأضأل قدراً، كعبدالله بن سرح؟

إن ذلك تصرف يُحْفِظُ عَمْراً، ويطلق لسانه بالسخط.

و«عمرو» ليس ممن يتنازلون عن حق لهم، وليس ممن يقبلون ــ لله ــ أن يعتزلوا الفتن وينشدوا أجر الجندي المجهول على ما قدموا.

وربما كانت له وجهة نظر في هذا المسلك الذي استولى عليه وهو يندد بسياسة عثمان.

وعثمان ــ غفر الله له ــ كان مخطئاً في توليه عبدالله بن سرح إمارة مصر.

والغريب أنه لما بدا عجزه طلب من عمرو أن يعاونه!

ونتساءل: أكان على عمرو أن يعاونه بكفايته ـ احتساباً ـ ولو لم يكن الرجل للولاية أهلاً؟

إن ذلك مثل أعلى، بلا شك، وهو ما طلبه الرسول صلى اللّه عليه وسلم من المسلمين حين تضطرب سياسة الحكم.

ففي الحديث «ستكون بعدي أَثَرة وأمور تنكرونها!! قالوا: فما تأمرنا؟ قال أدُّوا الذي عليكم وسلوا اللّه الذي لكم...» وفي رواية «اصبروا حتى تلقَوني على الحوض».

وأداء الواجب، والصبر على الحرمان، هما الضمان الأوثق لمصلحة الأمة وهو النصح الذي لا ينتظر غيره من الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

بيد أن عَمْراً غاظه أن يُعزل عن ولاية هو لها كفء، وأن يكلف بمساعدة وال يراد نفعه بأجر المنصب الكبير فقال: «إني أكون كماسك قرني البقرة وغيري يحلبها».

وهي كلمة ساخرة، لا تعدو أبداً أن تكون إزراءً على الوالي الجديد، ولا يفهم منها أبداً أن العرب الفاتحين جاءوا لنهب مصر، وسرقة خيرها ـ كما يفهم المستشرقون ـ.

وعمرو، وغير عمرو، أفراد قلائل في جمهرة المؤمنين الخُلَّص الذين جاءوا مصر، وليس في مشاعرهم وأفكارهم إلّا أنهم جند اللّه، وفداء للإسلام، وطلاب للآخرة. وصفهم رسل المقوقس بهذه الكلمات:

«رأينا قوماً الموت إلى أحدهم أحب من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة.

ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم.

وأميرهم كواحد منهم، ما يُعْرَف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد.

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم».

هذه السمات الناضحة بالنبل، والمصورة لخلال الفاتحين وغاياتهم، لا يجوز أن يعكر نقاءها قولٌ أرسله أحد الناس في ساعة غضب، كاشفاً به عن وجهة نظره في موقف من المواقف الشخصية.

ومرة أخرى لا ندري من نلوم؟ مدوني الآثار دون شرحٍ ووعي؟ أم من يتلقفها من أعداء الإسلام ليُحَمِّلَها ما لا تطيق وما لا يدور ببال..؟

واتهام الفاتحين بالظلم والنهب مقصود به إظهار الشعوب التي اتصلوا بها وكأنها دخلت الإسلام فراراً من الضغط الاقتصادي.

وتدليلاً على هذا يذكر الأستاذ «فيليب حتي» عن مصر «أنَّ دَخْلها هبط من ١٤ مليون دينار على عهد عمر بن الخطاب إلى ٥ ملايين في عهد معاوية، كما هبط الدخل في العراق من مائة مليون في عهد عمر إلى ٤٠ مليوناً أيام عبدالملك.

ثم يقول: لا شك أن أحد الأسباب التي أدت إلى هبوط دخل الدولة، كان اعتناق الإسلام.

ويعلق الأستاذ «فيليب حتي» على تكليف غير المسلمين بدفع الجزية فيقول: «إن الاعتراف بهذه الديانات وحسن معاملة أهلها ـ برغم تجريدهم من السلاح، وحملهم على دفع الجزية مقابل الحماية الإسلامية الممنوحة لهم ـ يعتبر أكبر ابتداع سياسي أحدثه محمد».

وهذا التعليق اللِّين الملمس، يعتبر ـ في نظرنا ـ تفسيراً رديئاً ومشوهاً لدخول المصريين وغيرهم في الإسلام..

بل هو إخفاء متعمد للأسباب الصحيحة التي جعلت شعوب الأرض تؤثر الإيمان بالدين الجديد وتتخلى من تلقاء نفسها عن معتقداتها الأولى..

كيف يتهم المصريون مثلاً بأنهم تركوا ديانتهم القديمة حتى يستريحوا من الضرائب التي فرضت عليهم؟

إن المصريين ــ برغم انهزامهم العسكري أمام الرومان، وسقوط واديهم الخصب في يد الدولة الجشعة، وبقائهم ستة قرون في قبضة حكامهم الغرباء ــ أَبَوا ــ برغم هذا كله ــ أن ينهزموا روحياً أمام قوى الفاتحين، وبَقُوا على دين غير دين الرومان، ثم على مذهب غير مذهبهم.

وتحملوا في ذلك طُوفاناً من الدم جعلوه بداية لتاريخهم، ثم سلسلة من التضحيات العقيمة لم يُجْدِ شيء منها في ثَنْيِ عزائمهم عن العقائد التي ارتضَوها.

فهل يصح في الأذهان أن قوماً يظلون القرون على هذه الصلابة ثم بغتة يبيعون دينهم لأنهم يرفضون البقاء عليه نظير ثمن بخسٍ دراهمَ معدودة؟

الواقع أن تصوير الدخول في الإسلام بأنه للفرار من الخراج أو الجزية تصوير سمج،

وأن أكاذيب المستشرقين تطل من ورائه نابية الملامح...

إن تحول نصف المصريين إلى الإسلام في مدى عشرين سنة، لم يكن نتيجة إرهاب أو إعنات فإن هذه الوسائل أفلست في تغيير عقائد المصريين مئات السنين.

لقد كان هذا التحول نتيجة وَعْي كامل، ورضا سمح، ورغبة بينة.

والحق يقال، إن المؤرخ الإنجليزي «ويلز» كان أدنى إلى الإنصاف والصدق عندما بيّن في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» أن انتشار الإسلام كان يشبه ثَورات شعبية على التقاليد السالفة، وانفجاراً في الوعي الإنساني تطلعاً إلى نور جديد.

ثم إن فرض الضرائب على الأرض الزراعية شيء لا مكان لاستغرابه أو استنكاره.

إن هذه الضرائب مفروضة الآن في كل مكان، وتجبيها الحكومات دون حرج. وهل الخراج إلّا الضريبة، بالتسمية الحديثة؟

فما معنى إبراز ذلك على أنه بدعة عربية؟ أو سنة إسلامية؟

إن جمع الضرائب شأن مدني تباشره كل حكومة، والذي يُطلَب في هذه الأحوال أن تكون الضريبةُ عادلةً، وأن تكون مصارفها سليمة.

ونحب أن نسأل كل مؤرخ أكان العربُ أعدلَ أم الرومان؟

أكان الحكم الإسلامي أرحم أم الحكم القيصري، والكسروي؟

وندع الجواب للمؤرخين غير المسلمين، ونرتضي ما نقله الأستاذ «فيليب حتي» نفسه من فرح الشعوب بعدالة المسلمين ورحمتهم، وتعاونها المطلق مع النظام الوافد والدين الجديد..

وقد تحدث الأستاذ «فيليب» عن الجزية ووصفها بما يدل على دهشته، أو إعجابه، أو استغرابه.

ونريد ــ لنلقي ضَوْءاً على هذا الموضوع ــ أن نقول:

إن أهل الذمة يُعتبرون في الكيان الإسلامي مواطنين «مسلمي الجنسية» إن لم يكونوا مسلمي العقيدة، أي إن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

ومقتضَى هذا الوضع أن يتساوَوْا مع المسلمين في الأعباء المالية، أو يقتربوا منهم على القليل.

فإذا كان المسلمون مكلَّفين بفروض مالية دينية كالزكاة، ومغارم الجهاد، على حين لا تؤخذ من غيرهم زكاة، ولا يطالبون بجهاد، وتجب على المسلمين حمايتهم، فهل العوض المالي الواجب حينئذ يُسَمَّى ظلماً؟

هل العدل أن يُكَلَّف المسلمون ببذل المال والدم، ويُعْفَى الآخرون من كل شيء؟ ويتركوا وافرين ناعمين؟

ونسأل الأستاذ «فيليب» كما سألْنا غيرَه من قبل: هل الجزية التي

ابتدعها محمد ــ على حد تعبيره ــ أشرف أم المذابح الدينية التي نشأت عن اختلاف الرأي والتي ظلت أوروبا ملوثة بها إلى مطالع العصر الحديث؟

إن الشُّح بحق الحياة على المخالفين في العقيدة، أو المتحررين في الرأي كان ديناً وتشريعاً لدى الأوروبيين القدماء.

والتقرب إلى اللّه باختطاف أرواحهم، واستلاب أموالهم هو القانون الذي طُبِّقَ في الأرض، استرضاء لإله السماء.

واسمع إلى ما يقوله العالم الجزويتي البرتغالي «فرانسوا ده ماسيدو» في تقديس محاكم التفتيش، وتسويغ أحكام القتل والنهب التي ظلت ثلاثة قرون تصدر ضد أحرار الفكر، والمخالفين في الدين، يقول هذا الرجل العجيب: «إن محاكم التفتيش قد نشأت في السماء قبل أن توجد على الأرض!

واللّه سبحانه وتعالى هو الذي قام بوظائف أول محكمة للتفتيش!! فهو أول مفتش مارس سلطتها، حينما أهلك الملائكة المتمردين الخارجين على طاعته.

ثم مارسها عندما عاقب آدم وهابيل ــ الذي قتل أخاه ــ

وحينما أهلك بني آدم بالطوفان.

ثم أمر موسى أن يقوم بها نيابة عنه وذلك حين أمره بعقاب العبرانيين في الصحراء بالموت الأليم، ونار السماء تأخذهم، والأرض تبلعهم في قرارها السحيق.

ثم نقل اللّه رسالة القيام بهذه الوظائف إلى القديس «بطرس» الذي قضَى بالموت على المرتدين (أنيانيا وسفيرا).

ثم جاء بعد ذلك آباء الكنيسة الكاثوليكية وهم خلفاء القديس «بطرس» وورثته وفوضوا أمر القيام بهذه الوظائف إلى القديس «منيك وأتباعه».

أرأيت هذا التعليل البارع...؟ إن الذين فعلوا هذه المناكر ضد

خصومهم هم الذين يتهمون المسلمين بأنهم حملوا المصحف في يد والسيف في أخرى.

فإذا بهرهم دخول الأمم أفواجاً في دين اللّه دون شائبة قسر، قالوا: فَرُّوا من دفع الجزية.

إنهم يتوهمون القشَّة في وجوه الآخرين وينسون الخشبة في أعينهم.

إن الإسلام كان ولا يزال نعمةَ اللّه على الناس قاطبة، والوسيلة الفذَّة لإيضاح الحقيقة وصيانة الحقوق، وكبح الباطل، وصدّ الجبروت..

ولعل من الأساطير المفسرة لامتداده الأول، أو الأساليب المعبرة عن أهدافه الخالدة، ما يتناقله الرواة عن معركة «بلاط الشهداء» التي جرت على حدود فرنسا.

لقد زعموا، أن ألفاظ الأذان تسمع في سكون الليل خلال المقابر التي تضم رفات المجاهدين.

أجل، لقد مات أولئك الشهداء في سبيل هذه الكلمات العظيمة «اللّه أكبر اللّه أكبر أشهد أن لا إله إلاّ اللّه أشهد أن لا إله إلاّ اللّه...» هذا ما سمعه الأحياء، أو تخيلوا سماعه، من نداء موتانا.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فماذا يتخيل الناس سماعه من قتلى المستعمرين، ومن خلال أجداثهم المبعثرة في إفريقية وآسيا؟

ماذا يسمعون من هتافهم؟

ذهب ذهب!! بترول بترول!! نهب نهب...!!

هل يسمعون إلاّ هذا؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾(١).

ولنختم بحثنا الطويل بهذه الكلمات القامعة لغرور المستشرقين، وتقليد المفتونين.

قال الأستاذ الزيات: «لم تكن الفتوح الإسلامية إذن فتوحَ استعمار وجباية، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية.

كانت فتوحاً في الأرض للحرية والعمران، وفتوحاً في العقيدة للتوحيد والإيمان، وفتوحاً في الشريعة للحق والعمل، وفتوحاً في السياسة للإحسان والعدل، وفتوحاً في اللغة للأدب والبلاغة، وفتوحاً في العلم للإحياء والتجديد، وفتوحاً في الفن للابتكار والطرافة...».

ومن رسالة كتبها الأستاذ «عبدالوهاب عزام» رحمه اللّه يوم كان سفيراً لمصر في باكستان نقتطف تلك الجمل الرائعة.

«... ومن أطراف الجزيرة العربية إلى خليج القسطنطينية شطر الشمال وإلى حدود الصين وما وراء نهر السند شطر الشرق، وإلى بحر الظلمات حيث دفع «عقبة» فرسه في البحر صائحاً: لو علمت وراءك أرضاً لسرت غازياً في سبيل اللّه. ثم إلى نهر اللوار في فرنسا وإلى أرجاء أخرى، سار المسلمون مقاتلين ومصالحين، يفرقون الجيوش المجتمعة بالقهر على الباطل، ليجمعوها بالعدل على الحق، ويلقون الأقوام والألوان، في أُخُوَّة الإسلام.

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة أربع عشرة ومائة موقعة امتحن فيها المسلمون وقتل كثير منهم وانتصر شارل مرتل على عبدالرحمن الغافقي.

وروى الراوون أن الناس لبثوا حقبة يسمعون الأذان، أذان الشهداء في

---

(١) سورة إبراهيم: آيتي ٢٨ ـ ٢٩.

بلاط الشهداء. لم يسمعوا في الآفاق أو في أنفسهم طبل الحرب ولا صلصلة السيوف، ولا صياح المحاربين، ولكنهم سمعوا الأذان شعار التوحيد والإيمان والصلاة والفلاح.

ذلكم كان مقصد هذه الوقائع وشعارها وسرها وعلانيتها.

أكتب هذه الكلمة في «كراجي» من أرض السند، لست بعيداً من أطلال مدينة «الديبل» مدينة الصنم الكبير الذي حطمه المسلمون في السند، كما حطموا «هبل» في مكة وحطموا كل صنم من الحجر أو البشر بين مكة والديبل وفي أرجاء من الأرض كثيرة.

يقول المسلمون هنا كلما رأوا نخلاً ـ والنخل كثير في أمكنة شتى من هذه البلاد ـ: هذه آثار العرب، كانوا حيثما ساروا أو خيموا ينبت النخل.

قلت: وينبت الإيمان والحق والخير ومعان أخرى كثيرة...

انظروا إلى العرب المسلمين يسيرون من بلادهم في البر والبحر إلى المشارق والمغارب، على بعد الشقة، وضآلة العدد، وعظم المطلب، يسيرون إلى المشارق والمغارب دعاة توحيد وأخوة، ورسل شريعة عادلة وخلق كريم، اللّه ربهم، والناس إخوانهم، والأرض كلها ديارهم، غَلَبوا ولم يُذِلُّوا وفتحوا ولم يُخرِبوا، وتسلطوا فساسُوا بالعدل، وواسَوا بالحق، وخلطوا الأمم بعضها ببعض في أخوة الإسلام التي لا تميز بين الأقوام والألوان والأوطان، وذاع في الأرض عدلهم، وشاعت بين الناس سيرتهم، فسالم من سالم، وحارب من حارب، قوماً أصحاب شريعة من العدل والرحمة، دعوتهم الأخوة وسيرتهم مكارم الأخلاق.

قوماً بيوتهم مساجد ورحالهم معابد، يحاربون على شريعة ويسالمون على شريعة..

ما الذي يسَّر للمسلمين الفتح، ونشر سلطانهم في المشرق والمغرب في سنين قليلة؟

الإيمان الذي ملأ قلوبهم في مبدأ سيرهم ونهايته وصحبهم من «بدر» إلى «بلاط الشهداء» وحالفهم مشرِّقين ومغرِّبين وهازمين ومهزومين، والثقة بوعد اللَّه في فتح الأرض، والسيطرة عليها بالحق والعدل. يَسَّر لهم الإيمانُ واليقين كل عسير، وذلل لهم كل صعب، وأصغر لهم كل كبير، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد في سبيل اللَّه والصبر على ما يلقَون، بل حبّب إليهم لقاء الموت راضين مستبشرين.

وكذلك يَسَّر لهم الفتح أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة، وقانون مُحكَم، لا يعتدون، ولا يبغون، ولا ينقضون العهد، ولا يخفِرون الذمة، «تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

وأنهم جماعة نظام، وجند طاعة في السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرَّخاء، والحرب والسلم.

وأنهم لم يسيروا في الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت، ولكن دعاة دين عظيم، وشرع قويم، وخلق كريم، ورسل عدل ورحمة، وأخوة ومواساة شعارهم تلك الآية:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1].

عُبَّاد زهاد، شعارهم الأذان، وحداؤهم القرآن، وما رأى الناس جيوشاً من العباد قبلهم سارت للدعوة إلى الحق، وتمكين عدل اللَّه في الأرض.

بهذا طار ذكرهم، وانتشر صيتهم، لقد أخرجوا عبادة اللَّه من الصوامع المنعزلة إلى أرض اللَّه الواسعة.

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٩٧.

وأنهم سيطروا فأزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين، وأمَّنوا الناس على ما تعمله أيديهم، وما يناله جدهم وسعيهم، فاستبشر الزارع والصانع والتاجر، وشمل الناسَ الأمنُ مقيمين وظاعنين، وبادين وحاضرين، وعَمَّ الرخاء واستبحر العمران.

وكثير من الأمم انتظروا العرب ليفتحوا بلادهم، وينقذوهم من الجبارين المسلطين عليهم ويشملوهم بما شاع عنهم من العدل والرحمة والأخوة والمساواة.

لقد ساروا على الأرض قوانين من قوانين اللّه، وسنناً من سُنَّته التي لا تعطل ولا يصدها عن غايتها شيء.

* * *

وقال قائلون فضلُّوا وأضلوا ــ وكم منيت هذه الأمة بالمفترين، يغضون من أقدارها ويهوِّنون من مآثرها ــ قالوا: طلب القوت والطمع في الغنائم هو الذي نشر هؤلاء العرب في أرجاء الأرض.

قاس هؤلاء الدعوة الإسلامية على الاستغلال الذي يسمَّىٰ الاستعمار في حضارة هذا العصر وعلى المستعمرين الذين كل شيء عندهم قهر وتسلط، واستغلال ونهب، وشَرَه وحرص، وتفريق بين الناس وعبادة للمال من دون اللّه.

فقل لهؤلاء: إن الإنسان ربما يحارب على الخبز ولكنه لا يطلب الشهادة في سبيله، إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به، لا أن يموت في طلبه، فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا؛ وحقروا العيش أينما توجهوا.

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب في أرضها، ورغد العيش على ضفاف نيلها، جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهول إفريقية؟

ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا في بلاط الشهداء؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس، جابوا صحارى مكران إلى السند، وعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر؟

وما بالهم يتركون النعيم والخير العميم، والعز المقيم في الأرض التي سيطروا عليها ليجوزوا فيافي قاحلة، ويحاربوا أقواماً غلاظاً شداداً، في بلاد تنتظرهم فيها قبورهم؟ إن الأمر لأعظم مما توهموا، وأسمَى مما قالوا.

* * *

وبعد: فالحرب هي الحرب في كل أرض وكل عصر، فيها قتل وفيها أسر وفيها غَلَب وسَلْب. وليس عجباً أن يفرح المجاهد الذي شرَى نفسه في سبيل اللَّه بغنيمة ينالها وليس بعيداً أن يكون في سواد الجند من تكون الغنيمة همَّه، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية إلى الإسلام مجاهدة في اللَّه، ترجو الشهادة قبل الغنيمة، وتتهيأ للموت قبل الطعام.

إن النهر العظيم الذي ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب قد يجرف أرضاً ويحمل غثاء ويغرق ناساً، ولكن اللَّه أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء، ويُهلك الأحياء.

فأعيدوا النظر أيها الضالُّون، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون.

هذا سطر من كتاب، وموجة من عباب، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامي على سعته، والعباب هو مجد العرب المسلمين، لا يزال يعي الزمان صداه، ويحلم التاريخ بذكراه.

فَمَن عبقريٌّ عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب، ويصور في السطور أمواج هذا العباب؟».

* * *

ذلك... ويجد القارىء بقية نقاشنا للأستاذ «فيليب خوري»، والرد على شبهاته عند الكلام عن محاولات الهدم التاريخي، وواجب الدعاة بإزائها.

* * *

الدَّعْوَةُ وَحَمَلَتُهَا

الدَّعْوَةُ وَحَمَلَتُهَا

سألني صديق: أليس لرجال الدعوة في الإسلام تاريخ موجَز أو مفصَّل يسرد أعمالهم ويقص جهادهم، ويكشف عن أطراف الميدان الرحب الذي انساحوا فيه وبثوا تعاليم الإسلام في أرجائه؟

تدبرت هذا السؤال مَلِيًّا، وأعياني الجواب السريع الشافي.

فقلت: إن المقام يقتضي شيئاً من الأناة في الرد..

ذلك أن هناك من يرى الدعوة في الإسلام فريضة شائعة وواجباً عاماً كسائر الفرائض والواجبات التي نيطت بعنق الفرد.

وأنها لا ترتبط بجهاز معين يختص بها ويسأل عنها ويكفي غيره مؤونة الاهتمام وتقديم الحساب.

أي إنه كما كلف المسلم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكما كلف بالصدق والعفة، كلف بنقل الإيمان إلى الأفئدة الفارغة وإرشاد الحيارى والتائهين إلى صراط اللّٰه المستقيم.

فالدعوة إلى اللّٰه تشبه جملة الفضائل النفسية والتكاليف الشرعية التي لا ينفرد بها مسلم دون مسلم.

ويظهر أن انعدام «طبقة الكهان والقساوسة» من المجتمع الإسلامي، وإحساس كل تابع لهذا الدين بأنه رجل له، محاسب أمام اللّٰه وحده عنه، جعل انطلاق الإسلام في المشارق والمغارب أثراً لهذا الشعور القوي.

ومن ثَمَّ فليس هناك تاريخ خاص بالدعاة، كما أنه ليس هناك تاريخ خاص للأمناء والأوفياء، والمقيمين الصلاة والمؤتين الزكاة.

نعم، إن لبعض الناس فضل عناية بتوصيل القول، ونشر العلم، ورد الشبه. بيد أن التفوق العلمي عند نفر من المؤمنين لا يمس هذا العموم في واجب البلاغ.

ولا يزال انتشار الإسلام في أعماق أفريقيا وآسيا راجعاً إلى الجنود المجهولين من جماهير المسلمين الذين يعملون في شتى الحرف، والذين لم تشغلهم ضروب التكسُّب في الدنيا عن رعاية آخرتهم فنشروا الإسلام بالإقناع والقدوة الطيبة.

والواقع أن هذا الكلام الذي يأخذ به «سير توماس أرنولد» على جانب كبير من الصدق.

ولكنه ــ في نظرنا ــ يمثل جانباً من الحقيقة، ولا بد من إلقاء ضوء على الجوانب الأخرى.

لقد قامت حكومات إسلامية شتى في القارات الثلاث القديمة.

وكان يجب عليها أن تصدع بأمر اللّه، وتؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافي واسع النطاق يُقرِّب حقائق الإسلام من الشعوب المحرومة ويُكَذِّبُ عشراتِ الشُبه التي رَوَّجَهَا المفترون ضده.

غير أن هذه الفريضة الاجتماعية الجليلة لم تلق العناية المطلوبة، ولم يتوجه لها الحكام المالكون للسلطة.

ولعلهم رأوا ترك هذا العبء للأفراد يعالجونه كيف شاءوا.

وقد سمعت زميلاً يأسىٰ لسياسة حكام الأندلس، ويستغرب إهمالهم البعوث لغرب أوروبا طوال ثمانية قرون.

مع أن الحاجة كانت ماسة لاختيار علماء مزودين بوسائل النجاح يجوسون خلال هذه الديار، ويقفون أهليها على حقيقة الدين الذي يعادون...

إن عقبى تقصيرهم كانت ـ ونقولها محزونين ـ اجتياح دولتهم واستئصال شأفتهم.

ومع أني أستبعد انفتاح أبواب غرب أوروبا عصر ذاك لدعاة مسلمين، وأكاد أجزم بأن التعصب الشديد سيحصد أولئك الدعاة إن ذهبوا..

إلّا أنني أرى أن المحاولة واجبة، وأن التوقف عن نشر الدعوة لا يجوز بناؤه على وهم أو وجل.

وماذا لو كلف حكام الأندلس بعض العلماء المخلصين بالسفر إلى هذه البقاع؟

فإن نجحوا فبها ونِعْمَتْ.. وإلا نالوا الشهادة في سبيل اللّه، وأعذروا إلى ربهم في التبصرة والهداية؟؟

وَلنَفْرِضْ أن التعصب المسيحي الداكن كان سيمنع الدعاة من إبلاغ رسالات اللّه.

فماذا نقول في الحكم الإسلامي بالهند، وقد ظل ثمانية قرون في هذه المناطق الفيح الحاشدة بالخلائق؟

إن انتشار الإسلام هنالك يعود إلى بسالة الأفراد في التبشير والإنذار، وإخلاصهم العميق في خدمة الحق وإسعاد الناس طرًّا به.

ولا شك أننا دفعنا أفدح الأثمان، لتلك الأخطاء التي اقترفها قديماً الساسة المسلمون، والحكام القاصرون.

وأجدني هنا مسوقاً لتصحيح غلط شائع في فهم الدعوة ورجالها.

إننا نضفي هذا الوصف على لفيف من الوعاظ والأئمة والمذكرين، الذين يحسنون النصح، ويحترفون الكتابة أو الخطابة، ويحصرون نشاطهم الذهني والعاطفي في الوعد والوعيد، وفي التحدث عن الدار الآخرة لنشل الغارقين في لُجَجِ الدنيا.

وهذا التحديد لا أصل له، وهو تغليب لجزء من الرسالة على بقيتها.

والحق أن الدعوة إلى الإسلام إنما تأخذ مفهوماً من طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها.

وهذه الرسالة يتجاور فيها الإيمان بالغيب مع فن التشريع للمجتمع، والإصلاح للحكم. وتقترن فيها العقائد، بالعبادات، بسياسة المال والدولة.

ويشتبك فيها الكلام عن حقوق اللّه، بالإرشاد إلى حقوق عباده جميعاً، والكلام عن الدار الآخرة بالكلام عن الدنيا وكيف نجتاز فترتها، ونخلِّف وراءنا من قواعد الحق ما يضمن سيرها على سواء الصراط.

ولا يمكن شطر هذا الدين، ولا تجزئة النسبة إليه، ولا العمل ببعض تعاليمه واطِّراح البعض الآخر.

إن الإنسان الحي يتكوّن من لحم وعظم وعروق ودماء تمتد في البدن متداخلة مختلطة، لا تتصور حياة في ميزان كل منها على حدة.

كذلك الإسلام عقيدة وقانون، وخُلُق واقتصاد، ونصح ومعاملة.

والأمة المسلمة توزع نشاطها العام على المطالب الكاملة لهذه الرسالة، كما توزع مملكة النحل أفرادها على وظائفهم العتيدة، في تعاون واتساق.

وعندما نفهم الدعوة بهذا الشمول يمكننا أن نذكر رجالها في شتى الميادين.

فالحاكم العادل، والمشرِّع الضليع، والأديب الموجه، والمجاهد المخلص، والواعظ النصوح، بل الثائر على المظالم، والمتمرد على الطغيان.

كل أولئك من رجالات الدعوة الإسلامية ويمكن التأريخ لهم على هذا الضوء المبين، ونستطيع أن نذكر لهم نماذج كثيرة على مر العصور.

وربما كان الوصف الذي عرف به هؤلاء الدعاة واهي الصلة بالوعظ والإرشاد.

فـ «جمال الدين الأفغاني» كان مشغولاً بالإصلاح السياسي، ونفخ روح الحياة في أمة خمدت أنفاسها تحت أقدام الطغاة.

و «محمد عبده» وصاحبه «رشيد رضا» كانا معنيين بالإصلاح العلمي، ومحو الخرافات التي شلَّت التفكير الإسلامي دهراً طويلاً.

و «محمد بن عبدالوهاب» ركز اهتمامه في تطهير الإيمان من أدران الشرك والعودة بالأمة إلى اليقين المصفَّى الذي ورثته عن رسولها العظيم.

وهؤلاء الرجال وأمثالهم قدموا للدعوة من الخير ما قدمه مثلاً «أبو حنيفة» و «مالك» وسائر الأئمة الفقهاءِ في ميدان الفتوى والتشريع، وما قدَّمه مِن قَبْلُ الخلفاءُ العدول والفاتحون العسكريون. في ميدان السياسة الداخلية والخارجية.

والمثل الأعلى لذلك هو رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم الذي انبثقت أشعة الدعوة من سيرته في جميع المجالات[1].

«فهو عابد تتورم أقدامه من السهر بين يدي اللّٰه.

وهو قائد يومض بالنور في كل أفق، فيتعلم منه الساسة والقضاة والفرسان والوعاظ والخواص والعوام على سواء.

نسكه وتعبده صلى اللّٰه عليه وسلم، صفة بارزة في طبعه الكريم.

فقد كان يجد في العبادة قرة عينه وطمأنينة نفسه.

ولو أنه كان من النساك الذين انقطعوا للرهبانية، أو المتصوفة الذين انصرفوا عن الدنيا، لما كان في نسكه وتعبده بدعاً.

وإنما الذي يلفت نظر الباحث في حياة بطل الأبطال، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذي يبلغ أرقى مراتب التعبد، وبين القيام على أمور الدنيا التي كان يعيش فيها بكدّه، ويَعُول كثيراً من الأهل والفقراء، ويناضل أمماً بأكملها، ويسوس دولة فتية في وجه العالم.

يوفد إلى الملوك ويدعوهم، ويستقبل الوفود ويكرمهم، ويبعث السرايا ويقودها، ويجادل مَنْ حوله من أهل الأديان وأهل السلطان، ويهيء للنصر، ويحتاط للهزيمة، ويبعث العمال، ويجبي الأموال ويقسمها بنفسه، ويقول: إن لم أعدل فمن يعدل؟

ويشرع للناس دين اللّٰه فيفصل المجمل من الوحي، ويوضح الغامض، ويرسُم السنن، فيخرج من الأصل فروعه، ويرد ما لم يطلعه اللّٰه عليه إلى ما أطلعه اللّٰه عليه.

(١) للدكتور عبدالوهاب عزام.

وهو ــ في كل ذلك ــ يؤدي العمل اليومي الذي ينوء به أبطال هذه الدنيا.

وبين هذه الهموم والمشاغل يتجلى «محمد» صلى الله عليه وسلم الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعاً إلى الله ممن انقطعوا إليه في رؤوس الجبال.

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم، مثلاً قائماً بنفسه في تاريخ البشرية، مثلاً منقطع النظير.

كان يقسم يومه، جزءاً للعبادة، وجزءاً للناس، وجزءاً لأهله.

فإذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذي هو لأهله، واحتفظ بما هو لله.

وقد واظب على ذلك مواظبة لا نظير لها تستحق مزيد الإعجاب من أنصاره وخصومه على السواء.

فقد كان مثلاً من أمثلة الجد الكامل، والتوجه الخالص.

إذا انصرف للعبادة انصرف بجملته، وإذا قام بعمل آخر لم يَفْتُرْ عنه حتى يتمه.

وقد أجمع مؤرخوه من أهل الملل المختلفةِ على أنه كان يعطي العمل الذي يشغله كلَّ حِسِّه وكلَّ قلبه. وكان ذلك يتجلى في علاقته بالناس.

فما حَدَّثه أحد إلّا التفت إليه بوجهه وجسمه، وأصغى إليه تمام الإصغاء، ولا يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذي يقطعه.

ذلك الجدّ الذي يلازم النفوس المؤمنة، هو سر النجاح في كل الأعمال، سواء أكانت للدين أم للدنيا، وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه.

بل ذلك المثل من الجد في كل شيء، هو الذي أنجب ــ ممن صحبه ــ أكبر رجال الدولة، وسُوَّاس الأمم.

فجعل من رعاة الإبل والغنم ومن صغار الزراع والتجار خلفاء كسرى و قيصر يعلمونهما ما فاتهما من العدل والإحسان.

على أننا في عصر يمتاز بالتخصص العلمي.

وتكثر فيه ألوان الثقافة كثرة يصعب استيعابها على ذهن واحد مهما بلغ من المضاء والالتماع.

حتى إن الطبيب يتوفر على دراسة عضو واحد من أعضاء البدن، لأن الإحاطة بعلوم الجسم كله أضحت مستحيلة.

فإذا استبحرت المعارف على هذا الاتساع البعيد جاز أن يختص فريق من العلماء بدراسة الدعوة إلى الإسلام فحسب.

وأن يستكمل ــ لهذا الاتجاه وحده ــ ما يتطلبه من ثقافة معينة ومن دِرْبة خاصة. وجاز لنا أن نسمي أولئك الذين كَرَّسوا حياتهم لهذا الغرض «دعاة إلى اللّه».

وربما توزع الأصحاب والتابعون على وظائف الرسالة بما يشبه هذا الاختصاص. فمنهم من عني بسياسة الحكم، ومنهم من عني بالقضاء، ومنهم من عني بالجيش ومنهم من اشتغل بالتعليم والتربية.

وإن كانوا ــ رضوان اللّه عليهم جميعاً ــ لم يقصروا قيد أُنْملة، وإن تنوعت مناصبهم العملية، في حراسة الحقيقة الدينية العامة، وأداء واجب الدعوة والأمر والنهي.

فَلْنَقْبَلْ إذن الواقع الذي تُحَسِّنُه ظروف كثيرة، ولْنُسَمِّ أولئك المتخصصين من قُدامَى ومُحْدَثِين «دعاةً إلى اللّه».

وكل ما نشترطه في المنتصبين لحمل هذه الأمانة أمران:

أولهما: جودة المعرفة بأصول الإسلام وفروعه، حتى إذا دَرَّسوه للناس نقلوا إليهم حقائق الرسالة كاملة، فعلم الناس منهم أن الإسلام ليس صلةً تربط الناس بربهم في ساحة المسجد فقط حتى إذا خرجوا منه وَهَتْ وتلاشَتْ، كلا.. إنه صلة قائمة تُوجِّه المؤمن في شؤون حياته كلها، وتقيم المجتمع والدولة على أنحاء مرسومة لا يمكن الإفلات منها..

والأمر الآخر: أن الداعية روح مفعم بالحق والنشاط والأمل واليقظة.

فمهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين ناقدة وبصر حديد.

حتى إذا رأى فتوراً نفخ فيه من روحه ليقوى، وإذا رأى انحرافاً صاح به ليستقيم.

إنه في المجتمع جرس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الإسلام ما يعكر صفوها ويعوق انطلاقها.

والأمة الإسلامية فقيرة جداً إلى ذلكم النوع من الدعاة الأيقاظ الذين يحيون لتبليغ الرسالة نظرياً، ومراقبة تنفيذها عملياً.

نعم إن أيديهم قد تكون عاطلة من أسباب التغيير لأي منكر ينجم.

ولكن ألسنتهم في حلوقهم سوف تكون صوت عذاب إن لم تكن صوت إنذار لأولئك الذين يجورون على حدود الله..

وصلة الدعاة بالحاكمين تتطلب زيادة من إيضاح:

إن الداعية ديدبان غيور على الدين وإن افترقت عنه سياسة الحاكمين.

ومن ثَمَّ فإن أي رباط يصله بالجائرين لن يكون إلّا خيانة لقضايا الإيمان.

وللحسن البصري موقف ينبغي أن نلقي عليه قليلاً من الضوء لخطورة دلالته.

فقد قال الشيخ «علي محفوظ»: لولا لسان «الحسن» وسيف «الحجاج» لوئدت الدولة المروانية في مهدها..

ألم تر إلى الحسن وقد جلست بين يديه صفوف من الناس يصغون إليه وهو يخرج بهم في أساليب الكلام من باب إلى باب ثم يقول لهم فيما يحدثهم به: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الولاة فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر، وإنما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والغضب، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع».

وفي أزمة مالية اشتد كرب الناس لها وذهبوا يستفتونه في حلها، فقال

لهم: غلا السعر على عهد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقال الناس: يا رسول اللّٰه ألا تسعر لنا؟ فقال: «إنّ اللّٰه هو المسعر، إنّ اللّٰه هو القابض، إنّ اللّٰه هو الباسط، وإني واللّٰه ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه».

بهذا وأمثاله كان يزرع هيبة الملوك والولاة في صدور الناس، وبهذا وأمثاله كان يبعث الرضا في أفئدتهم عن الحكم القائم.

أقول: وهذا الكلام يؤخذ به الحسن ولا يؤخذ عنه، وهو لأول وهلة يشينه ولا يزينه، فإن الأزمات الاقتصادية إذا أخذت بخناق الجماهير وتطلعت إلى حل يفك حلقاتها وكان في التسعير ما يحد جشع التجار، وينقذ جمهرة الناس، لم يَسُغْ أن يقال لهم: حَرَّم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم التسعير.

إن التسعير إجراء لا تطيقه الحياة المعتادة.

ولكنه ــ في إبّان الحروب والنوازل ــ ضرورة يطالب بها الحاكم ولا يعذر فيها.

ذلك... وسياسة معاملة الولاة ــ كما يحكيها الحسن ــ لا تصور الحقيقة الدينية.

بل هي ــ في ظاهرها القريب ــ تنافي الإسلام، وتهدم قواعد الحرية والعدالة التي شرعها وأخضع لها أعناق الحاكمين.

وأين هذا الكلام الذي يقوله الحسن في ترضية الناس بولاية بني مروان من قول عمر بن الخطاب في خطبته بالجابية[1]:

«أيها الناس: اقرءوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله.

إنه لن يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية اللّٰه.

ألا إنه لن يُبَعِّد من رزق اللّٰه ولن يقرب من أجل اللّٰه أن يقول المرء حقاً، وأن يُذَكِّر بعظيم.

---

(١) ضاحية بدمشق.

ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولّاني اللّه إلا بثلاث: أداء الأمانة، والأخذ بالقوة، والحكم بما أنزل اللّه.

ألا وإني ما وجدت صلاح هذا الحال إلّا بثلاث: أن يُؤخَذَ من حق، ويُعْطَى في حق، ويُمْنَعَ من باطل.

ألا وإنما أنا في مالكم هذا كوليِّ اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف...». ذلك وكتب إلى أبي موسى الأشعري:

أما بعد فإن للناس نفرةً عن سلطانهم فأعوذ باللّه أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة.

أقِم الحدود ولو ساعة من نهار.

وإذا عرض لك أمران: أحدهما للّه والآخرة للدنيا، فآثر نصيبك من اللّه. فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقىٰ.

وأخيفوا الفُسَّاق واجعلوهم يداً يداً، ورِجلاً رِجلاً.

وعُدْ مرضىٰ المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح لهم بابك وباشِرْ أُمُورَهُم بنفسك. فإنما أنت رجل منهم، غير أن اللّه جعلك أثقلهم حملاً.

وقد بلغني أنه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها.

فإياك يا «عبداللّه» أن تكون بمنزلة البهيمة مرَّت بواد خصيب فلم يكن لها هَمٌّ إلّا السِّمَن وإنما حتفها في السمن.

واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناسِ من شقيَ الناسُ به والسلام».

وقال العتبي:

بُعث إلى «عمر» بحُلَلٍ فقسمها فأصاب كلَّ رجل ثوبٌ، فصعد المنبر

وعليه حلة مضاعفة (ثوبان) فقال: أيها الناس، ألا تسمعون...

فقال «سلمان»: لا نسمع، قال: ولِمَ يا أبا عبدالله؟ قال:
لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة، قال: لا تعجل يا أبا عبدالله.

ثم نادىٰ يا عبدالله... فلم يجبه أحد...

فقال: يا عبدالله بن عمر. قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: نشدتك بالله... الثوب الذي اتزرتُ به هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم.

فقال سلمان رضي الله عنه: أما الآن... فقل نسمع.

* * *

وقد عجبنا من هذا الكلام المنسوب للحسن البصري، وتدبرناه طويلاً لنعرف بواعثه، فرأينا أن الحسن جاء في أعقاب فتن مُدْلَهِمَّة قسمت المسلمين طوائف يضرب بعضها عنق بعض، وأن هذه الفتوق في كيان الدولة الإسلامية يُخشَى ــ لو بَقِيَتْ ــ أن تطيح بالإسلام حكومة وشعباً، وأن انصراف الناس إلى حديثها ومرائها كاد ينسيهم روح الإيمان، وشعائر التقوى.

لذلك اتجه الرجل إلى جمع العامة على صلاح القلوب ورقابة الآخرة، مؤثراً أن يطمئن الحاكم من ناحيته بترك الكلام في سيرته وترك التعرض لسياسته، راجياً بذلك أن يدعه الحاكم يُعَلِّم الناس الدين ويبصرهم بشرائعه وأحكامه.

ونحن ــ من التجارب التي أفدناها ــ نعرف موقف الحسن البصري على حقيقته، ونحب أن ننصف الرجل.

فقد جاء في أعقاب الفتنة الكبرى، وبدأ نشاطه الديني في ظروف صعبة.

جاء بعد هزيمة عليّ بن أبي طالب المؤيد من جمهرة الأمة، وحامل لواء الحق في ذلكم الصراع الأسيف.

ولم تكن هزيمة أمير المؤمنين محدودة النتائج، إذ آل بعده الأمر إلى قلة ليست له بأهل، كما أصيبت القيم الدينية نفسها إصابة جسيمة، وبدا للناس

أن المُثُل العليا لا مكان لها في ميادين الحياة، وأن الالتحاق بالركب السائر لن يستطيعه إلّا من يفر من مقتضيات الإيمان والخلق.

وعلاج هذه الحال المنكرة وقع عبؤه على أمثال الحسن البصري من العلماء الذين حرصوا على صبغ المجتمع العام بالتعاليم الإسلامية، وتمسيك الأمة بمُثُلها كلها، وغرس الوفاء للحق في حاضرها ومستقبلها... على أن يتحرَّوا نهجاً من التربية المحايدة الدقيقة لا يعرضهم لصدام مع الحكام المتغلبين على الأمر، ولا يدفع هؤلاء المتسلطين على الأمة إلى فضّ تلك المجامع وتعطيل هذه الدروس..

وهنا يبدو ما كان يعانيه الحسن وأمثاله من حرج وما يعرو كلامهم حيناً من اضطراب. فرغبتهم في خدمة الإسلام وصيانة تراثه توجب عليهم الكلام الكثير.

ومحاولتهم طمأنة ذوي السلطة ـ ليتركوهم وما فَرَّغوا أنفسهم له ـ توجب عليهم الإغضاء، أو التجاوز، أو الاحتيال، لا حرصاً على حياتهم الخاصة بل حرصاً على منار الإسلام الذي رفعوه.

فمن يدري ربما يعمُّ الظلام لو ذهبوا وذهب معهم..

ذاك ما يمكن الاعتذار به عن كلمة «الحسن».

فإن تاريخ الرجل في ميدان الوعظ والإرشاد والنصح العام حافل بالخير مليء بالصالحات.

* * *

ونسأل أخيراً: هل هناك تاريخ للدعاة الذين ذكرنا طريقتهم، وأوضحنا واجبهم وشرحنا فائدتهم للإسلام وأهله؟

إنهم كثير في ماضينا وحاضرنا، بيد أنهم لا ينظمهم سجل، ولا يضبط مآثرهم كتاب..

وما أحرانا وأجدرهم باستدراك هذا النقص.

* * *

مِنْ صِفَاتِ الدَّاعِيَةِ

للدعاة إلى اللّٰه أوصاف وآداب يمتازون بها عن سواد الناس.

فهم نماذج جيدة لكل ما حوى الإسلام من تعاليم، واسْتَنَّ من مكارم.

والشمائل التي نحصيها الآن من أحوالهم وأفعالهم قد تبدو ــ لأول وهلة ــ نعوتاً عامة تطَّرد في جماهير المسلمين ولا يختص بها نفر من الناس.

بيد أن هذه النعوت ــ وإن شاع جنسها أو ثبت أصلها لعامة المؤمنين ــ فإن أنصبة الدعاة من معناها يجب أن يكون أربى وأزكى.

إن حقائق الدرس بعد أن يشرحها الأستاذ في الصف قد تظهر متساوية لدى الجميع. وقد يُظَنُّ أن التلامذة ومعلمهم أصبحوا سواء في وعيها.

وهذا بعيد، فإن الأستاذ لديه من رسوخ المعلومات ووضوحها، ومن القدرة على تقليبها وعرضها ما يعز على غيره.

والناس قد يوجد فيهم فريق كبير ممتلىء القلب بالإيمان.

بيد أن هذا الامتلاء ربما لا يعدو أصحابه.

والإناء ــ لكي يرشح على ما حوله ــ يجب أن يفيض، وأن ينزل فيه ما يزيد على سعته وما ينسكب من جوانبه.

ونفوس «الدعاة» كذلك لا بد أن يكون لديها مقادير من اليقين، والحماس، والفضل، يتجاوزها إلى ما عداها، ويجعل الاستفادة منها ميسرة للآخرين..

فإذا قلنا: على الداعية أن يعرف ربه، فلسنا نعني المعرفة العامة التي مكلف إياها كل مؤمن.

بل نعني مزيداً من المعرفة، يجعل صاحبه أنور قلباً، وأرحب فقهاً، وأدوم استحضاراً، وأنضر استذكاراً.

وعلى هذا الأساس نحصي ما يجب أن يتخلق به الدعاة من أوصاف وآداب:

١ ــ **الصلة بالله، وتلك هي الدعامة الأولى في أخلاق «الدعاة».**

إذ كيف تدعو الناس إلى أحد، صِلاَتُكَ به واهية، ومعرفتك له قليلة؟

إن الذين يدعون إلى مُرَشَّح من المرشَّحين أو إلى مبدأ من المبادىء لا بد أن تكون أواصرهم بهذا الشخص أو بذلك المبدأ قائمة.

ومِن ثَمَّ لا يُفْهَمُ بَتَّةً أن يتصدى أحد للدعوة إلى اللّٰه والأخذ بصراطه، وهو لا يعرف اللّٰه ولا يدري صراطه..!!

ولذلك يقول اللّٰه جل شأنه:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾(١).

وقد عَرَّف اللّٰه نفسه إلى خلقه في آيات بينات استفاض بها الكتاب العزيز، وفي كلمات نفيسة زخر بها تراث النبوة.

والناس يتفاوتون في مدى استيعابهم وفقههم لهذه المأثورات المشرقة بنور اللّٰه.. والدعاة ــ بداهة ــ أجَلُّ المؤمنين نصيباً من هذا النور..

والمهم أن ندرك طبيعة هذه الصلة الإلهية، إنها روح ينفث الحياة، وينبض بالحركة والقوة، ويشيع الضوء والدفء.

---

(١) سورة الفرقان: آية ٥٩.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(١).

وهذه الصلة تشمل في موكبها أرقى ما في الحياة، وأكفل أسباب النجاة، ولذلك يرفض الإسلام أي مقارنة تسويها بغيرها.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾(٢).

وحق على الدعاة ــ وذلك مكانهم العتيد ــ ألّا يَهِنُوا في الحياة وألّا يهونوا.

وألا يعدلوا بنسبتهم إلى اللَّه شيئاً.

وأن ينظروا إلى الحياة على أنهم أكبر منها.

وأن تغلب رؤيتهم للَّه كل ما يملأ العين في زحام الأحياء وتكاثرهم..

* * *

إن وَعْيَ الناس للحقائق المبعثرة حولهم يختلف اختلافاً كبيراً.

وقد قال علماء النفس: إن المرء ربما استغرقته حالات انتباه موقوت.

وربما مرت الأشياء في ذهنه ببؤرة الشعور، وقد يضعف الإحساس بها قليلاً حين تنزل إلى حاشية الشعور.

وفي حالات التعود يعالج الإنسان أموراً كثيرة، ويُتِمُّ أفعالاً شَتَّى، وهو ذاهل عنها.

ويكاد لا يدري كيف قطع أشواطها، وذاك ما يسمونه «شبه الشعور».

لكن ما الذي يشعر به هذا أو ذاك؟

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٢.

(٢) سورة فاطر: آيتي ١٩ ــ ٢٢.

إن وظائف البشر في الحياة هي التي تحدد نوع هذا الشعور ودرجته.

ولما كان العباد قاطبة مكلفين أن يعرفوا ربهم، وأن يـؤدّوا له حقوقاً معينة، فإن شعورهم به وبحقه، يخالط أعمالهم وأحوالهم، وينزل من نفوسهم منازل بعيدة التفاوت..

وأغلب العامة يقيمون الصلاة مثلاً، والمسيطر على أنفسهم هو ما يقارن كل عادة مأنوسة وكل طريقة مدروسة.. أي شبه الشعور!! لا الوعي الكامل، ولا القريب من الكمال.

وقد تتألق في حيوات الناس لحظات ذِكْرٍ يَقِظٍ، وإنابة مخلصة، ثم يستأنفون مسيرهم في دنياهم، وتعفر جبينَهم متاعبُها ومآربها..

فهل صلة الدعاة بربِّهم من هذا القبيل؟. لا.. لا..

إن الدعاة الذين يُكَرِّسون أوقاتهم للّه، ولدفع الناس إلى سبيله، لا بد أن يكون شعورَهم باللّه أعمق، وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم ورقابتهم له أوضح.

أي إنهم إن هبطوا من مجال الضوء المشرق.. فإلى قريب منه.. إلى منطقة شبه الظل كما يقال.

أما إذا سقطوا في عتمة، فإن ذلك أمر لا تتحمله وظيفتهم.

ومن ثم فهيهات أن يعرضوا له، أو أن يرضوا به إذا زَلُّوا فيه..

وعرفانهم باللّه يلزمهم شاطىء الأمان إذا كان كثير من الناس يغرق في لجج هذه الدنيا أو تطويه في سبحها الشاق عواطف الرغبة والرهبة..

وهنا يجب أن أؤكد حقيقة هي ألزم ما تكون للدعاة.

فإن قوانين اللذة والألم تسري على الناس قاطبة، وتجعلهم يرغبون ويرهبون ببواعث لا حصر لها.

وأولى ثمرات الإيمان تهذيب هذه الطبيعة وكبح جماحها.

والمفروض أن الداعية العارف باللّٰه قد بلغ من منازل الإيمان منزلة تجعل رجاءه في اللّٰه وحده يسبق كل رغبة إلى مخلوق، كما تجعل خشيته للّٰه أسرع إلى فؤاده من أي رهبة تخامر نفسه أمام ذي سلطان.

إن ابن الرومي ـ شأن كثير من الشعراء في الزمان الماضي، وكثير من الصحافيين في زماننا هذا ـ تعرض بمدح ذوي الجاه لاكتساب جوائزهم.

فاسمع إليه وهو يقص هذه التجربة مع أحدهم:

ظُلِمَتْ حاجتي فلاذت بحقويـــك فأسلمتها لكفّ القضاء
وقضاء الإله أحوط للنـــاس من الأمهات والآباء
غير أن اليقين أمسى مريضاً   مرضاً باطناً شديد الخفاء
لو يصح اليقين ما رغب الرا   غب إلا إلى مليك السماء
وعسير بلوغ هاتيك جداً   تلك عُليا منازلِ الأنبياء

وأخطأ ذلك الشاعر حين وصف توحيد اللّٰه في الرغبة والرهبة بأنه عسير. إن ذلك سهل على كل من نَوَّر اللّٰه قلبه، وسدد في الحياة خطوه.

وهو خُلُق لا يجوز أن ينفك عنه داعية إلى اللّٰه.

ومن الصلة باللّٰه إعزاز كتابه، وإدمان تلاوته، وتدبر معانيه، وعقد مقارنة مستمرة بين المُثُل التي يحدو العالم إليها، والواقع الذي ثوى الناس فيه، لتكون هذه المقارنة حافزاً على تذكير الناس بالحق، وقيادتهم إلى اللّٰه، وتأهيلهم لرضوانه..

وقرب الداعية من كتاب اللّٰه يجب أن يكون متعة لروحه، وسكناً لفؤاده، وشعاعاً لعقله، ووقوداً لحركته، ومرقاة لدرجته.

وانظر إلى هذا الدعاء يتزلف به النبي صلى اللّٰه عليه وسلم إلى ربه، ويطلب إليه أن يوثق أواصره بكتابه:

«اللهم أنا عبدك، وابن عبدك، وابن أَمَتِكَ، وفي قبضتك، ناصيتي

بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمتَه أحداً من خلقك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، وضياء بصري، وذهاب حزني، وجلاء همي وغمي».

* * *

٢ ـ إصلاح النفس.. وهذا جهد لا ينفك عنه مسلم، وهو بالدعاة ألصق.

ولعل أولى هدايا الصلة الحسنة باللّه أن يعرف المرء نفسه، وأن تنكشف له نواحيها جميعاً فلا يؤتىٰ من ناحية يجهلها.

أما الذين نسُوا ربهم فهم في عماء من أمر أنفسهم، يخبطون في الحياة خبط عشواء وينساقون على غير هدىٰ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

والداعية المشتغل بهداية الناس إنما يفعل ذلك على ضوء من إصلاحه لنفسه هو.

فإذا أراد فطام العامة عن رذيلة البخل مثلاً، عالج أولاً شُحَّ نفسه، وتعرَّف إلى المراتب التي تدرَّج فيها والوسائل التي اصطحبها ـ وهو يستأصل من نفسه هذه الطبيعة ـ أو بتعبير أدق: وهو يكفكف شرها ويتوقَّى ضيقها.

حتى إذا عرف ـ عن خبرة خاصة ـ ما الذي صنع بنفسه؟ فإنه سوف يعرف ـ بصدق وقوة ـ ما يقول للناس، وسوف يصل بكلماته ـ والحالةُ هذه ـ إلى صميم نفوسهم.

إن نفس الداعية، ينبغي أن تكون حقل تجارب.

ومن النتائج المستفادة يعرف أفضل البذور، وأنسب الأوقات، وأجدى الأساليب.

---

(١) سورة الحشر: آية ١٩.

ومن صدق الداعية مع ربه ـ في أخذ نفسه ابتداء بكل إصلاح ـ يكون مدى ما يصيب من توفيق في عمله مع الناس.

ومن أعجب النقائض في دين اللّه ودنيا الناس أن هناك نفراً ممن يتسمَّون بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من علم إنما هو أمر يخص المخاطبين فحسب وقد يعني الناس أجمعين إلا إياهم.

إنهم نَقَلة فحسب، إنهم «أشرطة مسجلة» أو «أسطوانات معبأة» تدور بعض الوقت ليستمع الناس إليها وهي تهرف بما لا تعرف، ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى إذا احتيج إليها.

إن هذا الجماد الذي أنطقه الذكاء الإنساني هو صورة للجماد الذي أنطقه الاحتراف، أو للإنسان الكذوب الذي ينصح الجمهور بأمور هو أبعد ما يكون عنها، وينفرهم من أشياء هو أقرب ما يكون للوقوع فيها.

والدعاة الذين يَحْيَوْن على ذلك النحو المتناقض هم آفة الإيمان، وسقام الحياة. وهم الثقل الذي يهوي بالمثل العليا ويمرغها في الأوحال.

والغضب الإلهي لا يَنْصَبُّ بعنف وقساوة على مرتكبي الخطايا بجهالة.

إنه يَنْصَبُّ على أولئك الذين يقترفون الدنايا وهم يعلمون، أو الذين يقترفونها وهم ينفِّرون منها الآخرين.

وذاك سرُّ تشبيههم تارةً بأنهم حمير، وطوراً بأنهم كلاب.

وَلِمَ يوصَمُون بهذه الألقاب الشائنة؟

ذلك أنهم تكذيب عملي للكلام الذي يلقون، والمبدأ الذي إليه ينتمون.

إنهم بمسلكهم دليل على أن الشهوة تغلب العقل، والهوى يهزم الرشد. أي إنهم عذر قائم بين يدي كل مقصر، وإياس من الصلاح الحق أمام بُغَاته من السامعين والمطلعين.

وكثير من هؤلاء المنتسبين إلى الدين بألسنتهم، الخارجين عليه بأعمالهم، من يُلوِّن الدين برغبته ويمزج تعاليمه بشهوته.

فهو ـ أولاً ـ يتعرف ما يشتهي، فإذا حَدَّده ألبسه ثوب الدين، وربما أقنع نفسه بأن شهوته هذه حق محض، ثم سعى إلى بلوغها، وكأنما هو يؤدي عبادة ولا يشبع نهمه!

وقد يقاتل دونها وهو يزعم أنما يقاتل عن دين.

إن هذا الفساد المعقَّد عند نفر من الدعاة لعنة ماحقة، وذاك سر تناولهم بأقسى عبارة:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾(1).

إن الرجل القذر البدن لا يغني عنه أن يحمل بين يديه قطع الصابون.

والكريه الرائحة لا يجديه أن يُرى ومعه زجاجات من العطور.

ودعاة الدِّين الذين تهب من سيرتهم سموم حارقة، إنما هم عار على الدين وصدٌّ عن سبيله.

وقد عاب الله على أحبار اليهود أنهم كانوا دوابَّ ناقلةً لكتب العلم لا بَشَراً كِراماً يحسنون الإفادة مما معهم:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(2).

والمراد من الدعاة المسلمين أن يتحسسوا أنفسهم، وأن يداووا ما قد يكون بها من علل، تلك العلل التي تشيع بين من لم يُرزَقُوا العصمة، والتي يستحيل أن نخلو منها يوماً.

---

(1) سورة الأعراف: آيتي ١٧٥ ـ ١٧٧. (2) سورة الجمعة: آية ٥.

فإن المرء يولد وفيه من الطباع ما يستدعي دوام اليقظة وطول المعالجة.

ثم تعرض له في حياته عادات شتى، الرديء فيها أكثر من الطيب.

ثم إن له من رعيته الخاصة من يسأل أمام اللّه عنهم، ومن يتأسى الناس بسيرته فيهم.

فكيف يغفل عن واجباته في هذه الأنحاء كلها؟.

إن سهره على خاصة نفسه وأهله أمر لا محيص عنه كي تثمر دعوته وتحمد طريقته.

٣ ـ دقة الفهم للدين والدنيا.

والداعية الحصيف رجل يُشَخِّص العلة التي أمامه ويهيء لها الشفاء المناسب من كلام اللّه ورسوله.

وبذلك يجيء نصحه طبًّا للمريض، ورحمة تُذهب عناءه، ونوراً يهديه السبيل. والقدرة على هذا الأسلوب لا يُلَقَّاها إلّا من استجمع:

١ ـ ثروة طائلة من نصوص الكتاب والسنة تكون رصيداً عنده لأي داء وافد أو مرض عارض.

٢ ـ إحاطة تامة بطبيعة البيئة، وأحوالها الجليَّة والخفية، وظروفها القريبة والبعيدة.

فإن الداعية الحكيم هو الذي يبلغ رسالته بتلك الطريقة.

فيسوق من الوحي الإلهي ما يقوِّم العوج الإنساني بلباقة وفقه.

ويرسل من العظات ما يكون دواء حاسماً لما يحسه الناس في أنفسهم من حيرة واضطراب.

وذلك هو نهج القرآن في بناء الأمم وإقامة النهضات.

لقد نزل منجَّماً حسب الحوادث، لم ينزل جملة واحدة.

بل وافقت كل طائفة من الآيات حالةً تتطلبها كما يتطلب الظمأ الرّيّ.

وعلى الداعية أن يدرس جيداً تواريخ النزول وأسبابه، والملابسات التي قيلت فيها ألوف الأحاديث.

وأن يحسن ترتيب هذه الهدايات السماوية الجليلة بحيث توافق الأوضاع التي تصلح لها أتم الموافقة.

وهذه هي سياسة الدعوة، أو هذه الحكمة في علاج الأمور باسم اللّه، وقليل من الدعاة من يُلْهَمُهَا.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

من أئمة المساجد من يحفظ بعض الخطب ثم يلقيها على مستمعيه دون اكتراث بشؤونهم.

ومن الوعاظ من يحشد أطايب الكلام وجواهر الألفاظ، ثم يعثرها على الجمهور في درس أو محاضرة.

ومنهم من يخلط بين عدة موضوعات، ويتصيد من هنا ومن هناك كلاماً كثيراً لا رباط بين أجزائه إلاّ أنه كلام في الدين يعرض على الناس هذا العرض المهوش.

والعلة أن في ذهن الرجل معلومات قليلة أو كثيرة يمتلىء بها حيناً ثم يفرغها.. وحسب.

وليس هذا دعاء إلى اللّه، إنما هو ـ بين أصحابه ـ سباق في إلقاء المحفوظات..!!

وهناك قوم آخرون على النقيض ممن ذكرنا.

تمر بهم الأحداث الخطيرة وتواجههم المناسبات الهامة، فيلقونها بكلام غَثٍّ، ومشاعر باردة.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٩.

ذلك أنهم فقراء أشد الفقر في معرفة الكتاب والسنة وسِيَر السلف الصالحين. إنهم لا يدرون ما يقال، لأنه ليس لديهم ما يقولونه.

ولست أدري كيف يتعرض لإمامة الناس ووعظهم رجل قصير الباع في الدراسات الإسلامية.

كل ما يستظهره من كتاب اللّه بضع آيات وسور.

وكل ما يعيه من سنة الرسول جملة من الأحاديث لا تسد جوع المجتمع إلى فنون التوجيه وألوان النصح..

وكثير من المشتغلين بالدعوة الإسلامية مصابون بهذا العوز الفظيع.

ظاهرهم أنهم يحملون الإسلام في حناياهم.

والواقع أن الإسلام هو الذي يحمل عبئهم، ويتحامل على نفسه وهو يسير بهم في متاهات الحياة ودروبها.

* * *

وقد نشأت من قِصَر النظر إلى علل المجتمع، وقلة الزاد من هدايات السماء، مفارقات تستدعي العجب.

فهذا واعظ يدخل إحدى القرى البائسة ليحدث أهلها المستوحشين عن آفات الرياء! وهذا آخَر يخطب في المدن عن جرائم القتل والأخذ بالثأر..

وفي الذهن الفقير تتمدد المعلومات القليلة وتصبح كل شيء.

سمعت رجلاً يُجري على لسانه هذه الكلمات لابن عطاءاللّه السكندري:

«سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار»، «ادفن نفسك في أرض الخمول».. إلخ فكرهت هذا الكلام، وأنكرت سياقه.

إن الجملة الأولى تقال لفرد من الناس ملكه جنون القوة، واستحوذ عليه الاعتداد بنفسه، فبنى خطته على أنه إذا أراد فعل، وإذا عزم فَعَلَى المَرَدَةِ والأملاك جميعاً أن يُذعنوا له.

ومن ثَمَّ فهو لا يتصور أن يردع هَمَّه أو يغلبه أحد في الأرض والسماء على أمره.

هذه الكلمة حق داخل هذا النطاق وحده.

وهي ـ خارج هذا النطاق ـ لا عمل لها ولا مكان.

ولذلك أنكرت أن تجري على لسان خطيب في مجتمعنا الذي تجتاحه أزمات متعاقبة من ضعف الهمم وخور العزيمة..

وكذلك كلمة (ادفن نفسك) إنها لمغرور يريد أن ينضج قبل أوانه، ولمفتون بِحُبِّ الظهور، ينخدع بالقشر عن اللُّبّ.

وليس لها مكان في أمة أَلَحَّ عليها العجز، فهي ما تنهض حتى تتعثر.

وسوء الاستشهاد كما يقع في هذه الحكم المجلوبة كرهاً، يقع في كتاب اللّٰه وأحاديث الرسول.

فترىٰ بليدَ الفهم من هؤلاء يجيء بالأثر، هو في نفسه حق، ولكنه فيما ضُرب له وقُصَّ من أجله بعيد بعيد.

وعندي أن هذا ضَرْبٌ من تحريف الكلم عن مواضعه.

أرأيت إذا انطلق رجل طيب أمين، إلى قوم أغرار يحرص على وعظهم، ويتعشق هدايتهم، أفيليق أن تثنَيه عن مُراده بقول اللّٰه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ..﴾(1)؟

إن سوق الآية هنا خطأ، فمجال الآية الوحيد، هو المجال الفذ الذي نزلت فيه، أعني تسلية الداعي الذي تعب ونصب وهو يحاول إرشاد شخص عنيد دون جدوى.

أرأيت هذه الألوف المؤلفة من العوامّ المتواكلين، الذين يجرُّون أقدامهم على الأرض في كسل واسترخاء، وينظرون إلى السماء في بلاهة وغباء؟ هل أولئك الموتى هم الذين يقال لهم: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(2)؟

---

(1) سورة القصص: آية ٥٦.

(2) سورة الحديد: آية ٢٠.

إن سوق الآية هنا خطأ.

ومجالها الوحيد الذي تعمل فيه، هو بين قوم انتشَوا من الحياة الدنيا حتى سكروا.

قوم أبطرهم الغنىٰ، وأغواهم التشبُّع، وحجب أبصارهم عن الحقائق العليا، فهم مشغولون بحاضرهم عن آخرتهم، مذهولون بأنفسهم عن ربهم.

إن الآية إنقاذ لقوم يكادون يغرقون في النعيم.

فكيف تُوَجَّه لأقوام يكادون يهلكون عطشاً إلى ضرورات الحياة الدنيا؟

* * *

ومُصاب الإسلام في أعصار كثيرة، وفي هذا العصر خاصة، يجيء من الدعاة الذين يعجزون عن الموازنة بين شتى تعاليمه.

إما لِشَلَلٍ في مداركهم يمنعهم من الاتزان وإحسان الفهم والاقتباس والتوجيه، أو لِنَقْصٍ في ثروتهم العلمية، فهم يحفظون شيئاً وتغيب عنهم أشياء.

ومنذ بضع مئات من السنين سقط المجتمع الإسلامي كله فريسة لعصابات من المتصوفة، هَوَّنَتْ لديه العمل للدنيا باسم الإقبال على الآخرة.

فكانت عُقبَى هذا التوجيه الضال دماراً أصاب المسلمين في كيانهم العلميّ والعسكريّ والسياسيّ.

إن الإقبال على الآخرة حق.

ومن ذا الذي يجرؤ على تهوين الآخرة أو يغض من الاستعداد لها؟؟

غير أن الطريق إلى ذلك ليس بالانصراف عن الدنيا ـ كما يفهم الكُسَالى وأهل البلادة ـ بل بامتلاك الدنيا وتسخيرها للّه.

إن أيَّ تاجر مسلم على عهد رسول اللّه كان كأي تاجر وثني أو نصراني أو يهودي نشاطاً وذكاءً وضرباً في الأرض وبصراً بالسوق وطلباً للربح.

كل ما هنالك من فرق أن غير المسلم قد يكرس مكاسبه لنفسه وعاجلته، أما المسلم فهو يدَّخر لآخرته ـ قليلاً أو كثيراً ـ من سعيه.

ولم يفهم فقيه في المستقدمين والمستأخرين أن التدين يكسر نية التَكَسُّب أو يُضعف الخَطْوَ في ميدان الكدح والارتزاق..

حتى ظهر أولئك الدعاة السفهاء، فأخْزَوا الإسلام، وأذلُّوا بَنِيه في كل ميدان.

إن الدعوة إلى اللّه تتطلب من المنتصب لها اطلاعاً غزيراً على القرآن الكريم، وعلى سيرة الرسول، بوصفها التطبيق العملي الرشيد لروح القرآن، ثم سير الخلفاء والأصحاب في جهادهم المادي والأدبي لإرساء دعائم الإسلام وإبلاغ رسالات اللّه..

ولعل هذا القدر من دراسة العصر الأول يعطي صورة دقيقة عن تعاليم الإسلام في كل شأن.

فإذا استكمل الداعية هذا النصيب الواجب بقي عليه أن يدرس عالمه الذي يعيش فيه دراسة فحص واستقصاء..

أجل بقي عليه أن يكون ذا خبرة واعية بالميدان الذي سيعمل فيه، حتى يدرك كيف يُصلح دنيا الناس بدين اللّه..

* * *

الإِخْـــلَاصُ

الإخلاص رُوح الدين ولُباب العبادة وأساس أيّ داعٍ إلى اللّه.

فإذا غاض هذا المعنى أو تضاءل لم يبق هنالك ما يستحق الاحترام لا في الدنيا ولا في الآخرة.

في أعمال الحياة المعتادة قد يكون الإخلاص شرطاً لإتقانها وتجويدها وضمان ثمراتها.

وهو إخلاص يعني اطِّراح بعض المآرب الصغيرة واستهداف بعض المُثُل العالية.

وقد ينفك هذا الشرط ويتعامل الناس بالمظاهر ويتجاوزون عَمّا وراءها.

لكن في ميدان الدين لا يرتفع عمل أبداً ما لم تصحبه نية صالحة، وما لم يقترن بإرادة وجه اللّه وحده.

بل إن التَدَيُّنَ الذي تكتنفه الأهواء ضرب من العوج النفسي والالتواء الخُلُقي يثير التقزز ويستدعي الاشمئزاز.

والإخلاص فريضة على كل عابد، وهو في محرابه الخاص، يتعامل مع ربه فحسب. فإذا اتصل الأمر بالدعاة فهو فريضة آكد، وعقدة أوثق.

واتساع نطاق العمل، واشتباكه مع أحوال الناس، ورضاهم وسخطهم وقوتهم وضعفهم يجعل الداعية أحرص على استدامة ذكر اللّه ومطالعة وجهه حتى لا يضل الغاية ولا يحيد عن النهج في زحمة هذه الحياة.

بيد أننا نلحظ ــ آسفين ــ أن ميدان الدعوة إلى اللّٰه غصَّ بأقوام يجعلون وجه ربهم آخر ما يُرعى ويُرغَب.

كأنَّ الأمر لا يعدو أن يكون حرفة تَدِرُّ رِبْحاً قليلاً أو كثيراً.

وكأن الحرص لا يهيج إلا استدامة هذا الربح أو استزادته باسترضاء الرؤساء الذين يُجْرُونه ويملكون ــ في نظرهم ــ بسطه وقبضه.

وقد رأينا الدعاة المحترفين، يقومون بواجباتهم وليس يسيطر عليهم إلاّ تهيب مخالفة الرئيس أو تملق عواطفه.

ومما يدعو للضحك أن أديباً كبيراً من مؤلفي الروايات الغربية، أجرى على لسان البطل في إحدى القصص ــ وكان يحتضر، وأمامه القس يباشر مراسمه الدينية ــ أجرى على لسانه هذه الكلمات:

أيها القس المحترم، سأحدث رؤساءك بأنك أديت عملك بإتقان، وأنك تستحق الترقية!

وفي إحدى قرى الريف لوحظ أن إمام المسجد كان يصلي المغرب بآيتين من أواخر السور، فإذا حضر العمدة الصلاة كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهريتين، ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال.

ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطول وأجود.

وأن الأمر لو وُكِلَ إلى صلته الخاصة باللّٰه، لكانت الصلاة أقل وزناً!!

ومن يدري لعله ــ لولا ضرورات العيش ــ ما صَلَّى قط.

وفراغ الأفئدة من قصد اللّٰه، وانتباهها إلى صلات الناس دليل على أن الإيمان دعوىً مكذوبة.

فكيف يُتَصور من هؤلاء أن يُعَلِّموا الناس الإيمان، وأن يدعوهم إلى اللّٰه..؟؟

إن الداعية المرائي يقترف جريمة مزدوجة.

إنه في جبين الدين سُبَّة متنقلة وآفة جائحة.

وتقهقر الأديان في حلبة الحياة يرجع إلى مسالك هؤلاء الأدعياء.

وقد رُوِيَت آثار كثيرة تفضح سيرتهم وتكشف عقباهم.

والذي يحصي ما أصاب قضايا الإيمان من انتكاسات على أيدي أدعياء التدين لا يستكثر ما أُعِدَّ لهم في الآخرة من ويل.

روي عن عدي بن حاتم قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم:

«يُؤمَرُ يوم القيامة بناسٍ من النار إلى الجنة حتى إذا دنَوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وما أعد اللّٰه لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا الجنة». وفي رواية: «قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك لكان أهون علينا.

قال: ذاك أردتُ بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هِبْتُم الناس ولم تهابوني، وأجللتم الناس ولم تُجِلُّوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حُرِمتم من الثواب» رواه الطبراني في الكبير والبيهقي.

* * *

إن اصطياد الدنيا بالدين مأساة عَزَّت على الأساة وليس لها إلا اللّٰه.

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن نفراً من الذين يلبَسون شارات الإيمان، يصدُّون الناس عن الإيمان.

وممن يتكلمون عن اللّٰه يأكلون باسمه أموال الناس سُحتاً.

قال جل شأنه: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

(١) سورة التوبة: آية ٣٤.

وهذا هو الذي جعل الشاعر «أحمد الزين» يرفع عقيرته بهذه الأبيات:

ودعيّ في الدين والدين يشكو فَعلاتٍ كالكفر منه لعينه
نال ما يشتهي من الجاه باسم الـ دِّين زوراً في الأمة المسكينهْ
هو فيهم كالذئب بين دجاج أو شياهٍ يختار منها السمينهْ
فَقَدَ الدينَ واليقين وصار الـ مالُ والجاه دِينَه ويقينه
تخِذَ الإفكَ والتملق ديناً فجميع الأديان تلعن دينه

* * *

وضعف الإخلاص يعود إلى قلة المعرفة بالله، أو إلى سوء الظن به.

وإن كان ضعفاء الإخلاص لا يعترفون بشيء من هذا.

ولعلهم يزعمون لأنفسهم معرفة لا تُسبق، وظناً لا يُفْضَل.

أترى إلى هذا الأعرابي الجلف الذي شاء أن يُعَلِّمَ رسولَ الله التقوى والعدالة؟ والذي علق على قسمته للغنائم بقوله: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله..!!؟

إنه شخص تذرَّع بما زعم من إيمان لينفِّس عن طبيعة مملوءة بالسفاهة والتطاول والحقد.

فهو يصبُّ جاهليته في قالب من المحافظة على المثل العليا، ليبدو أمام الناس كبيراً وهو في حقيقته صغير.

ثم هو قد تكلف الإيمان رداء يواري سوءته لأن الإيمان هو «النقد» الرائج في هذه الجماعة الناهضة.

ولو أن هناك عوضاً آخر مكانه من أي مبدأ، أو أي منهج لَمَا تردَّد في اعتناق هذا العوض والأخذ به.

فالأمر عنده ليس ديناً يُتَّبَع، وتستضيء به النفس، وتنزل على أحكامه.

وإنما الهمُّ الأول والآخر هو انطلاق هذه النفس لإشباع دنياها ومآربها في ظل الدين إن وجد، وفي ظل غيره إن عَرَض.

والأدعياء في ميدان الدين مصيبة، تُنَكَّبُ بها تعاليمُ الدين، وتضطرب حالته، وتُنَكَّسُ رايتُه.

عن عليٍّ رضي اللّٰه عنه أنه ذَكَر فِتَناً تكون في آخر الزمان، فقال له عمر: متى ذلك يا عليّ؟

قال: إذا تُفُقِّه لغير الدين، وتُعُلِّم العلمُ لغير العمل، والتُمِسَت الدنيا بعمل الآخرة. رواه عبدالرزاق أيضاً في كتابه موقوفاً.

وهناك حديث ابن عباس المرفوع وفيه:

«ورجل آتاه اللّٰه علماً فبخل به عن عباد اللّٰه، وأخذ عليه طَمَعاً، وشرى به ثمناً، فذلك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي منادٍ: هذا الذي آتاه اللّٰه علماًفبخل به عن عباد اللّٰه وأخذ عليه طمعاً واشترىٰ به ثمناً ويظل كذلك حتى يفرغ الحساب».

ولا نحب أن نشتط مع الخيال حين نبحث في بواعث العمل وننشد خلوصه للّٰه وحده.

فإن التعامل مع البشر يقتضي الاعتراف بمطالبهم، ورغائبهم، وميز ما يحمد منها وما يعال.

الناس ــ وبينهم الدعاة ــ يشتهون الدنيا، ويستهويهم متاع الحياة.

فإن اللّٰه غرس ذلك في طبائعنا، وقال ــ واصفاً ذلك في كتابه ــ :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ . . . ﴾[1].

والناس ــ وبينهم الدعاة ــ يَحْيَوْن في جماعات تستشرف للتقدم والمكاثرة وتغريها أسباب المنافسة والانتصار، وتتبعها حشود من الأهل والولد والأتباع. ولهذه الحالات آثار عميقة في توجيه السلوك الإنساني يمنة ويسرة.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤.

فذاك مصاب بجنون العظمة.

وذاك بعُقدة الضَّعَة.

وذاك بكنز المال.

وذاك بِكُرْهِ الآخرين.

وذاك بعبادة الذات.

وذاك لا يستطيع أن يحيا إلاّ ذَنَباً.

وذاك لا يستطيع أن يكون إلاّ رأساً... إلخ.

وهذه العلل الكامنة عوامل فعّالة في انحراف النشاط الفردي والجماعي، وقد تكون السبب الأوحد في انهيار أمم وفناء حضارات، بَلْهَ القضاء على شخص أو الجور على نفر من الناس.

والدعاة إلى اللَّه يجب ـ وسط هذه العواصف النفسية والتيارات القُلَّب ـ أن يأخذوا طريقهم إلى اللَّه نقياً نظيفاً.

فليأخذوا نصيبهم من الدنيا دون تَزَيُّدٍ ولا جشع ولا استشراف.

فإذا كان ذلك على حساب ذَرَّة من رسالتهم؛ فليجعلوه دَبْرَ آذانهم ومواطىء أقدامهم.

وليجعلوا علائقهم بالناس على قاعدة الحب في اللَّه والبغض في اللَّه..

فلا يؤثروا شارداً لقربه، ولا يُقْصُوا صالحاً لوحشة منه وضيق به.

وعلى الدعاة أن يُنَقِّبوا في خبايا أنفسهم، فلا يجعلوا للهوى سبيلاً عليهم.

هناك من يَنقد الآخرين للتشفِّي، وهناك من يَحْمَدُهم للصداقة.

وهناك من يُجَسِّمُ الصغائر لفلان ويقف خطيباً ضده، ومن يُغضي عن العظائم لفلان ويغلق فمه عنه.

وتلك جميعاً أحوال يشينها الخبث ويشدُّها سوء القصد، ولا شيء فيها للَّه جلّ شأنه.

إن العمل الخالص الطيب ــ ولا يقبل اللّه إلاّ طيباً ــ هو الذي يقوم به صاحبه بدوافع اليقين المحض وابتغاء وجه اللّه، ودون اكتراث برضا أو سخط، ودون تحرٍّ لإجابة رغبة أو كبح رغبة.

وفي أصحاب هذا الإخلاص، والمستمسكين بحبله يُسَاق ذلكم الحديث الرقيق:

عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر رضي اللّه عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبكي، فقال: ما يبكيك؟

قال: حديث سمعته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «اليسير من الرياء شرك».

ومن عادى أولياء اللّه فقد بارز اللّه بالمحاربة.

إنّ اللّه يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفْتَقدُوا وإن حضروا لم يُعْرَفُوا، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل مظلمة» رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في كتاب الزهد له وغيره، وقال الحاكم: صحيح ولا علة له.

ذلك، والمرء قد تغلبه نفسه، وتدس عليه أغراضاً لا تليق به.

وربما انساق ــ عن غير وعي ــ لمواطن تضطرب فيها النية، ويختلط فيها التجرُّد بالأَثَرة.

ولكي يعتصم الداعية من هذه اللوثات، ويبرأ إلى اللّه من عُقباها أرشده النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يتوجه إلى اللّه بهذا الدعاء:

«اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه».

واقرأ هذه القصة..

حاصر «مسلمة» حصناً فندب الناس إلى نقب فيه، فما دخله أحد.

فجاء رجل من عُرض الجيش فدخله ففتحه اللّه عليهم فنادى «مسلمة» أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد.

فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء.

فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟

قال: أنا أخبركم عنه، فأتىٰ «مسلمةَ» فأخبره عنه، فأذِنَ له فقال:
إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:
ألا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة.
ولا تأمروا له بشيء.
ولا تسألوه ممن هو.

قال: فذاك له.

قال: أنا هو

فكان «مسلمة» لا يصلي بعدها صلاة إلاّ قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب...

* * *

الشَّجَاعَة

لعل أعتى الأعمال، واملأها بالقدرة، وأجرفها للعوائق، ما استند إلى طباع الإنسان المادية، أو رغائبه النفسية.

إنه إذا هاجت في دمه «غريزة الجنس» انطلق إلى إجابتها وهو مسحور بوحيها، مدفوع بِأَزِّها لا يكاد يقفه شيء!!

وإذا تاحت له فرص الحصول على أمنية حارَّة نشط من عقال، وملكته قوة على النضال، ومضَى قُدُماً في طريقه يتوسل بالعنف، أو بالحيلة ليبلغ غايته.

إن الناس ينبعثون عن دوافعهم الخاصة، كما تنبعث القذائف من مكامنها.

ومن ثمَّ تجد أغلب الوقود الذي تتحرك به الحياة منبجساً من أعماق الأَثَرة، ومستمِدّاً عِرامَه من تشبث البشر بأنفسهم وضرورات حياتهم وفهمهم الفردي لما يريدون.

وتقرير هذه الحقيقة لا بد منه في أي حديث يدور حول غرس الإيمان في أرجاء العالم، وتنزيل الناس على أحكامه، وتعليقهم بقيمه ومثله.

فإن البواعث الضعيفة لليقين لا تجدي شيئاً أمام عصف النزوات المجتاحة.

وإذا لم يفلح الإيمان في تكوين أسس للخير، قوية التيار، غلّابة النفوذ، شديدة النفاذ، فهو لن يكسب في ميدان الحياة معركة.

وإذا لم يكن الصالحون من وضوح النية وروعة السلوك وتألُّقِ السيرة، على النحو المعجِب البارز، فهيهات أن يفوز بهم مبدأ، أو تنجح بهم فضيلة أو تُخذل أمامهم رذيلة.

يجب ـ لكي ينتصر الطُّهر في هذه الحياة ـ أن يكون في نفوس أصحابه أبرز من الْعُهْرِ في سيرة العاهرين.

ولكي تسود العدالة في الأرض يجب أن يتعلق بها سَدَنَتُها تعلقاً أشد من اشتهاء الظلمة لظلمهم.

وإذا كانت هناك نفوس ضريتْ على العسف، وتوحشت به في أعمالها حتى لكأنها سباع مفترسة فما يغني في صدها أن تلقاها في زحام الحياة مقاومة مستأنسة، أو براثن من حرير.

إن طبيعة الشر عنف المصدر، وحدَّة المسير.

ومقتضى ذلك أن يكون الإيمان قادراً على الظهور، قادراً على الحركة، قادراً على المقاومة، شجاعاً في تصرفاته جميعاً.

ومن أجل ذلك كانت الشجاعة خلقاً أصيلاً في الداعية إلى اللّه، وشيمة لا تنفك عنه وهو يتقلب بين الناس.

مدد هذه الشجاعة الواجبة، ونبعها الدافق، أن حق اللّه لا بد أن يسود، وأن هداه لا بد أن يعلو، وأن منهجه لا بد أن تتضح معالمه وترسو دعائمه، وأن المنتسبين إليه ما ينبغي أن تخفت أصواتهم، ولا أن يُغلبوا على تعاليمهم، وأن خصومهم في هذه الأرض لا حظَّ لهم من مهابة، ومهما عرض لهم من قوة فإنهم ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وقد ذكرنا آنفاً أن جمهور الأمة الإسلامية مكلف أن يأمر بالمعروف وأن يحققه.

مكلف أن ينهى عن المنكر وأن يغيره.

مكلف أن يخاصم الآثام وأن يضيق بِفَعَلَتِهَا.

---

(١) سورة البقرة: آية ١١٤.

إن الأمة جمعاء مكلفة أن تكون شجاعة في حماية الدين، ورد العادين على حدوده من الْمُجَّان والفجّار.

فإذا خذلتها قواها دون القيام بهذا العبء، فقد تَخلَّتْ أمام اللّهِ عن رسالتها، وسقطت من عينه، وحرمت من رعايته.

«إذا رأيتم أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُوُدِّعَ منها».

ذاك حق الإسلام على أمته عامة.

فأما حقه على الدعاة المنتصبين لحمايته المضطلعين برسالته فهو أثقل وأجل.

على أولئك الدعاة أن يضاعفوا يقظاتهم وتضحياتهم، وأن يكرسوا أوقاتهم وأفكارهم لتعرف حاجات الحق وإجابتها، وتفقد مواطن الضعف في أسواره وحمايتها، وتحسس مظان الهجوم عليه لإحباط كل كيد، وإرهاب كل خصم.

الدعاة الموظفون لحراسة الإسلام هم جيش للدفاع عن الإيمان، يشبه الجيش الموكل بحراسة الأمن.

والعجب العاجب أن الجند المكلفين بحراسة الأمن قد يفقد بعضهم روحه وهو يطارد لصّاً، أو يصاب بعاهة مؤلمة وهو يؤدي واجبه.

ذاك فضلاً عن السهر المستديم والجهد الموصول.

أما جند الدعاة من أئمة ووُعّاظ ومرشدين فكأنما أخذوا عهداً على الدهر ألّا يمسَّهم سوء.

فهم يسمنون والدين ينحف، ويراحون والدين مكدود، ويعيشون متخاذلين على حين يتساند جيش الشيطان لبلوغ هدفه وإدراك أمله.

إذا لم يكن الداعية المسلم شجاعاً، مطيقاً لأعباء رسالته، سريعاً إلى تلبية ندائها، جريئاً على المبطلين، مغواراً في ساحاتهم، فخير له أن ينسحب من هذا المجال وألا يفضح الإسلام بتكلف مالا يحسن من شؤونه.

وهاك صوراً للثبات على الحق والمجاهرة به وإبراز شاراته في المجتمع دون تَهيُّب أو وَجَل.

بعض الصور للثبات على الحق والمجاهرة به:

قام أعرابي بين يدي «سليمان بن عبدالملك» فقال:

إني مكلمك ـ يا أمير المؤمنين ـ بكلام فيه بعض الغلظة فاحتمله ـ إن كرهتَه ـ ، فإن وراءه ما تحبُّه إن قبلتَه.

قال: هات يا أعرابي.

قال: فإني سأطلق لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسُن من عِظَتِك، تأديةً لحق اللَّه وحق إمامتك.

إنه قد اكتنفك رجال أساءوا لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم.

خافوك في اللَّه ولم يخافوا اللَّه فيك، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا!!.

فلا تأمنهم على ما ائتمنك اللَّه عليه.

فإنهم لن يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة عسفاً وخسفاً.

وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك. فأعظم الناس غَبْناً من باع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: أما أنت يا أعرابي، فقد سللتَ لسانك، وهو أقطع سيفيك.

فقال: أجل لك ـ يا أمير المؤمنين ـ لا عليك.

* * *

وقام أعرابي بين يدي «هشام بن عبدالملك» فقال: أتت على الناس سنون.

أما الأولى فَلَحَتْ ـ أزالت ـ اللحم.

وأما الثانية فأكلت الشحم.

وأما الثالثة فهاضت العظم، وعندكم فضول أموال، فإن كانت للَّه فقسموها بين عباده. وإن كانت لهم ففيما تُحْظَر عنهم؟

وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم بها، فإن اللَّه يجزي المتصدقين.

فأمر «هشام» بمال فقسم بين الناس، وأمر للأعرابي بمال فقال:

أكُلُّ المسلمين له مثل هذا؟ قالوا: لا، ولا يقوم بذلك بيت مال المسلمين. قال: فلا حاجة لي في ما يبعث لائمةَ الناس على أمير المؤمنين.

* * *

وقال أبو الدرداء: أضحكني ثلاثة، وأبكاني ثلاثة:

أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفـول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري؛ أراضٍ اللّه عنه أم ساخط عليه؟

وأبكاني فراق الأحبة: محمد وحزبه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي اللّه يوم تبدو السرائر، ثم لا أدري أأصير إلى الجنة أو إلى النار؟

* * *

وقال «سليمان بن عبدالملك» لأبي حازم: ما بالنا نكره الموت؟

قال: لأنكم عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

* * *

وحُكي عن «العز بن عبد السلام» أنه أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ. فنادى في مصر على نفسه: من أفتى له «ابن عبدالسلام» بكذا فلا يعمل به فإنه أخطأ فيه.

وإرسال المفتي المنادين يشهرون بفتواه على هذا النحو خُلُق عجيب، ودلالة على أمانة في العلم لا نظير لها.

ولعلها استجابة لكلمة «عمر بن الخطاب» إلى «أبي موسى الأشعري» حيث أرسل له كتاباً يقول فيه:

«ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل».

* * *

وعدّد «معاوية» على الأحنف ذنوباً، فقال الأحنف:

يا أمير المؤمنين لِمَ تَرُدُّ الأمور على أعقابها؟

أما واللّه، إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا.

ولئن مددتَ لنا بشبر من غدر لَنَمُدَّنَّ إليك باعاً من خَتْر.

ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بِصَفْوِ حلمك...

قال «معاوية»: فإني فاعل.

* * *

وحجب رجل عن باب السلطان فكتب إليه: نحن نعوذ بـاللّه من المطامع الدنيّة، والهمم القصيرة، وابتذال الحرية، فإن نفسي ـ والحمد للّه أبية ـ ما سقطت وراء همة، ولا خذلها صبر عند نازلة، ولا استرقَّها طمع ولا طبعت على طَبَـع.

وقد رأيتُك وَلَّيْتَ عرضك من لا يصونه ووصلتَ ببابك من يشينه، وجعلتَ ترجمان عقلك من يُكثر من أعدائك ويُنقص من أوليائك، ويسيء العبارة عنك، ويوجِّه وفدَ الذمِّ إليك، ويضغن قلوب إخوانك عليك، إذ كان لا يعرف لشريف قدراً ولا لصديق منزلة.

* * *

وما أجمل هذه الأبيات التي تصور لنا مواقف كريمة للبطولات المعجبة.

قالت الخنساء:

نُـهينُ النفـوسَ وَهَـوْنُ النفـو　　س يـوم الكـريهـة أوقـى لهـا

وقال يزيد بن المهلب:

تـأخرت أستبقي الحياة فلم أجد　　لنفسي حيـاةً مثل أن أتقـدّمـا

وقالت امرأة من بني كندة:

أبَوْا أن يفروا والقنـا في نحورهم　　ولم يرتقوا من خشية الموت سُلَّما

ولـو أنهم فَـرُّوا لكـانـوا أعـزة　　ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما

قال ابن عباس: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

وكان يقال: أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العقل، والخامس نشره.

ويقال: إذا جالستَ العلماءء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

وقال عليٌّ عليه السلام:

لا يرجُوَنَّ عبد إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلّا ذنبَه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يَسْتَحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: اللَّه أعلم.

واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان.

* * *

والشجاعة في الجهر بالحق تنبعث من اجتماع خُلُقين عظيمين:

أولهما: امتلاك الإنسان نفسه، وانطلاقه من قيود الرغبة والرهبة، وارتضاؤه لوناً من الحياة بعيداً عن ذل الطمع، وشهوة التنعم.

فكم من داع يبصر الحق ويقدر على التذكير به، ولكنه يحتبس في حلقه فلا يسمع به أحد!!

لماذا؟ لأنه لو نطق لحرم من هذا النفع، أو لغضب عليه هذا الرئيس، أو لفاته هذا الحظ. فهو ــ إيثاراً لمتاع الدنيا ــ يلزم الصمت، ويظلم اليقين.

ولو كان عفيف النفس، راضياً بما تيسر من عيش، مكتفياً بالقليل مع أداء الواجب عن الكثير مع تضييعه، لكان له موقف آخر.

وما أحسن قول القائل:

أَمَتُّ مطامعي فأرحت نفسي　　فإن النفس ــ ما طمعتْ ــ تهون

وقولــه:

ملكت نفسي مذ هجرت طبعي　　اليأس حُرٌّ والرجاء عبد!!

وعن «سعْد بن أبي وقاص» رضي اللّه عنه أن رجلاً قال: يا رسول اللّه أوصني وأوجز فقال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنَى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصَلِّ صلاتك وأنت مودِّع، وإياك وما يُعْتَذَرُ منه».

رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصحح إسناده.

وقال أبو سعيد الحسن البصري رحمه اللّه: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم فإذا فعل ذلك استَخفُّوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه».

وروي أن أعرابيًا سأل أهل البصرة:

من سيدكم؟

قالوا: الحسن.

قال: بم سادكم؟

قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم.

فقال: ما أحسن هذا.

وقال «علي بن عبدالعزيز» القاضي رحمه اللّه تعالى:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهُمُ هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أُكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيَّرْتُه لي سُلَّما
وما كل بَرْقٍ لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيتُ أرضاه مُنعِما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تحتمل الظما
أُنَهْنِهُهَا عن بعض مالا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لِمَا
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذِلَّةً؟ ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لَعُظِّمَا
ولكن أهانوه فهان ودنَّسوا ... مُحيَّاه بالأطماع حتى تَجَّهما

وثانيهما: أما الخلق الآخر الذي تعتمد الشجاعة عليه فهو إيثار ما عند الله، والاعتزاز بالعمل له، وترجيح جنابه على جبروت الجبارين، وعلى أعطيه المغدقين، والركود إلى القدر بإزاء أي وَعْدٍ أو وعيد، على أساس أن الرزق والأجل إلى الله وحده.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١).

ولليقين في هذه الميادين منطق ينفي الجبن ويورث الجراءة.

ذلك أن الداعي إلى الله ـ إذا صدقت به صلته ـ لم يبال أن يفتدي الحق بعمره مفضلاً أن يقتل شهيداً على أن يُدفَن الحق، ولا يجد من ينصفه، ويشرفه ويعلي رايته.

ولذلك قال رسول الله: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

وقال: «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله».

حكي أن «عبدالملك بن مروان» أتوه برجل من الخوارج فأراد قتله، فأُدخل على عبدالملك ابن له صغير يبكي، فقال الخارجيّ:

دَعْهُ يا عبدالملك، فإن ذلك أرحب لشدقه وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حفزته طاعة الله فاستدعَى عَبرتها.

فأعجب «عبدالملك» بقوله وقال له متعجباً: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟

فقال: ما ينبغي أن يشغل المؤمنَ عن قول الحق شيء.

فأمر عبدالملك بحبسه وصفح عن قتله.

وكان «خالد بن الوليد» يسير في الصفوف يُذَمِّر الناس ويقول:

يا أهل الإسلام، إن الصبر عِزٌّ، والفشل عجز، وإن النصر مع الصبر.

وقال أعرابي: الله يخلف ما أتلف الناس، والدهر يُتْلِفُ ما جمعوا.

وكم من ميتة عِلَّتها طلب الحياة، وحياة سببها التعرض للموت.

* * *

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٨.

خلالٌ جامعة

ذكرنا أطرافاً من الصفات التي يجب أن يستكملها الداعية.

وأطلنا الشرح حيث أحسسنا أن خلقاً مًّا ينقص المتعرضين للدعوة في هذه الأيام.

ولو ذهبنا نستقصي الخلال التي تلزم من يتعرضون لهذا المنصب لطال حبل الحديث فلنكتف بذكر هذه الحقيقة.

إن الداعية يؤدي وظيفة سبقه النبيون إليها، وإنه أحق الناس باقتباس شمائلهم، والاقتداء بهداهم، وأخذ الأسوة من مَحياهم ومماتهم..!

وأنجح الناس في أداء هذه الرسالة من تُرَى وراثاتُ النبوَّة في خلقه وسلوكه، وعبادته وجهاده وتضحياته، وكبريائه على الدنيا، ومقاومته لفتنها، ومعاملته لذوي السلطان غير راغب ولا راهب.

ولنعلم أن الخطبة البليغة المُعجبة، والكتاب المبين الذكي، والجماهير العاشقة المتعصبة لا تساوي كلها قشرة نواة، إذا كانت علاقة المرء بربه واهية.

فلنترك الكلام في صفات الداعية من الناحية النفسية لنشير إلى خلال تلزمه من الناحية العقلية والعلمية.

ولسنا فيما نذكره مقيَّدين بترتيب مًّا، بل نثبت ما عنَّ لنا كيفما اتفق.

الداعية مُدْمِنُ قراءة، وصديق للكتاب، يأنس إليه ويرقُب كل جديد فيه. على أن القراءة المهوشة عبءٌ على الذهن، وكثرتها تصبح عديمة الفائدة، ما لم تَدُر القراءة حول محور معين يرتب معارفها، وينسق أفكارها.

ويَدَعُ في المستودع ما يحتاج إليه في الغد، ويقدم للاستهلاك ما يتطلبه اليوم. وصاحب الرسالة له حاسة خاصة تلتقط ـ على عجل ـ ما يعنيه.

وسرعان ما يديره في رأسه ويربطه بفكرته، ويقرن به من المعاني ما يناسبه.

وصاحب الرسالة ـ مهما سمت درجته ـ تلميذ يطلب العلم من المهد إلى اللحد. ويستفيد ممن دونه كما يستفيد ممن فوقه.

ولن يصل أحد في الدنيا إلى درجة التشبع التام من المعرفة.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وأغلبنا يجود عقله في ناحية، ويربو إنتاجه.

وهو في ناحية، أخرى، إما إنسان عادي، وإما طفل ساذج.

والداعية المسلم يجب عليه ـ بعد الاستبحار في الكتاب والسنة ـ أن يدرس التاريخ الإسلامي والتاريخ الإنساني معاً.

لا ليكون سِجِلّ ولادات وَوَفَيات، سواء للأشخاص أم للدول...

بل ليعرف الطبيعة البشرية على الواقع، وليعرف سنن اللّه في خلقه..

وتاريخنا الإسلامي مشوب بخلط كثير للأسف.

وصحيح أن المنتصرين يُزَوِّرون التاريخ لحسابهم في أنحاء العالم كله.

لكن الحقيقة قَلّما تتوارىٰ ـ برُمَّتها ـ في أثناء هذا الافتعال.

فما أكثر وجهات النظر التي تُدَوَّن! وما أكثر الذين يمحون ما يثبت غيرهم! والباحث الذكي يستطيع أن يجمع معالم الحق ـ قدر الاستطاعة ـ من بين الأقوال المتناثرة والآراء المتنافرة.

وأول ما نلفت النظر إليه في تاريخنا، أنه غير موجَّه لحساب الدعوة الإسلامية. ولا نبغي البتة بهذه الملاحظة التزيُّدَ على الأحداث أو بَتْرَ جزء منها لحساب فكرة معينة، معاذ اللّه.

بل نبغي إسقاط القشور والتوافه والأكاذيب، وإنصاف الحقيقة فحسب.

---

(١) سورة يوسف: آية ٧٦.

إن الأولاد في مدارسنا يتعلمون السيرة، على أن الغرض من بعثة الرسول هو هدم الأصنام ونشر التوحيد. ثم ماذا بعد ذلك؟ لا شيء!!

أما المبادىء التي اشترعها الإسلام للمجتمع والدولة، وصاغ في نطاقها الأمة العربية الأولى ثم الأمة الإسلامية فَقَلَّمَا تُذكَر! لماذا؟

وتُدرَس دولة الخلافة، فتُذْكَرُ الفتوحُ الأولى وكأنها هجمات أمة فتية على دول شاخت فانهزمت، وهذا باطل.

فإن العرب ــ من غير الإسلام ــ ما كانوا أكفاء ليقفوا في حربٍ مَّا أمام «الفرس» أو «الروم» فضلاً عن مقاتلة الدولتين معاً في جبهات متصلة، في وقت واحد. وهكذا تمضي دراسة التاريخ ــ تاريخ أمتنا ــ وكأنما كتبه خصومها!

إن الداعية المسلم أنفذ بصراً إلى الوقائع، وأدرى بأسلوب سَوْقِهَا من غيره.

ثم نحن في تاريخنا فَسَحْنَا صدورنا للإشاعات على حساب الحقيقة نفسها.

وانظر مثلاً إلى «السيوطي» وهو يتكلم عن القرآن في كتابه «الإتقان»؛ إن صفحات كثيرة من كتابه ليست إلّا سواداً في بياض، حشاها ــ عفا اللَّه عنه ــ بأقوال ساقطة، ولو تركها مكانها لماتت من تلقاء نفسها، وإحياؤها ضَرْبٌ من العبث العلميّ، ما كانت له ضرورة ولا ثمرة.

كذلك تاريخنا السياسي مَحْشُوٌّ بأمور من هذا النوع، حَبَّذا لو تجرد عنها.

وعلى الداعية المسلم أن يأخذ منه الحق المجدي، وأن يتجاوز ما عداه.

* * *

ودراسة علم النفس ــ بفروعه الكثيرة ــ مفيد جداً.

إن هذا العلم نما وتشعب في الدراسات الغربية الوافدة.

وإن كانت أصوله مبعثرة في مواريثنا الثقافية لا تخطىء رؤيتها العينُ البصيرة، وهي تُقرأ في كتب الأدب والتصوف.

على أن أي قارىء لـ «علم النفس» يجب أن يحذر المجازفات التي تكثر في مباحثه.

فإن هناك أموراً تساق وهي تحمل طابع اليقين، على حين أنها لا تعدو الظن العلمي فحسب، وقد تكون نتيجة خبرة خاصة لصاحبها.

والحقائق العامة لا تولد بهذه الطريقة، ولا تُسَلَّم لمن يزعمها بهذه السرعة.

وإنما نوصي الدعاة بدراسة هذا العلم، لأنه أهدى من الفلسفات القديمة في وصف الإنسان وغرائزه، وميوله، وتحليل عواطفه واتجاهاته، وإحصاء نشاطه العقلي، وتَتَبُّع مظاهره من انتباه إلى ذاكرة، إلى خيال.. إلخ.

كما أن الفرع الاجتماعي منه يصف ـ بعمق ـ صلة المرء بغيره، وما يسيطر على الجماعات من أفكار ورغبات وما يُلين قِيادَها أو يُعَسِّره.

وقد امتدت بحوث «علم النفس» إلى طوائف العمال، والأطفال، والمنظمات الإنسانية المختلفة.

ومن الضروري للداعية أن يتعرف على خصائصها، وأن يجمع ألواناً من الخبرات المحترمة في شؤونها، ألواناً تعينه على إصابة الحق وهو يُحدِّث الناس.

* * *

وعلى الداعية أن يكون مُلِمّاً بقسط محترم من جميع علوم الكون والحياة كـ «الطبيعة» و «الكيمياء» و «النبات» و «الحيوان» و «الفلك» و «تقويم البلدان» وغيرها. إن هذه المعارف ليست نافلة في حياته، ولا في توجهاته.

بل هي زاد لا بد منه لتصحيح فكره، وضبط صلته بالعالم، وإرسال النصائح محفوفة بوَعْي دقيق، وحِسٍّ بالغ، وإدراك للهدف الذي تنطلق إليه.

بل إن التغذية علم يفتقر الواعظ إلى الإحاطة بِجُمَلٍ كثيرة منه.

وهو لن يحسن الكلام في الزهد، والصوم، والسلم والحرب، إلاّ إذا عرف ما تقوم به الأبدان، وأجرى على ضوئه ما ورد من آثار.

ثم نحن نريد الاستيثاق من أن العقل الذي تصدر عنه الحقائق الدينية صائب النظرة، سديد الخطوة، منطقيّ المقدمات والنتائج.

ومن ثم فنحن نوصي بتدريبه على التفكير الرياضي، وهو التفكير الذي

نرجو أن تتكون ملكته من دراسة «الحساب» و «الهندسة» و «الجبر».

إن العقل الخرافي لا يؤتمن على الهزيل من مصالح الناس، فكيف يؤتمن على الجليل من دين اللّه..؟؟

وربما تصفـو الحياة للمغفلين الذين عناهم المتنبـي في بيتيه:

تصفـو الحياة لجاهل أو غافل   عمـا مضى منها ومـا يتوقـع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

لكن هؤلاء المغفلين لا يُسْنَدُ إليهم عمل، ولا يُوثق بهم في مهمة، ولا يُعرَف لهم في المجتمع مكان، فهل يُنفَون من دنيا الناس ليتصدّروا في دين اللّه؟

يجب أن نؤكد لأنفسنا وللناس أن دين اللّه أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقىٰ.

* * *

وعلى الداعية أن يكون طويل الباع في ضروب الفلسفة، الخُلُقي منها والاجتماعي والسياسي، وأن يكون عميق الفهم للمذاهب المحدَثة.

فإن «أبا حامد الغزالي» من سعة فهمه لآراء الفلاسفة الأقدمين، كان يضيف إليها أدلة لم تخطر ببالهم ثم يَكِرُّ عليها جميعاً بالنقض..

ونحن نرى لدراسة الفلسفة ثمرات تعود على الدين بشتى الفوائد، فإن الفلسفة موضوعها الإنسان والمجتمع وما وراء المادة.

أي إنها تعمل في الميدان نفسه الذي يعمل فيه الدين.

وأفكار رجالها لا تخرج عن أن تكون موافقة للدين، أو مضادة، أو محايدة.. ودراسة الأفكار المتجهمة للإيمان والشاردة عن صراطه المستقيم لا بد منها لِدَحْضِ الشُبَهِ ورد المفتريات وتفنيد الأخطاء..

إن اللّه طلب من المشركين أن يذكروا أدلتهم على ضلالهم:

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١).

فإذا كان للبعض برهان مزعوم أو سلطان موهوم، فعلى رجال الحق أن يُزَيِّفُوا برهانه، ويدمَغُوا سلطانه.

أما الأفكار الفلسفية الأخرى، فأرى ضرورة دراستها، لأنها تعين على تجلية الحق الذي أنزله اللّه، وتبين مدى ما فيه من رشد.

وشيء آخر مُهِمٌّ، هو أن الدين منكوب من قديم بلصوق خرافات به.

وأهله منكوبون من قديم بشيوع البغي بينهم.

وهذا وذاك قد يجوران على الفطرة التي ارتضاها اللّه ديناً لعباده.

وقد يصل الفيلسوف البعيد إلى جزء خطير من هذه الفطرة بسلامة صدره وسداد فكره.

على حين يعجز العبدة الجهلة أو أهل الكتاب ـ الذين أعماهم الغرض وأضلهم البغي ـ عن إدراك هذا الجزء من الفطرة الدينية، أو إحسان تصويره كما أنزله اللّه..

ويؤسفني أن أصرح بأن بعض محترفي التَّدَيُّن أبعدُ عن الدين من بعض الفلاسفة الذين رُزِقوا سناء القلب واللُّب.

ولذلك يجب أن ندرس الفلسفات المختلفة، من المقاييس الخلقية، إلى الخطط الاقتصادية والسياسية التي بلغها القوم باجتهادهم في غيبة الوحي الصحيح عنهم..

ولننتفع بهذه الدراسات في تصوير الحق والدفاع عنه وإحسان عرضه.

وعلى الداعية أن يفهم طبيعة الزمان الذي يحيا فيه، ويعاشر أهله.

وأن يدرك الاتجاهات السائدة في العالم بالنسبة إلى المادة والروح والشورى والفردية والغيب والشهادة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١١١.

وأن يتعرف على طبائع الأجناس البشرية، والدول القائمة، وأن يلم بِنَزْرٍ يَسيرٍ من حياة قادتها وميولهم وأهدافهم، وعقائدهم ومذاهبهم.

فإن هذه الخبرة تدعم منطقه، وتُصَوِّبُ حكمه.

* * *

وليعلم الداعية أن أسوأ شيء يواجهه في ميدان العمل أن يتحدث إلى قوم حديثاً ينبىء عن قصور فكره أو عدم فهمه.

إن كل ما يبنيه سينهار فوق رأسه، وسيجد مستمعوه أنهم أعرفَ به بالحياة.

وأنهم ـ بالتالي ـ أبصر بما يصنعون للسير في دروبها، بعيداً عن توجيهات هذا الواعظ المسكين الذي لا يدري شيئاً عن طبيعتها.

وقديماً يقول المتعلم لشتى الفنون:

عرفت الشر لا للشـر لكن لتوقِّيـه
ومن لا يعرف الشر من الناس يَقع فيه

ونحن نقول: يجب على الداعيـة أن يتعلم الخير والشـرَّ جميعاً، لا لِيَقِيَ نفسه فحسب من الشرور، بل ليقي غيره من الناس كذلك.

إن غزارة الثقافة وسعة الأفق وروعة الحصيلة العلمية خِلَالٌ لا بد منها لأي داعية موفَّق..

والداعية الذي يشعر بغربة في ميدان الأدب يجب أن يترك ميدان الدعوة لفوره.

فإن الذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطاً بأدب العربية في شتى أعصارها إنما يحاول عبثاً.

وأنّى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم دِيناً كتابه معجزة بيانِية، ورسوله إمام للحكمة وفصل الخطاب؟؟

الداعية لا بد أن يدرس آداب العربية، القديمة والحديثة، وأن يُدرِّب نفسه على الأداء العالي، والعبارة الرائقة.

وليس القصد أن يكون كلامه إنشاء منمقاً، كلا، فهذا مزلقة له ولرسالته.

وإنما القصد أن يحسن صَوْغَ العلم النافع، والحقائق الركينة في أسلوب يبرز ما فيها من نفع وقوة.

وقد قالوا: الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً.

وكذلك القول الحسن، والخطاب الجميل.

* * *

الدِّينُ وَالعِلْمُ

يظن نفر من الناس في هذا العصر أن الدين أمسىٰ من المخلّفات البالية، وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده، وتعدو حدوده، وتسير وحدها دون رعاية لرب خالق، أو تَهيُّبٍ لجزاء مُنْتَظَر.

ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فضَّ مغاليق الكون واكتشف أسراره، وأرصد لكل مشكلة علاجاً من عنده لم تُبقِ للدين موضعاً، ولا لقضاياه مكاناً.

وهذا الكلام إفك كله.

ومهما نقَّبْتَ فيه فلن تجد إلّا ظلمات الادِّعاء والغرور، ونضح الجهالة والشرود.

واتباع هذا اللّغْو مفتاح لأبواب من الفوضى والخيبة تلحق العالم آخر الدهر. بل إن العالم يتعثر الآن في بوادرها، ويوشك أن يسقط في براثنها، مالم يتب إلى اللَّه، ويُقلع عن هذا الغِيّ.

إن الدين ــ كان، ولم يزل، وسيظل ــ ملتقى العقول السليمة والفِطَر القويمة.

ما أخطأ منهجَه فكرٌ ثاقب، ولا ضلَّ صراطَه طبعٌ نظيف.

وإن العلم مهما اتسعت آماده، وامتدت أبعاده، وترادفت كشوفه، فلن يجيء إلّا بما يصدق الوحي، ويدعم الإيمان، ويمكّن لهداية الرحمن، وإلا بما يزيد الأتقياء بصراً بجلال اللَّه، وقياماً بحقه، وثقة بلقائه الموعود.

ثم إن التهمة التي تُوَجَّه إلى الدين الآن ليست جديدة.

والقول بأن الإيمان لون من خرافات الأقدمين سبق أن قاله المشركون من عبدة الأصنام.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٢).

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٣).

والزعم بأن الدين شيء من خرافات الأولين ضرب من الجرأة التي يتسم بها سفهاء كل عصر ويرمون بها المرسلين.

كأن الإلحاد في آيات الله ذكاء وتقدم، والاستجابة لهديه جمود وتأخر! وذلك هو الضلال المبين.

فإن اتباع الدين والانقياد لتعاليمه يقتضي تفتحاً ذهنياً يتجاوب مع آيات الله في كونه، كما يقتضي عزيمة قوية لفطام النفس عن المظالم والآثام.

وهذا الجهاد يجعل كِفَّة المؤمنين ـ في أية موازنة ـ أرجح، ويجعلهم أحق بالاحترام في الدنيا والآخرة.

وإذا كان اتهام الدين بأنه فكرة متأخرة، ليس إلاّ سفاهة قديمة.

فكذلك ما ينضَمُّ إلى هذا الاتهام من تبجُّح أهل الزيغ وتطاوُلِهم.

---

(١) سورة المطففين: آيات ١٢ ــ ١٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ٢٥.

(٣) سورة الفرقان: آية٥.

كأنهم ورثوا ذلك الكبر بالإلحاد عن فَسَقَة الجاهلية الأولى الذين كانوا يَلقَون رسول اللّٰه فيسخرون منه ويستعجلون العقاب المعَدَّ للجاحدين.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾(١).

إن القوم هم القوم، حذو النعل بالنعل.

وإن المرء ليتفرس في وجوه عشاق الإلحاد في هذا الزمان، فلا يرى في ملامحهم البدنية والنفسية إلّا ملامح المفتونين الصغار الذين تلونا عليك نبأهم من أعداء النبيين المكرمين..

الدعوىٰ هي الدعوىٰ، والسيرة هي السيرة.

أما الثرثرة باسم العلم وتقدمه فهي شكل ليس له موضوع.

فإن العلم دليل على اللّٰه وقائد إليه.

وهيهات هيهات أن يَفِدَ العلم بقضية تنقض الاعتقاد في وحدانية اللّٰه ووجوب طاعته وضرورة الإعداد للقائه.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(٢).

إن الإسلام دين يبني كيانه المادي والأدبي على التعمق في العلم، والتزيُّد من الثقافة، وعلى دوام الصلة بعمل القدرة العليا في مجال العالم الرحب. وأولو العلم في هذا المضمار قرناء لملائكة اللّٰه في التصديق بعظمته والشهادة بعدالته.

---

(١) سورة الأنبياء: آيتي ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة النبأ: آيتي ٣٨ ـ ٣٩.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ . . ﴾(١).

والمتأمل في القرآن الكريم يوقن بأن الكون مدرسة الإيمان الحق، وأن العلم مدده الموار ونبعه الفوار، وأن كل خطوة إلى الأمام في دراساته إنما هي زيادة جديدة في دلائل التصديق، وأسباب اليقين.

إن الإسلام يربو على العلم كما يربو الجسم على الغذاء الجيد.

وينمو باستبحار المعرفة كما يغلظ النبات على الشعاع والماء.

فيا عجباً كيف يزعم زاعم بأن الإسلام ضد العلم، أو أن الإسلام ذهب أوَانُه لأن العلم قد توطدت أركانه؟؟

إن هذا ارتكاس في الفهم وانطماس في البصائر:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

ثم لننظر أي كمال تبلغه الإنسانية بعيداً عن منطق الإيمان وإيحاء الدين؟ إن دسائس النفس لبلوغ مآربها لا حصر لها.

وما لم يحكمها ضمير موصول بالله فإنه يستحيل أن تخلص للخير أو أن تتجرد من الشر.

وقد حصل المستعمرون في هذا العصر على أنصبة ضخمة من العلم النظري، والتفوق المادي. فماذا صنعوا به، وماذا أفادت الدنيا منه؟

ملكوا القوة فكانت في يد الفاتح الغالب سلاحاً للنهب والغصب، وأداة للجبروت والكبرياء، ووسيلة لقهر الأمم، وتكبيل عقولها وضمائرها بالأغلال.

إن الحياة التي يستهدفها الإلحاد لِسُكَّان هذا الكوكب المرهَق، حياة لا صواب فيها ولا رحمة.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨. (٢) سورة الجاثية: آية ٢٣.

حياة يصرخ فيها المدل بتفوقه صرخة الزعيم الصهيوني القديم «قارون» عندما قيل له:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ . . . ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾(١).

حياة يقول فيها سراق الحقوق وموقعو البخس بالناس إذا قيل لهم:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(٢).

إن الإلحاد ليس خراباً قلبياً فقط، وليس ظلاماً فكرياً فقط.

بل هو ــ إلى جانب ذلك وهذا ــ دمار اجتماعي يقوض أسس الشرف ويردم منابع العفاف، ويطلق ألسنة العاهرين بمطاردة أهل الطهر وأولي النُّهىٰ قائلين:

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٣).

إن الحياة ــ بعيداً عن فضائل الدين وشعائره ــ انطلاق حيواني محض.

ولا يجوز أن ينخدع العقلاء بمظاهر الارتقاء التي تلوح أحياناً بين أقوام متحللين من شُعَبِ الإيمان وتعاليم الدين.

فإن أزمات العالم التي تتهدده بالويل والعذاب الأليم إنما تنشأ من غرائز السوء التي نمت في ظلال الإلحاد، وانطلقت من عِقالها انطلاق السباع من غابها.

---

(١) سورة القصص: آيات ٧٧ ــ ٧٨.

(٢) سورة هود: آيات ٨٥ ــ ٩١.

(٣) سورة الأعراف: آية ٨٢.

وما ترجع البركة إلى الأرض إلّا إذا عاد الناس إلى ربهم منيبين راشدين.

روىٰ مسلم في صحيحه: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ــ فيما يرويه عن ربه ــ:

«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمَرَتْهم أن يشركوا بـي ما لم أُنزل به سلطاناً.

وإن اللّه تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان.

وإن اللّه تعالى أمرني أن أقاتل قريشاً، فقلت: رب إذاً يَثْلَغُوا[1] رأسي فيدعوه خبزة[2].

فقال: استخرجهم كما أخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك..

قال: وأهل الجنة ثلاثة:

ذو سلطان مقسط متصدق موفّق.

ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُربَى ومسلم.

وعفيف متعفف ذو عيال».

ومما يساوي جحود الدين وإنكار أصله جُملةً، الزعمُ بأنه يصلح للعوام وحدهم، وأن أمره ونهيه ووعده ووعيده عناصر تُستخدم في ترويض الجماهير وإلزامها الجادّة .

أما الخاصة من أُولي الرأي وذوي الثقافة، فربما كـان في ارتفاع مستواهم وزكاة ضمائرهم ما يغني عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والتبشير بالجنة والإنذار بالنار!!.

(١) يشدخوا.

(٢) الرغيف المكسور.

وهذا كلام من أبطل الباطل وأكذب الكذب.

بل هو أوغل في الضلال مما يبدو لأول وهلة.

فإن رذائل الصغار صغيرة مثلهم، وجرائم العامة محدودة الشر، محصورة الخطر مستدركة النتائج..

والواقع أن أحوج الناس إلى الدين وأوامره ونواهيه هم أولئك الخواص من كبراء وعلماء.

فإن منزلتهم في المجتمع، ومكانهم من تصريف شؤونه يجعلان الرقابة على ضمائرهم ألزم، وإشرابهم مخافة اللَّه أشد..

إن الضمير الفردي والعالمي، لما ابتعدا عن الدين، ارتكبا من الجرائم ما تقشعر له الجلود.

ولن يعود للعالم حظ معقول من السلام والاستقرار إلّا إذا رجعت إليه عاطفة التدين.

ثم إنه إذا كان اللَّه حقاً، وذاك ما لا ريب فيه، فما معنى أن يتقيه قوم دون قوم، وأن يهتم بوحيه بعض الناس، ويستغني عنه بعض آخر؟

ألا فلنعد إلى إقامة التربية العامة على دعائم الدين، وتكوين القلب التقي والنفس اللوّامة، وإشعار الكل أن الحساب الحق يوم الدين:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)

* * *

لقد عاشرت أقواماً يبنون حياتهم على فلسفة الضمير المجرد ـ كما يزعمون ـ ويتحللون من فروض العبادات ومراسم الدين.

ويوهمون مخالطيهم أنهم بلغوا من الكمال شأواً كالذي يبلغه النسَّاك أو أسمىٰ! وأعترف أنني لم أستَبِنْ شَرَّهم للأيام الأولى من التعرف عليهم.

---

(١) سورة المطففين: آية ٦.

أو بتعبير أصرح: خُدِعْتُ بتلك الدعوىٰ، وظننتهم على نصيب من الخير لا بأس به، وإن تك فاتتهم أنصبة أعظم وأكرم..

ثم شاءت الأقدار أن تكشف خبيئتهم، وأن تمزق الأقنعة التي أحكموا نسجها على طبائعهم، فبدَوا لي كما هم، يختِلون الدنيا باصطناع المُثُل العليا!!

ويتحرَّون الدقة في أنواع من السلوك لا تعويل عليها.

ثم يخنِسون لانتهاب ما خفَّ حمله وغلا ثمنه من متاع الحياة!

فقلت:

كل امرىء صائر يوماً لِخُلَّته ... وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين

أحدهم ألَّف في الضمير كتاباً جريئاً، حط فيه من قدر العبادة والعباد.

ثم سمح له «ضميره» أن يخدع أحد المسؤولين الكبار وأغراه بشراء الكتاب على أنه خدمة للَّه ورسوله، اللَّه الذي كذَّب قولَه، والرسول الذي خرج على سنته!..

إن ضميره استباح عقد الصفقة على هذا النحو المؤذي الخاتل!..

لأن أصحاب الكلام عن قيمة الضمير في تسيير الناس لا حرج عليهم أن يجعلوه مستتراً وجوباً كبعض الضمائر في علم النحو!!..

أما الرجل الآخر فكان كثير التباكي على مستوى خطباء المساجد، مما جعله يترك الجمعة والجماعات، ويعلن أن ترك الصلاة لا يخدش كرامة ولا ينزل بقدر! وأن الخُلُق المجرد أَوْلَى بالتقديم وأجدر بالدعاية والرعاية..

ومرت الأيام على صاحب التنويه بالخلق المجرد، والكمال المطلق، فإذا هو ذئب متربص بأعراض الفقيرات المستحقات للعون، يستغل حاجتهن لإشباع نهمته!.. عليه لعنة اللَّه.

إن الدين وحده هو العاصم من تلك الأوساخ.

وإن الطعن في الدين شنشنة عصابة كفور يجب على الإنسانية أن تحذرها وأن تسد فاها فلا تنطق بهجر، ولا تصد عن سبيل اللَّه..

ما أزكى المجتمعات الموصولة بالسماء، المستكينة إلى اللَّه، النازلة على أمره، المتحرية رضاه. . !

وما أروع المجتمعات التي يسودها إجلال للفضائل، وإعزاز للمكارم، وتواصٍ بالرحمة والبر. .

تأمل في الصورة التي ترتسم أمام عينيك من خلال القصة التالية، ثم قارن بين ما توحي به من فضل، وما توحي به قصص الإلحاد من نكر:

ذكر «أبو نعيم» في كتاب «معرفة الصحابة»، والحافظ «أبو موسىٰ المديني» من حديث أحمد بن أبي الحواري قال:

سمعت أبا سليمان الداراني قال: حدثني علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال: حدثني أبي عن جدي سويد بن الحارث قال:

وفدت سابع سبعة من قومي على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأىٰ من سَمْتَنَا وزِيِّنا، فقال: ما أنتم؟

قلنا: مؤمنون. . فتبسم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال:

إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟

قلنا: خَمْسَ عَشْرَةَ خصلةً، خمسٌ أمَرَتْنَا بها رُسُلُك أن نؤمن بها، وخمس أمَرَتْنَا أن نعمل بها، وخمس تخلّقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها الآن، إلّا أن تكره منها شيئاً. .

فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: وما الخمس التي أمَرَتْكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟.

قلنا: أمرتنا أن نؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.

قال: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟

قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلّا اللَّه، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلاً.

فقال: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟

قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُرِّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

ثم قال: وأنا أزيدكم خمساً فَتَتِمُّ لكم عشرون خصلة:

إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا مالا تأكلون، ولا تبنوا مالا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون، واتقوا اللَّه الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تَقدُمون، وفيه تخلدون.

فانصرف القوم من عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وحفظوا وصيته وعملوا بها.

* * *

لقد رأيتُ مجتمعات الإلحاد، وما تغتر به من معرفة سطحية، وما تفيض به من مآثم خلقية.

وأستطيع الجزم بأن هؤلاء المحرومين من نعمة الدين ـ فُرادَى وجماعات ـ ليسوا أهلاً لأية ثقة.

نعم، إن هؤلاء الناس قد تضبطهم أوضاع مقررة، وحدود ملزمة، ولكن أي أوضاع وأي حدود؟؟

إنها ـ جميعاً ـ محدودة من الجهات الأربع بالمصالح والمآرب كي لا تطغى شهوة على شهوة، ولا تصطدم منفعة بمنفعة!.

أي إن الأمر لا يعدو تنظيم الأهواء المادية والنفسية تنظيماً يتيح لكل فرد أخذ نصيبه منها، دون بَخْسٍ ولا شطط ما أمكن، فهل تلك رسالة الخليقة؟

ما أحوج العالم إلى نور الإيمان، يتحسس به طريقه دون عثار ولا شرود.

إن هؤلاء البُلْهَ ـ الذين يظنون الدين وهماً ـ لا يحسبون أي حساب للفرض الآخر، ولا لما يترتب عليه من أمور هائلة:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ . . . ﴾(١).

إنهم يبنون حياتهم على أنه لا إله، وبالتالي لا حقوق البتة لإلٰهٍ موهوم.

وبالطبع لا بَعْثَ ولا جزاء، ولا اكتراث بشيء من هذا كله.

فإذا كان التفكير الذي يسيِّر هؤلاء باطلاً من ألِفه إلى يائه، موغلاً في الافتراء من ابتدائه إلى انتهائه، فأي خراب نفسي واجتماعي تخلفه هذه الفلسفات السقيمة، وأي جحود خسيس تشيعه في الحياة هذه الطبائع اللئيمة؟

إن العالم ــ في غيوم هذا الكفر الأسود ــ قد حُرِمَ البركة في شؤونه كلها. والبركة كلمة لا تعني الجُزاف، أو الفوضى، أو سوء التقدير وغفلة التدبير. كلا، كلا، فتلك معان ولدتها أذهان مريضة!

إن البركة هي رعاية السماء لعملك المتقَن، فلا يخطىء هدفه ولا يفقد ثمرته. هي التوفيق لاستغلال الشيء على أحسن وجوهه، ووضع الأمور في مواضعها دون عناء أو عوج.

هي الإفادة الكاملة من الوقت والمال، فلا يضيع هذا في لغو، ولا يضيع ذاك في باطل.

البركة هي هداية الله للجهد الإنساني، فلا يذهب فريسة خطأ، ولا يفشل نتيجة غضب.

والمرء الكافر محروم من هذه العناية العليا.

والمجتمع الكافر يدور حول نفسه في حركة مجنونة، عالية الجعجعة، رديئة النتاج!!..

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(٢).

(١) سورة فصلت: آية ٥٢.
(٢) سورة الرعد: آية ٣١.

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[1].

نعم ــ والله ــ أضل أعمالهم.

لقد رأيت المحرومين من الإيمان والإخلاص يعملون الكثير، ومع ذلك كأنما أعمالهم بذر وضع في تربة رديئة، فهي لا بروز لها ولا ازدهار، ولا ظل لها ولا أثمار..

قال الدكتور «محمد البهي»[2]:

(وإذ كاد يختفي من حياة الإنسان المعاصر إلهُ السماء، خَفَتَ فيها نور الخير، واضمحل الباعث عليه في نفس هذا الإنسان، وقويت بواعث الأثرة.

وبالتالي قويت دوافع الانتقام والسيطرة عنده، بدلاً من أن تَقْوَىٰ دوافع الانسجام بينه وبين غيره.

فلم يقف استخدامه هذه المعرفة الطبيعية والرياضية التي هُدِي إليها عند حد النافع منها لخير البشرية ورفع مستوى الأفراد صحياً، وعقلياً، وخُلُقياً. بل تعدّى ذلك إلى اختراع المبيدات:

(أ) فلم يقف بصنع السيارة عند حد المركبة العادية؛ بل صنع الدبابة وقاذفة اللهب.

(ب) ولم يقف بصنع الطيارة عند النوع الذي يساعد على تقريب المسافات البعيدة وتعزيز التفاهم العالمي عن طريق المبادلات التجارية وتبادل الآراء بين الشعوب؛ بل صنع قاذفات القنابل، والطائرات المقاتلة، والصواريخ الموجهة.

(ج) ولم يقف بصنع السفينة عند الأنواع التي تستعمل لنقل المدنيين، أو حمل البضائع التي تستهلك في الحياة العامة؛ بل صنع البارجة، والمدمرة، والغواصة.

---

(١) سورة محمد: آية ١.

(٢) عن مجلة رسالة الإسلام بتصرف.

(د) ولم يقف في تطبيق تلك المعرفة الرياضية والطبيعية عند حد توفير الغذاء، واللباس، والدواء؛ بل اخترع الغازات السامة، وجراثيم الموت، والألغام البحرية والبرية.

(هـ) ولم يقف في صنع الآلات الميكانيكية التي تستخدم في الزراعة والحياة المدنية عند الحد الذي يساعد على توفير المحاصيل وضمان الراحة له؛ بل صنع ما يهدد حياة البشرية جملة، وهي القنابل الذرية والهيدروجينية.

وكلما نجح «العلم الحديث» في اختراع آلة للإهلاك والإفناء اجتهد في اختراع ما يقي منها أو يقلل من أخطارها، عن طريق استحداث آلات أخرىٰ.

وهكذا... تراه يسترسل في اختراع المهلك والمبيد، ثم في اختراع ما يقلل من آثار الإهلاك والإفناء.

وبذلك أصبح مجال «العلم الحديث» هو التنافس على تكثير مصادر الشر حتى إذا أفزعته سعىٰ للنجاة منها!!...

وزاد الإنسان ـ عن طريق هذه المعرفة الشريرة ـ في اختراع وسائل الهدم والإبادة أكثر من اختراعه وسائل الراحة والصيانة للجنس البشري.

وليس ما اخترعه من وسائل الهدم والتدمير أكثر فقط من وسائل البناء، والراحة، والصيانة.

بل إن ما أنفقه على تلك المخترعات الهدامة يزيد أضعافاً مضاعفة على ما ينفقه في الحياة المدنية ورخائها المنشود للأفراد والمجتمعات.

ولهذه النفقات المضاعفة على وسائل الهدم، والقليلة في ميدان البناء انخفض مستوى المعيشة.

وظهر عندئذ العامل الاقتصادي في الحياة المدنية الحديثة ذا أثر قوي في توجيه سياسة الشعوب، وذا سلطان واسع على اتجاه الأفراد، وعلى التحكم في ميولهم وحرياتهم.

ومن ثم أصبح سعي الإنسان المعاصر يكاد يكون مُركَّزاً في توفير لقمة العيش، له ولأسرته.

ومن هنا أيضاً خفَّت القِيَمُ المثالية والخُلُقية في نفسه، لأنه أصبح يتخذ من لقمة العيش ميزاناً تقديرياً للسلوك العملي في الحياة).

ثم قـال:

(تلك نتيجة «العلم الحديث» يدمِّر ولا يبني، ويُجيع ولا يُشبع، ويَسْتَرِقُّ ولا يُعتِق.

وكما خلق الإنسان المعاصر الآلة الصمّاء، أَخْرَسَ في دنياه الإنسانَ المتكلم!

وكما حرّك الآلة في غير وَعْيٍ، أصاب الإنسان الكامن فيه بفقدان الوعي.

فذبلت مواهبه بل ذابت خصائصه.

ولم يصب العلم الحديث الإنسان بسلب خصيصته العظمى، إلاّ لأن هذا العلم اتجه إلى خلق وسائل الشر أكثر من اتجاهه إلى إيجاد وسائل الخير.

ولم يكن ذاك، إلاّ لأن الإنسان المعاصر عبده من دون اللَّه، ووضعه في الأرض مكان إله السماء، واستغنى بمخترعاته عن الاستعانة باللَّه، وخدع نفسه بأنه أصبح رب هذه الأرض، لأنه يملك علم ما في الأرض، وكذا علم ما في السماء...).

والويل للعالم أجمع من عُقبى هذا الغرور.

* * *

أزمة التَّدَيُّن

كان المُرتَقَبُ ـ وتلك مكانة الدين وحاجة الناس إليه ـ أن تفيض الأمم إلى ساحته، وأن تهرع إلى مثابته، وأن يستريح العامة والخاصة إلى كنفه.

غير أننا نلحظ ـ آسفين ـ أن بنيان الإيمان هزَّتْهُ زلازل عنيفة.

وأن العصور الأخيرة أقبلت، وشعوب غفيرة خواء الأفئدة منه ضعيفة الانقياد إليه. ولهذه الحال علل نُجملها فيما يأتي:

١ ـ رواج العملة الزائفة في بيئات التدين، واستطاعة كثير من الماكرين أن يستخفي وراء مراسم الدين وهو فارغ الباطن من حقيقته.

ولقد كنت أحس أحياناً أن كلمة «اللَّه» ـ في هذه البيئات ـ هي آخر كلمة تُذْكَر ويُقْصَد بها مدلولُها، وأن أغلب المنتمين إلى الدين يدارون عاهات نفسية وعقلية، أو يعوِّضون نقصاً مادياً أو أدبياً.

أما الدخول في الدين على أنه التزام إنسان سَوِيٍّ بفرائض جليلة، وأعمال عظيمة فذاك مالا يحسنون، بل مالا يطيقون.

الصبيّ يتظاهر بصمت الوقار، فهل صمته دين؟

والمحروم يتظاهر بالزهد، فهل زهده عفة؟

والهيَّاب يَوْجَل من المجتمعات فهل انسحابه عزلة؟

الواقع أن كثيراً من أدعياء التدين يغطون مسالكهم الناقصة بعناوين دينية، ويزحمون ميادين العبادة والتقوى وهم أبعد خلق اللَّه عن تلك المعاني الطاهرة.

وقد لاحظ الأذكياء من قديم الزمان ذلك التناقض المثير، ونَدَّدوا به،

وحملوا أقسى الحملات على أصحابه... إلا أن الحملة على التدين المصطنع شيء آخر غير الحملة على الدين الحق.

قال أبو العلاء ــ يصف مقترفي الرذائل الذين يدعون الناس إلى الله ــ:

دَعَوْا وما فِيهمو زَاكٍ ولاَ أَحَدٌ يخْشَى الإلهَ، فكانوا أكلباً نُبُحَا
وليسَ عِنْدَهُمُو دِينٌ ولا نُسُك فلا تَغُرَّكَ أيدٍ تحمل السِّبَحاَ
وكم شيُوخٍ غَدَوْا بيضاً مَفَارِقُهم يُسبِّحون، وباتوا في الخنا سُبُحا!!
لو تَعقِلِ الأرضُ ودَّت أنها صَفِرَت منهم فلم يَرَ فيها ناظرٌ شبحا

وقال في الواعظ الذي يطلب الدنيا وينفِّرُ الناس منها:

بخيفةِ اللَّه تَعبَّدْتَنا وأنت عين الظالم اللاهي
تأمرنا بالزهد في هذه الد نيا وما همك إلا هي

وقال في تدين البُلْه من العامة وأشباههم:

وقد فتشتُ عن أصحاب دين لهم نسك وليس لهم رياء
فألفيت البهائم لا عقول تقيم لها الدليل ولا ضياء
وإخوان الفطانة في اختيال كأنهمو لقوم أنبياء
فأما هؤلاء فأهل مكر وأما الأولون فأغبياء
فإن كان التُّقى بلها وعيا فأعيار المذلة أتقياء

ونحن نقر هذه الآلام التي اعتلجت في نفس «المعري» ودفعته إلى إرسال هذه النفثات الحارة اللاذعة.

وصيحات الإنكار على تجار الدين والمنافقين به ليست وليدة الخلق الناقد لدى بعض الناس.

فقد أحصينا من كتاب اللَّه وسنة رسوله جُمَلاً أَمْلأً بالحق، وأروع مما ينظم الشعراء.

كما أثبت العلماء الراسخون في أسفارهم فصولاً حافلة بالآثار التي

تنعَى على المرائين، والمتأكلين، وذوي النيات المغشوشة.

بل إن صاحب الرسالة العظمىٰ صلوات اللّٰه وسلامه عليه يعتبر الثائر الأول على فنون الاحتراف والدجل باسم الدين. وهو يبني الإيمان على نقاء الفطرة وسلامة القلب، وهجر التكلف والمراءاة.. إلا أننا نأسف، لأن أمتنا تطرقت إليها علل الأمم البائدة، وفشت بينها سيئات أهل الكتاب.

والتدين الفاسد سبب خطير لصرف الكثيرين عن الدين الحَق.

إن الأخلاق الرديئة والسير المنحطة إذا غلبت على تصرف المنتمين إلى الدين أصابت الدين في الصميم.

ومن أقسى الضربات التي أصابت الدين وعَوَّقَتْ مسيره، خضوع طوائف منه لسيطرة المستبدين، بل مسارعة هذه الطوائف لإجابة أهوائهم، وإطاعة نزواتهم، والميل بتعاليم الدين نفسها وفق ما يطلبه أولئك المستبدون..

إن الأمم ــ من أعصار خلت ــ تعطشت إلى الحرية وإلى العدالة، وَوَدَّتْ لو حَيتْ كريمة الجانب مرعِيَّة الحق كما يرضى اللّٰه لها.

وكان الواجب أن يكون رجال الدين، عند حدود مبادئهم الواضحة وفي صفوف الجماهير اللاغبة الكادحة.

غير أن الذي حدث ــ للأسف الشديد ــ كان العكس في أغلب الأحيان، فلم ينضم رجال الدين إلى أصحاب الحقوق المستباحة، ولم ينسحبوا بعيداً عن المعركة يرقبون النتائج، بل انضموا إلى الحكومات الجائرة، وظاهَروها على بَغْيها.

فلما سقطت هذه الحكومات سقط الدين معها بداهة، وذلك سر الأزمة الطاحنة التي تعرَّض لها الدين في الغرب، والتي شاء نفر من الجهال أن ينقلها إلى الشرق الإسلامي مع بُعْدِ الشُّقَّة، وتفاوت الملابسات.

لقد كان الإلحاد طابع الحكم والعلم في أوروبا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد. ولم تزل سطوة الإلحاد عاتية في نواح عدة للنشاط الإنساني.

ولم تعد للدين بعض المكانة إلا في الأيام الأخيرة، وهي مكانة اسمية حيناً،

أو مكانة احتفظ بها لغرض خسيس يعرفه المستعمرون حيناً آخر.

ومعنى هذا أن الدين سوف ينتهي مرة أخرى إلى المصير الذي وقع فيه أولاً. ذاك كله في أوروبا حيث تسود النصرانية...

أما في أقطار الإسلام، فقد وقعت هَنَات متقطعة من أشخاص انتسبوا إلى الدين وخدموا الحاكمين الغاشمين.. بَيْدَ أن جمهرة القراء والوعاظ والقضاة والفقهاء لزموا المعارضة أو البُعْد، ومن ثم لم يحمل الإسلام أوزار مظاهرة الاستبداد، ولم يُعَدّ يوماً ما مسؤولاً عن ظلم اجتماعي أو فساد حكومي.

وَدَعْكَ مما يهرف به بعض المتخرجين في المدارس الاستعمارية.

أولئك الذين لقنهم الغزو الثقافي طائفة من الأباطيل كي يحاول بها النَّيْلَ من الإسلام وتاريخه، ونسبة مثالب الآخَرين إليه.

وشتان بين دين ودين وتاريخ وتاريخ.

يُروى أن أحد العلماء رأى الشرطة يسوقون لصّاً إلى الحاكم، فسأل: ما هذا؟

قالوا: سارق، يجب قطع يده..!!

فقال: سبحان اللّه، سارق السِرّ يُسْعَى به إلى سارق العلانية!

إن التعليق المرير على تصرفات السلطات الباغية كان طبيعة الجماهير الإسلامية من عامة وخاصة.

ولسنا ننكر أن هناك متأكلين بالدين ساروا في حواشي الحاكمين، وزينوا لهم ما يصنعون.

وظلموا بذلك الدين، والأمة، وخانوا الأمانة التي حملوها.

إلا أن سيرة أولئك لم تَخْفَ على ألوف العُلماء فحقروها، وعلى الألوف المؤلفة من العوامّ فأنكروها.

فإن تعاليم الإسلام ــ كما سبق البيان ــ ليست حكراً على طائفة تعلمها وتدفع عنها، بل أمرها شائع بين السواد الأعظم من المسلمين..

لكن الذي نحذره وقد فشا الجهل بالدين أن تكون مسالك ذوي الملق والزلفى للحاكمين سبباً في سوء الظن بالدين نفسه..

فإنه ــ مع انتشار الجهالة ــ سَيُظَنُّ أن الإسلام هو ما يقوله أو يفعله أولئك الكَذَبة الفَجَرَة.

وسيُقال: ذلكم موقف الدين ــ لا موقف أدعيائه ــ من الفوضَى والعدوان.

وهذا يعني أن الدين سيذهب ضحية اتهام خاطىء، وأوهام ليس لها سناد.

وإذا استطاع الطغاة أن يسيروا بالدين في ركابهم، وأن يُسَخِّروا رجاله في مآربهم فقد آذَنَتْ شمسُه بمغيب، وارتفعت الثقة به، والتمس الناس الشبع لفراغهم الروحي في فلسفاتٍ شَتَّى، والتمسوا الحلول لمشكلاتهم في أنظمة أرضية أخرى.

* * *

ولما كان الحكم مقروناً بسلطات مغرية ومحفوفاً بمنافع جمة، فإن الذين يَتَحَلَّبُ ريقهم لِلَّذات العاجلة سراع الخُطا إلى أصحابه، مُدمنو الوقوف على أبوابه.

وفي البيئة المحلية قد يفقد الناس ثقتهم في الدين، إذا رأوا نفراً من المتحدثين باسمه يسترضون الحكام، ويسكتون على ما يعجزهم تسويغه من آثام، ويهيئون «الفتوى» لما يمكن اصطياد علة له من أحكام الشرع.

وتلك لا شك مصيبة جسيمة، ولكن أجسم منها وأدهى، ما يصيب الدين في الميدان العالمي الواسع عندما يتخلى أصحابه عن كل قيمة رفيعة ومَثل فاضل.

وعندما يجعلون من الدين تُكَأَة للغصب الحرام، وقطع ما أمر اللّٰه به أن يوصل.

فكم يحتقر الناس الضمير الديني، عندما يرون اليهود في فلسطين أداة قذرة في يد الاستعمار، يجتاح بها كيان شعب مستضعف، ويحرمه من كل كرامة مادية وأدبية مفروض أن تتوفر للإنسان؟

وكم يحتقر الناس الضمير الديني إذا رأوه وراء هذا الاستعمار نفسه

يتحرك في رحاب الحياة، ووقوده الذي يدفعه هو هذا الحقد وذاك الطمع؟

الحقد على الإسلام، والطمع في استلاب أهله وابتزاز أمته.

في «أوروبا» الآن دولة شيوعية ضخمة، تكفر باللّه واليوم الآخر، ولسنا بصدد إحصاء الأسباب التي أنشأت هذا الكنود، وإنما بصدد الكلام عن سر بقائه إلى الآن.

إن «روسيا» ــ في الميدان الدولي ــ تظاهر استقلال العرب، وتحارب الاستعمار، أو ذاك ــ في رأينا ــ ما واتتها الفرص لتتظاهر به.

فاسمع ما يقوله «خروشوف» عن الدين وهو يتحدث عن أميركا والدول الضالة معها[1]:

«إنهم لا يرون أنفسهم على حقيقتهم، ومن عجب أنهم لا يزالون يتعلقون بعبارات الديمقراطية ويتمسحون بأذيال الأديان».

وضحك «خروشوف» ثم استطرد:

«ومع ذلك فلو أن اللّه الذي يَدَّعِي «دالاس» أنه يؤمن به كان موجوداً حقاً فإنني واثق أنني أقرب إليه من «دالاس» الذي يَدَّعِي أنه قسيس».

إننا ننعم النظر في هذا الكلام ونعجب، لماذا يكون رجل ملحد أقرب إلى اللّه من رجل مؤمن؟

إن هذا القول المرسل بهذه الجراءة سببه أن «الروس» واثقون من أن ساسة أمريكا والغرب عموماً سماسرة أديان لفكرة تستهدف استذلال أغلب النوع الإنساني.

وفي طليعة الذين ينبغي استذلالهم أو استئصالهم، المسلمون المسالمون!

فإذا كانت تلك أغراض الاستعمار الصليبي، فهل تراه يشرِّف الدين بمسلكه، ويجعل الشيوعيين مثلاً يحسنون الظن به أو يفكرون في العودة إليه؟؟ كلا.

---

(١) من مقال لرئيس تحرير الأهرام.

وما يقال، في مسلك اليهود والنصارى، يقال أيضاً للمسلمين أنفسهم.

فإن الإسلام جدير بأن ينهزم في البيئات المحلية، والمجالات العالمية جميعاً إذا كان أتباعه اللاصقون به، أناساً تنحط بهم مبادىء الإيمان، وتؤخذ من أفعالهم أقبح أسوة.

إن الدين يجب أن يتجرد للّه، وأن يتجرد حملته من كل هوى يدينهم إلى حاكم، ومن كل خور يهزمهم أمام شهواته.

وعندما تشرق تعاليم الدين خلال السير الرائعة لأقوام طيبين، فإن حفاوة الجماهير به وإعزاز الخاصة له لا ينقطعان.

* * *

ومما صرف الناس عن الدين في هذا العصر، التخلف العقلي الملحوظ عند بعض رجال الدين، وندرة ثروتهم من الثقافات العامة، وضآلة أنصبتهم من فقه الحياة والأحياء.

ومن السخف انتظار نهضة للدين على أيدي رجال يَحْبُونَ حَبْواً في أوائل طريق المعرفة.

بينما سبق خصومهم سبقاً بعيداً في دراسات الكون، والحضارة، والتاريخ حتى لكأنهم أحاطوا بكل شيء خبراً.

وانفصال العلم المادي عن الإيمان نكبة هائلة للدين.

وربما كان المسلمون بُرَآء من مبادىء هذا الانفصال في القرون التي خلت، لكنهم مؤاخذون اليوم بقصر باعهم في العلوم المادية.

وهم مُفَرِّطُونَ في جَنْبِ اللّه وجنب أنفسهم ما بَقُوا في هذا القصور.

والغريب أن الاستعمار تمكن من فصل التعليم المدني عن التعليم الديني في بلاد الإسلام كلها.

وهو شيء لم يعرف في تاريخ الإسلام طوال العصور الماضية.

بل إنه قسم التعليم الديني نفسه أقساماً شتى.

ونتج عن ذلك أن تَخَرَّجَ أئمة ووعّاظ ودعاة للإسلام لا يعرفون إلا ١ ٪ مما يجب أن يعرف!

وتكليف علماء الإسلام بتبليغ رسالته ـ وتلك حالهم ـ كتكليف جيش ما بكسب معركة في ميدان لا يعرف طبيعته، ولا يدرك بدايته ولا نهايته.

فهو لا يدري كيف يسير، ولا من أين يؤتى.

ذلك، وإني لأعجب أشد العجب من إيمان لم يقم على التأمل في الكون ولم يَنْمُ على دراسة الأحياء.

إن أمداد اليقين التي ذكرها القرآن الكريم ليست شيئاً آخر غير النظر الدارس والخبرة الذكية. هذه هي غذاء اليقين ونماؤه.

وأي إيمان يقوم بعيداً عن تلك الأسس فهو قشر ليس له لب.

وأي إيمان تضعف أمداده من النظر والخبرة فهو كالجسد الفقير إلى أسباب التغذية والتهوية، يعجز عن أي جهد ويجثو أمام كل داء.

إن الإسلام نقل التسبيح والتحميد من كلمات حالمة تقال في صومعة قَصِيَّة، إلى كلمات مدوية ترسل في أثناء التعليق على الأحداث الجارية، وعلى شؤون الحياة الصاخبة، سواء في ميادين الحروب أم في ميادين السلام..

تَدَبَّرْ كيف افتتحت سورة «الحشر» بقول الله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؟[1]

وكيف تلا ذلك مباشرة قوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ..﴾[2].

إن تنزيه الحق جل شأنه معنىً أثبت في الآية الأولى منتزعاً من طبيعة الوقائع في الآية الثانية وما تلاها.

(١) سورة الحشر: آية ١. (٢) سورة الحشر: آية ٢.

فإن الذين يظنون بالله ظن السوء حسبوا أن جحود اليهود، وغدرهم بالعهود وإفسادهم في الأرض واغترارهم بالمال والقوة أمر لن ينحسم، وأنهم متروكون حتى ييأس أولو الألباب من عودة العدل والرشد إلى الأرض.

فجاءَ صدر السورة مبيناً أن الإمهال لا يعني الإهمال، وأن إرخاء الحبل للمجرمين لا يعني إفلاتهم من العقوبة، تنزه الله عن ذلك.

وكما وجب تسبيح الله بعد التدبر في أحوال الناس على ما رأيت، وجب تسبيحه بعد التدبر في نظام الكون نفسه.

واقرأ سورة الأعلى لتشهد صدق ذلك:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾[1].

والحمد في هذه المواطن كالتسبيح، نعم، قد تشكر الله على طعام يغذوك من جوع. ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ . . . ﴾[2]،

فلتشكره كذلك على وَحْيٍ يهديك من ضلالة، وعلى قرآن يخرجك من ظلام.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾[3].

بل إنه أهل الحمد على إبداعه لهذا العالم الساحر، وجعله الليل والنهار خلفة للكفاح والهدوء:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ . . ﴾[4].

---

(١) سورة الأعلى: آيات ١ ــ ٥.

(٢) سورة سبأ: آية ١٥.

(٣) سورة الكهف: آية ١

(٤) سورة الأنعام: آية ١.

إن اليقين ليس كائناً حبيساً في حجرة معتمة.

إنه كائن حي، منطلق، جَوَّاب آفاق، سيَّارٌ في فجاج البر والبحر.

ولذلك فإني أعجب مرة أخرى لإيمان معزول عن علوم الكون ومعارف الدنيا. وأستغرب علام يعتمد؟ وبم يحيا؟

إن الأوهام والخرافات والأفكار الرجراجة لا تجد مقراً تأوي إليه أفضل من الأذهان المقطوعة عن العلم، المحجوبة عن حقائقه..

وهذه الأذهان آفة الإيمان.

فإن الدين كما يتحول في القلوب المغشوشة إلى رياء ودجل، يتحول ــ في العقول الناقصة ــ إلى خبط وشعوذة.

وقد عني رجالات الإسلام بمستقبل الدين، وبحثوا صلاته بالعلم، وفتشوا عن العقبات التي تمنع امتداده وتصد عن سبيله، سواء منها ما أتى من قبل خصومه أم ما نشأ عن غفلة أهله وسوء تدبيرهم.

ونرى ــ لزاماً علينا ــ إثبات مقال جيد لسماحة السيد الأستاذ «محمد تقي القمي» في هذا الموضوع نُشِرَ تحت عنوان «الدين في معترك السياسة العالمية» قال:

«الدين قوة منذ وجد، ومَثَلُ تلك القوة كمثل أية قوة تظهر في الأرض.

ينبري لها المعارضون والخصوم بغية القضاء عليها، ويتجه إليها الطامعون والمستغلون رغبة في استغلالها لمصالحهم.

وفي هذا الاستغلال الذي يبتلى به الدين قضاءٌ على مثله العليا وعلى جوهر رسالته السامية.

والمتتبع لتاريخ الأديان يلاحظ أن أخطر خصوم الدين في كل عصر، جاحد ينكره، أو مستغل يريد أن يسخّره، وأمامنا على ذلك أمثلة شتى من التاريخ:

فقد طالما رأينا الدين في حرب مع منكريه، ورأيناه في خصام مع

مستغليه. ورأينا الحُكّام والسياسات تلتمس فيه سنداً وعوناً، ورأينا رجاله في خدمة حاكم أو سياسة. والويل للدين إن استُغِلَّ في خدمة أشخاص أو سياسات.

والتاريخ يحدثنا عن الحروب الدامية بين الدين ومنكريه، كما يحدثنا عن ملوك حكموا باسمه:

لا اعتناقاً لمبادئه بل استغلالاً لقوته الهائلة كي يظهروا على عدوهم، أو يطمئنوا على مجدهم ونفوذهم، ويعيشوا بعونه في راحة وهناءة.

وكان الحكام يخالطون الكهنة، أو يندمجون فيهم، لا لشيء، إلاّ رغبة في السيطرة على النفوس باسم الدين، وحتى يجذبوهم إلى خدمتهم في شتى الميادين.

وكان الملوك يهدفون إلى تسخير الدين حين كانوا يتَّشِحُون بأثواب القداسة ويرأسون الديانات.

وقد أسرف بعضهم في ذلك، وحاول أن يفيد من ديانتين متباينتين في وقت واحد.

كما فعل «قسطنطين» الذي لم يكتفِ بأن يكون الكاهن الأعظم في الديانة الوثنية السائدة؛ بل كان في الوقت نفسه حامي المسيحية وناشر فكرتها، ومؤسس القسطنطينية مركز الكنيسة الرومانية الشرقية.

على أن الدين ـ رغم ما واجه من عنت خصومه ومستغليه في كل عصر ـ ظل قَوِيَّ النفوذ، واسع السلطان، مسيطراً على القلوب.

وذلك لأسباب أهمها أن العلم كان بيده، بل كاد يكون احتكاراً لرجاله على مدى العصور. ولا نريد أن نوغل في القديم أكثر من هذا.

فلنذكر القارىء بآثار كهنة سومر ـ أقدم الديانات ـ أو كهنة بابل، أو غرائب علوم كهنة مصر، أو أسرار مؤبذان فارس، أو ما إلى ذلك.

بل حسبنا أن نذكره بأن العلم كان بيد الكنيسة المسيحية.

وأن الإسلام جعل للعلم قداسة كالدين، فكان كل درس يبدأ باسم اللّه والتعوذ من الشيطان الرجيم.

وكان طلاب التفقه في الدين يدرسون «الفلسفة» و «الرياضة» و «الفلك» و «الطب» و «الكيمياء»، كما كانت المعاهد الدينية هي نفسها مدارس علوم الحياة. وكان علماء الدين هم أساتذة تلك العلوم.

لكن معاهدنا الدينية الإسلامية هجرت هجراً كلياً علوم الحياة، كما أن الغرب المسيحي انحرفَ عنها إلى حد كبير، وإن ظلت المدارس الدينية في بعض بلادهم تساهم مساهمة كبيرة في تثقيف الشباب، مع صبغهم بروح الدين.

والدليل على ذلك ما قرأناه في الصحف بالأمس القريب عما وقع في «بلجيكا» وهو البلد الأوروبي المتحضر تحت عناوين بارزة، مثل «بلجيكا على أبواب حرب أهلية».

ومجمل الخبر أن الحكومة البلجيكية خفضت المعونة التي تقدمها إلى المدارس الكاثوليكية، وأن هذا أثار كثرة الشعب ــ ومنهم تلاميذ تلك المدارس طبعاً ــ فاحتشدت مظاهرة في الشوارع من مائة ألف كاثوليكي، فيهم رئيس وزارة سابق وأعلنت احتجاجها على هذا التصرف.

ولقد وقفتُ أمام هذه الأنباء التي شغلت الرأي العالمي أياماً وقفة طويلة. وقرأتُ فيما بين السطور قوة الدين ومركز رجال الدين كأساتذة للجيل المعاصر هناك. وقارنت بين ربطهم العلم الديني بالحياة، وبين ما نحن عليه الآن.

وإنه منذ زهد رجال الدين عندنا في علوم الحياة، بدأ العلم يشق طريقه غير آبه بالدين ولا حافل به. وبدأ الشبان يفهمون أن العلم شيء والدين شيء.

وانصرفوا ــ بكل عقولهم ــ إلى العلم، وانصرفوا بكل قلوبهم عن الدين، حتى أصبحنا الآن أمام علماء يُسَخِّرون كل ما في الطبيعة لإثارة

الشهوات، وإشاعة جوٍّ من الرذيلة في أرجاء الأرض.

وهاهم أولاء، يشتغلون ليلاً ونهاراً، خُفْيَةً وجهراً، ليطلقوا الذرة، وليس يهمهم أن يدمّر إطلاقها ذلك قارات بأكملها.

ثم هم يتسابقون في صنع صواريخ تطلق في الجو فتهلك الملايين بأشعتها دون أن تهوي إلى الأرض.

ولا يأبهون أن ينزل العذاب والشقاء بالبشر أجمعين.

والعلم سلاح قوي خطر، إن وقع في يد الفضلاء نفعوا به الناس، والتمسوا به الخير، وأناروا به البصائر، وهَدَوا به إلى عظمة الخالق.

وإن وقع في يد السفهاء آذوا به كثيراً، وأضروا به كثيراً وجرُّوا به على البشرية أفظع الشرور.

وقديماً فطن العلماء إلى هذه الحقيقة، فالتزموا قواعد لم يحيدوا عنها طوال العصور، ضمنوا بها بقاء العلوم في يد الأخيار من أهل الفضيلة، وبذلك حفظوا البشرية من الشرور.

فكهنة «بابل» و «مؤبذ» و «فارس» كانوا لا يبوحون بأسرار علومهم لمن ليس أهلاً لها، ومن لا يُطمأن إليه، خيفة أن يؤذي به أحداً من الناس.

وكهنة «مصر» كانوا يقولون: إن سر الموت والحياة هو سرُّ الأسرار، ولا بد أن يبقى خافياً عن العامة وإلّا خربت الأرض ومن عليها.

وهكذا فقد العلم فيعصرنا صمام الأمان وهو الدين.

ثم انتقل سلاح العلم من أيدينا إلى أيدي غيرنا، وتحول هذا السلاح النوراني من خدمة الخير المطلق ليُسَخَّر في خدمة الشر المدمِّر. فماذا فعلنا نحن رجال الدين؟

إن الشُّقَّةَ بيننا وبين علوم الحياة ظلت تتسع حتى وصل الأمر إلى أنه لوعرض على طالب جامعي أن يدرس في معاهد الدين لبُهِتَ وأُخذ، كأنما أُنذر بالموت. هذا بعد أن كانت المعاهد الدينية إلى زمن غير بعيد تلحق بالمساجد.

إن الدين ــ كقوة ــ فقد كثيراً من جنوده بتسريح الشباب من ميدانه، وباعتزال رجاله معترك الحياة بعد أن كانوا يعيشون في صميمها ويأخذون بيدهم زمام التعليم وهو ضرورة للإنسان كالماء والهواء.

بينما خصوم الدين ومستغلوه الذين كانوا في الماضي أفراداً أو جماعات متفرقة أو حكومات محلية محدودة القوى، تحولوا إلى كتلتين عالميتين:

إحداهما تحاربه حرباً عنيفة قاسية، والأخرى تحاول أن تستغله استغلالاً كاملاً.

وكلتاهما تؤذي الدين الحق، وتقوض دعائمه، وتعصف بكل مقوماته عصفاً. نعم لقد أصبح الدين في العصر الحديث ــ بعدما ارتبطت أجزاء العالم المتباعدة ــ يواجه كتلتين قويتين تشملان رقعة العالم تقريباً.

كتلة تنكره وتبني سياستها على محوه، وتحاربه بشتى الوسائل وتصفه بأنه مخدر أو «أفيون» للشعوب، وتُسِفُّ في التعريض به، وتعزو إليه كل جدب يصيب النفوس، وكل نقص يصيب الزروع.

وكتلة أخرى تظهر بمظهر المؤيد للدين، رغبةً منها في استغلاله ضد غريمتها. فهي تعمر المعابد، وتشجع على بناء الكنائس، وتسرف أحياناً في هذا إسرافاً كثيراً.

وهذه الكتلة التي تتظاهر بتأييد الدين، هي نفسها تتحفنا بأفكار وتقاليد وتصرفات، أقل ما يقال فيها: إنها تبث روح الاستخفاف بالدين، وتغري الناس بالخروج على تقاليده وتعاليمه.

أليس في تصرفاتها بفلسطين، والجزائر، وغيرهما دليل على الاستخفاف بالمسيحية والإسلام؟

أليست هذه الكتلة هي التي تفسد الشباب وتصرف الناس عن الدين بما تنشره من أفلام داعرة وأفكار انحلالية؟

ثم إننا ــ كرجال للتقريب نرى أيادي تلك الكتلة ــ مع الأسف ــ وراء

النشرات المفرقة، والمحاولات البارعة لإيجاد الخلاف في صفوف المسلمين أو توسيع شقته بين أبناء الدين الواحد، وفي مقاومة أية فكرة تستهدف جمع الكلمة.

وأخيراً نرى هذه الكتلة لا تروج بيننا غير الخرافات.

وهي ـ وحدها ـ كفيلة بالقضاء على الدين.

* * *

هذا هو وضع الدين في العالم ومركزه في معترك السياسة العالمية ونصيبه من بطش الكتلتين العالميتين اللتين تهدد كل منهما الأخرى وتبغي إفناءها، واللتين تجران على العالم كله القلق الشامل، والاضطراب الزائد، والخوف المزعج، وعدم الثقة.

والدين وحده هو الذي يستطيع أن يتحكم في هذا الموقف ويتغلب على الأهواء البشرية «وهستريا» الحرب، والذي يستطيع أن يرد الطمأنينة إلى النفوس. ولكن كيف يُمَكَّن من أداء رسالته كقوة معنوية يحسب حسابها، وترجع بالبشرية إلى صوابها؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عنه في بقية مقال، إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نشير إليه في عرض سريع.

التعليم كان سلاحاً بيد رجال الدين وحدهم.

والعلم والدين لم يفترقا إلا في أوقات لا تكاد تذكر.

والتثقف والتدين كانا دائماً متلازمين.

ولم يكن الدين يعرف بدعة القديم والحديث، ولا كان العلم ينتزع الشباب من أحضان الدين، فماذا عرانا حتى ضاعت من بين أيدينا هذه الوحدة المتماسكة؟ اعتزلنا وأوجدنا قديماً وجديداً، ثم قدمنا سلاح التعليم لأنصار الجديد واكتفينا بأن نحافظ على القديم.

وبذلك سَرَّحْنَا جنودنا من الشباب، وتركناهم مطيةً لغيرنا، وعُرْضَةً ليكونوا حرباً علينا.

نحن أمام جيل جديد، فماذا أعددنا لهم اليوم لنضمن صلتهم بالدين غداً. إن المعاهد انفصلت عن المعابد، والمساجد ابتعدت عن المعاهد،

وبذلك انحرف العلم عن قدسيته، والدين عن رسالته.

ولا خلاص إلا أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد، بل لا نبني مسجداً إلا بنيْنا بجانبه معهداً، ولا معهداً إلا بنينا بجانبه معبداً.

فليُعدّ طلبة الدين أنفسهم ليكونوا رجال التعليم.

وبذلك يفتحون آفاقاً جديدة، ويخدمون العلم كما يخدمون الفضيلة، ويكتسحون المكاتب والمدارس والجامعات، فيحلون محل الملحدين والمارقين.

ومما لا شك فيه أنهم بعملهم هذا يضمنون للدين قوة وبقاء، وللبشرية سلامة وأماناً، ولأنفسهم مكانة تليق بهم في حاضرهم ومستقبلهم والله يوفق العاملين».

* * *

إن علماء المادة الذين يكفرون بعد بحث واستدلال، يمكن أن يثوبوا إلى رشدهم، فيؤمنوا بعد بحث واستدلال.

ذلك أن كفرهم الأول أتى من قلة في الحقائق التي تجمعت بين أيديهم، أو خطأ العلم نفسه في ترتيب المقدمات واستخراج النتائج، أو جاء من مبالغة في التعويل على معلومات قليلة، أو لعله شرود عن منهج في الوصول إلى اليقين.

ونحن لا نيأس من عودة هؤلاء إلى الدين ما داموا مخلصين في البحث، جادّين في تحرِّي الحق.

أما الذين نيأس منهم، ونضيق أشد الضيق بهم فهم المقلِّدون في الكفر، الذين يلحدون في «مصر» على صيت تقدم العلم في «أمريكا».

هذا الذباب الكفور يظن أن من الانحشار في زمرة العلماء متابعة ما يتطاير من كلمات باطلة تنسب إلى هذا العالم أو ذاك، وتَلَقِّي الشكوك حول قيمة الدين، ومباحثه ومناهجه.

ونحن نُنَبِّه إلى تفاهة أولئك المقلدين الصغار ليحذر الجيل الجديد شِباكهم وينأى بقلبه وفكره عن إلحادهم.

ثم نحن نلفت النظر إلى أن كفر العلماء الماديين بالأديان كما صُوِّرت لهم، أو كما أَلِفُوها في بيئتهم ليس كفراً باللَّه، أو طعناً في ضرورة الإيمان وحقيقته. إن الأديان عَلِقَ بها من الخرافات شيء كثير.

بعضه اقترن بجوهرها، واستحال فصله عنها.

وبعضه اختلقته الدعايات الكذوب، فما يُعرَف الوحيُ الإلٰهيُّ معها على نقائه بل يستخفي وراءَ أغشية منفِّرة.

وكفر العلماء الأذكياء، بالخرافة المضافة أو المزعومة، أمرٌ لا يُلامون عليه، بل هو المرتقَب منهم ومن غيرهم.

وهذا الكفر لا يطعن في صدق الإيمان باللَّه الواحد، بديع السموات والأرض، خالق كل شيء بقدر، وهاديه إلى نظامه بحكمة.

وجمهرة العلماء من هذا القبيل.

إن التجاوب بين البصَر، والشعاع والمرئيات، كالتجاوب بين الفطرة السليمة، وطبيعة الحياة، ومصدر هذه الطبيعة.

ومن ثم فنحن لن نفتأ نكرر، أن الإيمان الحق، والعلم الحق، صنوان.

وأن أحدهما لن يصطدم بالآخر، أو يقف في طريقه.

ذلك.. ومما يَحْسُنُ لفت الأنظار إليه أيضاً، أن الذباب الكافر في بلادنا متخلف كثيراً عن ملاحقة الركب العلمي الحديث.

فهو اليوم يحيا على فُتات من بحوث علماء القرن التاسع عشر.

ويكرر مقررات طرأ عليها تغيير كبير في هذا العصر.

وربما رأيت أحدهم يذكر النظرية العلمية ــ التي لا تزال في مجال الظن ــ على أنها حقيقة مؤكدة دون وَعْيٍ إلى أن هنالك نظريات أخرى جدَّت وانتقل بها الفكر العلمي من حدس إلى حدس.

ولم يزعم العلماء ــ الذين يحترمون أنفسهم ــ أنهم بلغوا بها منزلة الجزم.

وندع الكلام في هذا المجال للأستاذ «محمد فريد وجدي» قال:

«اتفق أهل العلم في القرون الأخيرة ــ بعد كفاح أسلافهم لرجال الدين زهاء عشرة قرون متوالية في سبيل حرية النظر ــ على إطلاق كلمة «العلم» على المحصول العقلي والعملي لجميع مجالات البحث، من أول ما اشتغل به الفلاسفة الأولون، وجميع من جاء بعدهم من أهل التفكير الحر.

والعلماء في أوروبا جنحوا إلى هذا الشمول بعد جهاد شاق وضغط شديد. وقد صبروا على ما عُوملوا به من العسف، وما سِيموا به من الاضطهاد.

حتى استشهد منهم في القيام بحقه أكثر من ثلاثمائة ألف في قرون متوالية، إحراقاً بالنار، وإغراقاً في اليمّ، وذبحاً بالمُدَى، وما لا يمر بخيال أحد من صنوف التعذيب التي تقشعر منها الأبدان.

وكان الذين يتولَّون هذه الحركة العدائية للعلم هم رجال الدين ــ المسيحي ــ.

فلما نشأت البروتستانتية في النصف الأول من القرن السادس عشر، واشتغل رجال الدين بالخلافات المذهبية وأظهر قادة هذا المذهب الأخير تسامحاً مشكوراً حيال العلم والمشتغلين به، تحرر العلم من رقابة خصومه..

فنهض رجاله، وقد امتلأوا حقداً على الدين وأهله، يُشَهِّرون بهم وبالعقائد السماوية معهم ويبالغون في نقدهم، ونقد مذاهبهم.

وكلما أمعن هؤلاء في تناحرهم، وأغرقوا في جهودهم ضد أنفسهم، عمل أهل العلم على جمع صفوفهم وتقوية جهات ضعفهم وشغل العالم بنتاج أفكارهم.

وعلى قدر ما كان يثمره العلم من الاكتشافات ومن اختراع الآلات وتدارك الحاجات، كان يزداد تأثير فلسفته في العقول، ويتضاعف الشعور باحترامه في النفوس، حتى عند من ليس له أدنى نصيب منه من العامة وأشباههم. فأصبح للعلم بعد هذا التطور العظيم منزلة في القلوب تفوق منزلته في العهود الماضية.

ولما توالت مكتشفاته البخارية، والكهربائية، والمغناطيسية في القرن

الماضي وما سبقه، اكتسب سلطاناً على النفوس لم يكن في العصور الأولى لغير الدين، وتناسى الناس العقائد بل أَغفل ذكرَها أكثرُهم.

كان شعور أهل العلم في هذا الدور ـ وقد استغرق نحواً من قرنين ـ شعور من أسقطوا الدين، وقضوا على دولته أبد الأبيد! وقد صرحوا بذلك في أغلب مؤلفاتهم. ثم اكتسب «العلم» ـ بالإجماع الذي انعقد حوله ـ مكاناً ممتازاً.

فلو كان هذا الإجماع على العلم المطلق البالغ أقصَى مداه بحيث يستحيل نقض أي حرف منه، لكان تقديسه من أوجب الواجبات على كل عاقل. ولكن العلم الإنساني إلى هذه الفترة، كان لا يزال بحاجة إلى التمحيص. وكان كثير مما يعتبرونه بداهاتٍ علميةً لا يزال يُعوزه التحقيق.

وكانت المذاهب التي علّلوا بها قيام الوجود بنفسه لا تزال ظنية.

وكان كثير منهم يعرف هذا ولا يجاهر به حتى لا يَحُطَّ من مكانة العلم الذي أصبحت له ـ بفضل هذا التقديس المحيط به ـ شخصية أدبية تَخِرُّ العقول أمامها ساجدة.

وقد بالغ بعضهم في هذا الغُلُوّ حتى وصفوه بالعصمة المطلقة، واعتبروا أنفسهم أهله الأقربين الذين من حقهم أن يحتكروا شرف التكلم باسمه.

فقرروا أن كل قول ينافي أصلاً من أصوله المقررة، أو اكتشافاً سبق له أن حكم باستحالته، أو رأياً جديداً يوهن بعض ما أيَّده، لا يجوز أن يلتفت إليه، فضلاً عن دراسته والعناية به، مهما كانت الغاية التي يرمي إليها.

أما محاولة إثبات العقائد الدينية، أو لفت النظر إلى ما يؤيدها من حوادث، أو الأخذ في تمحيص ظواهر جديدة تَمُتُّ إلى عالم الروح بسبب؛ فقد كان هذا في رأي الكهنوت العلمي الجديد من الإسفاف الذي يجب أن يترفع عنه المنتسبون إلى العلم بعد أن بلغ الغاية القصوى من حصر العوامل الوجودية والعلل الأولية.

في هذا الدور ـ وقد بلغ أوجه في القرن التاسع عشر ـ انتشر الإلحاد

بين العلماء، وذاع بين الطلاب والمتصلين بهم ذيوعاً ينذر بانتهاء عصر الدين، كما كان يذيعه مروجو هذا العهد في كتبهم ومجلاتهم.

وشعر رجال الأديان بالخطر فقبعوا في معابدهم يقرءون الطعن فيهم والتشهير بهم، ولا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم.

هذا هو الذي عنيته عندما حذّرت من: «خطر العلم على العقول الشرقية» وعندما ناشدت أن تتألّب لدفع هذا الخطر جميع العقول البشرية.

ومرادي بهذه العقول هنا: التي أفاقت من غشية هذا الخطر، لا العقول التي لا تزال غارقة في حمأته، أو خابطة في دُجُنّته.

وسيتبين القارىء مما يلي استقامة معنى هذا التعبير.

لم يكد يُهِلُّ القرن العشرون، ويهتدي بعض العلماء إلى تفتيت الذرة في سنة ١٩٠٧ ويثبت أنها قوة وكهرباء ــ وكان قد سبق ذلك اكتشافات أخرى في المادة ونواميسها ــ حتى هبّ رجال العلم من سُباتهم وأعادوا النظر فيما لديهم من صروح النظريات القديمة.

وإليك ما قاله العلامة «جوستاف لو بون» في كتابه «تحوّل المادة»:

كان العالم يختال بالعلم الذي هو ثمرة جهود بذلت في عدة قرون.

وكانت الوحدة والبساطة سائدتين بفضله في كل مجال من مجالاته.

وظلت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظة لقوتها، إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلميّ أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الدهر.

فإن الصرح العلميّ الذي كان لا يَلمح صُدُوعَه إلا عددٌ قليل من ذوي العقول العالية، تزعزع فجأة بشدة عظيمة وصارت التناقضات والمُحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تكاد تبلغها الظنون.

تلك المكتشفات ـ التي نوهت بها ـ آنفاً قد كشفت اللثام عن الظنّيات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة . .

وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضَى كان العلماء يظنون أنه سَلِمَ منها وقد كتب المسيو «لوسيان بوانكاريه» العلامة الرياضي الكبير يقول:

إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً، ويجمع عليها المجربون إجماعاً عاماً.

بل يسود اليوم في ميدان العلوم الطبيعية نوع من الفوضى.

واتسع المجال للاجتراءات الممكنة ولم يظهر أن ناموساً من النواميس ضروري ضرورة مطلقة.

فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالاً هي أشبه بالهدم منها بإقامة بناء نهائي. فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسساً ثابتاً، صارت اليوم لدينا موضوعاً للمناقشة.

ثم ختم العلامة «جوستاف لوبون» هذا الفصل بقوله:

من حسن الحظ أنه لا شيء أحسن ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضَى. فالوجود مفعَم بمجهولات لا نراها.

والحجاب الذي يغطيها منسوج ـ غالباً ـ من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي.

فلا يمكن عمل خطوة للأمام إلا بعد تفكك عُرى الآراء السابقة.

والأشد خطراً على تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظنيات للقراء، لابسة حُلَل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم.

والتطاول لوضع تخوم للعلم، ورسم حدود لها يمكن معرفته كما كان بود ذلك «جوست كونت».

* * *

وقال العلامة الرياضي الكبير «هنري بوانكاريه» العضو بالمجمع العلمي

الفرنسي في مقدمة كتابه «العلم والافتراض» بعدما وصف استسلام العلماء لكل ما أطلقوا عليه اسم العلم:

لمّا تَرَوَّىٰ العلماء قليلاً لاحظوا مكان الفروض من هذه العلوم.

ورأوا أن الرياضي نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها، وأن صاحب التجربة لا يستغني عنها كذلك.

حين ذاك سأل بعضهم بعضاً هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة؟ ثم تحققوا أن نفخة تكفي لجعل عاليها سافلها.

هذا وإني أستطيع أن أسرد هنا عدداً كبيراً من هذه الاعترافات، وكلها تدل على إفاقة العقلية العلمية من غشيتها، وعلى أنها استردّت اتّزانها.

ولست في حاجة لأن أقول بعد هذا: إنه بزوال هذا السد الفولاذي الذي كان قائماً أمام العقول انفتح أمامها مجال النظر الصحيح والاستدلال القويم وخلصت من كابوس الانخداع الذي رزحت تحت تأثيره عشرات السنين.

ولكن هل بلغ هذا التطور العظيم أنصاف العلماء ومريديهم من كل قبيل في مشارق الأرض ومغاربها؟ كلا.

فلا يزال السواد الأعظم في غفلة من هذا، ولا يزالون ينشرون الإلحاد حيث يوجدون. ولم يفت هذا الأمر أئمة العلم الأعلين.

قال العلامة «جوستاف لوبون» في كتابه المتقدم ذكره:

لا مُشاحَّة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها اختيالاً، لم تَزُلْ من الأذهان كل الزوال وستبقى أمداً طويلاً ــ في نظر الدهماء ــ حقائق مقررة.

وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من القيمة في نظر العلماء الحقيقيين.

وبعد فهذا هو خطر العلم الذي أشرت إليه في مقالي، وبينت ضراوته على كثير من العقول.

وليس بخافٍ اليوم على أحد، ما تتشبث به هذه العقول من الإصرار

على مجافاة الدين والحكم عليه بالزوال، تمسكاً منهم بالنظريات العلمية القديمة التي سقطت وأثبتنا لك رأي العلماء في سقوطها وسقوط منزلتها.

لذلك أهبنا بالعقول الذكية التي استنارت بالعلم الحق أن تتألّب على دفع هذا الخطر عن الدين.

فإنه رأس المقومات الأدبية للنوع الإنساني، تلك المقومات التي إن سقطت سقط معها صرح الاجتماع كله ولا يغني عنها العلم الماديّ، كما لم يُغن عن الأمم البائدة.

وها هي ذي الأمم التي أفلتت من شكيمة الدين تتفانَىٰ بوسائلها العلمية ولا يُغني عنها علمها الزاخر شيئاً؟

ثم قال: الدين والعلم ـ في نظر الماديين العصريين ـ نقيضان لا يجتمعان، وضدان لا يتفقان.

ذلك بأنهم قَصَروا الكون على المحسوسات وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيلاً.

فلا رُوح، ولا خلود، ولا ملائكة، ولا غير هذا من العوالم الغيبيَّة.

ثم هم تصوروا الدين على الشكل الذي يرون عليه المتدينين.

ولكنهم لو أنصفوا كما أنصف في هذا العصر أكابرهم، ووقفوا على ما فتح الله به على العالم العصري من الحجج العيانية في إثبات عالم ما وراء المادة، ثم نظروا للدين في أصله، وينبوعه، وعلاقته بالروح الإنسانية نظر الحكيم المتبصر، لعلموا أنهم كانوا في أحكامهم الأولى غلاة مفرطين ولأصبحوا من أعز أبناء الدين، كما أصبح اليوم كذلك أكبر العلماء الماديين.

ولسنا نيأس من رجوعهم فقد رجع من هو أَشَدُّ منهم بطشاً

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١)!

* * *

(١) سورة الزخرف: آية ٨.

لا مكان للإلحاد بيننا

ما هؤلاء الناس؟

إنهم ليسوا «عرباً» ولا «عجماً» ولا «روس» ولا «أمريكان»!

إنهم مسخ غريب الأطوار، صفيق الصياح، بُلِيَتْ به هذه البلاد إثر ما صنعه الاستعمار بها، وترك بذره في مشاعرها وأفكارها.

فهم ـ كما جاء في الحديث ـ من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

بَيْدَ أنهم عَدَوٌّ لتاريخنا وحضارتنا، وعبء على كفاحنا ونهضتنا، وعون للحاقدين على ديننا، والضانِّين بحق الحياة له ولمن اعتنقه.

إن هؤلاء الناس الذين برزوا فجأة، وملأت ضجتهم الأودية كما تملأ الضفادع بنقيقها أكناف الليل، يجب أن يُمَزَّقَ النقاب عن سريرتهم، وأن تعرفهم هذه الأمة على حقيقتهم حتى لا يروج لهم خداع ولا ينطلي لهم زور.

إن هؤلاء الذين يَلبَسون مسوح العروبة، ويندسُّون خلال صفوف المجاهدين ويزعمون أنهم مبشرون بالقومية العربية ورافعون لألويتها، وفي الوقت نفسه ينسحبون من تقاليد العروبة، ويهاجمون أَجَلَّ ما عرفت به، ويبعثرون العوائق في طريق الإيمان ورسالته.

إن هؤلاء الناس ينبغي أن يُمَاطَ اللثام عن وجوههم الكالحة، وأن تلقَى الأضواء على وظيفتهم التي يَسَّرَها الاستعمار لهم، ووقف بعيداً يرقُب نتائجها المُرّة.

وما نتائجها إلا الدمار المنشود لرسالة القرآن وصاحبها العظيم محمد بن عبدالله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم.

لقد قرأنا ما يكتبون، وسمعنا ما يقولون.. ولم يعوزنا الذكاء لاستبانة غاياتهم.

فهم ملحدون مجاهرون بالكفر.

يقولون في صراحة: إن الإسلام ليس إلا نهضة عربية فار بها هذا الجنس العظيم في القرون الوسطى.

واستطاع في فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقري هو الزعيم الكبير محمد صلّى اللّه عليه وسلّم..!

أي إن هذا الدين الجليل نبت من الأرض ولم ينزل من السماء!!.

وإنه انطلاقة شعب طامح فاتح، وليس هداية مثالية فدائية جاءَت من عند اللّه، لتنقذ العرب من جاهلية طامسة كانوا بها في مؤخرة البشر، إلى حنيفية سمحة رفعت خسيستهم، ثم انتشر شعاعها بعدُ في أنحاءِ الأرض، كما تنتشر الأضواءُ في عرض الأفق لدى الشروق.

والفضل في ذلك كله للّه وحده، الذي اصطفى محمداً وامْتَنَّ عليه بالهدى والحق، بعد أن قال له:

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾(1).

وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾(2).

كما يقول في العرب الذين أرسل فيهم:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(3).

---

(1) سورة الشورى: آية ٥٢.

(2) سورة النساء: آية ١١٣.

(3) سورة آل عمران: آية ١٦٤.

فأي زحف عربي هنالك؟

وأية عبقرية أنشأت من عندها هذا الغيث الممرع لأهل الأرض؟

إن الزعم بأن الإسلام «فورة عربية» أكذوبة كبرى وأضلولة شائنة.

وإن هذا القول، ليس تكذيباً للإسلام فقط بل دعوة خطيرة إلى تكذيب الديانات كلها وإلى إشاعة الكفر والفسوق والعصيان في أنحاء الأرض.

والغريب أن هؤلاء الناس يخاصمون الإسلام بعنف، ويحاربون أمته بجبروت، ويهادنون الأديان الأخرى من سماوية وأرضية.

كأن الإسلام هو العدو الذي كُلِّفوا باستئصاله وحده.

لا، بل هو العقبة الفذّة التي وُضعت المعاول في أيديهم لإهالتها تراباً.

أجل، وهل للاستعمار عدو في هذه البلاد إلا الإسلام؟

إنه مصدر المقاومة العنيدة، وروح الكفاح الباسل الذي أعيى المهاجمين، وأحبط مؤامراتهم.

ومن ثمَّ فعلى الاستعمار أن ينسج خيوطه حوله ليقتله، ويحول بينه وبين الحياة الكريمة.

ولقد ابتدع القوميات الضيقة، واستجباها بشتى الأساليب لينال من كيان هذا الدين.

فلما سقطتْ أمام الإسلام في المعركة، دسَّ أتباعه تحت لواء «القومية العربية» وزودهم بضروب من الادّعاء ليزحموا العرب المخلصين في هذا الميدان، ولينالوا من الإسلام بطريقة أخرى.

وتفسير «القومية العربية» هذا التفسير الكفور الكنود، هو حرب أخرى ضد الإسلام. **وإنه لجدير أن يتسمَّى هؤلاء بأتباع «القومية العبرية» لا العربية...**

أليسوا يعملون لمصلحة الاستعمار وإسرائيل؟

ولقد مرت أربعة عشر قرناً على اشتباك العروبة بالإسلام، أو بتعبيرنا

ـ نحن أهل الإيمان ـ على تشريف اللّه للعرب بحمل هذه الأمانة، وإبلاغها للناس.

ونظرة إلى الماضي البعيد تعرفنا ـ بسهولة ـ أن العرب مرت عليهم أدهار قبل الإسلام لم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً.

ثم جاء هذا الدين فدخلوا التاريخ به، وطار صيتهم تحت رايته.

وصدق اللّه إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[1].

ثم أخطأ العرب فظنوا هذا الدين العالمي الذي نزلت فيهم آياته يمنحهم امتيازاً خاصاً، ويجعلهم عنصراً أرقى من سائر الأجناس.

ونشأ عن هذا الخطأ رد الفعل الذي لا بد منه.

فقامت الشعوب الأخرى تدافع عن قيمة دمها، وكرامة عنصرها.

وهذه الأغلاط المتبادلة علتها حنين البشر إلى الجاهلية واستثقالهم مؤنة السعي لتحصيل الكمال الإنساني.

فإذا عزّ على شخص تافه أن يكون تقياً، وأن ينسبه عمله إلى المجد والعُلا، ذهب ينتحل نسباً آخر إلى أسرة أو وطن أو جنس ليرتفع به دون جهد.

وتلك كلها عصبيات باطلة، ونزعات نازلة، ولا محل لها في دين، ولا وزن لها، عند رب العالمين.

ولكن المهم أن العرب الأولين لما أرادوا المفاخرة والتميز كان الإسلامُ متكأَهم ومعقدَ فخارهم.

فبأي شيء يملأون أفواههم إذا لم يذكروا الإسلام؟

إن وطابهم خالٍ، وتاريخهم صفر.

حتى جاء الأفاكون في هذا الزمان بالبدعة التي لم يسمع بها إنسان.

فإن العروبة ـ في نظرهم ـ يجب أن تتجرد من الإيمان، وزعموا ـ قبحهم اللّه ـ أنها بالانسلاخ عن الدين تسمو وتسير.

---

(١) سورة الزخرف: آية ٤٤.

بل إن أحد الكتاب من هذه العصابة، وجد الوجه الذي يطالع به الناس، ليقول: إن الإسلام جَنَى على العروبة!!

وإن اللغة العربية انتشرت أبعد مما انتشر الإسلام!

وإن الإسلام - لأنه عالمي - ضارٌّ بالقومية العربية.

وظاهرٌ أن هذا الكلام - بقطع النظر عن بطلانه - إنما يروج لحساب الاستعمار، الغربي منه والشرقي على سواء.

وأن قائله يخدم أهداف الغزاة الذين عسكرتْ جيوشهم في بعض أقطار العروبة، وأنزلت بها الهون، ووقفت على حدود البعض الآخر تتربص به الدوائر.

وكاتب آخر من هذه العصابة يطلب منا - بإلحاح - أن ننسى التاريخ؛ لأنه لا يضم إلا رفات الموتى، وأن نتطلع إلى المستقبل فحسب.

ونسي هذا الغِرُّ أن اليهود في كبد الشرق الأوسط، أقاموا دولتهم بأمداد من التاريخ الموحى، وأنهم جعلوا اسم «إسرائيل» عَلَماً عليها.

إنه حلال للناس جميعاً أن يستصحبوا تاريخهم في كفاحهم.

أما نحن - المسلمين - فحرام علينا أن نذكر فصلاً من هذا التاريخ، وأن نستوحي منه عوناً في جهاد، وأملاً في امتداد.

إنها قومية عبرية لا عربية، تلك التي يبشر بها الملحدون، وكارهو الإسلام.

ولقد عرف الأولون والآخرون أننا - نحن المسلمين - أحنَى الناس على العروبة، وأوصلهم لمجدها، وأخلصهم لقضاياها، وأن هؤلاء القوميين لا خير فيهم. بل إنهم مصدر شر طويل، وأذىً ثقيل.

إن حضارة العروبة وخصائصها الروحية والاجتماعية وتراثها الماضي وأمانيها المستقبلة لا يمكن - البتة - سلخها عن الإسلام.

وليس معنى هذا أن الأديان الأخرى مهدرة القيمة، منكورة الحق، كلا.

فإن العرب - في ظل الإسلام - عاشوا مع العرب النصارى، جيراناً طيبين؛ بل إخواناً متحابين!.

إن الشر الذي نريد إيصاد الأبواب دونه، هذه القومية الكافرة الذليلة الكنود التي تخاصم الإسلام جهرة وتحاول عبثاً حَطْم أمته وتبديد شريعته.. ونحن لها بالمرصاد!!

ونحب أن نسأل أولئك الذين يملأون بالتفاخر الكذوب أفواههم، ويريدون أن يخيلوا لأولي الأفهام القاصرة أن العرب يمكنهم الاستغناء عن الأمة الإسلامية، كما أن العروبة يمكنها الاستغناء عن الإسلام.

نحب أن نسأل هؤلاء: هل قرأوا التاريخ؟ وهل وعوا دروسه؟

وهل في وجوههم بقية حياء تجعلهم ينزلون على حكمه؟

إن العروبة في أشد أزماتها لم تجد منقذاً إلا لدى المسلمين المخلصين من أجناس الأرض الأخرى.

بل إن العرب لما تكسرت صفوفهم تحت سنابك التتار الزاحفين من الشرق، وانهارت سدودهم أمام الصليبيين المنحدرين من الغرب، وكادت تذوب هذه الأمة في دوامة العواصف المطبقة ذوبان الملح في الماء.

في هذه اللحظات العصيبة تقدم المسلمون من الأجناس الأخرى يصدون العدوان، ويدفعون عن ديار العروبة ويبسطون حمايتهم المشكورة.

قال الأستاذ «عبدالحميد العبادي»:

اجتاح التتر أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً.

ثم دخل زعيمهم «هولاكو» بغداد في سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية. ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر.

ولقد أرسل «هولاكو» إلى سلطان مصر إذ ذاك وهو الملك المظفر «قطز» كتاباً ملأه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه.

فثارت حمية السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لِمَا ثبت في الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يُغلَبون!.

ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أي حال، وليصحبه من يشاء، عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم.

فسار بالجيش إلى فلسطين مقدماً أمامه الأمير «بيبرس». وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت وذلك في رمضان سنة ٦٥٨هـ.

يقول «المقريزي» في وصف بلاء «قطز» و«بيبرس» والجيش المصري في ذلك اليوم العصيب: «فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان التقى الجمعان، وفي قلوب المصريين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل.

وعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه.

فألقى الملك «المظفر» عند ذلك خوزته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته:

«وا إسلاماه!» وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده اللّه بنصره.

وقتل «كتبغا» مقدم التتر، وانهزم باقيهم...

وأبلى الأمير «بيبرس» أيضاً بلاء حسناً بين يدي «السلطان».

ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب «بيسان»، فرجع التتر وصافّوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول.

فهزمهم اللّه وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول:

«وا إسلاماه» ثلاث مرات «يا اللّه! انصر عبدك «قطز» على التتار».

فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً للّه تعالى، ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم.

هذه وقعة «عين جالوت» التي صد فيها الجيش المصري سيل الغزو التتري الجارف.

واستنقذ بها الشام من أيدي التتار، وردّ عن «مصر» والمغرب الإسلامي كيدهم وجبروتهم.

وفوق ذلك فإنه وقَى في ذلك اليوم ـ على غير علم منه ـ «أوروبا» وحضارتها الناشئة دماراً محققاً وذلك باعتراف مؤرخي أوروبا أنفسهم».

تلك هي صورة الكفاح الذي اشتعلت نيرانه في الشرق، والذي كاد يأتي على الأخضر واليابس، ويدع العروبة والإسلام حطاماً.

إن أحداً لم يَقُدْ حركة الكفاح الناجح بإيمان وعزم إلا «قطز» و «بيبرس» وغيرهم من الأعاجم...

فإذا طَويتَ هذه الصفحة طالعتك صفحة أخرى أملأ بالوقائع الرهيبة:

فقد تتابع هجوم «أوروبا» على هذه المنطقة التي تسمى الآن «الشرق الأوسط».

واستطاعوا ـ بعد مذابح عصيبة ـ أن يؤسسوا إمارات لاتينية في عدة نقط خطيرة.

والهجوم الصليبي الذي دوخ العرب والمسلمين في هذه الفترة لم يكن حركة محدودة الغاية، بل كان حركة استئصال شامل للإسلام وأمته.

استعدت لها دول أوروبا كلها بالمال والرجال وأرصدت لها من القوى المادية والعاطفية ما يحقق ذلك الغرض.

قال الدكتور «عبداللطيف حمزة»:

فبم أجاب المسلمون عن هذه الحركة؟

نشأت المقاومة الحربية التي أجاب بها المسلمون عن هذه الحركة أولاً بـ «الموصل» وثانياً بـ «حلب» و «دمشق» وثالثاً بـ «مصر».

ومعنى ذلك أن الأتراك السلجوقيين هم أصحاب الفضل الأول في مهاجمة الصليبيين.

وبعبارة أخرى: إذا كان على الإسلام والمسلمين أن يشكروا الدولة التي جاهدت في سبيلهم ضد الصليبيين فإنهم يشكرون الدول التركية وحدها، قبل أن يشكروا الخلافة العباسية نفسها، أو الخلافة الفاطمية التي كانت وقت قيام الحرب الصليبية في غاية العظمة والقوة.

وكم يتعجب الباحث حقاً من إهمال الخلافة الفاطمية يومئذ مع قوتها وعظم هيبتها، حتى لكأن الدولة الفاطمية في «مصر» نظرت إلى انتصار الصليبيين في الشرق على أنه مانع قوي للترك من محاولة غزو «مصر».

أجل. لقد أهملت الخلافة الفاطمية الدفاع الحقيقي عن الإسلام، وهاك البرهان:

أشرنا أولاً إلى أن الفرنج نجحوا في أخذ «الرها» و«أنطاكية».

فلما وقع ذلك اجتمع من ملوك الإسلام صاحب الموصل، وصاحب ماردين، وصاحب سنجار، وهم جميعاً من ملوك السلاجقة.

أما مصر ــ وكان أمرها يومئذ إلى الوزراء دون الخلفاء ــ فإن وزيرها (الأفضل بن بدر الجمالي) لم ينهض بإخراج العساكر المصرية.

قال التاريخ: وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[1]؟

ثم قال التاريخ: والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة.

وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، ومع ذلك فإن الصليبيين هجموا على المسلمين وكسروهم وفرقوا جموعهم، وانكسر أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمتطوعين فكتب أمراء السلاجقة إلى الخليفة المستظهر العباسي يستنصرونه.

---

(١) اقرأ النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٧ وما بعدها، طبعة دار الكتب المصرية.

فأمر الخليفة من ذهب من قبله إلى (بركيا روق)[1] بن السلطان ملك شاه السلجوقي يستنجده، كل ذلك وعساكر «مصر» لم تهيأ للخروج[2].

وحينما كان الفرنج يحاصرون بيت المقدس كان به «افتخار الدولة» من قبل المستعلي بالله خليفة مصر.

فبقي الفرنج في حصاره أربعين يوماً.

وبلغ ذلك «الأفضل بن بدر الجمالي»، فأبطأ في الخروج.

ثم خرج بعشرين ألفاً من عساكره، ووصل القدس بعد أن نجح الفرنج في دخوله والاستيلاء عليه فعلاً.

فعاد «الأفضل» إلى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج الذين بقي القدس في أيديهم «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ولما تمّ للفرنج أخذُ بيت المقدس وضعوا السيف في أهله، ووصلوا بخيولهم إلى «معبد سليمان» وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم، وأقاموا تلك المذبحة الشنيعة التي وصفها «جود فري» في خطاب له بعث به إلى البابا قائلاً:

إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتها في بحر من دماء الشرقيين في إيوان «سليمان» ومعبده.

فعل الصليبيون المسيحيون بالقدس ذلك كله.

فلما وصلت هذه الأخبار السيئة إلى «دمشق»، هاج الناس فيها وماجوا، وخرج المستنفزون منها، ومعهم قاضي المدينة ووصلوا إلى بغداد، وحضروا في الديوان، وقطعوا شعورهم، واستغاثوا، وبكوا.

وقام القاضي في الديوان، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من

---

(١) كان «بركيا روق» السلجوقي بن ملك شاه صاحب النفوذ المطلق في بغداد إذ ذاك. وكان يذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة.

(٢) النجوم الزاهرة: (ج ٥ ص ١٤٨).

الديوان من يمضي إلى العسكر السلطاني، ويعرفهم بهذه المصيبة.

فماذا حدث؟ لا شيء. يقول التاريخ: فوقع التقاعد لأمر يريده اللّٰه تعالى.

تخاذل وانقسام وتفريط...

وخيانات فاشية لأمانات اللّٰه ورسوله...

وذهول معيب عن حماية الدين والشرف والأهل والولد...

وفوضى ضربت في كل ناحية وجعلت الدفاع المقدس الواجب بعيد الوقوع أو قليل الجدوى.

أين العرب يوم إذ...؟ وماذا فعلوا...؟

في وسط هذه الغيوم الكثيفة انشقت الغيوب عن رجل جمع الشتات، ونفخ روح القوة في الكيان المتداعي.

وَلَمَّ فلول المسلمين المبعثرة هنا وهنالك تحت راية الإسلام البعيد عن نعرات الأرض وعصبيات الناس.

ذلك هو البطل العظيم «صلاح الدين الأيوبي»..

ولا بأس أن نذكر هنا طرفاً من عمل هذا الرجل كتبه المرحوم الأستاذ «عبدالحميد العبادي» تحت عنوان «العفو عند المقدرة» ـ يعني عفو الإسلام عن أعدائه بعد ما استمكن منهم ـ قال:

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين في البيت المقدس غداة استيلائهم عليه في سنة ٤٩٢هـ.

أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء.

فلنورد للقارىء مجملاً لما حدث عندما فتح «صلاح الدين الأيوبي» تلك المدينة في سنة ٥٨٣هـ.

فبعد أن دحر «صلاح الدين» جيش الصليبيين في وقعة «حِطِّين»، سار إلى «عسقلان» فافتتحها.

وأخذ يتأهّب للزحف منها إلى بيت المقدس.

وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار.

فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التي يقدسها المسلمون كما يقدسها الصليبيون.

ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً، عند ذلك أقسم لهم أنه لن يفتحها إلا بالسيف.

وتقدم «صلاح الدين» إلى بيت المقدس وأخذ في مهاجمتها، ونقب أسوارها، وأوشكت جنوده أن تقتحمها.

فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا الأمير «بليان» لمفاوضة «صلاح الدين».

فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذي منحه مدناً صليبية أخرى، فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مستمسكاً بيمينه التي أقسمها.

عند ذلك قال له «بليان»: إن في المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم.

ولقد راع هذا التهديد «صلاح الدين» فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كافٍ في إبرار قسمه، وأن في وسعه أن يعتبر كل من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب، وله أن يضرب عليهم الفداء.

وقد أخذ «صلاح الدين» بهذا الرأي، وتم الاتفاق على أن يكون الفداء على كل رجل عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل ديناراً واحداً. وأن تكون المدة التي يؤدَّى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً.

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه. وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ.

وكانت اللَّيلة ليلة المعراج الشهيرة، وهي مصادفة عجيبة.

وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء.

فخرج الأمير «بليان» ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدَّى عنهم ثلاثين ألف دينار. ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر.

ثم يأتي البطرك الكبير يجرُّ من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال، فلم يعرض «صلاح الدين» لشيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه. وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة.

وانقضت الأربعون يوماً ولا يزال في المدينة آلاف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء.

يقول المؤرخ الصليبي «أرنول» ـ ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهور ـ: فتقدم «العادل» إلى أخيه السلطان «صلاح الدين» وقال:

سيدي! لقد أعنتك بحمد اللّه على فتح هذه البلاد وهذه المدينة، وإني أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء، فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره.

ثم جاء «بليان» والبطرك وطلبا مثل الذي طلب العادل فوهبهم «صلاح الدين» ألف رقيق أطلقوا في الحال.

وأخيراً يلتفت «صلاح الدين» إلى أصحابه ويقول:

«لقد أدَّى أخي صدقته، وكذلك صنع «بليان» و«البطرك» وقد بقي أن أؤدي أنا صدقتي»!!!

ثم أمر رجالاً من حرسه أن ينطلقوا فينادوا في جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حُرٌّ لوجه اللّه تعالى.

يقول «أرنول»: «وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملاً من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام».

ثم يمضي المؤرخ المسيحي المذكور فيقول ـ متحدثاً عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه ـ:

«إن نساءً من نساءِ فرسان الصليبيين كُنَّ قد لجأن إلى بيت المقدس بعد

أن قُتِلَ أو أُسِرَ أزواجُهن وعائلوهن في الحرب.

فاجتمعن بعد أن أدّين الفداءَ وحضرن عند «صلاح الدين» باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن.

فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج في حبسه زوجَها، وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها مما ألهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه».

ويقول المؤرخ الإنجليزي «لين بول»:

«لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس، لكان ذلك كافياً في عده أعظم الفاتحين في عصره فروسية وأكبرهم قلباً، بل لعله كذلك في أي عصر من العصور».

و «صلاح الدين» ـ كما نعلم ويعلم الناس ـ كردي مسلم لا ينتسب إلى عدنان ولا إلى قحطان.

وهو الذي لم يحرر فلسطين العربية وحدها، بل حرر ديار العروبة كلها شرقها وغربها.

بأي واعز؟ ولأي دافع؟

واعز الإيمان، ودافع الإسلام.

* * *

أَسَاسُ الوَحْـدَةِ العُظْمىٰ

هل غبرت على ذلك العهد قرون طوال؟

عهد اجتماع كلمتنا والتئام شملنا في المشارق والمغارب. كلا.

إن الأمد غير بعيد، إنها فترة قصيرة في عمر الأمم، وفترة أقصر في امتداد الزمن وإن بدت لنا ــ نحن أبناء الجيل الحاضر ــ وكأنها الـواقع المألوف من أيام طوال. الحقيقة غير هذا.

الحقيقة أن المسافر من «داكار» على شاطىء «المحيط الأطلسي» كان يتجه شرقاً إلى مكة وإلى ما وراءها حتى أعماق «الهند» و«الصين» فما يجد شرطياً يعترض طريقه ليسأله أين جواز السفر؟ وأين تأشيرة الدخول والخروج!.

لقد كانت هذه البقاع المترامية تعمرها أمة واحدة، وتحكمها دولة واحدة، وتخفق في أجوائها راية واحدة، وتسري في أوصالها عاطفة مشتركة.

فكأن المرء ــ حيثما طرحته النوى ــ يمشي بين ذوي رحمه، وينتقل بين أقرانه وأحبابه..

وكما يسافر «المصري» من «القاهرة» إلى «الإسكندرية» أو «أسيوط» دون حرج، يسافر المسلم أو المسيحي بين قارات ثلاث فلا تتعقد له نقلة، ولا يتعسر له أمر ولا يستوحش هنا أو هناك.

إن الوحدة الروحية والسياسية التي ربطت بين أسلافنا إلى سنوات معدودة حقيقة لا شك فيها.

حتى جاء هذا الاستعمار الملعون فمزّقها شَرَّ مُمَزَّق.

وأهال عليها أكواماً من التراب ليخفي معالمها، ويمحو صلاتها بالأذهان والأفئدة، ويخلق شعوباً متناكرة متدابرة لا يحفظ أحدها للآخر نسباً، ولا يرعى له وداً. وكم تحسب الأمم التي تخلفت عن هذا التقطيع المنكر؟..

إنها بضع وثلاثون دولة، أو إقليماً، أو شعباً يكافح لنيل حريته.

ففي إفريقية «مراكش»، و«تونس»، و«الجزائر»، و«تشاد»، و«غانة»، و«غينيا»، و«نيجريا»، و«أوغندا»، و«صوماليا»، و«إيرتريا» و«الحبشة المسلمة» و«السودان»، و«مصر»، و«ليبيا» بأقاليمها الثلاثة.

وفي آسيا: «اليمن»، و«السعودية»، و«الكويت»، و«العراق»، و«لبنان»، و«سوريا»، و«الأردن»، و«فلسطين»، و«إيران»، و«أفغانستان»، و«باكستان»، و«الهند المسلمة»، و«أندونيسيا»، و«المحميات العشر»، و«أزبكستان»، و«تركستان»، ومسلمي «القوقاز»، وسائر «روسيا»، ومسلمي «الصين»، و«تركيا».

وفي أوروبا: «ألبانيا»، ومسلمو «يوغوسلافيا»، و«قبرص»، وسائر البلقان.

أي إن أكثر من ثلث المؤسسة المعروفة الآن بمؤسسة الأمم المتحدة يتكون من أجزاء الأمة الإسلامية التي قطع الاستعمار أوصالها، وبعثرها على هذا النحو المؤسف وحظر عليها أن تتواصَىٰ بدين أو تتعارف على إيمان...

هل هذا عصر الأمم الصغيرة؟ كلا إنه عصر التكتلات الضخمة!

ففي «روسيا» مائتا مليون إنسان، وفي «الصين» ستمائة مليون.

وهما دولتان اثنتان تدور في فلكهما عدة دويلات شيوعية، لا تنفك عنهما. أما نحن فإن الاستعمار يجيء إلى قطعة من الصحراء، ويرسم حولها حدوداً موهومة في منطقة لا يسكنها إلا مليون من الناس ثم يصنع فيها دولة لها ملك ووزراء وسفراء!

ولما كانت هذه القطعة من الأرض ليست لها إمكانيات دولة فهو يستبقي

هذا الشذوذ بإعانة يقدمها من جيبه الخاص.

إي واللّه. هذا المال المقدَّم لاستبقاء الفُرقة يحسب على أصحابه صدقة.

إن هذه الدول من ناحية تعداد السكان، ومن الناحية الاقتصادية لا يخدم قيامها المفرِّق أحداً غير المستعمرين.

ذلك أن الأمة الإسلامية المترامية الأطراف يكمل بعضها بعضاً في كل ميدان، ويشد أعصابها المعنوية والعسكرية قلب واحد، وأمل واحد.

ذكر الدكتور «محمد البهي»:

أن الرحالة الألماني «بول أشميد» في كتابه «الإسلام قوة الغد» الذي ظهر قبل الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٦، حذَّر الغرب المسيحي من استمرار التوتر في السياسة بين حكوماته وشعوبه.

وأنذر هذه الحكومات والشعوب بأن الشرق الإسلامي يتحفز للسيطرة بعد التخلص من السيادة الأوروبية لأنه يملك فعلاً مقومات القوة في الغد.

قال: وإذا ما قوي الشرق الإسلامي، ضعف الغرب، وكان لا محالة من أفول نجمه.

ثم أشار إلى مقومات هذه القوة في الشرق الإسلامي وحصرها في ثلاثة عوامل:

١ ــ في قوة الإسلام كدين، وروعة الاعتقاد به والاستمساكِ بِمُثُلِهِ، وفي مؤاخاته بين أتباعه على اختلاف الجنس واللون والثقافة.

٢ ــ وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي على حدود «مراكش» غرباً إلى «المحيط الهادي» على حدود «أندونيسيا» شرقاً.

وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية، بل لاكتفاء ذاتي لا يدع المسلمين في حاجة ما إلى «أوروبا» أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ ـ وأخيراً أشار إلى عامل مهم هو خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما يجعل قواتهم العديدة متزايدة نامية.

فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة ووحدة اللّه، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة عددهم المتزايد، كان الخطر الإسلامي خطراً منذراً بفناء أوروبا وبسيادة دعوة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله.

ويقترح «بول أشميد» ـ بعد أن فصّل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية كما تبلورت في تاريخ المسلمين وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم ـ يقترح أن يتضامن الغرب المسيحي شعوباً وحكوماتٍ ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر الحديث وفي أسلوب نافذ حاسم».

ونحن نتساءل: أكان الاستعمار ساكناً في انتظار توصيات ذلكم الرحالة الألماني الكنود؟ لا. لا.

إنه منذ قرن يحل «المسألة الشرقية»، أو «تركة الرجل المريض» لمصلحته الخاصة.

لقد تواثبت دول أوروبا كلها على دولة الخلافة تواثب الذئاب على جريح مشبع اللحم والشحم.

كلٌّ يبغي اختطاف شِلوٍ منه، وتمزيع بضعة تملأ ماضغيه.

واستطاعت هذه الدول الماكرة أن تصنع فتوقاً مروعة بين الدولة المترنحة وشعوبها الكثيرة.

فضربت الترك بالعرب، والعرب بالترك، وخلصت من مؤامراتها المحكمة إلى النتيجة التي تنشدها.

إذ انتثر عقد الأمة الواحدة، وتطايرت حبّاته إلى كل ناحية.

وطلع فجر القرن الأخير أشأم أغبر. طلع على أمة مستباحة، ودين

نُسجت الأكفان لدفنه تحت أطباق التراب. ونحن لا نبكي ولا نستبكي كي تعود دولة الخلافة.

كما أننا نرسل هذا الكلام وليس في أذهاننا صورة متميزة لنظام يجمع شمل المسلمين عسكرياً وسياسياً.

وإنما الذي يعنينا أولاً وآخراً أن يبقى «الإسلام» حيًّا، في هذا العالم يؤدي رسالته ويبلغ دعوته.

وأن يكون معتنقوه ــ على اختلاف أوطانهم ــ متمكنين من إقامة شعائره، وإنفاذ حدوده، والعيش وفق تعاليمه وغاياته.

لقد أعجبني من رئيس الحكومة أن يقول:

إننا أصحاب فلسفة اجتماعية خاصة لا تنبع من الشرق ولا من الغرب.

وهذا صحيح. فإن المتسول البائس هو الذي يمد يده لهذا أو لذاك.

يلتمس الغنىٰ الفكري أو العاطفي أو المادي.

ونحن ما كنا ولن نكون متسولين..

إننا صدَّرنا الفلسفات النقيةَ في الخُلُق والحكم والمعاملة دهراً طويلاً إلى أهل الأرض طُرّاً.. ولن تزال أسباب الغنىٰ في تربتنا هذه، وبين أيدينا نحن.

فكيف نستجدي فلسفة اجتماعية من شرق أو غرب؟

إن كل ما نصبو إليه، وما نناشد الغرب والشرق فعله، أن يدَعونا وشأننا، وأن يكفكفوا نوازع الجشع والحقد التي تعكّر صفونا، وتستفزنا لقتالها ونحن كارهون..

الإسلام الذي تطمره الآن عواصف متتابعة الهبوب، وأمته التي انفرد الخصوم بكل جزء منها، كما ينفرد قُطَّاع الطريق برجلٍ مليء في مكان موحش.

هذا الإسلام من حقه أن يحيا، وهذه الأمة من حقها أن تأمن.

لماذا تتألب الدنايا والرزايا عليه وعليها؟

قال الأستاذ «محب الدين الخطيب» تحت عنوان «الأمة اليتيمة، هل آن لها أن تعلن رشدها؟»:

المسلمون ــ اليوم ــ في «آسيا» وجزائرها، فما وراء السد الحديدي منها حتى «سيبيريا» شمالاً، وشبه جزيرة القريم غرباً، وفي أوروبا من «المجر» و «يوغوسلافيا» و «ألبانيا» إلى «سلانيك» وسائر «خاليكدكيا» حتى «كوملجنة» و «تراقيا» وما ارتفع عنها من سيف البحر الأسود، وفي إفريقية من معالمها إلى مجاهلها، وما بين ذلك أو وراءه من سواحل، ومكامن، وأدغال، وأودية، وآفاق.

هذه الأمم والشعوب الإسلامية ــ في «آسيا» و «أوروبا» و «إفريقية» ــ التي يزيد تعدادها الآن على خمسمائةمليون نسمة، قد تتفاوت كثيراً في مستواها الاجتماعي، وفي مبلغها من الانطلاق أو التقيد، وفي وسائلها من الثروة والمعرفة والتقدم الصناعي والاقتصادي، وفي ثقتها باستعدادها للحيوية والنهوض، ومعرفتها بالطريق المؤدي إلى ذلك. إنها قد تتفاوت في كل ما ذكرنا.

غير أنها تشترك جميعاً في كثير من السجايا والمبادىء والروابط.

وفي طليعتها الإيمان بالدستور الإسلامي الخالد ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١) وبالأمر الإلٓهي الصريح الذي لا هوادة فيه ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾(٢).

ومهما نسي المسلمون من أخلاق دينهم، أو تهاونوا بشيء من مبادىء تشريعهم، ومهما تخلفوا عن مزايا ملتهم، فإنهم لن ينسَوا أن المؤمنين إخوة، ولن يشكوا في أن الاعتصام بحبل اللَّه هو آلة النجاة، يوم تتهيأ لهم القيادة الحكيمة الحازمة التي تمضي بهم في طريق النجاة.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٠.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

إن لهذه الأُخُوَّة الإسلامية المشتركة فيما بين المسلمين حقوقاً متشعبة النواحي، وواجبات متعددة المظاهر والمقاصد.

ولو أن هذه الحقوق والواجبات أُحصيتْ ودُرِستْ، ونُظِّمَتْ، واتخذ العقلاء الرحماء من قادة المسلمين وسائل لبعث الحيوية فيها وفي أهلها، إلى أن يتم توجيههم في طريق العمل الإنساني، والبعث الإسلامي ولو بالتدريج، لكان من ذلك العمل الكبير أعظم حادث في تاريخ الإنسانية بعد حادث القيام الأول للإسلام.

أنا أعتقد من عشرات السنين أن الإنسانية في حاجة إلى البعث الإسلامي، وأنها تتخبط في أنظمتها الحاضرة، ولا تجد لها مخرجاً من هذا التخبط إلا بأنظمة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق.

وأنظمة الفطرة القائمة على أسس الأخلاق لا تحتاج إلى من يخترعها من جديد، ذلك أنها موجودة بالفعل في نظام الإسلام الذي أهمله المسلمون فصاروا حُجّاباً بين الإنسانية وبين معرفة هذا النظام.

فاضطر الغرب إلى أن ينزلق في أنظمة أملىٰ عليه اليهودُ بعضها، وأغرَوه ببعضها أو جعلوه منها أمام أمر واقع، أو كانت لهم يد في تعديل البعض الآخر، أو توصَّل غير اليهود إلى بعض المبادىء، فوجدها اليهود داخلة في برنامجهم فأيدوها، وروّجوها، وفسروها، ونشروها حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به في الغرب، والذي أخذنا نقتبس عنه تقاليد حياتنا منذ نحو مائة سنة.

فغشي دواوين حكمنا، وأسواق تجارتنا، وساد في مجامعنا، وسابق نساؤنا رجالنا إليه في الأزياء والآداب والمعاشرة، حتى آمنا به وكفرنا بما سواه. وأصبح الرجل المستقيم منا هو الذي يمدحه الناس بأنه ملتزم لذلك النظام الأجنبي، وغير مخل بشيء من أصوله أو فروعه أو آدابه.

ولو أن المسلمين انتفضوا انتفاضة حكيمة يرجعون بها إلى أنفسهم،

ويعيدون تنظيم مواريثهم ويتعاونون على إقامة نظامهم الفطري الذي يتعاملون فيه بمقاييس الإيثار لا بمقاييس الأثرة، فإنهم لا يلبثون أن يوجد فيهم من أبنائهم جيل ترىٰ فيه الإنسانية جمال الإسلام، ويتبين لها أنه هو ضالة الإنسانية التي كانت تنشدها، فيتجدد بذلك تاريخ الإنسانية جميعاً.

ترى متى يكون ذلك، ومن الذي بدأ به؟

لما اجتمعنا قبل عشرة أيام[١] بمقر «المؤتمر الإسلامي» كان مما قلته لإخواني ممثلي أكثر شعوب الإسلام المجتمعين في تلك الجلسة ــ وفيهم رجال من «الصين» و «الملايو» و «التركستان» في شرق «آسيا»، ورجال من «تونس» و «الجزائر» و «مراكش» في الغرب من شمال إفريقية وآخرون من أوطان إسلامية متعددة:

«إن الطوائف المواطنة لنا في بلادنا، والملل الكثيرة المعاصرة لنا، تنعم كلها بمؤسسات طائفية ومِلِّيَّة تسهر على مصالحها من حيث هي طوائف وملل، وترعاها في شؤونها الملية والتشريعية والاجتماعية والثقافية، إلا المسلمين فإنهم وحدهم أبناء الملة (اليتيمة) في هذا المجتمع البشري منذ نحو ألف سنة، أو على تعبير الشيخ «محمد عبده»: منذ استعجم[٢] الإسلام بمن اصطنعهم بعض الخلفاء العباسيين من المماليك.

فما لبث المماليك أن صاروا ملوكاً سارت الأمة الإسلامية تحت ألويتهم في طريق الضعف والانحلال، إلى أن قامت النهضة في أوروبا قبل ثلاثمائة عام. فكان موقف ولاة أمور المسلمين منها موقف المتفرج.

---

(١) في مساء الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٧٤.

(٢) نحن نرى خلاف ذلك نرى أن خدمات العرب والعجم والترك للإسلام متساوية وأنه لا مجال للقول بأن جنساً ما أساء للإسلام، وإذا انفتح هذا المجال ــ ونرجو ألا يفتح أبداً ــ فإننا نسأل اللّه المغفرة للجميع فإن إساءاتهم كذلك متساوية، وليس العرب أحسن من غيرهم حالاً.

فالغرب يسير قُدُماً نحو القوة وعلومها وأسبابها.

والشرق الإسلامي يرجع القهقرىٰ بأخلاقه وعلومه وأنظمته.

حتىٰ كانت النتيجة الطبيعية وقوع أكثر المسلمين في قبضة الاستعمار، وهم كالأيتام الذين ليس لهم من يرعاهم.

بينما الطوائف المجاورة لهم يقوم على شؤونها الملية والطائفية والثقافية والتشريعية والاجتماعية منظمات تسهر عليهم ليل نهار.

فتنظم مصادر قوتهم، وتتعاون معهم على التقدم بهم في مضمار الحياة.

وتُعِدُّ للمستقبل الأجيال الصالحة من أبنائهم، ليكون كل جيل أقوىٰ من الذي قبله.

والآن وقد بدأنا نستيقظ من نوم طال علينا ليله، فلو أن هذا «المؤتمر الإسلامي» كَوَّن نفسه واتخذ أُهبته لتكون منه المنظمة الإسلامية التي تدرس شؤون المسلمين ومواريثهم الطيبة، ومواطن ضعفهم وأسباب علاجها، وتحاول أن تكون لها بهم الصلة الأدبية الحكيمة التي تدعو إليها أُخُوَّة الإسلام، فإن هذا المؤتمر سيملأ حينئذ (الفراغ) الذي يشعر به المسلمون منذ ألف سنة فيزول به يُتْمُهُم.

بل سوف يرون أنهم بلغوا به سن الرشد، وأنه قد آن لهم أن تصدر عنهم ــ في حلبة التسابق بين الأمم ــ الأعمال التي يبرهنون بها على أنهم في طليعة الأمم الرشيدة.

لمّا كان يقال فيما مضىٰ: «المسلمون إلى خير، ولكن الضعف في القيادة»، كان يراد من هذه الكلمة أن للمسلمين من موارث الحق والخير ما يكفل لهم استئناف البعث والنهوض والتقدم.

غير أنهم لم يكونوا يجدون من قادتهم الرجال الذين يأخذون بأيديهم إلى ميادين العمل التي ينتفعون فيها بتلك المواريث.

فهل يأخذ «المؤتمر الإسلامي» الآن على عاتقه أن يملأ هذا الفراغ،

وأن يتولّىٰ هذه القيادة لأهل الملة الإسلامية في «مصر» والعالم الإسلامي؟

قد يخطر على البال من مدلول كلمة «المؤتمر» أنه خاص بمهمة ثم ينتهي بانتهائها، وهذا خطأ.

وقد يتبدد هذا الخاطر بإعلان أن «المؤتمر الإسلامي» دائم، وسيكون هو نفسه من مواريثنا للأجيال الآتية، وأنه عامٌّ يهتم بكل ما يهم المسلمين في تربيتهم الخلقية، وتكوينهم الاجتماعي وتثقيفهم القومي والمِلِّـي والعالمي، وسيعمل لبعث تشريعهم الذي كان لهم مدة ثلاثة عشر قرناً إلى أن قضي عليه في أيام الخديو إسماعيل.

وأحب أن أقرر الحقيقة الآتية شرحاً لصلة العروبة بالإسلام:

كما أن محبة «ابن طنطا» أو «ابن أسيوط» لطنطا أو أسيـوط لا تنافي محبته لمصريته لأنها جزء منها وحلقة في داخلها كالحلقات التي تنعقد في بحيرة الماء حول الحصاة عند إلقائها في البحيرة.

كذلك الوطنية المصرية أو العراقية لا تنافي العروبة لأنها جـزء منها وحلقة في داخلها كحلقات الماء حول تلك الحصاة.

والعروبة والقومية الأندونيسية وأمثالهما، لا تنافي أُخُوّة الإسلام وجامعته الشاملة، لأن جامعة الإسلام هي الحلقة التي تلي حلقة الإنسانية وتجمع بين بني الإنسان.

فالجامعة الإسلامية جزء منها تجمع الأمم الإسلامية وأوطانها.

والوطنية المصرية جزء من العروبة تجمع أبناءَ النيل.

وابن «طنطا» أو ابن «أسيوط» يستطيع أن يجمع بين محبته لبلدته ثم وطنه ثم عروبته ثم جامعته الإسلامية، كما يجتمع مع سائر البشر كـل من يرعىٰ قواعد الإنسانية من أبنائها.

وإذا كان من الخير أن يكون المؤتمر دائماً، وسيكون من مواريثنا لأبنائنا الذين يخلفوننا عليه وعلى سائر مواريث الحق والخير المنتقلة إليهم عن

الماضي، فإن في طليعة واجباتنا نحوهم أن نُعِدَّ لهم المدارس الصالحة ليتربوا فيها التربية الإسلامية، وليتثقفوا فيها الثقافة الإسلامية، وأن ننظف لهم كتب التاريخ الإسلامي من الأكاذيب التي أقحمها عليها المغرضون وشوَّهوا بها سيرة المثالين من شموس صدر الإسلام، الذين أشرقت بهم الدنيا وسعدت.

وإن مصر التي صارت إسلامية بعد أن لم تكن إسلامية والتي تتولى اليوم دفة سفينة العروبة بعد أن لم تكن عربية، إنما صارت إسلامية وعربية لأن الذين عرفت بهم الإسلام والعروبة قبل ثلاثة عشر قرناً كانوا مثلاً أعلى للعدل الإسلامي المثالي، وكانوا مثلاً أعلى للأخلاق العربية النبيلة.

فاستقبل المصريون هذا الدين الإسلامي بالبشر والمحبة والرضا.

وتنازلت مصر عن لغتها لتجمل منطقها بمنطق العروبة الذي أحبّت أهله، واقتدت بهم وصارت في طريقهم.

ومن الخير أن يكون من أساس الثقافة الجديدة لأطفال المسلمين تعريفهم بالمسلمين الأولين، الذين عرفت الشعوب هذه الهداية الإسلامية من سيرتهم، ومن عدالتهم، وشهامتهم، ونبيل أخلاقهم.

فكانوا المؤسسين الأولين لمجتمعنا الحاضر، وروّاد الدعوة إلى أخوة الإسلام ورابطة العروبة.

إن المهمة التي سيأخذها «المؤتمر الإسلامي» على عاتقه ـ إذا سار في هذا الطريق إلى الجنة ـ أعظم مهمة اضطلع بها مصلحو الأمم في أممهم.

وهي تضارع عمل الصدر الأول للإسلام عندما قاموا بتعريف الإسلام للأمم.

غير أن مهمتنا نحن هي تعريف الإسلام لأهله حتى يعودوا مسلمين.

ومن شأن جمال الإسلام إذا تحلّى به أهله حقاً أن يكون عملهم به، وسيرتهم القائمة على أخلاقه وسيلة لمعرفة الآخرين به.

ومن عرف شيئاً صار صديقاً له، ومن جهل شيئاً عاداه.

وإن تسعة أعشار عداوة غير المسلمين للإسلام ناشئة في هذه العصور عن فقدان القدوة، وعن تقصير المسلمين في أن تكون معاملاتهم، وأخلاقهم، وتصرفاتهم ممثلة لإسلامهم.

فخيل إلى غير المسلمين أن معاملاتنا وأخلاقنا وتصرفاتنا المخالفة للإسلام هي من الإسلام فكرهوه لذلك»

* * *

آثرنا أن نثبت هذا الأمل لأنه صورة لما يجيش في نفوس كثيرة، تتأذى من حاضر المسلمين، وترغب لهم في مستقبل أفضل.

والمؤتمر الذي نيطت به هذه الأماني لم ينهض - للأسف - بها، ولا بقليل منها.

ولعل الله يهيء للمسلمين قوماً أمثل.

* * *

وَسَائِلُ الدَّعْوَةِ

القُـدْوَة الحَسَـنَة

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان.

وخُلُقه الفاضل هو السحر الذي يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب. أتظنُّ جمالَ الباطن أضعفَ أثراً من وسامة الملامح؟

كلا، إن طبيعة البشر محبة الحُسْن والالتفات إليه.

وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السيرة، وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم، والركون إليهم.

ومن ثَمَّ فإن الداعية الموفَّق الناجح هو الذي يهدي إلى الحق بعمله، وإن لم ينطق بكلمة. لأنه مَثَلٌ حَيٌّ متحرك للمبادىء التي يعتنقها.

وقد شكا الناس في القديم والحديث من دُعاة يحسنون القول ويسيئون الفعل! والواقع أن شكوى الناس من هؤلاء يجب أن تسبقها شكوى الأديان والمذاهب منهم، لأن تناقض فعلهم وقولهم أخطر شغَب يَمَسُّ قضايا الإيمان، ويصيبها في الصميم.

ولا يكفي ــ لكي يكون المرء قدوة ــ أن يتظاهر بالصالحات أو يتجمل للأعين الباحثة، فإن التزوير لا يصلح في ذلك الميدان.

ولا بد أن ينكشف المخبوء على طول المعاملة، وامتداد الزمن، وتمحيص الأحداث. وسرعان ما يبدو معدن النفس على الحقيقة العارية.

ذلك أن النفس المتحركة بروح الإيمان، كالآلة الدائرة بما يعمر خزانها من وقود.

أما النفس المحرومة من هذا الروح فهي كالآلة التي تدفع باليد حيناً ثم لا يلبث أن يغلبها العطل والعطب فتتوقف وتسكن.

والمصيبة الطامة أن بعض المنافقين يحسبون أن تمثيل دور الإيمان لا يحتاج إلا إلى شيء من التكلف والمصانعة، كما أن بعض المتهاونين يحسبون أن لباس التقوى يمكن نسجه بشيء من إدمان الرسوم وإتقان الهمهمة. وهذا ضلال بعيد، فالأمر أخطر مما يظنون.

إن التدين الحقيقي صورة لجوهر النفس بعدما استكانت للّه ونزلت على أمره واصطبغت بالفضائل التي شرعها، وترفعت عن الرذائل التي حَرَّمها، واستقامت على ذلك استقامة تامة.

هذا التديُّن وحده هو الذي تُلْتَمَسُ منه الأُسْوَةُ ويُقْتَبَسُ منه الهُدَىٰ.

ويؤسفني أن أقول: إن هذا الضرب من التدين العالي نادر الآن، وإن أشعة الكمال المنبعثة من وهجه لا تكاد تُرَىٰ.

بل إن نفراً من الناس الذين لا دين لهم أقرب إلى المسلك الصحيح وأجدر بالقوامة على شتى الوظائف من الذين انتسبوا إلى الدين، وحملوا عنوانه دون اصطباغ به وتشرُّبٍ لروحه.

وعندما يُنْكَبُ الدين بأقوام كثيرين على هذا الغرار فالمجال واسع لشيوع الإلحاد، وانتشار المعصية والعدوان..

قال لي صديق: إن فلاناً «الأوروبـي» إذا وُكِلَتْ إليه مهمة خَرَجَتْ من بين يديه متقنة الأداء، ظاهرة الجودة، أما فلان الذي يكثر الصلاة فقلّما يريحني في إحسان واجب.

لقد جزعت لهذه المقابلة بين الشخصين، ولم يسؤني منها أنها باطل ــ إذ هي حق ــ، وإنما ساءني منها أن ذلك «المتدين الكسول» دعاية شنيعة ضد الصلاة.

إنها القدوة الرديئة تعمل عملها ضد المثل الرفيعة والمبادىء الفاضلة.

وقد لاحظت أن الأجنبي ــ في أغلب الأحيان ــ يَرَىٰ خدشاً لكرامته، وطعناً في كيانه أن يصدر العمل عنه ناقصاً، فهو يجوده احتراماً لنفسه، وصيانة لشخصه.

على حين تجد مواطناً ينتمي إلى الدين ــ كما يزعم ــ ثم هو يقوم بالعمل على أسوأ الوجوه ويبسط لسانه بالجدل الطويل في تسويغه وإقناع الآخرين بقبوله!

ولعلنا لم ننس قصة المهندس الذي أشرف على بناء السلطان أبي العلاء ــ وكان أجنبيًّاً ــ فإنه لما رأى عمله لم يصل إلى درجة الكمال التي ينشدها رمى بنفسه من فوق الجسر العالي فَهَوى بين أمواج النيل، وكاد اليمُّ يبتلعه لولا إسعاف المنقذين.

لقد أحس غضاضة من أن يعيش بعدما فشل في إحسان العمل الذي كُلِّفَ به.

وإنما أُثبت هذه القصة لأني أعرف أناساً مثله، وقعوا في شرٍّ من تفريطه، وخرج العمل من بين أيديهم مبتوراً مشوهاً، فلما عُوتبوا شرع كل منهم يتنصل ويعتذر أو يهز كتفيه ملقياً التبعة على غيره.

ولعله بعد ذلك جلس إلى مكتبه يجرع القهوة في كبرياء!!

أيصلح هؤلاء أمثلة للإسلام؟

قل لي باللّه: كيف يَهْوِي سلوك الفرد منا إلى هذا الحد ثم ينتظر أن يحترم الناس الإسلامَ ويقبلوا عليه؟

إن الدعوة إلى الإسلام تكون أولاً بعرض ثماره في الأخلاق والأحوال أعني ثماره في أتباعه المؤمنين به، ويومئذ تُرجَى الإجابة ويرتقب الاهتداء.

وَلْنَعُدْ إلى أسباب انتشار الإسلام أيام السلف الصالحين..

إن «خُلُق الدولة، وصلاح أنظمتها، وكفالتها أكبر حظ من العدالة

والسعادة للأفراد كان الباعث الأعظم على دخول الناس في دين اللّه أفواجاً، وقبولهم عن طيب خاطر الانضواء تحت راية الإسلام، بل غبطتهم لأن دائرة هذا الدين بلغت في الرحابة جداً جعلتهم يأوون إليها وهم وافرون أعزاء.

حتى أيام اضطراب أجهزة الحكم في الدولة الإسلامية، وقصورها عن التحليق مع المثل الرفيعة التي نشدها الإسلام في اختيار الحكام.

إن هذا القصور لم يقدح في مدى الخير الذي يحرزه الناس ـ على اختلاف اللون والمذهب ـ تحت علم الدولة الجديدة!

ذلك أنه أعلى درجةً ألف مرة من الخير الذي رأوه في ظل أكاسرة فارس، وقياصرة الروم.

وحين نتابع أوصاف المسلمين الفاتحين ـ كما شرحها بعض المنصفين من المستشرقين ـ نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظافرة بشيء من الدهشة، ورأت فيهم نماذج خلّابة للفضل والعدل، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها!

أجل، زاحموهم عليها، ونافسوهم فيها، واعتنقوها ليعملوا بها مثل او أجلّ من أصحابها الذين نقلوها، مصداق قول الرسول الكريم «فَرُبَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

* * *

الإعجاب بالإسلام في أحوال الفرد، والإعجاب بالإسلام في أحوال الدولة، هو وحده السبب الفعال في تزاحم الخاصة والعامة على هذا الإسلام وارتضائهم له. والإعجاب لا ينبت في النفس خبط عشواء..

أتظن العقول النضرة تُعجَب بالعقول الخَرِفَة؟

أتظن الأخلاق الرضية تُعجَب بالأخلاق الرديئة؟

أتظن المتقدم في أفكاره ومشاعره يُعجَب بالمتخلف في هذه وتلك؟

كلا، كلا..

إن المسلمين استحقـوا أن يتأسَّى النـاس بهم، وأن ينسجوا على منوالهـم، وأن يقلدوهـم في أقوالهم وأعمالهم، وأن يهجروا لغاتهم الأصليةَ إلى اللغة العربية الوافدة، لأن المسلمين كانوا يمثلون في العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة.

والمُعْجَبُ بك قد يذوب فيك، وذلكم هو ما حدث في «المستعمرات» التابعة من قرون للشرق والغرب، أعني لـ «فارس» و «الروم» يومَ زحفت عليها جيوش الإسلام، وأنساب في جنباتها.

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحداً يؤمن بك عقب انتصار في معركة جدل، أو انتصار في ميدان حرب.

إن المقهور في أحد الميدانين قد يستسلم راضياً أو ساخطاً.

بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص، ولن يشاركك الشعور والفكر أبداً.

ومن ثَمَّ نرى لزاماً علينا التوكيد بأن القدوة وحدها، وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب هما السبيل الممهدة لنشر الدعوة في أوسع نطاق.

* * *

التَّعْلِيمُ وَالتَّذْكِيرُ

الاهتداء إلى الحق نعمة جزيلة، وانشراح الصدر به خير غزير.

وأول ما يجب على أصحاب الحق ــ وقد عرفوه ــ أن يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه، وأن يعرِّفوا الجاهلين به، وأن يجعلوه في الحياة واضحاً كشعاع الشمس، شائعاً كأمواج الهواء.

ذاك ما يفرضه الحق على أصحابه.

ألَّا يجعلوه عليهم حكراً، وألَّا يحرموا من نفعه أحداً، وألاّ يَدَعُوا نفساً تعيش بعيدة عن هداه..

وليس ذلك ــ بداهة ــ عن طريق القسر، بل عن طريق لفت الأنظار وإيضاح الخفيِّ وشرح المبهَم.

فإن فتك الجهل بالناس ذريع، وغلبة الأوهام على أفكارهم تذهب بهم بَدَداً في كل فج، وتخيِّل إليهم أنهم على صواب، والواقع أنهم مُوغِلون في الضلال...

والسر هو الجهل، الجهل بأقسامه كلها، من بسيط، إلى مركب، إلى جهالة الطيش والهوى.

والعالم بحاجة ملحة إلى أن ينشط أهل الإيمان الصحيح لشرح أصوله، وإبداء صفحته، ودحض الشُّبَه المثارة حوله، واستخراج الجهال من الكهوف المطروحين بها لتمتلىء صدورهم بأنفاس الحقيقة الرحبة.

لقد تدبرتُ أفكاراً وسيراً شتى لجمهور من العصاة والأراذل.

فوجدتُ أن الجهل الفاضح ينسج حولهم غلالة قائمة، ويذرهم أشبه بقطعان الدواب في قصور الإدراك، وعوج العمل، وشدة الغفلة.

وانظر ما يقول اللّٰه لنبيه إذ بعثه في العرب الأولين:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1].

هذه صورة مجتمع محبوس وراء جدران معتمة لا يتسرب منها بصيص نور، ومن ثمَّ نرى أصحابه صرعَى الذهول والجمود.

وعلاجهم ـ ولو لينقطع العذر ـ أن تزاح تلك السدود، وتذوب هاتيك القيود، ويسلط على عقول هؤلاء وقلوبهم فيض من الوحي ينقلهم من حال إلى حال..

إن حاجة البشر إلى العلم الكثير كحاجة الأرض المجدبة إلى الغيث الهاطل.

ولا بد أن يسخر الدعاة جميع وسائل التعليم والإيقاظ، كي ينصفوا الحق، ويوصلوه إلى الخلق..

وأمر آخر: أن العالِمَ نفسه قد ينسَى، وتشغله فتن العيش وصوارف اللغو عن القيام بما ينبغي منه، وهنا يجيء دور التذكير في إبعاد سِنَة الغفلة عنه.

وكم من مبتعد عن الجادة تكفيه في العودة إليها همسة ناصح أو صيحة زاجر، فإذا هو راجع إلى رشاده مستقيم على الصراط..

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وعمل الواعظين ـ في أغلب الأحيان ـ هو ذلك التذكير النافع.

---

(١) سورة يس: آيات ٦ ـ ٩.

(٢) سورة الذاريات: آية ٥٥.

وهو تذكير لا يستغني عنه الناس يوماً.

إذ طالما يعصف النسيان بأفكارهم، ويبعثهم على السير في الحياة دون وَعْيٍ أو هدف. أليست تلك طبيعة البشر؟

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[1].

وإسناد اللَّهْوِ إلى القلوب يومىء إلى تغلغل الصوارف عن الجد، واستحواذها على صميم الإنسان.. والنسيان بهذه الصفة مساوٍ للجهل، فإن نتائج «فقدان الذاكرة» هي ــ نفسها ــ نتائج عدم العلم..

ولذلك يقول اللَّه جل شأنه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[2].

وقد تتساءل: كيف ينسى المرء نفسه لأنه نسي ربه؟

أو تقول: إنما نسي ربه لأنه ذكر نفسه!!.

والجواب أن المنافقين المندفعين وراء شهواتهم، المستغرقين في إشباع مطامعهم ورغائبهم لا يذكرون شيئاً من مصالحهم الحقيقية، ولا يستفتحون طريقاً يصون لهم معاشاً أو معاداً.

إنهم يرتعون في الدنايا رَتْعَ الدوابّ في الربيع حتى تهلك بَشَماً واعتلالاً.

والشخص الذي تصرعه أهواؤه لا يدري شيئاً عن حاضره ولا مستقبله، ولذلك يُعتَبر ناسياً نفسَه. وإنما جاء نسيانه لنفسه من نسيانه لربه.

ولو ذكر حقوق اللَّه وانتصب لأدائها لآتاه اللَّه رشده، وبصّره بما ينفعه ويرفعه، ومسّكه بما يضمن العافية له في دينه ودنياه.

التذكير المستمر ضرورة إذن للناس جميعاً، ما بقوا بشراً مطبوعين على

---

(١) سورة الأنبياء: آيات ١ ــ ٣.

(٢) سورة الحشر: آية ١٩.

النسيان، وما اختلف عليهم الليل والنهار، ذلك أن اختلاف النهار والليل يُنسِي كما قال الشاعر:

وتزداد الحاجة إلى التذكير في بيئة عن بيئة.

فالبيئة الساذجة الخشنة ليست خطراً على العفة كالبيئـة المشحونـة بالمغريات المستثيرة للكوامن.

ومن ثَمَّ فنحن نرىٰ العصر الحاضر يوجب على حَمَلة الإيمان وحُرّاسه أضعافاً مضاعفة من اليقظة والحماسة لحماية الدين وأخذ الناس به، وردِّهم إليه، كلما طاش لُبٌّ أو أُفلت قياد.

الدعوة إلى الحق واجبة في كل حين، وهي في هذه الأيام أوجب.

والدفاع عن الحياة مطلوب، وهو عند تحرش الذئاب، وإحاطة الأخطار أحفز للحس وأدعَى للاستعداد والانقضاض..

والسبيل إلى اللّه مهددة الآن بجحافل من الملحدين والفساق تجر العامة جَرّاً إلى الجريمة وتصرفهم صَرْفاً عن العبادة، وتزين لهم بألف وسيلة، أن يهجروا الإيمان والعمل الصالح.

وتلك حال تنفي النوم، وتَقُضّ المضجع..

وهي حال تذكرنا بالخصائص الأصيلة في هذا الدين العظيم، دين الإسلام. إنه دين حريص على تجلية الحق ومقاومة الباطل..

يَجْأَرُ بالدعوة ويصرخ بتوحيد اللّه، ويهيب بالناس أن يقبلوا على الصلاة والفلاح بكرة وأصيلاً.

دين، ما إن يرى المنكر حتى يشتبك معه، وينفر منه، ويطوي الأفئدة على كرهه، إنه دين لا يهادن الضلال لحظة.

إن استطاع تغييره فعل، وإلا ترك في القلوب نية تغييره عندما تسنح فرصة!

لقد زوّد اللّه هذا الدين بأسباب البقاء التي أعوزت ديانات سابقة

فتلاشَتْ تحت ضغط الوثنيات الجاهلة حيناً، أو تحت ضغط الجبروت الحاكم حيناً آخر..

مصارع الديانات السماوية القديمة ـ لا مصارع بعض النبيين ـ هي التي جعلت العناية العليا تزوده بكتاب «لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان» بعد أن بادت كتب وطَمَس التحريف والإفك معالمها، وبعد أن لانت أحكامها وتعاليمها للوضاعين وعُبَّاد الهوىٰ.

وهذه التجارب القديمة نفسها هي التي جعلت الإسلام يغالي بقاعدة الأمر والنهي.

فليس الصلاح أن تعبد اللَّه وتحيا مسالماً لمجتمع عاهر.

هذه عبادة مزيفة، لا تنسب صاحبها إلى تقوى.

العبادة الصحيحة، هي التي تدفع صاحبها إلى إنكار المنكر على درجة مَّا، جهد الطاقة.

والإسلام دين يتحرك بالحق، ولا يسكن به، إن الحركة سرُّ الحياة، والركود طريق الموت.

ومن هنا وُصِفَتْ أُمَّةُ الإسلام بالخاصة الأولى في دينها، وهي الغيرة على الحق، وطبع الحياة الخاصة والعامة به.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

ومهما ساءَ الأمر، وأظلمت الدنيا «فلا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه».

* * *

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

الخَطابَة

ودعماً للحق في أنحاء الجماعة جعل اللّه الخطابة من شعائر الإسلام.

١ ـ ففي كل أسبوع يحتشد المسلمون في المسجد الجامع ليسمعوا داعية إلى اللّه يذكِّر به ويعلم دينه.

٢ ـ وفي كل عيد يجتمع الرجال والنساء في الميادين الرحبة أو في المصليات المحيطة بالقرية ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد.

٣ ـ وفي كل موسم جامع للحجيج تلتقي وفود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف حول «عرفة» لتستمع إلى خطاب خطير يتناول شؤونها ويشرح قضاياها ومبادئها.

وبديهي أن الخطابة في الإسلام، غير الخطابة التي يُرى شبحها الآن حائلاً مائلاً.

إن الصلة بين خُطَب اليوم وحقيقة الدين كالصلة بين «سيف المنبر» وأسلحة القتال في البر والبحر والجو.

الخطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويَثِبُ من فكرٍ إلى فكر.

ويتنقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر..

وذاك هو السر في أن نبِيَّ الإسلام كان يخطب كل أسبوع وكل عيد، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب في وفود الحجيج عند جبل الرحمة.

وتنفجر ينابيع الخطابة الصحيحة من معاني القرآن وأغراضه.

فإن القرآن هو الكتاب الهادي للأحياء، ذو القدرة الفَذَّة على استثارة أفكارهم واستجاشة مشاعرهم، والسمو بهم إلى ما يشاء.

فلا جرم كانت الخطابة المستمدة منه وقود نهضة، وضياء أمة.

في كل بضعة أيام يقف رجلٌ واعٍ حصيفٌ ليعرض قبساً من آياته، أو يسير في هدى هذه الآيات إلى إحدى الغايات التي جلّاها القرآن الكريم.

إن الإسلام دين حَيٌّ.

ومن دلائل حياته وامتداده، أن رسوله وخلفاء رسوله كانوا ــ باستمرار ــ يصلون أمداد الوحي بين الناس، فما يضعف صوت السماء، وما ينقطع، مع هدير الخطيب الذي يتحدث باسم اللَّه، بين عباد اللَّه.

وصوت السماء هنا ليس نداءً إلى عزلة، أو أمراً بانسحاب، كلا كلا.

إنه صوغ الحياة نفسها وفق إرادة اللَّه، وقيادة الأحياء إلى الحق الذي تحاول الشياطين اختطافهم دونه.

ولذلك لا تسمَّى خطابة إسلامية هذه الكلمات الميتة التي يسمعها الناس في بعض المساجد ثم يخرجون، وهم لا يدرون ماذا قال خطيبهم.

لأنه لم يصل أحداً منهم بروح القرآن، ولا أنعش قلباً بمعانيه، ولا علَّقَ بصراً بأغراضه.

القرآن كتاب طَوَّافٌ في الكون، وَصَّافٌ لآفاقه، متغلغل في شؤون الحياة يتناولها بالسرد والحكم.

وبشرح وصاياه للفرد والمجتمع والدولة في شمول وهيمنة، ويستشفُّ خبايا الأنفس والعقول، فلا يَدَعُ ريبة ولا شبهة إلا أزاحها.

يستحيل أن يفرّط في قضية تعني الناس من معاشهم أو معادهم.

إن لم يتناول الجزئيات كلها بالفتوى الحاسمة فإن أسلوبه في خلق

الضمير الزاكي والفكر الراقي يغني ويكفي ويهدي للتي هي أقوم.

والخطابة الإسلامية حقاً، هي التي تأخذ من القرآن وتسير معه.

كان رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم أحياناً يخطب بسورة «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»، وكان عمر أحياناً يخطب بسورة النحل:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾[1].

وإذا كانت لغة التخاطب قديماً قلما تتفاوت مع لغة الأداء فإن فهم العامة للقرآن لا يبعد ولا يخفَى.

أما الآن فربما لا نخطب بالقرآن نفسه.

بيد أن المعاني الواسعة المحيطة المتحدثة عن السلم والحرب، والغنى والفقر، والإنسان والجماعة، والدنيا والآخرة، والجسم والروح، المعاني المتحدثة إلى الإنسان وحده، أو هو في عمله، أو مع أهله، المفصلة لضروب الأحكام في شتى الشؤون..

هذه المعاني هي الينبوع الذي تستمد منه الخطابة الإسلامية.

والمعنى الرائع لا يكفي، فلا بد من كساء حسن له.

والقرآن معجزة أدبية أَخْرَسَتْ المتحَدِّين على كَرِّ العصور.

فكيف ــ باللَّه ــ يتعرض لخطابة الناس باسم الإسلام رجل، ضعيف البصر بمعاني الكتاب الكريم، أو بصير ببعضها ولكنه محروم من نعمة الأدب وحلاوة الأداء؟!

الخطيب الذي يصلح للتحدث عن الإسلام، رجل خبير بالحياة وعللها، مكين في الوحي الأعلى.

يأخذ منه ــ بلباقة ــ ما يشفي علل الناس ويصلح بالهم.

ما يتألف به نافرهم ويسكِّن ثائرهم.

---

(١) سورة النحل: آية ١.

ما يدحض به نزعات الإلحاد ويحبط كيد الشيطان.

ما ترق به القلوب القاسية وتنفرج به الأسارير المنقبضة.

ما يُشْعر الناس بعد الانصراف عنه أنهم فقراء إلى اللّه، محتاجون إلى هداياته، لا بصيرة لهم إلا منه، ولا ملجأ إلا إليه.

وموضوع الخطبة الإسلامية، هو الحياة الأولى والآخرة جميعاً.

لأن ذلك هو المجال الذي يعمل فيه الإسلام، وتتطرق إليه الآيات.

وأذكر أني ألّفت كتابيَّ «خُلُق المسلم» و«عقيدة المسلم» من الخطب التي ألقيتها على المصلين أيام الجمع.

بل إن موضوعات كثيرة من كتابيّ «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والاستبداد السياسي» كانت ضمن حديثي للمصلين في أثناء إلقاء هذه الخطب الجامعة.

ولم لا؟ إن نبي الإسلام جعل حقوق الإنسان موضوع خطبته في حجة الوداع، وجعل إنهاء المعاهدات التي عبث بها المشركون كلمة الإسلام في الموسم الذي سبقها.

وبعث عليّاً يتلو على الناس سورة «براءة» التي تحمل في طياتها تلك النذر. المهم ــ مهما اتسع الموضوع ــ أن تكون كلمة اللّه فيه، وأن يكون اليقين المحض باعثه، ووجه اللّه الكريم غايته والسير في موكب الإسلام سمته وقوته:

وقد تتسع الدروس والمحاضرات لما تضيق عنه الخطب المنوطة بأسبابها والمربوطة بأوقاتها.

فإن الخطبة تقتضي عرضاً سريعاً محدوداً لحقائق مفروض أن تكون فوق الجدل، أما في أثناء الدروس والمحاضرات، فإنه قد يقبل الاسترسال والاستطراد، والأخذ والرد.

وقد تحتاج الموضوعات المطروقة لضروب شَتَّى من الشرح والتمثيل.

ولمجالس العلم مكانة كبيرة في الإسلام، إذ هي المجال الطبيعي للتفهم والتفهيم، ولتلقي الحقائق في أناة وبحث.

ويمكن تنظيم تلك المجالس وفق حاجات الجماعة، وتبعاً لما تتناوله من أنواع العلوم وفنون المعرفة.

ولم تكن لدروس الوعظ مواعيد مرسومة على عهد رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم.

بل كان هَدْيُه تخوُّلَ الناس بالموعظة، مخافة أن يسأموا، فهو يرمق أحوالهم ثم يرسل الحكمة حيث يتطلبها الوقت.

ولعل ذلك كان اكتفاء بالخطب المقررة في أيام الجمع وغيرها.

وسنتكلم عن هذا اللون من الثقافة ــ أعني الدروس الرتيبة ــ عند الحديث عن القُصَّاص.

على أنه يهمنا هنا الإفاضة في أن الحديث الديني كثيراً ما يَتَّسِم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

ولما كان الأمر موضع خفاء عند المشتغلين بالتربية الحديثة رأينا أن نلقي ضوءاً على هذه السمة البادية لتعرف على حقيقتها.

* * *

التَّرغيبُ

الحث على فعل الخير، وأداء الطاعات، والاستقامة على أمر اللَّه، جاء في الكتاب والسنة مقروناً ببشريات كثيرة، وحكم مذكورة.

والدعاة عندما يُغرون العامة والخاصة باتباع الدين لا يسأمون من تكرار هذه الجوائز المضروبة والعلل الباعثة.

ونستطيع أن نذكر أمثلة لهذا الأسلوب من النصح الشائع في الإسلام.

١ ــ قد تُطلب الطاعة من الإنسان، لأن أمر اللَّه يجب أن يُلَبَّى.

فاللَّه ولي الأمر، وولي النعمة، الخالق من عدم، المطعم من جوع، الكاسي من عُرْي، الساتر من فَضْح.

فحقه إذا أمر، أن نسارع إلى إجابته، وأن يرانا عند إرادته.

مَنْ يُطاع إذا جُحِدَ أمرُهُ، وأُهمِلَ شرعُه؟

كيف نخلع طاعته من أعناقنا وهو أولى من يُهْرَع إلى ساحته ومن يقال له: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا؟

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[1].

وتعليل الطاعات المطلوبة بهذه العلة يحتوي على قدر من الحق لا شك فيه.

---

(١) سورة الشعراء: آيات ٧٥ ــ ٨٢.

٢ ــ وقد نطلب من الناس التحلِّي بمكارم الأخلاق، والتزام العدالة في الأحكام والارتقاء بالسلوك العام إلى مستوى يليق بأمجاد الإنسان، خليفة اللَّه في أرضه، ونغريهم على ذلك، بأن هذه أشياء حسنة أمرنا اللَّه بها، وهو لا يأمر إلا بالحسن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ . . .﴾[1].

أجل نِعْمَ ما يعظنا اللَّه به.

وفي بيان أسرار ذلك الحسن الممدوح المنوَّه به يمكن أن نوضح طرفاً من معنى الخير في الصدق والعفة، أو في الصَّلاة والصوم، كاشفين حقيقة الوصايا الإلهية، وأنها لا يمكن أن تنطوي أبداً على شرٍّ مرذول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾[2].

والترغيب في الخير بهذه العلة يحتوي على قدر من الحق لا ريب فيه.

٣ ــ وقد نحض الناس على تقوى اللَّه والمبادرة إلى إقامة حقوقه ورعاية حدوده، وتَحَرِّي مرضاته في كل ما طلب. لماذا؟

لأن الضمير البشري الزكي لا يمكن أن يتألق بين حنايا الإنسان ويخلص به بين متاهات الحياة، ودسائس الأهواء، وفتن الشياطين، إلا إذا كان موصولاً باللَّه يستلهمه الرشد، ويستمد منه العون، ويستدرُّه التوفيق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ . . .﴾[3].

(١) سورة النساء: آية ٥٨.
(٢) سورة الأعراف: آيتي ٢٨ ــ ٢٩.
(٣) سورة الحديد: آية ٢٨.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ. . . ﴾[1].

والفرقان المجعول، هو البصيرة التي يستهدي بها المؤمن، فلا يخلط بين حق وباطل. وهي النور الذي يمشي به فلا يَزِلُّ ولا يحار.

وكل إنسان في الدنيا بحاجة إلى هذه البصيرة الهادية لتنقذه من المشكلات وتنجو به في الملمات.

والترغيب في تقوى اللَّه ـ لهذه العلة ـ يتضمن جزءاً من الحق لا شك فيه.

٤ ـ وقد نُرَغِّبُ في الإيمان والعمل الصالح، لأنهما سبيل العيش الرغد وضمان الحياة السعيدة.

والمرء بطبيعته يحب النفع العاجل، ويؤثر أن يجني ثمار استقامته وفرةً وأمناً وستراً.

ونحن نرى الإطماع بسعة العيش ويسر الرزق يتنقل في شتى الرسالات.

ألا ترى نوحاً يقول لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[2].

ثم يجيء على لسان رسولنا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم:

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾[3].

ثم هو يعِد الجماعة المؤمنة بالنصر والتمكين، وانقضاء أيام الفزع والرهبة، وطلوع فجر للسيادة في الأرض، والطمأنينة عليها.

---

(١) سورة الأنفال: آية ٢٩.

(٢) سورة نوح: آيات ١٠ ـ ١٢.

(٣) سورة هود: آية ٣.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا . ﴾(١).

وهذه العِدَةُ الجميلة من أسباب البقاء على الإيمان وتحمُّل مشاق الرسالة.

والترغيب في الخير بهذا الأسلوب يتضمن قدراً من الحق كذلك لا مرية فيه.

٥ ـ وقد ندفع الناس إلى الرضا بمكاره الحق، واحتمال تكاليف الإيمان بما قد ينتظرهم هناك.. في الدار الآخرة من نعيم مقيم ومنزل كريم.

ألا ترى الفارس المسلم «جعفر الطيار» يخوض غمرات الموت ويواجه حَرَّ الكفاح ولفحه المظمىء وهو يرتجز:

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا...!!

إن الدنيا منقضية لا محالة، إذْ مَنِ الذي خلد فيها قبلنا؟ فكيف يمهد الإنسان لنفسه حياة بعدها؟

إن الألوان الزاهية التي اصطبغت بها أوصاف الجنة تغري بالزاد المقرِّب إليها، وتجعل العاقل يستكثر منه ويدّخر.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾(١).

وقد اطّرد في القرآن والسنة نعت الجنة بما يجعلها أُمْنِيَّةَ المتقين، ومستقر الركب المرتحل بعد سفر طويل.

والترغيب في الصالحات بهذا الأسلوب مستقيم مع الحق، ولا شيء فيه..

* * *

(١) سورة النور: آية ٥٥.

(٢) سورة الإنسان: آيات ٢٠ ـ ٢٢.

التَّرْهِيبُ

وكما تُقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة.

فتكف عن الرذيلة وَجَلاً مما يعقبها من منغصات، أو تندفع إلى الفضيلة خوفاً من مغبة التراخي والتفريط.

١ ـ فالذي يشتهي لذة محرمة قد نقمع سورتها في نفسه بذكر اللَّه ذي الجلال، والذي يستهين بالحقوق ويغتر بقوته فيجتاحها دون مبالاة، قد نخوفه بذي الجبروت الذي إذا سخط عليه خسف به. واللَّه سبحانه وتعالى قوي متين، وعزيز ذو انتقام، وديَّان لا يموت..

والتخويف به حق وأثر الخوف بعيد المدىٰ، إنه في الدنيا يصنع الكثير.

فالطالب الذي يخشى السقوط يحصّل علومه.

والتاجر الذي يخاف الإفلاس يضاعف نشاطه.

والموظف الذي يكره التخلُّف يثابر في عمله.

ولذلك قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل الجنة.

وتركُ المعاصي تهيُّباً للَّه واتقاء سخطه دِينٌ!

ومن حق اللَّه أن يُهاب ويُخشى، وفي حِكَمِ الصالحين:

«لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عصيت».

وقال علـي كرم اللَّه وجهه: «إذا استعظمتَ الذنب فقد عظَّمْتَ حق اللَّه، وإذا استصغرتَه فقد صغَّرتَ حق اللَّه. وما من ذنب استعظمته إلا صَغُرَ

عند اللَّه، وما من ذنب استصغرته إلا عَظُمَ عند اللَّه..».

والخوف الذي يتحدث الشارع عنه ليس شعور قلق تهتز به النفس ويذهب فيه اتزانها، ويكوّن ما يسمى الآن عقدة.. كلا، إنه إحساس فطريٌّ يؤدي نتائجها في سهولة.

فالنظيف ــ مثلاً ــ يتقي الأقذار ويخاف دنسها ويحتاط أن يعلق ببدنه أو ثوبه شيء منها. وهذا الخوف كمال نفسي، وليس مرضاً ولا شبه مرض..

٢ ــ والترهيب من الآثام قد يعمد إلى إبراز ما فيها من قذارة لا تليق بالإنسان العالي الشأن.

فالإسلام يسمي المعاصي قاذورات، وينأىٰ بالفطرة السليمة أن تتدلّى إليها، فضلاً عن تألُّف مواطنها..

والحقيقة أن المتأمل في أحوال المجرمين يرىٰ مَسْخاً غريباً في أنفسهم، حتى لَكَأَنَّهُمْ يتحولون إلى أنواع من السباع والدواب، وإن ظلُّوا في إهاب البشر.

ولا عجب، فالمرء الذي يمرن على الرذيلة ويستمرئها يصل إلى دَرْكٍ من السوء لا أمل بعده في سلامة.

وهذا معنى قول الحسن: «إن بين العبد وبين اللَّه حدّاً من المعاصي معلوماً، إذا بلغه العبد طبع اللَّه على قلبه فلم يوفّق بعدها إلى خير».

وهذا هو المسخ الذي وقع مثله لبني إسرائيل لما عَتَوْا عن أمر اللَّه.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار..

والمغالاة بكرامة الإنسان، وإفهامه أن المعاصي لا تليق بمنزلته هي التي أوحت إلى «ابن القيم» أن يقول:

فحيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

إن سوط الإرهاب تحوّل هنا إلى صوت عذب وحداء رقيق والمعنى واحد.

ولعل من ذلك قول عمر: نِعْمَ العبدُ صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه..!!

والكشف عما في الرذيلة من قبح، شائع في الكتاب والسنّة.

انظر كيف نصح اللّه أولياء اليتامىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[1].

وانظر إلى نصح رسول اللّه للرجل الذي يحب الزنا كيف قال له: أتحب أن يكون لكذا وكذا؟ من محارمه.

إن هذا النصح يبين خاصة من خواص البشر، تحدث عنها علماء الأخلاق، وهي أن الشذوذ لا يمكن أن يتحول بين الناس قانوناً عامّاً.

٣ ــ وقد نخوِّف من الذنوب ومواقعتها، ببيان خطرها على الإيمان نفسه.

فالمعاصي بريد الكفر، واقترافها ــ دون حذر ــ فجور يدل على موت القلب. وفي الحديث: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا.. فطار».

ذلك أن الإيمان هو الصانع الأوحد للضمير الذي يوثق به.

فإن مراقبة اللّه جل شأنه أساس مكين في تَوَقِّي الشرور والتحرُّز من الدنايا.

ولِأمرٍ مَّا أقسم اللّه بالنفس اللوّامة.

والنفس اللّوامة هي التي تترفّع عن الإثم، وتنفر من مقارفته ومن مؤالفته، وتدفع صاحبها أبداً إلى حال أزكىٰ ودرجة أرقىٰ.

كأنها لا ترضى بما هي فيه حتى تنتقل إلى مرحلة أطيب.

فإذا بلغَتْها تَكَشَّف لها ما هو أعلى فتنشده، وهكذا دوالَيك حتى تلقى اللّه...

---

(١) سورة النساء: آية ٩.

ولأمرٍ مًّا طُلبتْ منا التوبة النصوح.

والتوبة النصوح هي التي يتولد منها إحساس يَقِظٌ، كأنه ديدبان حارس، كلما دلف الشيطان لِيُزِلَّ الإنسانَ إلى معصية، نبه إلى الخطر، وحمى من السوء.

والنفس اللوامة والتوبة النصوح: تسميتان تشيران إلى ذلكم الضمير الديني الوازع عن الشرور، الباعث على الطاعات.

٤ ـ وقد يكون الإرهاب عن المعصية ببيان شؤمها في العاجلة وضررها الذريع في جسم الإنسان وأهله وولده ومكانته.

وبذلك ينزجر الإنسان عن مواقعتها خشية ما يصيبه من بلائها، كأنه طائر أبصر الحَبَّ في الفخ فعلم أن حتفه فيه لو وقع عليه، فهو يتركه نجاةً بنفسه، وطلباً للسلامة. والواقع أن المعاصي مفتاح لمصائب فادحة وكرب جسام..

والرَّتْعُ فيها يجر الويلات على الأفراد والجماعات.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾(١).

ولولا أن اللّه يهب الخلائق فُسْحَةً ليستفيقوا ويُقلِعُوا لكان المَحْقُ هو الجزاءَ السريعَ لمخازيهم. وتلك رحمة من اللّه، فهل يستغلها العصاة؟

﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴾(٢).

وهذا التأخير لا يعني إرجاء العذاب إلى يوم القيامة.

فإن لكل سيرة رديئة أجلاً موقوتاً تستحق عنده العقوبة.

ثم تنزل بالفرد أو الجماعة، في هذه الدنيا، قبل الآخرة.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى: آية ٢٠. (٢) سورة فاطر: آية ٤٥. (٣) سورة السجدة: آية ٢١.

وقد انتشرت في الكتاب والسنة النُّذُرُ بتلك العقوبات العاجلة.

روى البيهقي عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال:

«يا معشر المهاجرين، خصال خمس، إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ باللَّه أن تدركوهن:

١ ــ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم.

٢ ــ ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أُخِذُوا بالسنين وشدة المؤنة وَجَوْرِ السلطان.

٣ ــ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطَروا.

٤ ــ ولا نقضوا عهد اللَّه وعهد رسوله إلا سُلِّطَ عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم.

٥ ــ وما لم تحكم أئمتهم بكتاب اللَّه إلا جعل بأسهم بينهم...».

وفي الحديث «خمس تعجل عقوبتهن، البغي، والغدر، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، ومعروف لا يشكر».

وفي القرآن الكريم بيان لعقوبات نزلت بأمم تمردت على اللَّه وجارت عن الطريق، فسلبت النعمة التي طالما مرحت فيها، وحلَّ بها ما لم تكن تتوقع:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾(١).

---

(١) سورة سبأ: آيات ١٥ ــ ١٧.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(١).

على أن عقوبات الآحاد والأمم تخضع لسنن عليا، وتضبطها آماد ليس إلا اللَّه يعلم موعدها.

وقد كان الأنبياء من «نوح» إلى «محمد» يَوْجَلُون من تحديد هذا الموعد. ويجيبون المستهزئين والمستعجلين بأن ذلك ليس إليهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(٢).

ويُجري اللَّه على لسان نبيه محمد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم هذا القول:

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾(٣).

وقد نرى أفراداً وأمماً تُستدرج إلى مصيرها الفاجع بكثرة النعم ــ على ما فيهم من معاص ــ وفي هذا يقول اللَّه عز وجل:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾(٤).

ويقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ. . .﴾(٥).

---

(١) سورة النحل: آية ١١٢.
(٢) سورة هود: آيتي ٣٢ ــ ٣٣.
(٣) سورة الأنعام: آية ٥٧.
(٤) سورة التوبة: آية ٨٥.
(٥) سورة آل عمران: آيتي ١٩٦ ــ ١٩٧.

وقد نرى آحاداً من الناس يرتكبون الذنب أيسر مما يصنع أولئك الفجرة، فيعاقبهم اللَّه بشيء من الحرمان كما جاء في الحديث: «إن الرجل ليُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه».

وذلك منه سبحانه تأديب لمن يريد تقويمهم في الدنيا ليلقوه في الآخرة مُطَهَّرين.

٥ ــ وقد نحض الناس على أنواع الخير، ونحجزهم عن ضروب الشر، بذكر الآخرة وما في جهنم من عذاب شديد، ومهانة بالغة..

قال اللَّه تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[1]. فخوّف من الكفر بعذاب يوم القيامة.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ..﴾[2].

وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة».

وفي الحديث أيضاً: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها؛ فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض».

والتخويف بالنار، ووصف صنوف العذاب المعدة بها يستغرق جزءاً كبيراً من الكتاب والسنة.

وما دامت النار حقاً، وما دامت معدة للسَّفَلة يقيناً، فَلِمَ يكون التخويف بها عيباً؟

* * *

---

(١) سورة المزمل: آيتي ١٧ ــ ١٨.

(٢) سورة الإنسان: آيات ٨ ــ ١١.

رَأيُ التّربيةِ المدنيّة

للتربية الحديثة رأي سيء في الترغيب والترهيب.

ومذهبها في توجيه الصغار والكبار يقوم على شرح الفضائل والرذائل وما فيهما من خيرٍ مُجَرَّد وشرٍّ مُجَرَّد. وقَلَّما تُلَوِّح بأجزية على الأعمال، إلا أن تكون أجزية معنوية، أو مادية معجلة في هذه الحياة.

ونحن نستعرض البواعث على هذا المنحى، لنُقِرَّ منها ما هو حق، وننسخ منها ما هو باطل.

فإذا كان المرادُ إفهامَ الناسِ طبائعَ الحُسْن والقُبْحِ في الأعمال حتىٰ يكون الإقبالُ عليها أو النفور منها صادراً عن وَعْيٍ دقيق، فذاك شيء لا بأس منه. وهو ـ كما رأيت ـ بعض دوافع الترغيب والترهيب عندنا.

ويسرنا أن يزداد الطلاب والمتعلمون فِقْهاً فيما يقترن بالعبادات والأخلاق والمعاملات من خير ونفع، وما تنطوي عليه من حق وعدل.

على أن هذا لا يقلل من جدارة الحقائق الأخرىٰ بالعرض والتبيان، وقد شرحناها بإيجاز وصدق.

وعلى المربِّين سوقها جميعاً إذا ارتأوا، أو تخيُّر المناسب منها للحال التي يعالجون، فإن الكلمة الرقيقة قد تُجدي مع قوم ولا يُجدي غيرُها معهم.

على حين لا تصلح إلا العَصَا لآخرين؛ وهذه الوسيلة لا تغضُّ من تلك. بيد أننا نحارب أشد المحاربة، كل لون من ألوان التربية الذي يقوم على التهوين من الألوهية، وعلى قطع صلة العمل الإنساني بها.

كما نحارب هذا الإهمال المتعمَّد السمج لحساب الآخرة وثوابها وعقابها.

إن بعض الناس يكاد يجعل ارتباط الصالحات بالجنة عملاً شائناً، وارتباط السيئات بالنار منزلة منحطة.

وربما يحكون في ذلك بعض أشعار للصوفية من رجال ونساء. . .!!!

وهذا جحود للدين حيناً، وتخليط في أحكامه حيناً آخر.

لماذا يكون فعل الخير طلباً للجنة ــ مثلاً ــ درجة صغيرة؟

أو ترك الشر ــ مثلاً ــ خوفاً من النار مكانة تافهة؟

إن الذي يتجاوز العاجلة ناشداً ما عند اللَّه، ومدخراً لغده خيراً يفعله، أو حرماناً يصيبه، ليس رجلاً مغموصاً، فمن يكون الرجال الكبار إذن؟

قد تقول: الذي يفعل الخير للخير، ويترك الشر للشر.

والجواب: هل هناك إنسانية تتخطَّى قوانين اللذة والألم؟

أعني هل هناك جسد يُخرِسُ منطقَ البطن والفرج، فلا يحس جوعاً ولا اشتهاء، ولا يميز بين خشن ولين، ووسيم ودميم؟

وإذا وجدت هذه الإنسانية في الوهم، فهل هي معترفة باللَّه ومحتاجة إليه، أم لا؟

إن المؤمن يؤدي العمل للَّه وحده، ثم يرتقب مع مرضاته جل شأنه أن يلقَى لديه الرضا والنعمة، وأن يُصَان من العَنَت والأذىٰ.

وهذا الطمع في فضل اللَّه لا ينقص قدره، وهذا الوجل من عقابه لا ينزل به.

كيف؟ والقرآن الكريم يقول لرسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم:

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

المشكلة في التربية الحديثة، ليست الطريقة التي تتبعها في تكوين النشء. إنما المشكلة أنها نبتت في بيئات تحقر الدين، وتنكر البعث، وذلك سر تجهمها لأسباب الرغبة والرهبة على جدواها في إشاعة الفضائل، وإضاعة الرذائل.. وليس الإسلام بدعاً في ذلك المنهج.

فإن الديانات كلها قامت على معرفة اللّه، وضرورة طاعته، وعلى الاستعداد لليوم الآخر، وضرورة التحرز من عذابه وإحراز خيره وثوابه.

وهاك هذا الحديثَ الجامعَ عن قِدَم الترغيب والترهيب في دنيا الناس:

عن الحارث الأشعري رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: إن اللّه تبارك وتعالى أمر يحيىٰ بن زكرياء عليهما السلام بخمس كلمات، أن يعمل بها وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كأنه كاد أن يُبطىء بها، فقال له عيسى عليه السلام:

إن اللّه أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم بها، وإما أن آمرهم أنا بها.

فقال يحيىٰ عليه السلام: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعَذَّب.

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد بهم وقعدوا على الشُّرَف، فقال: إن اللّه أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن آمركم أن تعملوا بهن:

١ ــ أولاهن أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً.

فإن مَثَل من أشرك باللّه، كمثل رجلٍ اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق وقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده. فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك؟

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥.

٢ ــ وإن اللّٰه تعالى أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن اللّٰه ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

٣ ــ وأمركم بالصيام: فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك، وإن ريح الصائم أطيب عند اللّٰه من ريح المسك.

٤ ــ وأمركم بالصدقة: فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم.

٥ ــ وأمركم أن تذكروا اللّٰه: فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتىٰ على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللّٰه تعالى.

وقال صلَّى اللّٰه عليه وسلَّم: وأنا آمركم بخمس، اللّٰه تعالى أمرني بهن:

السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة.

فإن من فارق الجماعة قِيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو في جهنم.

فقال رجل: وإن صام وصلَّى يا رسول اللّٰه؟ قال: وإن صام وصلَّىٰ فادعوا بدعوى اللّٰه الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عبادَ اللّٰه تعالى. أخرجه الترمذي وصححه.

* * *

إن التخويف بالعقوبات البدنية، والتلويح بالمكافآت المادية: أمران لا بأس بهما في مجال التربية، بل إن انتظار الثمرات المرضية من ورائهما تفكير رشيد، ونهج سديد.

صحيح أن التعويل على الأجزية المادية وحدها هبوط بقيمة الإنسان، وتحقير لعقله وقلبه، بيد أن الدين لم يفعل ذلك ولا جنح إليه.

إن الإسلام أيقظ العقل الغافي أولاً، وتوجَّه إليه بالخطاب المبين، وحرك القلب الإنساني، وعلقه بالسماء، ولفته إلى ما يجمل به من شكر للّه، وقيام بحقه.

والزعم بأن المرء يُترَك وشأنَه إذا لم يستجب لحادي العقل والضمير زعم باطل، فمن لم يزجره عن إيذائك الكلم الطيب، لا حرج عليك إذا قابلته بالعصا. وكما قيل:

من الْحِلمِ أن تستعمل الجهلَ دونه إذا اتسعتْ في الحِلم طُرْقُ المظالمِ

ومن أصمَّ أذنيه لصوت العفاف، وقرر أن يسترسل مع نزعات العُهْر، لم يبق بدٌّ من ترويض الحيوان النابح في دمه بالجَلْد، وذلك ما فعله الإسلام بالزناة الذين كشفوا للمجتمع عوراتهم.

ونحن لا نعرف عهداً استغنت فيه الإنسانية عن إنذار المجرمين بالنَّكال، وإعداد السجون لهم، وعن استرضاء الأخيار بالجوائز المغرية، وتوفير أسباب السعادة لهم، ولأهليهم.

قال الأستاذ عادل عبداللّه: «إن مبادىء التربية الحديثة ترى ألاَّ يُضْرَبَ الأطفال عقاباً لهم على ذنوب ارتكبوها، أو ردعاً لهم عن إتيان مثلها مستقبلاً، لأن ذلك يولِّد لديهم عُقَداً نفسية ضارَّة.

لكن الإسلام يأمر بضرب الأطفال لحثِّهم على إقامة الصلاة إن هم تكاسلوا عنها بعد سن العاشرة.

وغنيٌّ عن البيان أن الضرب الذي يأمر الدين به، يجب ألا يكون مبرحاً، ولا مؤذياً، وألاَّ يلجأ المربي إليه إلا بعد استنفاد شتى وسائل النصح والترغيب. وقد أثبتت التجارب والنتائج أن موقف الإسلام أرشد وأصدق.

ويسرنا أن يعلن الدكتور «بنجامين سبوك» ــ وهو طبيب وعالم نفساني ــ أمام الجمعية الطبية الأمريكية أن ضرب الأطفال أمر ضروري في تربيتهم.

ولننقل هنا ما جاء بمجلة المعلم العربي (أبريل سنة ١٩٥٢).

قالت: «ومع أن رجال التربية وعلماء النفس مجمعون على أن ضرب الطفل يولد عنده عقدة نفسية تجعله فيما بعد يكره الناس، أو يخافهم، أو يبتعد عنهم، إلا أن الدكتور سبوك يقول: إن هذا خطأ ولغو، وإن الذي يفسد الطفل هو أن يخطىء، ومع ذلك لا تضربه، بل تكتفي بكلمة خشنة، أو نظرة قاسية.

ويقرر أنه بحث حالة كثير من الشبان والرجال، فوجد أن أقومهم أخلاقاً هو الذي كان أبوه لا يتوانى عن ضربه في طفولته حين يخطىء، وأن أفسدهم خُلُقاً وأضعفهم شخصية هو الذي (سَلِمَ) من ضرب أبويه في سنيه الأولى».

وفي عدد ديسمبر سنة ١٩٥٨ من مجلة المختار قصة بعنوان: (والآن أصبحنا ستة) جاء فيها: [أن زوجين لا يُرزقان الأطفال تبنَّيا طفلاً وطفلة من أحد ملاجىء الأيتام.

وفي القصة تفصيل لحالة الطفلين النفسية وللمشاكل التربوية التي لاقاها الزوجان في أثناء تربيتهما للطفلين.

فقد مكثا مدة يستعملان الرفق واللين في تأديبهما، ويغدقان عليهما ما شاءا من المطاعم والمشارب والتحف ــ وكان المربيان على جانب كبير من الثراء ــ فلم يستجب الطفلان لكل ذلك. ثم لجأت المرأة إلى الشدة لأن البنت كانت تعلق دائماً على أقوال مربيتها بقولها: «إنني لا أصدق ذلك» قالت السيدة صاحبة القصة:

«ولكني في هذه المرة ضربت الأرض بقدمي وقلت: روث ــ وهو اسم البنت ــ لقد سئمتُ سماعك تقولين لي هذا الردَّ، فإذا فعلتِ ذلك مرةً أخرىٰ فسوف أضربك».

فنظرت إليَّ نظرات سوداءَ.. وقالت: (أوه.. إنني لا أصدق ذلك!).

وسرعان ما قلبتها على وجهها، وأخذتُ أضربها على ردفها..

ولم تبكِ ولكني علمت أن الضرب آلمها.

وسألتها: (هل تصدقين الآن؟) قالت: (أجل). وكانت نظرتها إليّ

ليست كلها كراهية.. بل فيها مزيج من الاحترام!.

وازدادت العلاقات بيني وبين «روث» توثقاً يوماً بعد يوم».

هذا ما كان من البنت.

أما ما كان من الصبي (جو) فإنه كان أيضاً شرساً وقِحاً في سلوكه مع متبنّيه (بيل): تقول المرأة صاحبة القصة:

وذات يوم، كان الطفلان مع بيل ـ وهو الزوج ـ فوق المحراث، فطلب بيل من «جو» أن يترجّل ويفتح بوابة مغلقة؛ فنزل «جو» وفتح البوابة إلى حد يكفي لمروره وحده منها...!!

وما كاد يجتاز البوابة، حتى أخرج من جيبه كرة للجولف، وألقاها على بيل، فأصابته في ساقه.. وصاح يقول جو: (افتح بوابتك بنفسك!).

ثم انطلق في طريقه إلى المنزل.

وقفز بيل من المحراث وضرب جو على أردافه ضرباً موجعاً ثم أمره أن يفتح البوابة؛ ففعل، ومر المحراث من البوابة، فأغلقها جو، ثم أمره بيل أن يعود لركوب المحراث.. واستمرا يقومان بعملهما في المزرعة.

وفي ذلك المساء اقترب جو من بيل، وجلس على ركبتيه وأخذ يتطلع إليه بعينين يفيض منهما الحب!»].

* * *

القَصَصُ الدِّينيّ

شاركتُ في بعض الأحفال العامة التي تقام في مناسبات إسلامية، ونظرت إلى الجمهور الحاضر، وهو جالس بضع ساعات يستمع إلى كلمات الخطباء المتعاقبة. وكنت أسائل نفسي: ترى ماذا سيصنع بهذا العلم كله؟

إنه سينصرف وما علق بذهنه إلا القليل، وما حرّك من مشاعره، أو غيَّر من حياته إلا الأقل.

واشتغلتُ عدة سنين بالوعظ في المدن والقرى.

وكنت أرى حشوداً من الناس تجلس حول منصة الدرس، تستمع بشغف إلى ما يقال.

وبعضهم كان دؤوباً على تلقي شتى الدروس من الوعّاظ والأئمة، ثم هو يستأنف حياته القديمة بعد انتهاء الدرس.

نعم، يعود سيرته الأولى، كأن جديداً لم يعترض حياته.

ولست أدري إذا كان هذا النوع من الكلام والسماع باقياً، أم جرفه السيل المدمّر المقبل من الغرب، فانقطع الكلام والسماع معاً..؟

وإنما الذي أدريه: أن بناء الحياة الدينية لا يقوم على مثل ذلك العبث.

وأستطيع الجزم بأن السلف الصالح لم يُدَرَّسْ لهم العلم بهذه الطريقة، ولم يُدَرَّبُوا على سماعه وتضييعه بذلك الأسلوب.

قد يُبذَل العلم لطالبه، كما يُبذَل الماء للعطشان الذي يحتاج إليه.

أما أن يُسكَبَ على التراب بهذا السَّفَه، فذاك شيء مُحزِن.

وما يقال في تلك الأحوال ليس علماً، إنما هو تسلٍّ بالعلم، وتضييع للفراغ به. . ولن تكون النتيجة ضياع الفراغ، بل ضياع الحقيقة وسقوط قيمتها. .

والأمة التي تقوم على الإسلام ــ حكومة ومجتمعاً ــ تتعاون على تحويل العلم إلى عمل مثمر، وجهاد نافع، وأداء منظم لشتّى الحقوق، وتحقيق بارز لأهداف الرسالة. وذاك ما كان مألوفاً إبّان دولة الخلافة.

فقد شُغِلَتْ الجماهير بالكدح في الداخل، والجهاد في الخارج، فانسد الطريق من تلقاء نفسه على حلقات التسلّي بالعلم.

ولم يسأل الناس إلا عمّا يعنيهم، ولم يُجابوا إلا لما يفيدهم. .

فلما أصيبت الأمة بالعطل، ولحقتها آفات الفراغ، عادت على دينها تشتغل بالكلام فيه، واستغلت رحابة الآفاق العلمية في طبيعة الإسلام، فأخذت تجري شوطاً هنا، وشوطاً هناك دون غاية سديدة.

ولكن ماذا تصنع لتملأ الوقت الواسع؟

إن الساعة الواحدة يتلى فيها من القرآن الكريم ما تنزّل الوحي به في بضع سنين. ويقرأ فيها من حديث رسول اللّٰه ما تردد على الآذان في مثل هذا الأمد الطويل.

ثم إن أسلوب البحث والنقد لا تتسع له مدارك العوام.

إذن هناك القصص، وحكاية الأخبار والروايات الماضية.

فإذا نفدت من التاريخ الإنساني، فعلى الخيال أن يخترع من الحوادث والمواقف ما يشبع نهمة المستمعين، ويثير إعجابهم ويريح فضولهم.

وعوام المسلمين ليسوا بِدْعاً من عوام الأمم الأخرى في تلك الناحية.

ولو نظرتَ الآن إلى الروايات الاجتماعية، والغرامية، والتاريخية التي اختلق الأدباء حوادثها من الوهم، وسودوا بها ألوفاً مؤلفة من الصحائف لأعجزك الإحصاء.

والغرض؟ تسلية العامة في الحقيقة، أو خدمة بعض الأفكار والمبادىء كما يقولون. وما أقل الروايات ذات الهدف في عالم التأليف.

إن القَصّاصين في تاريخنا أراحوا العوام، وأرضَوا رغائبهم، ولكن على حساب الدين للأسف.

ثم جاء نفر من الوعاظ والأئمة، فأحْيَوا هذا اللون البالي من القصص القديم، القصص الديني المسلي، وملأوا به الدروس والمحاضرات.

ثم انتقل الأمر إلى طور آخر، فقد أُلِّفَتْ رواياتٌ إسلامية تتضمن بعض الوقائع التاريخية مع مزيج من الأحداث المتخَيَّلة ورُئِيَ أن تُمَثَّلَ على المسارح خدمة للإسلام.

وأنا رجل لا أومن لا بالمسرح الإسلامي ولا بالمسرح الآخر.

إنني أضيق بهما جميعاً.

ولست أفرض طبيعتي تلك على غيري، ولكني أقرر ــ بوضوح ــ أنني شديد النفور من بدعة التمثيل التي غزت حياتنا الأدبية والاجتماعية.

وإنني أشعر باستغراب وحياء، عندما أسمع أو أشهد المواقف المتكلَّفة، والأصوات المفتعلة، التي يظهر بها أولئك الممثلون والممثلات.

وأشك كل الشك في أن التمثيل يحقق غاية إنسانية عالية.

بل إن أدب[1] القصة ــ الذي خلا منه الأدب العربي دهراً طويلاً ــ ليس بالشيء الذي يستحق كل هذا التنويه والإشادة.

---

(١) الأدب الروائي دخيل على العروبة، والحكم على قيمته الفنية وآثاره النفسية والعامة قد تختلف فيه الأذواق والطبائع، وليس كل دخيل يستراب فيه، ولكني لا أحسب الأدب العربي القديم نقص شيئاً طائلاً حين نقص القصص القصار والطوال.
وكذلك التمثيل. إنه هو الآخر أمر أقحم على مجتمعاتنا إقحاماً، وربما ترك آثاراً حسنة في البيئات التي استجلب منها. أما عندنا فالخير كل الخير في تطهير البلاد منه على اختلاف صوره.

ولْنَدَعْ الاستطراد في هذا الكلام، فليس ثَمَّ مجاله.

ولنعد إلي القصص الديني، نتعرف تاريخ ظهوره وطريق سيره..

لم يكن الناصحون والوعاظ يذهبون ـ أيام الخلافة الراشدة ـ إلى أبعد من الكتاب والسنة، ولم تكن فترات التوجيه الديني تتطلب أكثر من ذلك.

فعماد العظة: إما القرآن، وإما الحديث، وإما كلام يدور في فلكهما، ولا يعدو حدودهما، ولا ينضح بغير الروح المستمدة منهما.

وخمس دقائق من الكلام الجيد في خطابة أو درس، تملأ صحيفتين كبيرتين: وعندما نتدبر الخطب المروية عن الخلفاء نراها محكومة بهذا الإطار المعنوي والزمني.

بيد أن المشتغلين بالدعوة والإرشاد، أخذوا يتزيدون، ويتوسعون.

فماذا يصلح مدداً لهذه الزيادة؟ إطالة السرد، وتكثير الشواهد؟ ما تكفي!

إن الينبوع الدافق هو الحكايات والأقاصيص!!

وربما تسأل: من أين تاح للمتحدثين الإسلاميين هذا المورد؟

والجواب من مُسْلِمَة أهل الكتاب!

فإن بعض من آمن من اليهود والنصارىٰ وجد أمامه مجالاً لنفث خرافاته القديمة، ورواية ما أَلِفَ سماعه عن بدء الخلق، وعن النبوات الأولىٰ، وعن أحوال الأبرار والفجار، بل عن نبوءات المستقبل!!

فقد زعم كعب الأحبار أنه يجد مقتل عمر في التوراة!

ووقع الأغرار من المسلمين في هذه الحبائل، فأخذوا ينقلونها ويسمونها العلم الأول، يعنون علم ما قبل الإسلام..!

ولو سمّوه الجهل الأول لأنصفوا الحق..!!

على أن الخلافة الراشدة كانت يَقِظَةً لهذا الدس على العلم الإسلامي، فأخذت تصادر بوادره.

أخرج ابن أبـي شيبة والمروزي عن ابن سيربن قال: بلغ عمر أن قاصًاً يقص بالبصرة فكتب إليه..

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ... ﴾[1].

فعرف الرجل مراد «عمر» فترك القصَّ، وانقطع عما كان فيه.

قال الأستاذ علي محفوظ[2]:

ولما دخل عليٌّ البصرة جعل يُخرج القُصّاص من المسجد ويقول «لا يُقَصُّ في مسجدنا».

حتى إذا انتهى إلى «الحسن البصري» وهو يَعِظُ الناس انصرف عنه ولم يخرجه. ذلك أن الحسن كان فقيهاً عالماً ثبتاً وليس من القصاص.

قال السيوطي: أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا:

لم يُقَصَّ في زمان النبـي، ولا زمان أبـي بكر، ولا زمان عمر. وإنما القصص محدث، أحدثه معاوية.

ذلك أن معاوية اتخذ قاصاً يجلس إليه إذا فرغ من صلاة الفجر، ولعل ذلك من دهائه في السياسة.

أقول: بل ذلك من ابتداعه في العلم كابتداعه في الحكم..

وأيّاً ما كان الأمر فليس كل قصص منكراً يحارب.

فإن هناك نفراً من المربين يحسنون عرض الحق في ثـوب روائي مُسْتَحَبّ، ويجتذبون الجماهير بحسن تلطفهم، وسهولة أسلوبهم.

وفي القرآن ــ كما نعلم ــ أحسن القصص.

والمتحدثون للعامة من هذا القبيل لا يشغب عليهم، ولا يمنعون من إرشادهم.

---

(١) سورة يوسف: آيات ١ ــ ٣.

(٢) من كتاب «هداية المرشدين» بتصرف.

وأول من قَص من التابعين بمكة «عبيد بن عمير الليثي».
وقد حضر مجلسَه عبدُاللَّه بنُ عمر، فكان ذلك داعياً إلى إقبال الناس عليه.
وقال عطاء: دخلت أنا وعبيد على أم المؤمنين عائشة، فقالت: من هذا؟
قال: أنا عبيد بن عمير، فقالت: قاصُّ أهل مكة؟ قال: نعم.
قالت: خَفِّفْ فإن الذكر ثقيل!

ونصيحة عائشة تشير إلى أن الرجل لم يكن من الأخباريِّين أصحاب الحكايات الملفقة، بل كان مذكراً باللَّه جل شأنه في فقه وجِدّ.

وأول من لزم القص في مسجد المدينة، مسلم بن جندب الهذلي، وهو إمام المدينة وقارئها. وفيه يقول عمر بن عبدالعزيز: من سرّه أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب.

قال الأستاذ علي محفوظ:

ولم يكن القص في القرن الأول مرذولاً لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى القرآن والحديث.

ولم يكن يشوبه شيء إلا ما كانوا يسمونه بالعلم الأول، وهو ما يتعلق بأخبار الأمم الماضية. وأكثره يأخذونه عمن أسلم من أهل الكتاب.

وبعض هؤلاء كان غزير العلم واسع الحيلة في قصص الأولين كـ «عبد اللَّه بن سلام» الذي أسلم عند هجرة النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة، و «كعب الأحبار» الذي أسلم في خلافة عمر، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين.

وعن هذين الرجلين، و «وهب بن منبه» المتوفّىٰ سنة أربع عشرة ومائة، أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بالأمم، وأحوال الأنبياء، والنذر الأولى.

ولما كان القرن الثاني وانتهى عصر كبار الوعاظ والقصاص من التابعين ــ ومنهم «الحسن البصري» رضي اللَّه عنه ــ نشأت بعده الطبقة التي أخذت عنها العامة.

وقد اضطربت الفتن، وكثر الكلام، وفشت الأكاذيب في الحديث، وأخبار العرب والشعر، فصار هَمُّ القاصّ أن يجيء بالغرائب، ويكثر من

الرقائق، لأن أهل العلم انصرفوا إلى حلقات الرواية، ولم يبق في حلقات القصاص إلا العامة.

فمن ثَمَّ ساءت المقالة فيهم كما سبق، وصار القاص عند أولي العلم أحمق مخرفاً، إلا قليلاً ممن استوعبوا وتبينوا وساروا في مذهب الرواة.

وما مذهب الرواة؟ نقل الأكاذيب التي لا بأس بها، مسندة إلى أصحابها. . !

وهذه الأكاذيب هي الحكايات المؤلفة لترغيب في طاعة، وتحذير من معصية، أو الداعية إلى التحلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرذائل.

* * *

ويوجد في مصر الآن ألفان أو يزيد من أئمة المساجد وخطبائها ومن الوعاظ المشتغلين بالدعوة والإرشاد.

والشكوىٰ عامة من أن أكثرهم قليل البضاعة من الحق، كثير البضاعة من اللغو، وأنه يشبه القصاص القدامىٰ في ترويج الأساطير، وتخدير العامة، وتشويه معالم الإسلام. وهذه الشكاة لها وجاهتها فهي تعتمد على واقع مؤسف. .

ومن الخير ــ لحسمها ــ أن نحدد مناهج واضحة من التفاسير والسنن، والسير، والتواريخ، والآداب، التي لا مراء في تصويرها الصحيح للإسلام، ثم يُلزَمُ الموجهون بالصدور عنها وحدها.

ذلك. . ولا معنى لتملُّق العامة، واسترضائهم على حساب الدين.

إن العامة يكرهون البحث العلمي، والدقة الفقهية، وتعجبهم الأقاصيص الضافية الذيول. ولكننا نريد رفع مستوى العامة، لا السقوط معهم.

ثم إنه لا معنى للأحفال التي تعج بالخطباء، ويتبارى فيها فرسان الكلام، فإن ذلك بلاء يصيب الدين، ويمحق الإخلاص، ويرخّص النصح، وتُبتَذل فيه نفائسُ الآثار.

إن عِظَةً تستغرق دقائق معدودة، في مجتمع وُزِّعَ وقته بين العمل، والإنتاج، والجهاد، أفضل ألف مرة من برنامج للمحاضرات الطوال، في أمة تجيد الاستماع وحدَه، ويُحسِنُ أبناؤها الموازنة ــ فحسب ــ بين أقدار المتكلمين، وأنصبتهم من البلاغة، وسحر البيان!

الكِتَابة

قلنا: إن الخطابة من شعائر الإسلام، ودلائل امتلائه بالحياة وسعيه إلى الامتداد، وربما كان تأثيرها الروحيّ نفَّاذاً أخَّاذاً.

خصوصاً إذا كان الخطيب صاحب عقيدة تزحم أقطار نفسه، وتضطرم بها مشاعره. إنه حينئذ يشعل الجماهير حوله كما تشعل النارُ الهشيم.

وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مثلاً أعلى في صدق اللهجة، وعمق التأثير. وكان إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم!!

ويقول: بُعِثْتُ أنا والساعةَ كهاتين ـ ويقرِن بين إصبَعيه السبابةِ والوسطى ـ.

ويقول: أما بعد، فإن خيرَ الحديث كتابُ اللّه، وخيرَ الهدي هدي محمد صلى اللّه عليه وسلم وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ مُحدَثة بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ..»

ولما كانت نفس الخطيب المؤمن تشبه مُوَلِّداً للكهرباء، فإن الإيمان المنسكب من نفسه مع ألفاظه يشق طريقه إلى القلوب شقاً.

ومن ثَمَّ كان الجيلُ الذي صحب رسول اللّه خيرَ الأجيال، لِعِظَمِ ما أفاد منه وانتفع به، وأفاد الدنيا ونفع..

ومع هذه المنزلة للخطابة فإن لها قسيماً لا يقل عنها جدوى،

ولا تستغني الدعوة عنه أبداً، وهو الكتابة.

بل إن ما ارتبط بالخطابة من أجواء عاطفية يجعل مجالها مُتَّجهاً إلى المشاعر قبل كل شيء ـ وإن اعتمدت على سلامة المنطق بداهة ـ.

لكن الكتابة على العكس، تتجه إلى العقل وتقوم على الاستعراض المنظم المتأنِّي للأدلة المؤيدة والمفندة.

ولا بأس أن ينضمّ إلى ذلك أسلوب جيد، وسِيَاق جذّاب..

ثم إن الخطابة موقوتة الفرص، منتهية بانتهاء مجالسها وانفضاض مجامعها. أما الكتابة فهي أخلد على الزمن وأعصَى على الفناء.

والواقع أن الخُطَبَ النفيسة، تتحول إلى أدب مكتوب.

فإن كانت حافلة بعلم نافع أو وعظ بليغ، كان بقاؤها في الصحائف امتداداً في إمكان النفع بها، وإن كان صاحبها قَدْ مات، وضاع الأثر المقترن بسماعها منه وهي تنبض بالحياة من فمه، وتخرج مفعمةً بخصائص نفسه..؟

والكتب المؤلفة في خدمة الرسالات المختلفة كثيرة، ومداها في نشر الدعوات بعيد.

وحسبنا أن الإسلام يعتمد في خلوده، ونضارة رسالته، وتجدد دعوته على كتاب فَذٍّ هو معجزة الدهر، وصوت السماء الصدوق المبين.

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .. ﴾(١).

ومنذ بدأ الإسلام، والمؤلفون دائبون على مدّ رواقه بالقلم.

حتى لقد رُوِيَ في الأثر ـ تمجيداً لهذا الجهد ـ «يوزن مدادُ العلماء بدم الشهداء يوم القيامة».

والكتابة العلمية تزحم تراثنا الثقافي، وتدفع به إلى الطليعة في المواريث الأدبية لأهل الأرض.

---
(١) سورة فصلت: آية ٤٢.

بل نستطيع الجزم بأن ديناً من الأديان، أو مبدأ من المبادىء لم يصنع الحركة العقلية الجبارة التي صنعها الإسلام في العالم.

والتي أنشأ بها حضارة ما زالت غنية كل الغنى بأسباب القوة والازدهار.

والمنقّبون الآن في مخلّفات الفكر الإسلامي، كأنما ينقبون في أرض مليئة بآبار البترول أو مناجم الذهب والحديد.

كلما بحثوا عثروا على كنوز مدفونة، وخيرٍ خبيء، وعظمة غطاها التراب!

ولا عجب، فإن الفجر الذي طلع به القرآن على الوجود، أنعش العقل الإنساني إنعاشاً لا نظير له، وأطلقه يَنْشَطُ ويجوب ويكدح.

وإذا كان هنالك مأخذ على هذا النشاط، فهو أنه بلغ أحياناً حدّ الإسراف الذي يجهد، ولا يُغني..

وطبيعي أننا في تلك الأوراق المحدودة، لا نؤرخ، ولا نتابع الكتابة العلمية لنشر الدعوة الإسلامية وإيضاح أصولها وفروعها.

فذاك مبحث تفرد له مجلدات.

وإنما نريد هنا إثبات ملاحظتين صغيرتين تتعلقان بموضوع كتابنا.

أولاهما أن الكتابة الأدبية في خدمة الإسلام ليس لها اتساع الكتابة الفنية وانتظامها.

وأعني بالكتابة الأدبية ما يذكي العاطفة الإنسانية بعد ربطها بالإسلام، وأخذها بتعاليمه وعباداته.

وقد تكون للصوفية كتابات مشحونة بما يذكي المشاعر، ويرقق الأفئدة، ويحوِّل تكاليف الإيمان إلى أعمال مستحبة.

لكن شطحات الصوفية وأخطاءهم الكثيرة، تشوب هذا اللون من الأدب، وتجعل الاستفادة منه عسرة أو خطرة.

وفي عصرنا هذا ارتقت الكتابة الأدبية التي أُنوِّهُ بها في آثار رجلين جليلين هما

الشاعر الهندي «محمد إقبال» والأديب العربي «مصطفى صادق الرافعي» في كتابه «وحي القلم».

والذي أريده، لون من الأدب الديني يرسم معالم الإسلام كما يرسم الشاعر ـ المفتون بالطبيعة ـ الحدائقَ الناضرة، والسماء الضاحية، والنجوم الزُّهْر، والليل الساجي..

نحن فقراء في هذا الضرب من الكتابة الراقية، مع شدة الحاجة إليها في تربية العواطف وصقلها باسم اللّه..

والملاحظة الأخرى أن الكتابة العلمية ـ التي استبحرت قديماً، ثم جمدت أيام الانحلال والتخلف وهجوم الاستعمار ـ لا تزال دون تقدم الوعي الإنساني في هذا العصر، ودون اتساع دائرة التعلم والتعليم، وانكماش الأمية الفكرية في كل قطر.

إن المحدَثين ما زالوا عالة على القدامَى.

ولولا صلاحية القرآن لشتَّى الأعصار لكان تخلف المسلمين العلمي سبباً في زوالهم.

والمطلوب أن ينتفض الجيل المعاصر انتفاضة الحياة، ويشرع في خدمة الإسلام الخدمة العلمية المناسبة لهذا العصر.

وإني لأذكر ـ محزوناً مكروباً ـ أن العلماء المجددين لأمر الإسلام يكافحون في وجه عنت هائل، ويبذلون جهود الجبابرة ثم يطويهم الجهل والغمط والنكران، فما يكاد ينتفع بآثارهم إلا الأقل الأقل.

لقد مات «محمد فريد وجدي» بعد حياة مليئة بالمجد العلمي.

وها قد مرت بضع سنين على موته، فما ذكره أحد بكلمة رثاء، ولا طبع له كتاب نفد. ويوشك أن يطويَه ومؤلفاتِه النسيانُ، فما هذا؟

والحال كذلك بالنسبة إلى الشيخ «محمد رشيد رضا» العالم الأديب الجليل الشأن.

وأعرف غيرهم من أصحاب الأسماء التي لم تَحْظَ بالشهرة، وإن أسدت للإسلام أعظم المنافع.

فالشيخ «أحمد عبدالرحمن البنا» رتّب «مسند ابن حنبل» وفق الأحكام الفقهية في خمسة وعشرين مجلداً، ومع ذلك فقد ترك الدنيا وكأنه رجل أُمّي لم يَخُطَّ حرفاً، فضلاً عن أن ينشيء هذا العمل الضخم.

إن قليلاً جداً هم الذين أحسُّوا فقده.

ولسنا نأسَى على الموتى، فقد أفضَوا إلى اللّه الذي يضاعف الحسنات، وإنما نأسى على الأحياء، الذين لا يحسنون الانتفاع بثمرات المجددين الذين عاشوا مع الزمن يدفعون عن الإسلام، ويحرسون أركانه، ويجلون بريقه.

إن الكتابة العلمية الواجبة في هذا العصر يجب أن تتسع وتطرد.

وهناك أمور ذات بال نحب أن نلفت النظر إليها حتى يؤديَ القلم حق الإسلام عليه في ذكاء وحَصَافة ومَقدرة، وفق مقتضيات الأزمان.

ولنتناول بعض العناوين[1] والشروح لهذه البحوث المطلوبة مضافاً إليها ما نراه.

* * *

(١) أخذنا هذه العناوين عن النشرة التي أصدرها المؤتمر عن الكتاب الإسلامي والبحوث التي يجب أن يتعرض لها الآن.
ونحن مضطرون للقول، بأن أكثر هذه البحوث، قد ألفنا فيه كتباً طبعت مثنى وثلاث وأن إخوتنا في ميدان الخدمة الإسلامية يقومون بهذا العبء في مثابـرة وصبر مع ما يلقون من جحود غريب.
واللّه ولي التوفيق وبه الحول والطول.

مَوْضُوعَاتُ الكِتَابَةِ المعَاصِرَة

١ ــ الدين ضرورة اجتماعية :

«يذهب بعض المثقفين الذين لم يتعمقوا في دراسة الأديان، ولم يتشربوا تعاليمها السامية، إلى أن الأديان لا تنهض إلا بين الشعوب البدائية، وأن المدنيات الحديثة ــ بما تحمله من قوانين تشريعية، ومبادىء أخلاقية، ومذاهب فلسفية، واتجاهات علمية ــ تغني عن اعتناق الأديان.

وهو خطأ شنيع، لأن الدين فطرة أصلية في النفوس البشرية، لا يغني عنها قانون، ولا فلسفة ولا تثقيف.

ومن الخير تأليف كتاب يعالج هذا الموضوع، على أن يستمد نماذجه من واقع حياة الأمم والشعوب».

أقول: ونحن ــ في هذا الكتاب ــ قد دعمنا هذه الحقيقة بما لدينا من أدلة. ولكننا يجب أن نوضح: ما الدين الذي يوصَف بأنه ضرورة اجتماعية؟

إن الدين الصحيح وَحْيٌ نازل من السماء، وليس إفْكاً نابتاً من الأرض.

ومن النقائض المدهشة أن تسمَّى «البوذية» و «الكونفوشيوسية» و «الرزادشتية» أدياناً، وأن يوصف الرجال الذين اختلقوها بأنهم أنبياء، مع أنهم لا يعرفون الله الواحد ولا يدعون إليه، بل ينكرونه ويجحدون رسالاته.

فكيف توضع هذه الأفكار الأرضية في مصافّ الشرائع السماوية؟

إنه ليس هناك وصف مشترك بين هذه وتلك، ولذلك يجب اطِّراحها ابتداءً من هذا المجال.

ثم إن الاعتقاد المنتسِب إلى السماء يجب ـ ليستبقي حرمته ـ أن يحترم نسبته وأن يصون سيرته، وأن يقيم هَيمنته في الداخل، وعلاقته في الخارج على دعائم من تقوى اللّه، ومحاولة إرضائه بالأسلوب الذي يعرفه ويؤثره لأتباعه.

ومن ثَمّ، فالتدين المنحرف، القائم على استئصال الشعوب، واجتياح حقوقها آفة اجتماعية، لا ضرورة اجتماعية.

بل إنه ـ على الأصح ـ مشكلة عالمية يُنشَد لها العلاج وتُلتَمَسُ الحلول. إن الدين حقاً ضرورة اجتماعية.

وتغيير الواقع الإنساني بجمع الناس على دين واحد مستحيل..

فَلْيَبْقَ إذن حق الحياة محفوظاً لضروب الإيمان المنتمية إلى السماء.

ولتعط جميعاً ضمان الدعوة إلى اللّه دون حرج أو ضغط، ودون ختل أو مكر. والإسلام يرحب بهذه الخطة.

ومن حقه ـ وقد أقر بالحياة لغيره ـ أن يظفر بإقرار الحياة له ولأمته.

٢ ـ الإسلام والديانات السابقة:

«ينبغي إعداد هذا الكتاب[١] لإثبات أن الإسلام لا يعادي الديانات السماوية السابقة ولا يخالفها.

ولكنه يتمم ما يحتاج إلى التفصيل، ويصحح ما وقع فيها من تحريف.

ويجب إثبات أن الإسلام لم يتعرض قط لتصحيف ولا لتحريف، فلا يزال كتاب اللّه محفوظاً مصوناً من الملفقين والمبتدعين

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٢].

أما السنة الشريفة فقد درسها أعلام رجال الحديث منذ أقدم العصور، ووضعوا لها الضوابط والقواعد والموازين التي تميز الأصيل عن الدخيل».

أقول: يحسب كثير من الناس أنه كما تنقسم الكلمة مثلاً إلى اسم وفعل

---

(١) أشبعنا هذا الموضوع بحثاً في كتبنا «نظرات في القرآن» و «الاستعمار أحقاد وأطماع» و «عقيدة المسلم» و «من هنا نعلم».

(٢) سورة الحجر: آية ٩.

وحرف تنقسم الأديان إلى يهودية ونصرانية وإسلام، وهذا خطأ فالدين عند اللّه واحد.

والأنبياء أجمعون ــ وبينهم «موسى» و«عيسى» و «محمد» عليهم الصلاة والسلام ــ مبلغون عن اللّه أصول هذا الدين الواحد لا تفاوت هنالك ولا اختصام.

وإذا كان هناك فرق يذكر فهو أن الثوب قد يطول أو يقصر حسب نمو الجسم، وأن «موسىٰ» كسا العالم بلباس التقوى حيناً.

فلما جاء «محمد» صلى اللّه عليه وسلم وجد الثوب قد تغير أو تمزق أو انكمش فردَّه كما كان وضيئاً، وزاد فيه ما استدعاه نمو الإنسانية من وفرة واتساق. إن البدلة التي تصلح للغلام لا تصلح للرجل المكتمل القوام.

فكيف الحال إذا كان النسيج القديم قد أمسى كطيلسان ابن حرب؟

طــال تــرداده إلى الــرفــو حتى بَقِيَ الـرفو وانقضى الـطيلســان!!

إن «محمداً» صلى اللّه تعالى عليه وسلم جاء مجدداً لما سبق من وحي، ومؤكداً لما نزل قبلُ من تعاليم.

وذاك شأن النبيين القدامَىٰ يصدّقون مَنْ قبلهم ويُمَهِّدون لمن بعدَهم، حتى خُتِمتْ الرسالات كلُّها بالإسلام.

فكان هذا الإسلام جماعاً لما توزّع فيها من حق وعدل، وفَضل ونُبل.

شاءت عناية السماء أن تقيّض لهذا الدين حَفَظة ينتصبون دون تراثه قرناً بعد قرن، فنجا من الغوائل التي محت غيره، ووصل إلينا مَصُوناً كما عُهِد به إلى نبيّه صلى اللّه عليه وسلم.

ولذلك يمكننا أن نصفه بأنه المصدر الموثّق لرسالة «موسى» و «عيسى» عليهم الصلاة والسلام.

وأنه كلمة اللّه التي لا يرقَى إليها ريب، ولا تلتبس بها ظِنَّة.

ومع ما طرأ على الديانات الأولى من تغيير، فإن لأتباعها ذِماماً لا تهدرُ،

وعهوداً لا يخاس بها.

٣ ــ مصادر التشريع الإسلامي:

لم تكن أصول التشريع الإسلامي في عصر مًا خاضعة لشهوة حاكم، أو نزوة قائد، أو منبثقة من تقلبات الظروف والأحوال.

وإنما هي تستند إلى أصول ثابتة: من الكتاب والسنة.

ومن الخير لعامّة المسلمين أن يعرفوا شيئاً عن هذه الأصول التي عالجها أئمة المذاهب الإسلامية، واستنبطوا منها مقومات التشريع الإسلامي.

ذلك.. ومع أن «الإجماع» من مصادر التشريع عندنا، فإن إجماع الناس لا يؤبه له إلا إذا كان له سناد من نص وارد.

إن المشرع هو الله وحده:

وليس لبشر أن يتعبّد الناس بشرع من عنده.

ولا لمجمع من المجامع حق إنشاء عقيدة، أو إحداث عبادة...

أما المصالح العامة فإن كفالتها ترجع إلى السياسة الشرعية، واجتهاد أولي الأمر. والتقنين في هذا المجال قد يختلف باختلاف البيئات، واختلاف الأفهام.

والإسلام يتسع لشتى وجهات النظر، ولا تعتبر وجهة منها ديناً، إذ الدين أعم منها ومن سواها.

٤ ــ المذاهب الفقهية الإسلامية:

ترجع طوائف عديدة من المسلمين في مباشرة العبادات ومزاولة المعاملات إلى المذاهب الأربعة: مذهب «أبي حنيفة» و «مالك» و «الشافعي» و «ابن حنبل» كما ترجع طوائف أخرى إلى المذهب الزيدي أو مذهب الاثني عشرية، وهناك مذاهب فقهية إسلامية حوت من الآراء التشريعية الخالدة العميقة ما يعد مفخرة من مفاخر الإسلام، مثل المذهب الظاهري المنسوب إلى «داود الظاهري» ثم إلى «ابن حزم»، ومثل مذهب

«الأوزاعي» و «الليث ابن سعد» ومثل المذهب الأباضي الذي لا يزال منتشراً في عُمان.

ومن الخير أن يعرف المسلمون نبذة عن هذه المذاهب الإسلامية العظيمة، التي تمثل إنتاج العبقريات الإسلامية في ميدان التقنين والتشريع والاجتهاد.

ونحن نوصي بدراسة هذه المذاهب ورجالها دراسة علمية مجردة.

ونستنكر الحملة التي يشنها المستمسكون بفقه السنة على تلك المذاهب وأئمتها..

ومع أني أوثر تلقي الأحكام من مصادر الشريعة الأولى، وأحب الاتصال المباشر بالنصوص، وأكره مطالعة المتون التي ألّفها في العصور المتأخرة الفقهاء المذهبِيُّون. إلا أن ذلك لا يغمط الأئمةَ السابقين قدرهم ولا جهدهم.

ولا يبيح لنا اعتبار فقههم مقابلاً لفقه السنة، كأن للرسول مذهباً، ولهؤلاء الرجال منزع يبتعد عنه.

إن هؤلاء الأئمة أقاموا علمهم ـ أولاً وآخراً ـ على دعائم من السنن والنصوص. بَيْدَ أنهم أعطَوا أنفسهم حق الترجيح والموازنة، وردّ ما لا يتفق مع القواعد العلمية التي اطمأنوا إليها في الفهم والقبول.

ومن حق أي باحث أن يستريح إلى اجتهادٍ مَّا، ما دام هذا الاجتهاد مضبوطاً بقيود محكمة، من أصالة النظر ورحابة الإدراك.

والمرء منا عندما يخوض وحده محيط الآثار الواسع، يجد نفسه مضطراً إلى اعتماد نص، وتأويل آخر، أو توهين سنده، على حين يلجأ غيره إلى عكس مسلكه! وعندي أنه من الخير أولاً دراسة النصوص كلها.

ثم دراسة جميع الأقوال الفقهية التي أُثِرَتْ عن الأربعة المشهورين وعن غيرهم من فقهاء الأمصار وعن «الخوارج» و «الزيدية» و «الإمامية» و «الظاهرية».. إلخ، وعلى أن تكون هذه الدراسة المقارِنة حُرّةً مطلَقَةً، وعلى أن يباح ـ بعدُ ـ لأي مسلم أن يتخيّر منها ما يحب، أو أن يلتزم تقليد مجتهدٍ بعينه.

إن الاجتهاد الإسلامي لملاحقة الأحداث ومتابعة الزمن السائر، أصابه ضر شديد عندما احتبس داخل السجن المذهبي الضيق، وعندما أزرى به التعصب لآراء مجتهد واحد.

ونريد الآن أن ننتفع بأمجادنا العلمية كلها، وأن يعتبر المسلم العادي أئمته المقتدىٰ بهم في الفقه هم سلفه الصالح جميعاً، فلا ينتمي لواحد، ويتجاهل الآخرين.

٥ ــ المجتهدون في الشريعة الإسلامية:

يزعم بعض المقلدين أن باب الاجتهاد أصبح مغلقاً الآن.

ولكن تطور الحياة، وتجدد الأحداث، واختلاف الأحوال يطالع بقضايا حديثة، وأوضاع اجتماعية لم يعرفها القدماء من المشرعين الإسلاميين.

وما دامت مصادر التشريع الإسلامي باقية، فلكل عـالم متمكن من الدين، متعمق في الدراسات العربية والإسلامية أن يقترح ما يناسب العصر من آراء دينية، على أن تكون مُستمَدّة من المصادر الإسلامية الكبرى، معززةً بالبرهان والدليل.

وقد ظهرت في الإسلام عقليات جبارة قدمت إلى التشريع الإسلامي أجلّ الخدمات.

فمن الخير أن نجلو حياة هؤلاء العباقرة وآثارهم في كتاب موجز يُظهِرُ المسلمين على ألوان البطولة الفكرية عند علماء التشريع الإسلامي.

إن العلماء الآن ربما لا يحتاجون إلى اجتهاد في ميدان العبادات وأحكامها. ذلك أن السلف لم يَدَعُوا مجالاً لأحد في هذا المضمار.

والثروة التي تركوها تعجز العادّين.

وقد نملك ترجيح رأي على رأي، وتغليب حكم على حكم فحسب، أما التجديد، فلا. ولو كان له مكان فأنا أرىٰ إغلاق الباب دونه، إذ لا داعي له.

وهذا على العكس مما نوصي به في ميدان المعاملات فإن رَكْبَ الحياة يزحف إلى الأمام أبداً.

وفي أثناء مسيره تَجِدُّ شؤون لا بد من بيان حكم اللّٰه فيها وفق ما ترك لنا رسوله من نصوص وقواعد..

وقد ظهرت الآن في عالم السياسة الدولية والمحلية، وفي عالم الاقتصاد التجاري والصناعي والزراعي، وفي عالم التنظيم الإداري، وفي أنحاء أخرىٰ كثيرة، ظهرت أمور لا بد أن يقول الإسلام فيها كلمته وهو أقدر دين على النطق بهذه الكلمة.

والذي نرجوه من الأمة أولاً ألّا تضيق بوضع ينتهي إليه العلماء وهو مخالف لما أَلِفَتْ.. فإن الإسلام أول حركة للتحرر العقلي من الوراثات السيئة..

ثم من المجتهدين ثانياً ألا يغتروا بما تقره الحضارة الحديثة والنظم المختلفة من مبادىء ومناهج، وألا يكون هدفهم تقريب الإسلام من هذه المحدَثات، فإن الإسلام دين له منابعه وله غاياته.

وعمل المجتهدين هو ردُّ الأمور الناشئة إليه وحده، لا جرُّه إلى الفلسفات الإنسانية المختلفة..

ونحن قد نشرنا كتابات في بعض القضايا الخاصة بالمال والحكم، حاولنا فيها تقديم إصلاحات إسلامية كثيرة على ما لاحظناه من عِوَج في أحوال أمتنا. لكن الأمر أعظم من أن يكون جهد فرد يخطىء ويصيب.

ولا بد من تضافر جهود العلماء لمواجهة المشكلات المعاصرة بأحكام دقيقة.

٦ ــ الإسلام والمدنية الحديثة:

وذهب بعض خصوم الإسلام إلى أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين في العصر الحديث، لأنه غير صالح للتجاوب مع المدنية والعمران.

وهو زعم خاطىء، لأن الإسلام يمجد العقل، ويكبر العلماء، ويدعو إلى التأمل في ملكوت السموات والأرض.

ثم هو صاحب اليد الطولى على الإنسانية جمعاء، وحامل لواء المدنية الحديثة.

وهو ــ بمرونته وسعته وسماحته ــ صالح لكل زمان ومكان.

فمن الخير تأليف كتاب موجز لإثبات هذه الحقائق الخالدة.

أقول: إنه لَمِمَّا يُثِيرُ الضحك أن يُتَّهَمَ الإسلامُ بخصومة للمدنية، أو تعويق للحضارة.

لقد قطع الشرق الإسلامي من القرون أربعة عشر قرناً وقطع الغرب المسيحي من الزمن عشرين قرناً.

ولو أن التأخر كان حليف الشرق طوال هذه القرون والتقدم حليف الغرب لقلنا ــ على عجل ــ: إن الإسلام مبعث هذا التخلف الشائن.

فلنستنبىء التاريخ عن الواقع ليقول كلمته:

لقد ظل الشرق الإسلامي أحد عشر قرناً وهو في طليعة العالم، إن لم تكن أممه أرقى أمم الأرض طراً.

وهذه القرون الأحد عشر هي التي كان فيها قريباً من دينه، مرتبطاً بتعاليمه، فلما انفك عنها هَوَىٰ.

أما الغرب فقد ظل سبعة عشر قرناً، وهو يخبط في عمياء طامة، لا يلوح فيها بصيص نور.

فلما أراد أن ينهض دارت في رحاه معارك طاحنة بين العلم والدين، انتهت بانحسار الكنائس ورجالها عن الحياة العلمية والعملية.

ومن ثَمَّ شرعت (أوروبا) تتحرك، وتنتعش وتقتحم الآفاق التي كانت محرمة عليها من قبل باسم اللّه!!

والتاريخ النزيه يذكر أن الدعائم التي قامت عليها نهضة الغرب الحديث هي تراثنا العقلي والأدبي.

هي كل ما خلف آباؤنا من ثمرات طيبة في حقول البحث والنظر.

وما يغض من هذه الحقيقة، ويخفيها تحت ركام من الجحود، إلا أحوالنا العصيبة أمام انحطاطنا، وتعصب الغرب علينا، وجنوحه إلى الأَثَرة والكذب.

٧ ـ أسباب انتكاس المسلمين ووسائل نهوضهم :

ساد المسلمون العالم فترة من الزمان، ونشروا فيه أنوار المدنية والعمران، ثم جدَّت عوامل عديدة داخلية، وخارجية، دفعتهم من القمة إلى الحضيض. ولكنهم تنبهوا ـ أخيراً ـ إلى حالتهم.

وبدأت يقظة جديدة، وانتفاضة قوية حديثة، نرجو أن تعود بهم إلى السمو والارتقاء.

ومما يعينهم على هذا إصدار بحث موجز يتناول أسباب التدهور ووسائل النهوض.

أقول: إن الانهيار الشنيع الذي أصاب الأمة الإسلامية من بضعة قرون، يعود إلى التفاوت الواسع بين واقع الحياة فيها، وبين الْقِيَمِ والنُّظُم التي أتى بها دينها..

وقد بدأ هذا التفاوت أول الأمر يسيراً كما ينفرج ضلعا الزاوية عند رأسها. فإن المسافة بين ما يجب وبين ما وقع كانت ضئيلة.

على أنه مع بقاء شقة الخلافة، وامتداد الزمن تتسع المسافة ويطول البعد.. وتكاد تنقطع بين ما يمليه الدين من واجب، وما يخطه من مناهج، وبين ما تكون عليه من تفريط، واضطراب، وشرود.

وقد ألمعنا في بعض كتبنا إلى مظاهر متفرقة لهذا الاختلاف الغريب.

ولكن الإنصاف للإسلام يقتضي إفراد هذا الموضوع ببحوث متصلة، يدرس فيها التاريخ الإسلامي من دولة الخلافة إلى عصرنا هذا، وتُحَاكَم أحداث هذا التاريخ محاكمة دقيقة إلى القواعد الإسلامية والمُثُل العليا لهذا الدين، كما تقررت في كتاب اللَّه تعالى، وسنة نبيه صلى اللَّه عليه وسلم...

وسنجد عند المقارنة أن سياسة المال والحكم اهتزت اهتزازاً عنيفاً جداً، ولم تنضبط وفق أحكام الشريعة الغرّاء.

كما سنجد أن العلم الإسلامي نفسه بدأ بعد فترة من هذا الاضطراب يتأثر هو الآخر.

ولولا ما تأذَّنَ اللَّه به من حفظ القرآن الكريم، وحماية السنة المطهرة، لانْدَكَّت معالم الإسلام وسط الزلازل التي هاجت في كيانه من الداخل والخارج، على أنه من صنع اللَّه أيضاً أن الأمة تتجدد، وتنتفض، وأنها استعصت على أسباب الزوال. وهي الآن على أعتاب نهضة ترد إليها شبابها إن شاء اللَّه.

وهي الآن على أعتاب نهضة ترد إليها شبابها إن شاء اللَّه.

٨ ــ الإسلام بين المادية والروحية:

تجنح بعض المذاهب والأديان إلى المادية الواقعية، كما يجنح بعضها الآخر إلى الروحانية المثالية.

ولكن الإسلام يجمع بين الأجسام والأرواح، والدنيا والآخرة، والماديات والمعنويات، والعقيدة والدولة.

فهو بهذا أكمل دين يصلح للإنسانية جمعاء، ويوائم بين جميع الظروف والبيئات المختلفة.

وينبغي أن يعرف المسلمون هذا ليتخذوا من دينهم وسائل للرقي، والمدنية، والعمران.

ومن الخير أن يؤلَّف لهم كتاب في هذا الموضوع(١).

٩ ــ المسلمون بين التيارات السياسية الحديثة:

تتنازع العالم الآن قوتان رهيبتان، تحاول كل منهما أن تجذب بقية الدول إلى صفها، أو تضمها إلى فلكها.

فإذا قامت الحرب أصبحت هذه الدول أُولَى فرائسها.

فمن الخير للمسلمين جميعاً أن يقفوا أمة واحدة معتصمة بحبل اللَّه المتين. وينبغي للدول الإسلامية أن تعرف أسرار السياسة الدولية، لتتجنب

---

(١) تراجع كتبنا: «كيف نفهم الإسلام» و«الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه».

الوقوع بين شِقَّي الرَّحَىٰ.

وتأليف كتاب في هذا الموضوع، يُلقِي أضواءً على الصراع الدولي الجبار، وعلى الموقف الذي ينبغي أن تقفه الدول الإسلامية من هذا الصراع[1].

١٠ ــ الإسلام مصدر الحريات:

بعض النظم السياسية تعطي الفرد من الحريات ما يطغى به على مصلحة المجموع؛ وبعضها يعطي المجموع ما يطغَى به على النشاط الفردي.

ولكن الإسلام يعطي للفرد حقه، والجماعة حقوقها، وينسق بينهما خير تنسيق وهو ــ بهذا ــ يكفل جميع أنواع الحريات، في تنظيم دقيق، يشمل حرية الملك، والعقيدة، والمسكن، والتعبير.

وتأليف كتاب في هذا الموضوع يسدُّ فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلامية[2].

١١ ــ أساليب الاستعمار:

الإسلام دين الحرية والعزة، والكرامة، وهو أقوى حافز لإعزاز معتنقيه، ودفعهم إلى القيادة والتوجيه.

وقد عرف الاستعمار قوة الإسلام، فلجأ إلى وسائل عديدة مادية ومعنوية، وعسكرية وعلمية لإضعاف العقيدة الدينية في نفوس المسلمين.

فيجب أن يعرف المسلمون أساليب الاستعمار ووسائله، ليتجنبوا الوقوع بين مخالبه.

وتأليف كتاب في هذا الموضوع يسد هذا الفراغ الكبير[3].

---

(١) تراجع كتبنا: «الإسلام والاستبداد السياسي» و «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» و «كفاح دين» و «الاستعمار أحقاد وأطماع» و «من معالم الحق».

(٢) و (٣) تراجع كتبنا: «الإسلام والاستبداد السياسي» و «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» و «كفاح دين» و «الاستعمار أحقاد وأطماع» و «في موكب الدعوة».

١٢ ــ براءة الإسلام من البدع والخرافات :

الإسلام دين الحقائق الخالدة المتفقة مع أحدث نظريات العلوم.

ولكن كثيرين من خصومه دَسُّوا فيه كثيراً من الأقاويل، وابتدعوا فيه كثير من البدع، التي تشوِّه تعاليمه، وتطمس أضواءه.

وأعانهم في هذا بعض المنحرفين أو المضللين، فروّجوا لهذه البدع. والخرافات، وأضافوا إليها كثيراً من الزيادات.

فينبغي وضع كتاب لإظهار هذه البدع التي تضلل الناشئين، وتعطي خصوم الإسلام حجة للطعن والتشهير(١).

١٣ ــ التيارات الدخيلة في الإسلام :

بسط الإسلام نفوذه الروحي على معظم أجزاءِ العالم المعروف في القرون الوسطى.

وَوَرَّثَ أبناءَه حضاراتِ المصريين، والإغريق، والرومان، والفرس، والهند.

فتسللت بعضُ المذاهب الفلسفية إلى التعاليم الإسلامية، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة.

كما وَضَعَتْ طائفة من خبثاء اليهود كثيراً من الإسرائيليات، وألصقتها بالإسلام، وانخدع بها بعض المسلمين، وبخاصة قلة من المفسرين.

وقد تجرّد جماعة من المنافقين لِدَسِّ الأحاديث لموضوعة على سنة الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه.

فينبغي وضع كتاب ينقّي الإسلام من هذه التيارات الفكرية الدخيلة عليه(٢).

١٤ ــ مشكلات إسلامية معاصرة :

عرف المسلمون من أساليب المدنية الحديثة، وأوضاعها ما لم يعرفه آباؤهم السابقون.

---

(١) راجع كتابنا: «ليس من الإسلام».

(٢) راجع: «ليس من الإسلام» و«كيف نفهم الإسلام».

وقد حدثت مشكلات عصرية حملتها إلينا هذه المدنية.

فينبغي علاجها في ضوء الإسلام، بقياس الحديث منها على القديم مثل مشكلات: المصارف المالية، الأسواق المالية (البورصة)، التأمين، الادخار، (الكونتراتو). إلخ.

ومن الخير أن ينبريَ جماعة من العلماء لدراسة هذه الموضوعات وإبراز حكم الإسلام فيها.

١٥ ــ مجاراة العربية لعوامل التطور:

يتهم بعضُ الحاقدين اللغةَ العربيةَ بأنها لغة جامدة، لا تجاري تطور المدنيات الحديثة، ولا تسايرها، وهي عاجزة عن استيعاب العلوم الحديثة، وما أبرزته من كشوف جبارة عديدة، وهو زعم خاطىء؛!

لأن اللغة العربية عاشت زهاء خمسة عشر قرناً، استوعبتْ فيها مدنياتٍ مختلفةً، وورثتْ حضاراتٍ متعددةً مثل حضارة المصريين، والإغريق، والرومان، والفرس والهند، وهضمتها جميعاً.

وأضافت إليها حضارةً خالدة، لا تزال آثارها ماثلة للعيان، ثم هي قد استوعبت معارف هذه الحضارة الحديثة، واتسعت لما وفدت به علينا من مصطلحات.

وها هي ذي علوم الطب، والطبيعة، والكيمياء تُدَرَّس في جامعة دمشق بالعربية الفصحَى.

واللغة العربية ــ بما فيها من وسائل الاشتقاق، والتعريب، والمرونة ــ كفيلة بأن تجاري اللغات الحديثة في التطور، والارتقاء.

وينبغي وضع كتاب يجلو هذه الحقائق الخالدة، ويعرف المسلمين أن الحملة على العربية هي في حقيقتها حملة على الإسلام، وذريعة للقضاء عليه.

١٦ ــ حكمة التشريع الإسلامي:

ينبغي إبراز أهم القيم الإسلامية التي تسمو بالفرد، كما تسمو بالجماعة، كما تسمو بالإنسانية جمعاء.

ومن الخير تأليف كتاب يُظهر الحكمة في التشريعات الإسلامية، للأفراد والجماعات، من عبادات، ومعاملات، مع إظهار ما في الإسلام من يُسر، وسماحة، واستجابة لتطور المدنيات والعمران.

١٧ ــ بطولات إسلامية:

نهض بالإسلام عند ظهوره رجالات من العباقرة الموهوبين الذين ضربوا أحسن الأمثال، في التضحيات الجسيمة، وإنكار ذواتهم في سبيل مبادئهم.

وإبراز هذه البطولات كفيل بإثارة العزمات الخامدة، وإيقاظ الهمم الغافية، لحفزها إلى استئناف النهضة الإسلامية، كي تتبوأ مكانها الجدير بها في الحياة.

ومثل هذا الكتاب يؤدي للمسلمين أجلَّ الخدمات، وبخاصة للجيل الجديد.

١٨ ــ الأسرة الإسلامية:

وضع الإسلام للأسرة نظاماً دقيقاً محكماً، وأقام العلاقات فيها على أساس متين. وقد حاول بعض الملحدين أن يشوّه محاسنه، ويطمس معالمه.

ثم ظهرت الحقائق العلمية، والدراسات الاجتماعية، مؤيدةً ما ذهب إليه الإسلام.

وما أشد حاجة المكتبة العربية إلى كتاب يشرح هذا النظام، ويبرز ما فيه من حكمة عالية وأهداف سامية[١].

١٩ ــ الإسلام دين السلام:

ذهب بعض المبشرين إلى أن الإسلام قام على العنف، وانتشر بالسيف، واعتمد على الإكراه، وهو زعم خاطىء كل الخطأ.

فقد قام الإسلام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ونادىٰ بالسلام، واشتق اسمه من السلام، وجعل تحية أهله السلام.

---

(١) راجع: «من هنا تعلم» و«ظلام من الغرب» و«كفاح دين».

وطالما نَهى عن البغي والعدوان، وتوعّد مرتكبَهما بأشدِّ أنواع العقاب.

بل إنه وضع نظاماً محكماً للسلام بين الدول المختلفة، لا يزال العقل البشري يحلم بالوصول إليه حتى الآن.

ومن الخير تأليف كتاب يبرز هذه القيم المثالية، ويجلوها على العالمين[1].

٢٠ ــ البلاد الإسلامية:

تكاد كثير من الدول والأمم الإسلامية تكون مجهولة لبعض المسلمين، أو في حكم المجهولة.

مع أن الدين الإسلامي ينص على جعل المسلمين إخوة متحدين، متعاونين في الماديات والروحانيات.

وهذا يوجب على كل مسلم أن يعرف نبذة عن كل دولة، أو طائفة إسلامية، تتناول موقعها الجغرافي، وأحوالها الاقتصادية، ونظمها السياسية، وموقفها بين التيارات العالمية.

على أن يشفع هذا كله بخرائط ورسوم موضحة، ويتبع بجداول إحصائية: لعدد السكان، والمساحة، والنهضة التعليمية، والنظم المالية... إلخ.

وبهذا يسهل جمع المسلمين وتعاونهم في شتى الأقطار والأمصار.

* * *

(١) في هذا الكتاب، وفيما سردنا من كتب، بيان شاف في هذا الموضوع.

مُقاوَمةُ الهَدّامِينَ

الهَـدمُ الرُّوحي

يجتهد الاستعمار في صرف المسلمين عن دينهم بكل ما يتاح له من وسائل، وفي جعل حركات التحرر الناشطة في بلادهم مبتوتة العلاقة بالدين، حتى تُولَد ميتة أو تحيا عقيمةً لا ثمر لها ولا زهر.

وما من نهضة في الأولين والآخرين، إلا ولها دعامة معنوية تقوم عليها وسناد روحي تتحرك به.

ولما كان عملُ الدين في هذه الحالة مَلْءَ القلوبِ بالضمائر الحية، وبناءَ الأخلاقِ على الفضيلة، وصبغَ الحياة بتقاليدَ جامعةٍ، ومعالمَ واضحةٍ، ورصَّ الصفوفِ على إحساس مشترك ودفعَها إلى مصير واحد، فإن الاستعمار استهدف إقصاءَ الدين عن آفاق البلاد كلها، وتكوينَ أجيال غريبة عنه، إن لم تكن كارهةً له.

بل إن ذكر الإسلام أصبح محظوراً في المناسبات الجادّة والشؤون الهامّة. وقد يحوم البعض حوله، ولكنه يَوْجَل من التصريح به.

كأن الإسلام مجرم ارتكب ذنباً، ثم فرَّ من القضاء الذي حكم بعقوبته، فهو لا يستطيع الظهور في المجتمعات.

وربما تلوح له فرصة الظهور متنكراً تحت اسم مستعار، فيتحرك قليلاً هنا وهناك، حتى إذا أحسَّ انكشاف أمره استخفَى من الأنظار!!

يا عجباً، لماذا يلقَى الإسلامُ هذا الهوان كله؟!..

مُقاوَمَةُ الهَدَّامِينَ

على الداعية المسلم أن يتذوق الحقيقة المريرة التي يلقاها دينه، وتلقاها أمته منذ ابتدأ عهد التفكك والانحلال، إلى أن تَحَرّكْنَا ببطء نحاول استنقاذ حياتنا وتراثنا، والنجاء بإيماننا وأخلاقنا.

أجل، عليه أن يواجه الغارة الشعواء التي شنّها خصوم الإسلام عليه، وأن يستبين الأغراض الهائلة الكامنة في لفح هذه الغارة وإلحاحها واتساع هجماتها.

فإذا استيقن أنها تنشد استئصال أمته، واجتثاث عقيدتها وشريعتها، وتحويلها إلى قصةٍ تُروَىٰ، وخبرٍ كان، هاجتْ في دمه غرائز الحياة، وأهاجها في نفوس الهاجعين، والغافلين، فهبُّوا مستقتلين عن كيانهم.

فإمَّا ظفِروا بالعيش الكريم لأنفسهم وإسلامهم، وإلا . . . فَلأن يُقْتَلوا مكافحين أشرف من أن يلقَوا حتفهم، وتُطوَى رايتُهم، وهم مُوَلُّون مخذولون.

هناك ثلاثة أنواع من الهدم تعمل جنباً إلى جنب منذ وَطِئَتْ أقدام المستعمرين بلادنا المترامية الأطراف.

الهدم الروحيُّ، والهدم التاريخيُّ، والهدم العسكريُّ.

وغايتها أن تتلاقَى على أنقاضنا.

وسنشرح ــ بإيجاز ــ بعض مظاهر هذا الهدم ليكون الداعية خبيراً بمقاومته، موفقاً في لفت الأنظار إلى جراثيمه.

فإن إيقاظ المشاعر له أول الأسباب للانتصار عليه.

والجواب عند الاستعمار الذي يجرّ خلفه ضغائن القرون الأولى، ويضع نصب عينه ألا تقوم للإسلام قائمة في بلاده، فهو حريص على خنقه في ميدان التربية، والمعاملات، والتشريع، وسائر ألوان الحياة..

إنه يطمئن إلى مجتمع واحد، المجتمع الذي مات ضميره، والذي تفسخت أخلاقه. في هذا المجتمع الذي غاضت منه معاني الفضل، واستغلظت فيه غرائز الشره، وزحفت فيه ثعابين الأثرة، يستطيع الاستعمار أن يطمئن إلى يومه وغده. فإذا جاء الإسلام ليمسح هذه الأقذار طلب منه ـ على عجل ـ أن يعود إلى وكره ليُخْفَى عن الأعين.

إنه اسم لا ينبغي أن يُذكَر، وحقيقة لا يجوز أن تعيش.. هكذا حكم الاستعمار. حتى قيّض اللّه فكرة (العروبة) عنواناً نستطيع تحته أن ندفع غوائل الموت. وقد هششنا للفكرة ورجونا من ورائها الخير.

وللعروبة المجردة مُثُلٌ تعكر على الاستعمار مآربه.

إن التعليم في ظل الاحتلال الأجنبي، خلق أناساً تحركهم الشهوات وحدها، أناساً فرغت عواطف اليقين من أفئدتهم فهي هواء.

فإذا جاءت إليهم العروبة، فهل يعرفون أن العفة من خلائقها؟ وأن تقديس العرض من شمائلها، وأن المحافظة على الحريم من صفاتها الباطنة والظاهرة.

إن أمثالَ العرب في الجاهلية تشهد بما كان لهم من غيرة على نسائهم.

فالمثل القائل: «كل ذات صِدار خالة» يعني أن العرب يجعلون في حكم الخالة كل من تلبَس ثياب المرأة، فما ينظرون إليها إلا نظرة الاحترام والعفة. .ذلك أن الخالة بمنزلة الأم، ويقول الشاعر:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مثواها

ويقول الآخر:

ولا أُلْقِي لذي الوَدَعَاتِ سوطي ... أداعبه، وريبتَه أريد..!!

يعني أنه لا يلاعب طفلاً مع أمه، ابتغاء إثم بالأم نفسها.

فهل هذه الشوارع الغاصة بمتتبعي العورات، وبُغاة الدنيّة شوارع عربيّة؟ وهل عربٌ أولئك الذين ترىٰ الواحد منهم يتأبط ذراع فتاة متبرجةٍ لعوب، تسير في وضع يقول لكل ناظر: هيتَ لك؟؟

والعرب الأقدمون كانوا أصحابَ كَرَم غريب، وإيثار رائع، ونهوض بالحق على عض الزمن، وشدة الحاجة.

وآسمع قول عروة بن الورد:

وإني امرؤ عافى إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

أرأيت صورة الإنسان النبيل يؤثر غيره بالطعام، ويستعيض برشحات من الماء البارد يصفرُّ بها وجهه، وهو يأبَى تضييع من نزلوا به، وحسبه أنه فرق جسمه في جسوم كثيرة..

آحتفظ بهذه الصورة ثم سلْ نفسك: أمدن عربية هذه التي تراها مزدحمة بأصحاب الفضول من المال النامي، ومع ذلك فقلما تؤوي يتيماً، أو تغدو محروماً؟؟

وما لنا نبحث عن الشمائل العربية المفقودة في بيئات مسخها الاستعمار وترك عليها طابع الحيوانية والتقطع؟

إنك ترىٰ الواحد من أولئك يقول: إنه عربي، ولغة العرب لا تستقيم على فمه!!

ومن تعاجيب الليالي أن أسمع المذيع مثلاً يقول: يا أخي المواطن «إحنا بنعمل إيه في هذه الأيام».

وكان يستطيع أن يقول: ماذا نعمل في هذه الأيام..؟

ولكنه حريص على تخليد لغة الرَّعاع، والتنكر للغة الفصحَى.

وهي اللغة التي ترسل بها الإذاعات من جميع محطات العالم لمستمعيها على اختلاف ألسنتهم، إذ يستحيل أن يخاطب المذيع قومه ــ في أيّ عاصمة ــ بلغة غير الفُصحَى.

فهل من مظاهر الوفاء لعروبتنا أن نذيع نحن بلغة الرعاع؟

الواقع أن الإسلام وحده هو الذي يخلد العروبة، لغة وأدباً وخُلُقاً، وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقي على العروبة في لغتها وأدبها وخُلُقها.

ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا في إبراز هذا الاسم، بقدر ما يستميت الاستعمار في إخفائه، وأن يُذهِبوا عنه الوحشة التي صنعها أعداؤه حوله، حتى يُصبح مألوفاً في الآذان محبباً إلى القلوب.

وإظهار هذا الاسم لا يكفي، فما قيمة شكل لا جوهر له؟

يجب على الدعاة أن يجمعوا الجماهير على تعاليمه، وأن ينعشوا أنفسهم بروحه.

الضمير الديني الخاشي للّه، الرحيم بخلقه، المحتفي بالواجبات، النَّفُور من الرذائل، الشجاع في نصرة الحق، المستعد للقاء اللّه، المتأسي بصاحب الرسالة، هذا الضمير يجب أن ندعمه، بل أن نوجده في كل طائفة، وأن نربط به إنجاز كل عمل، ونجاح كل مشروع، ومنع كل تفريط، وصيانة كل حق.

فالإسلام قبل كل شيء قلب كبير، قلب موصول باللّه يبادر لمرضاته، ويتقيه حيث كان. وهذا القلب لا يتكون من تلقاء نفسه، ويستحيل أن يتكون بداهة وسط تيارات الشكوك والتجهيل التي تسلط عليه عمداً ليضطرب ويزيغ.

إنه يتكون بأغذية روحية منظمة تقدم له في برامج التعليم، وفي عظات المساجد وفي صبغ البيئة بمعان معينة تساعد على احترام الفضيلة وإشاعتها،

ونحن أحوج ما نكون لإنشاء هذه الضمائر في الذراريِّ المحدثة التي عريت عنها، والطبقات الكثيفة التي مردت على العبث والاستخفاف بجميع القيم.

إنني أستغرب كيف نشتري آلة مَّا بأغلَى الأسعار، ثم نقف أمامها عاملاً لا يتقي الله فهي تخرب بين يديه على عجل.

أو يقلُّ إنتاجها لو قُدِّرَ لها البقاءُ سليمةً..!

إننا لو بذلنا شيئاً زهيداً لغرس التدين الحق في قلب هذا العامل لربحنا الكثير.

أفلا يبذل المسؤولون هذا الشيء الزهيد ولو على اعتباره نفقات صيانة للآلة التي اشتُرِيَتْ؟؟

إن من حق الله علينا، ومن حق بلادنا علينا، أن نربيَ الصغار والكبار على رعاية هذا الجانب الروحي الجليل.

ويوم يتنادَوْن باسم الإيمان لابتداء عمل مَّا، فسوف يتمُّ على خير الوجوه.

إن الضمير الديني علاقة راشدة بالسماء ونواة مباركة في الأرض.

وما أصدق قول الأستاذ «أحمد الزين» في وصفه:

هو صوت السماء في عالم الأر ... ض وروح من اللطيف الخبير

وشعاع تذوب تحت سناه ... خدع العيش من رياء وزور

هو سر يحار في كنهه اللـ ... ـب وتعيا به قوى التفكير

مبلغ العلم أنه روح خير ... باطن الشخص ظاهر التأثير

كل حيٍّ عليه منه رقيب ... حلَّ من قلبه مكان الشعور

حلَّ حيث الأهواء تنزو إلى الإثـ ... ـم وتهفو إلى مهاوي الشرور

جامحات أعيت على الناس كبحاً ... رغم إنذارها بسوء المصير

ثم صاح الضمير فيها نذيراً | فأصاخت إلى صياح النذير
هو روح من الملائك يسمو | بسليل الثرى لعالم نور
قد تولت بالأنبياء عصور | وهو باق على توالي العصور
حافظاً في الزمان ما خلّفوه | قائماً في الصدور بالتذكير
حاملاً من شرائع الخير كتباً | قُدِّسَتْ من صحائف وسطور
ليس يعفو عن الهنات وإن ها | نت مُلِحٌّ في اللوم والتعذير

ونحن نُنشد هذا الشعر هنا تكريماً للأدب العالي، وإلا فلا مجال لقول بعد أن نتدبر قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

والاستعمار يدرك أتمّ الإدراك، أين يقع زمام الإنسان؟ ومَنْ يُوَلّيه وجهته؟

ولذلك ركّز هدمه الروحي على القلب المؤمن، العارف بربه، الراكن إلى غيبه، كيما يوجد قوماً إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإذا بلوتهم في عهد أو أمانة أو عمل، أدركتَ أنك تتعامل مع قطيع دوابّ، لا مع نفر من الناس.

والحياة الروحية الصالحة لا مدد لها في أمتنا إلا من الإسلام، دين الكثرة التي تذاد عنه بالختل، والمكر، والتي تُحرَم العيش في ظلاله خشية انفجار غضب الاستعمار، وإتيانه على الأخضر واليابس.

ولك أن تتساءل: أكذلك الحال في أوروبا وأمريكا؟ يُقْصَى الدين جانباً ويسمح للحياة البعيدة عنه أن تمتد وتسود؟

وهاكَ الجوابَ كما كتبه الأستاذ «محمد زكي عبدالقادر» بعد أن عاد من رحلة إلى أمريكا تحت عنوان «سلطة الكنيسة في أمريكا» قال فيه:

قد يظن الكثيرون أن أمريكا تحررت من سلطات الكنيسة.

ولكن هذا الظن ليس صحيحاً، فإن المنظمات الدينية والكنسية متعددة في مختلِف الولايات.

ومن التقاليد التي جرى العرف على الأخذ بها ألا يتولىٰ منصب رئيس الولايات المتحدة أحد من الكاثوليك.

وليس في الدستور والقوانين ما يحرم ذلك، فإنها لا تفرق بين أحد وأحد فيما يتعلق بجنسه أو دينه، ولكن التقليد بلغ من القوة حَدّاً جعله أشبه ما يكون بنص الدستور.

والمنظمات الكاثوليكية أقوى نفوذاً من المنظمات البروتستانتية، وإن كان أتباع الكنيسة البروتستانتية أوفرَ عدداً، وذلك لأن الكاثوليكية أشد عناية بالمظاهر والرسميات، وأكثر التصاقاً بأتباعها وتأثيراً في حياتهم من الكنيسة البروتستانتية. ويصعب على أيّ فرد في الولايات المتحدة أن ينتقد الكنيسة الكاثوليكية، فهي تنتحل لنفسها ما يشبه الحصانة.

وهي تتدخل ـ وكذلك تفعل الكنيسة البروتستانتية ـ في شؤون التشريع والتنظيم في كثير من الأحيان.

وقد تُدْعَى لإبداء رأيها ـ بصفة رسمية ـ في بعض التشريعات والقوانين سواء في الولاية أو في الحكومة الاتحادية.

وبين المرشحين الظاهرين لمنصب رياسة الجمهورية السناتور كيندي. ويعترف الأمريكيون بقدرته وكفايته، ويرى الكثيرون منهم أنه خير من يلي هذا المنصب، ولكنهم يرتابون في إمكانه ترشيح نفسه، ويرتابون كثيراً في نجاحه لو أنه رشَّح نفسه... وذلك لأنه كاثوليكي.

وربما كانت وجهة النظر الأمريكية في هذا بعيدة عن الصلة بالدين[1]، والمذهب في ذاته. فهم يقولون: إن نجاحه ـ كرئيس لجمهورية الولايات

---

(١) الواقع أن التعصب المذهبي وحده أساس هذا المسلك، وما يذكر ليس إلا تعلة لتغطية الموقف فقط.

المتحدة ــ يعني أنه سيكون تحت سلطان البابا الكاثوليكي في روما.
وهم ينفرون من هذا السلطان على أية صورة من الصور.

ويقولون إن نفوذ البابا على إيطاليا وإسبانيا خاصة واسع إلى حد كبير، وهو موجود أيضاً في فرنسا، وإن كان بصورة أقل وضوحاً.

والكنائس في الولايات المتحدة ليست منظماتٍ دينيةً فقط، ولكنها تُعْنَى أيضاً بالشؤون التعليمية والاجتماعية، وتتدخل أحياناً في الشؤون السياسية.

ويتولاها أشخاص ذوو كفاية وثقافة، يعرفون أين يقفون وكيف يؤثِّرون عن طريق الدين في الكثير من أساليب الحياة. ثم إنهم يديرون المدارس والمؤسسات التعليمية، وينفذون إلى حياة العائلات.

وربما كان مما أتاح لهم هذا النفوذ أن فريقاً كبيراً من المهاجرين الأوائل تركوا بلادهم تحت ضغط الاضطهاد الديني.

ومن ثم بدأوا حياتهم . . ثم استمروا فيها، وهم أشد ما يكونون التصاقاً بالدين».

أقول: ويبدو أن ما يباح للأديان كلها يحظر على الإسلام وحده، فلا يجوز أن يرتفع له عَلَمٌ، ولا أن يكون لأهله نفوذ، ولا لشرائعه هيمنة!!!.

* * *

وخطط الاستعمار في الكيد للإسلام، وصرف النـاس عنه، وقـطع الأواصر بين ضمائرهم وبواعثه، وبين أعمالهم واسمه، كثيرة محكمة.

لقد استعان ــ بعد ما أخفى دولته الكبيرة ــ بالوطنيات الضيقة كي يكون الارتباط بها أساس الأعمال الخاصة والعامة.

والارتباط بهذه الوطنيات، مهما سما وقوي، لا يصد نزعة شيـوعية ولا فلسفة وجودية ولا تفكيراً مادياً، ولا مذهباً منحرفاً.

فإن هذه الوطنيات ــ بمدلولها الوثني المستجلب من الخارج ــ لا تعني إلا تقديس قطعة من الأرض والمغالاة بأهلها.

ومن الممكن توفير هذا المدلول مع البعد عن الله، والذهول عن شرائعه!.

قد تقول: فهناك مواريث التاريخ واللغة، وسائر التقاليد المبثوثة في حياة الأفراد والأسر، وهذه لها أثرها العميق في استبقاء الناحية المعنوية وضيئة.

والجواب: أن الاستعمار احتاط للأمر حتى تندثر هذه النواحي كلها، فلا يبقى هناك ما يوجِّه للإسلام أو يعلق القلوب به..

إنه هجم على اللغة العربية بلغاته التي يتكلم بها ويعتز، فجعل اللغة الدخيلة أعلى منزلة من الأصيلة، وجعل اجتياز الامتحانات بالتفوق فيها ضرورة، وجعل الجودة فيها معياراً للترجيح المادي والأدبي في كل مجال.

وبذلك تعرضت العربية للاضمحلال والهوان، وسقط بذلك جزء من الكيان الروحي للأمة.

ثم جاء إلى التاريخ، فأهال التراب على الحياة الإسلامية الماضية، وشرع يشحن أذهان التلامذة بأحداث التاريخ الأوروبي، والتاريخ المحلي للقطر الذي انفصل عن شجرة العروبة والإسلام.

واكتفى بسردِ نُبَذٍ طفيفة عن التاريخ الإسلامي الرحب، بعدما صيغت في أسلوب يجعل تدريسها متاحاً لأي معلم، ولو كان من اليهود، لأنها ميتة لا روح فيها، مشوهة لا تخدم فكرة، ولا تثير خيراً.

ثم تَتَبَّع ما قد يُوحِي بالإسلام، فَقَصَّ أجنحته، وفضَّ مجامعه، لكنه يخشى أن يقع شيء مَّا يذكر الغافلين، ويحيي الهامدين، خصوصاً بعد عودة اليقظة إلى العروبة الغافية.

فماذا يصنع؟ رأى أن يكاثر العرب في بلادهم بفئات أخرى من أهل الأرض، إن لم يكف بنو جنسه لهذه المكاثرة..

جاء مثلاً إلى «عدن» وفيها من سكانها الأصلاء نحو سبعين ألف عربي، فاستقدم من «الهندوك» نحو ستين ألفاً إلى الآن.

وهو ماضٍ في سياسته الصامتة ليصحو أبناء البلد فيرَوا أنفسهم قلة فيه. وبذلك ينخفض ميزانهم إلى الأبد.

وهذه السياسة تجرب الآن في «البحرين» وفي «الكويت».

وقد جربت بنجاح في «سنغافورة» التي كانت كثرتها من المسلمين، فأصبحت الآن من الصينيين والهنود وغيرهم.

والغريب أن المسلمين في الملايو كانوا لا ينقصون عن ٩٥٪ فأمسوا ـ في ظل الاحتلال الإنجليزي ـ لا يزيدون الآن عن ٦٠٪.

ونحن نعلم أن «فرنسا» وطنت أكثر من مليون فرنسي ويهودي في الجزائر، وكذلك تصنع أغلب الدول الاستعمارية.

والغرض أن تتحول البقاع الحساسة في البلاد الإسلامية ـ بعد هذه الهجرات ـ إلى إسرائيل أخرى... ينحسم منها عرق الإسلام انحساماً لا يؤذِنُ بِعَودَة.

وقبل ذلك إحداث بلبلة فكرية وروحية شاملة، بحيث تحتبس أصوات المسلمين في حلوقهم، فلا يجرؤ أحد على النداء بوحدة عاطفية، ولا خُلُقية.

وقد حاول الإنجليز إنجاح هذه التجربة في العراق من أربعين سنة.

فاستقدموا جيشاً من الموظفين الهنود، وهيئوا مستعمرات الإقامة لألوف من الأُسَر الهندوسية.

وضنوا بأرض العراق على أهله، وأخذت مشروعاتهم تظهر على شواطىء الدجلة والفرات..

ولولا أن الشعب العراقي انتفض في ثورة جائحة قضت على المشروع وواضعيه، لكان الآن العراقيون قلة أو مساوين في العدد للمهاجرين الذين نقلتهم سلطات الاحتلال!.

وفي التنديد بهذه المحاولة الآثمة يقول «الرصافي» من قصيدة له:

لنا مَلِكٌ وليس له رعايا ... ومملكة وليس لها جنودُ!

. . . .

أتغـدو الهنـد خيـراً من بـلادي — وخيـراً من بني قـومي الهنـودُ؟
أمـا والـلَّه لـو كـنـا قـروداً — لمـا رضِيَتْ بعيشتنـا الـقـرودُ!

والمحور الذي تدور عليه سياسة الاستعمار فصل الأمة عن قواها الروحية، وإبعادها عن منابع الإيمان وتوجيهات اليقين، والاجتهاد في خلق ناس قلوبهم هواء، وأفئدتهم خلاء، لا يجمعهم رباط، ولا توحدهم غاية.

وأدنى الوسائل إلى ذلك تفتيت الأمة، وتكثير أهوائها.

فإن لم توجد فيها قلة يمكن أن تعتبر «كمسمار جحا» وتُعجز رب الدار عن حرية التصرف فيها، وجب استجلاب الغرباء من كل ناحية، ليطالبوا بعقيدة غير العقيدة، ومجتمع غير المجتمع، وتاريخ غير التاريخ، ومصلحة غير المصلحة.

وهكذا يُكرَه المسلمون على ترك دينهم، ويضطرون إلى صرف الفكرة عنه، إذا نادَوا باستقلال!!

والاستعمار هو الكاسب على أية حال.

من المستحيل أن ينهض المسلمون، بعيداً عن قواعد دينهم، أو أن ينهض بناؤهم الخلقي والثقافي والاجتماعي مع التجهم لكتاب اللَّه وسنة رسوله.. إن الاستعمار أفهم بعضَ المغفلين، أنّ من المستطاع فصلَ الدين عن كل شيء في الحياة العامة والخاصة.

لينطلق كل شيء متحرراً من الدين، أي من الإسلام وحده.

وليبقىٰ الدين ــ بعد أن انفصل عن كل شيء ــ خبراً كان وذكرياتٍ مضتْ، وخرافاتٍ انقضتْ...!!!

ونحن نرى ضرورة «ردّ الاعتبار» إلى هذا الدين الذي أهانه الغزاة وجردوه من كل فضل، ونسبوا إليه كل عيب، وأطلقوا المسعورين ينبحون قوافله كلما بدأت لها حركة..

لماذا يُطلَب منا ــ نحن المسلمين ــ أن تحيا أرواحنا بعيداً عن دفء الإيمان الذي انتهينا إليه؟ إن الذين يُطفئون شموعنا سيبقون معنا في ظلام لأنه ليس لديهم نور..

أما الزعم بأن الإسلام لا يصلح للعصر، فهو زعم سخيف منتن.

صحيح أنه لا يصلح للحياة مع الاستعمار، ولا يقبل بتةً أن يجاوره في دار، أما صلاحيته للحياة المطلقة المشرقة فهو ينبوع صفوها ونورها.

ولا بأس أن ننقل هنا كلمات حسنة للأستاذ «محيي الدين نَصّار» من مجلة «العلوم السياسية» لها بموضوعنا كبير اتصال.

الـــدين:

اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصُّل العقيدة الدينية في طبائع الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ.

وترجع أهمية الدين ــ كعامل للوحدة ــ إلى تأثيره في تكوين الأمم وتمييزه بعضها عن بعض، فهو يولّد نوعاً من الوحدة في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً.

فالدين من هذه الوجهة أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ.

ويكفي للدلالة على أن مكانة الدين ما زالت قائمة في القرن العشرين، نشأة دولتي «إسرائيل» و«باكستان».

الأولى على أساس اشتراك اليهود في الديانة اليهودية واللغة العبرية والآمال المشتركة... إلخ.

والثانية على أساس الإسلام والحضارة الإسلامية... إلخ.

والإسلام هو الدين الذي يوحد العرب ويجمع شملهم، لأنه دين الكثرة منهم.

والإسلام دين عقلي.. وهو قانون للفرد والمجتمع، والعلاقات المحلية والدولية على السواء.

وهو دين ديمقراطي، دين المساواة الكاملة بين البشر باعتبارهم من خلق اللّه، والإسلام عبارة عن جملة من المعتقدات التي تدور حول مبدأ التوحيد.

وهو دين مَرِنٌ، ومتطور، ولا يتعارض مع المدنية والحضارة، بل إنه نفسه خلق للعرب مدنية وحضارة، وهو كما قالت نجلاء عزالدين:

ليس قوةً تعمل على الوحدة باعتباره ديناً فحسب، بل باعتباره منهجاً مفصَّلاً للحياة الكاملة أيضاً.

ولقد عقد البحاثة الأمريكي «هوكنج» أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد، فصلاً مستفيضاً عن (مصير الثقافة الإسلامية) في كتابه «روح السياسة العالمية» قال فيه: «إن سبيل تقدم الدول الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب المفترضة التي تَدَّعِي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية أوعن القانون والنظم السياسية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم».

قال: «وأحياناً يتساءَل البعض عمّا إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية؟؟..».

«والجواب على هذه المسألة هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، وأما من حيث قابليته للتطور، فهويفضل كثيراً من النظم والشرائع المماثلة.

والصعوبة لا تنشأ من انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل إلى استخدامه...».

هكذا قال البحاثة الحصيف!! ولست أريد أن أقف لتعليل هذا العزوف، وحسبي أن أذكر قوله: «.. وإني أشعر أنني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض...».

ذلك، وفي الإسلام قال برناردشو: «لا يمضي مائة عام حتى تكون أوروبا ــ ولا سيما إنجلترا ــ قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة».

والإسلام ــ كما قال «فاليو دوردسن» ــ: «دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، ولا أكاد أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه».

والإسلام ــ كما يقول الأستاذ العقاد ــ يمكن تلخيصه في كلمة واحدة هي «الحق» وهو بذلك يكون الدين الحق.

إنه دين شامل، وشموله هذا هو الذي حقق له ما لم يتحقق لعقيدة سواه من تحويل الأمم العريقة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار.

وبالنسبة للحرّيات: نجد أن ثورات العالم المدنية والدينية لم تعلن حقوقاً عامة للإنسان قبل ثورة الإسلام في القرن السادس للميلاد.

وعند الأستاذ «جب» أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات. إنه أعظم من ذلك كثيراً إنه مدنيَّة كاملة.

ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا: العالم المسيحي ولم نقل المسيحية.

وعناصر الإسلام الثلاث التي لا انفصال لها في سياسته وجماعته هي: المساواة، والمسؤولية الفردية، وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات.

ولا مصدر للسلطة العامة في الإسلام غير الأمة.

ولا مرجع للمسؤولية العامة غير الأمة، فهي التي تَدين حكَّامها وتَبُتُّ في مصايرهم.

والإسلام كما قال الدكتور «جوستاف لوبون» ــ محذراً من تخرصات المرجفين ــ: «إنه لم يوفق كثير من عظماء المؤلفين المشهورين عندنا إلى فهمه. ولذلك يجب علينا أن نتروّىٰ قبل أن نجاري أولئك الذين لم يَقْدُرُوا الإسلام حقَّ قدرِه، وأن نحاول أن نتبين أهميته بالنسبة للوحدة العربية».

لقد اشترك الإسلام ــ بل انفرد ــ كقوة خالقة في تكوين الأمة العربية،

وكانت أول مساهمة له في تأميم الحياة العربية في إطار من الإخاء داخل المجتمع الإسلامي.

وترجع حركة التعريب الواسعة بين شتى الشعوب إلى انتشار الإسلام.

وعند «محمد إقبال» أن الإسلام بالنسبة للظروف التي ظهر فيها، كانت هبته العظيمة للعرب في خلق مجتمع وإنشاء دولة:

والعلاقة بين العرب والإسلام علاقة فريدة.. فالإسلام دين عربـي.. إذ نزل القرآن الكريم بالعربية.. وكان الرسول رجلاً عربياً من قريش.

وتنظر القومية العربية إلى الإسلام كإرث قومي مشترك على الأقل.

قال: ولا يوجد تعارض البتة بين القومية العربية والإسلام، فالإسلام دين العرب ومن عوامل وحدتهم، بل إنه ـ باسمه ـ فتحت البلاد العربية وانتشرت اللغة العربية.

والقومية العربية في حاجة إلى دين الإسلام العربـي لكي تكشف عن أصلها، ومصادر قوتها.

والخلاصة أنه لا بد أن يُرجَع إلى الإسلام والقرآن في خلق الأمة العربية والدول العربية، وقد حمل الإسلام العرب شوطاً بعيداً تجاه التقدم نحو وعي عربـي.

وفي هذا يقول الدكتور «أديب نصور»: «بالإسلام تكونت ذات عربية معروفة في التاريخ، هذه الذات الفذة التي كوّنها الإسلام فتحت الفتوح ومصّرت الأمصار وحكمت الأمم بضعة قرون».

وفي هذا تقول الدكتورة «نجلاء عزالدين»:

«والإسلام يوحّد العرب عاطفياً ويربطهم بوحدة المُثُل العليا، وقد كان الإسلام وما زال في قلوب الكثيرين من العرب إلى اليوم يقوم مقام القومية».

ويعترض البعض على اعتبار الإسلام من عوامل الوحدة بين العرب نظراً لوجود أقليات غير إسلامية ساهمت بنصيب كبير في إحياء القومية العربية، وبعثها، وفي نشر حضارة العرب في أوروبا.

ويهمنا من هذه الأقليات العربية المسيحيون، وهؤلاء يقف منهم الإسلام موقفه من الذميين عموماً يرعاهم ولا يفرق بينهم وبين المسلمين في الحقوق أو الواجبات، بل إن المسيحيين الشرقيين نالوا من الحرية والعدالة في ظل الإسلام أكثر مما نالوا في ظل المسيحية الغربية.

أما ما حدث بين المسلمين والمسيحيين من حروب صليبية فإن ذلك لم يكن على أساس ديني خالص، بل اكتنفته مطامع أوروبية سيئة.

وإنما حدث الغزو الصليبي بدافع الاستعمار، ولم يكن ذلك دفاعاً عن الأرض المقدسة في فلسطين كما يقولون، بل كان دفاعاً عن المصالح الاستعمارية للغزاة الفاتحين.

* * *

الهَـدْمُ التّـاريخي

وعلى الداعية المسلم: أن يعرف عظمة النعمة التي أفاءها الإسلام على العالم أجمع، عندما أشرق نوره واكتمل ظهوره.

إن الأغلال التي فكَّها عن العقول، والآصار التي وضعها عن الكواهل، والآفاق التي افتتحها لنشدان الكمال، والقوىٰ التي حرّكها لإحياء الحضارات، إن هذه كلها بعض آثار الإسلام في الأرض.

ولولا أن هذا الدين نجح في تبليغ رسالته، لعادت الإنسانية إلى الوراء متقهقرة ما تقف حتى تبلغ العصر الحجري.

ذلك أن الفساد كان قد عمّ البرّ والبحر.

فالليل المضروب على العبيد في الشرق والغرب لا يؤذن بفجر.

والجبابرة الذي سخّروا الدين لمآربهم لا يجرؤ على اعتراضهم أحد.

والمصايد المطبقة على الأفكار والأرواح لا يخرج من سجنها بائس.

ولولا هذا الإسلام لظلت أوروبا على نَتَنِهَا المادي والأدبي، تتعبد بالنجاسة، وتتقرب إلى اللّه باحتقار العقل وذبح المفكرين.

ولقد ظل الأوروبيون يمقتون الإسلام أقبح المقت، ويؤذون اللَّه ورسوله بأشد الكلم، وظل الإسلام يقاوم تعصبهم على مَرِّ القرون، حتى أفلح آخر الأمر فأنفذ أشعته إلى العيون الكارهة لها.

وبدأ عصر النهضة في أوروبا، نعم بـدأ عصر النهضـة، وتحركت

الأحجار بعد بضعة عشر قرناً من مواتها في شمال أوروبا وجنوبها وشرقها وغربها.

وكان الفضل لنا نحن، لآبائنا الكبار، لأساتذة الدنيا في أعصار لم تعرف الدنيا غيرهم، يومض بشعاع، ويتألق بنور...

وكان ينبغي أن يعرف الأوروبيون لنا هذه المنة، وينسبوها للعرب وللمسلمين أصحابها الأصلاء، ولكن الجحود غلبهم، والتعصب استبدَّ بهم، فإذا النهضة التي اشتعلت في غرب أوروبا وسميت بعصر الإحياء، تنسب إلى جهود علماء القسطنطينية[1] وهجرتهم أمام الفتح التركي.

وهكذا نال علماء القسطنطينية وما حولها فخراً لم يحلموا به، ولم يفكروا فيه يوماً..!!!

واستمرت سياسة[2] الجحود والكذب في مجراها المرسوم، فإذا هي لا تجحد الفضل فحسب، بل ترمي العقل الإسلامي بكل نقيصة وتتهمه بكل وصمة، وتلح في وصف العرب والمسلمين بأنهم ما كانوا يوماً مَّا حملة علم، ولا خدمة فكر !!!

ويمضي التعصب الخسيس في طريقه، ليحيك مؤامرة بين المبشرين والمستشرقين، تستهدف خلق جيل من المسلمين المهزومين يَفهم أن آباءه لم يحسنوا لحظة، لا إلى أنفسهم ولا إلى الناس.

وأن الإسلام كان ديناً همُّه التدمير لا البناء، والجمود لا التجديد.

وأنه إذا كان هنالك في تراثه ما يشير إلى ألمعية وروعة فهو مسروق أو منقول عن الإغريق وغيرهم.

ولولا نفر من المنصفين استحيى من فعال قومه لطُمِسَتْ الحقيقة، وذهب فضلنا مع الريح.

(١،٢) في كتابنا «كفاح دين» بعض الشواهد الناطقة بأن العرب وحدهم كانوا السبب الأول والأخير في عصر الإحياء مهما كرهت الكنيسة.

ولكنْ ما يصنع هذا النفر مع الكثرة التي تريد إقناع نفسها وإقناعنا معها بأننا لم نكن يوماً مَّا شيئاً مذكوراً، ولن نكون ــ وكذلك يأملون ــ؟

والدكتور «فيليب خوري حتي» يروي في كتابه «تاريخ العرب» هذه النغمة التي يتواصَى المستشرقون بإذاعتها وإشاعتها.

فهو يؤكد في أكثر من موضع أن المسلمين لم تكن لهم حضارة خاصة، ولا ينبغي أن يُذْكَروا بتراث من نسج أفكارهم وعمل مواهبهم.

إنهم عالة على الأمم التي غلبوها، وجسر مؤقت عبرت عليه مدنيات الأقدمين. واسمع إليه يقول عن مظاهر الحياة العقلية في عهد الأمويين: «لم يحمل الغزاة من الصحراء معهم إلى البلاد المفتوحة تراثاً ثقافياً ولا تقاليد علمية، ولقد جلسوا في كل من الشام ومصر والعراق وفارس مجلس التلاميذ عند أقدام الشعوب التي أخضعوها، ولِلَّه ما كان أنهمَهُم من تلاميذ في طلب العلم..».

وهو قبل ذلك يتحدث عما يسمَّى بـ«الحضارة العربية»!! فيزعم أن العرب لم يستولوا فقط على مساحات شاسعة من الأرض حين أتموا فتح مصر وفارس وغيرهما، بل أصبحت في حوزتهم أقدم مراكز الحضارة في العالم كله، ووضعوا أيديهم على ما احتوته هذه الحضارات من تقاليد عريقة ترجع إلى اليونان والرومان والفراعنة وبابل وآشور.. إلخ.

ثم يقول: «لم يكن لدى العرب الأصليين أي شيء يُعَلِّمُونه للآخرين، وكان أمامهم كل شيء ليتعلموه، ولِلَّه ما كان أشدَّهم فهماً! إن أولئك العرب المسلمين بما فطروا عليه من رغبة شديدة في العلم وبما انطوت عليه جوانحهم من قوى كامنة لم تُثَرْ بتاتاً من قبل، قد بدأوا الآن بفضل تعاونهم مع رعاياهم، وبفضل مساعدة أولئك لهم يهضمون ويكيفون وينبشون تراثهم العقلي والفني.

ثم يقول: وعلى ذلك فما نسميه بـ«الحضارة العربية» لم تكن عربية

لا من حيثُ أصلُها ومقوماتُها الأساسيةُ ولا من حيثُ مظاهرُها الجنسيةُ الهامةً، وإن الإضافةَ العربية الخالصة فيها ربما كانت في الميادين اللغوية، وإلى حدٍّ مًّا في الميادين الدينية، وطوال عصور الخلافة كان أهل الشام وفارس ومصر وغيرها، مسلمين كانوا أم مسيحيين أم يهوداً، هم حملة شعلة الثقافة والعلم، كما كان شأن اليونان المنهزمين في علاقاتهم مع الرومان المنتصرين تماماً».

ويمضي هذا المستشرق في شططه الغريب، وكأنما هو يؤدي وظيفة مرسومة لا بحثاً علمياً، فيتحدث عن أيام العباسيين قائلاً: «إن الذي جعلها زاهية في تاريخ العالم أجمع هو تلك اليقظة الفكرية الهائلة التي شاهدها تاريخ الإسلام، والتي تعتبر أهم فترات تاريخ الفكر والثقافة في العالم..».

قال: «ويرجع السبب في هذه اليقظة ـ إلى حد كبير ـ إلى التأثير الأجنبي، ذلك التأثير الذي يقوم في بعض أجزائه على عناصر هندية وفارسية وسورية، ولكنه في جملته يعتمد على الإغريق، وكانت الترجمة محور هذا النشاط.

قال: «وإن المسلم العربي بما حمل معه من الصحراء من إحساس حاد، وشغف عقلي، ونهم للعلم، وقوى كامنة ـ كما درسنا سابقاً ـ سرعان ما أصبح الوارث المنتفع من هذه الشعوب.

وهي شعوب أكثر وأقدم ثقافة من الذين غزوها، وإن كان هؤلاء الغزاة قد بدأوا من عندهم بجزء قليل من العلم والفلسفة، والأدب..».

جزء قليل!! إن هذا اعتراف، ما كان له من داعٍ!! وليست فيه دلالة على إنصاف.

ومع ذلك فلنقبله من الدكتور «فيليب حتي» ثم لنسمع إلى ما أردفه به من عبارات. قال: «لم تمض عشرات من السنين حتى اهتضم علماء العرب ما أنفق اليونان قروناً في توضيحه.

على أننا يجب أن نذكر أن الإسلام في أخذه بمظاهر الثقافتين اليونانية والفارسية، فَقَدَ طابعه الأصلي الذي كان يشف عن روح الصحراء، ويحمل طابع القومية العربية».

ومن السهل أن نوجز مآرب الكاتب في هذه الخلاصات:

١ ــ لم يحمل العرب معهم حضارة يعلمونها للناس عندما خرجوا من جزيرتهم ينشرون الإسلام.

٢ ــ إذا كانت هنالك نهضة اقترنت بانتشار الإسلام فهي وليدة الازدواج الذي تمّ بين خصائص الجنس العربي، ومواريث الأمم المغلوبة على أمرها.

٣ ــ إن الشعوب المتخلفة عن الانهيار الحربي للرومان والفرس، كانت أرقى من العرب الفاتحين، وأرفع مستوىً من المسلمين المنتصرين.

ولذلك فقد قامت بوظيفة الأستاذ لمن قهرها، وقام العرب بدور التلميذ.

ويؤسفنا أن نذكر نحن بإيجاز، أن هذه النتائج المستخلصة من كتابات ذلك المستشرق وكتابات أمثاله الحاقدين على الإسلام، لا أساس لها من الصحة، ولا سناد لها من العلم ولا أثارة فيها لوفاء.

بل إنها لون من الهدم المتعمَّد لتاريخ أمة أسدت إلى العالم أعظم الفضل، وطوقت عنقه بصنيع يجب أن يُحْمَدَ لا أن يُغْمَط.

١ ــ فأما أن العرب لم يحملوا معهم حضارة تُعلَّم للناس، فهذا من أبين الغلط، فإن القرآن الذي صنع العربَ صناعةً جديدة، وكوَّنَ منهم خير أمة أُخرِجَتْ للناس، تضمَّن من بواعث الازدهار الفكري والنفسي، وأصولِ الحقوق الخاصة والعامة، ما جعل العالم ينتقل به من طور إلى طور.

إن هذا القرآن ليس كتاباً من تلك الكتب التي تحمل نعت القداسة، فإذا أَجَلْتَ النظر في صحائفها طويتَها على عجل احتراماً لعقلك وخُلُقك، كلا، إنه كتاب يستثير أقصى ما في العقل الإنساني من طاقة، ويهز آخر ما في الضمير الإنساني من شعور.

وهو يخلق جوّ البحث والتفكير خلقاً، ويدفع بقوة إلى النظر والتدبر..

ثم إنه تضمّن من الشرائع الاجتماعية، والتوجيهات الإنسانية، ما لم يكن للدنيا عهد به، والرسول العربي الخاتم لجميع الأنبياء كان بالنسبة

إلى العرب كالغيث الهاطل على أرض موات لم تلبث به إلا قليلاً حتى تحولت إلى وادٍ ممرع، حافل بصنوف الثمر.

وعندما فَصَلَ العرب عن حدودهم، وانساحوا في أرض اللَّه يُبَلِّغُون رسالته، كانوا يحملون مبادىء أرقى ألف مرة من المبادىء التي حملتها ثورات العالم الحديث.. فالزعم بأنهم لم يحملوا للعالم حضارة، ولا تقاليد علمية، ولا توجيهاً ثقافياً إنما هو زعم فارغ.

ربما صح أنهم لم يحملوا للعالم طرازاً جديداً في فن البناء، أو الغناء، أو فن البحث الملتوي عن حقيقة مًّا سبق أن قال الإسلام فيها كلمته الحاسمة.

فهل هذا يعيب الإسلام، ويَصِمُ أمّته بأنها لم تحمل للناس حضارة..؟؟

هل شُعَلُ الحق والعدل والبر التي نقلها العرب للعالمين لا تسمّى حضارة، ولا تستحق أن تذكر بأنها شيء قدمه المسلمون للناس؟.

٢ ــ يزعم الأستاذ «فيليب حتي» أن خصائص العرب ــ لا مبادىء الإسلام ــ هي التي كونت ما يسمى نهضة إسلامية.

وتقدمةً لهذا الزعم، وحتى يروِّج له بين الأغرار، استعرض تاريخ العرب في الجاهلية ثم اكتشف في استعراضه أن هذه الجزيرة كانت مشحونة بالرجال، وأنها طالما ضاقت بأهلها، واضطرتهم إلى الهجرة منها، وأن انطلاقة الإسلام العظيمة، ليست إلا تكراراً لهجرات سبقت، نزح فيها العرب ــ لظروف اقتصادية ــ إلى الأقطار المجاورة..!!!

ومعنى هذا أن الفتح الإسلامي، هو هجرة عربية بحت، تحركت فيها مواهب جنس، وخصائص أمة، بقيادة زعيم قومي هو «محمد»، صلى اللَّه عليه وسلم وخلفاء ناشطون، هم حكام الإسلام.

هذا الكلام من أسخف ما قرأت في حياتي، ومن أتفه ما يُذكَر في ميادين البحث العلمي.

تصور رجلاً يقول لك: أتحسب أن النهار بدأ صباح اليوم؟ لقد طلع نهار آخر في منتصف ليل أمس، وإن كان الناس لا يشعرون!

الامتداد الإسلامي الطويل العريض، الذي غمر الكون بنهار من المعرفة الساطعة، لم تعرف الحياة في غابرها وحاضرها شروقاً مثله.

هذا الامتداد، نوع من الهجرة العربية، سبق لهذا الجنس أن قام بمثيل لها، وإن كان الناس لا يشعرون... !!!

أما القرآن وهدير آياته الذي حطّم الخرافات.

أما الرسول العملاق الذي أحيى بالوحي أمة من العدم، وشق بها ما اكتنف الأجيال من ظُلَم، فهذا أو ذاك شيء لا ينبغي أن يُذكَر.

إن العرب قبل الإسلام ما كانوا شيئاً. ومن غير الإسلام لن يكونوا شيئاً.

ولو حدث أنهم انطلقوا إلى الناس مجردين من هذا الدين، ما كان للقائهم بشعوب الأرض أدنى أثر.

فإن اجتماع الأصفار لا يُكوِّن عدداً صحيحاً ولا مكسوراً...

والواقع ــ كما قلنا ــ أن الإسلام وحده، هو الذي علّم العرب من جهل، ونقلهم من الظلام إلى النور، وزودهم بقدرة روحية وفكرية، جعلت انقضاضهم على الأقطار الهامدة كانقضاض الشهب على الهشيم اليابس.

والواقع أن الإسلام ــ بأصوله السماوية الراشدة ــ هو الذي قام بأوسع نقلة في مدارج الرقي البشري عندما حوّل العربَ الأميين إلى رجال فكر، وأئمة هدى. وعندما جعلهم يتصلون بالعالم اتصال المعلِّم الواعي بالتلامذة الهمل. وعندما فتّق أذهانهم، وأمكنهم من تناول التراث الفكري للعالم تناول الناقد البصير يمحو منه ويثبت، ويُصَوِّب منه ويُخَطِّىء.

أجل، لقد نظر العرب في كتب الأقدمين نظرة الأستاذ إلى كراسات الطلاب التي تتضمن من الحقائق ما يقره، ومن الجهالات ما ينكره..

وكانت هذه المكانة العقلية قد أضحت لهم بفضل الإسلام وحده،

لا بفضل شيء آخر مدَّعىً أو موهوم.

وإذا كانت هناك آثار للحضارات القديمة، أو لأفكار الأغريق، والفرس في التراث الإسلامي، فهي آثار تشين معالم الوحي، ويجب أن تُماز لِتُنَحَّى لا لِيُفْجَرَ بها.

٣ ـ وتجيء إلى ثالثة الأثافي في مزاعم الأستاذ «فيليب حتي» وهو: أن الشعوب الشرقية والغربية حول المسلمين كانت أرفع منهم قدراً، وأرسخ قدماً، وأعلى مستوى!!! وأنها ـ بمواريثها القديمة ـ أرجح كفة من العرب الفاتحين.

والحقيقة أن الشعوب الأوروبية، والإفريقية، والأسيوية، كانت إلى ثلاثة قرون تقريباً أنزل رتبة من الأمة الإسلامية في كل شأن ماديّ وأدبيّ.

وأنها كانت فريسة لجملة من جراثيم الجهل والتعصب والجمود، تُزري بقدرها أشدَّ الزراية.

ولا ندري كيف أن المسلمين الفاتحين تتلمذوا على شعوب جاءوا إليها ليفكُّوا عنها أغلال التقليد، وغشاوات العمىٰ؟

لقد كانت روما، وبيزنطة، والقاهرة، ودمشق، والمدائن، وسائر العواصم.. التي طرق الإسلام أبوابها، تعيش في سجن من الآراء الدينية الضيقة، بعضها وثني، والآخر قريب منه، فكيف يُظَن أن أهلها كانوا أفضل من المسلمين يومئذ؟

نعم إن العرب ترجموا كتب الأولين من يونان، وفرس، لا ننكر ذلك، وطلبوها من مظانها البعيدة..

بيد أن من الإنصاف أن نتساءل: ماذا كانت أحوال البلاد التي استقدمت منها هذه الكتب؟

لقد غبرت دهراً، وهي لا تعي منها شيئاً.

ومضت بعد ذلك أعصار عليها وهي لا تعلم عنها شيئاً.

لقد كانت في نوم عميق.

فهل النهم العلمي الذي خلَّفَهُ الإسلام في نفوس العرب، وأغراهم بالاطلاع على كل شيء سواء احتاجوا إليه أم استغنَوْا عنه، هل هذا النهم البالغ، وتلك الحرية الغريبة، يبعثان المفكر النزيه على اتهام العرب بأنهم تسوّلوا العلم من أمم كانت أذكى منهم وأقدر. . . ؟

فأين كان ذكاؤها من قبل ومن بعد، وهي لم تذق طعم المعرفة إلا بعد ما تتلمذت علينا؟

إن الأحقاد مهما كلحت لا تستطيع تغطية الحقائق الكبيرة.

والحضارة التي تبعث انتشار الإسلام في الأرض، كانت من السناء والازدهار بحيث تُعجِزُ المكابرين وتكرههم على الإقرار بفضلها.

ذلك إلى أن تأخر البلاد التي لم تعتنق الإسلام، وتخلفها البعيد في شتى الميادين، يجعل مدنية الإسلام أكثر بروزاً وأشد تألقاً!!

ولو أننا رجعنا إلى الوراء قروناً لا تتجاوز أصابع اليد، لرأينا من معالم الحضارة الإسلامية ومظاهر التأخر الغربي ما يدعو إلى العجب.

كان المسلمون أنظف أبداناً، وأنضر أفكاراً، وأرق قلوباً، وأرقى آداباً، وأوسع عمراناً، وأضخم غنىً، وأشد قوة من أقطار الغرب كلها. . وكانت عواصم الإسلام ملأىٰ بالحمَّامات والمستشفيات والمدارس والجامعات والمصانع والمتاجر، على حين أن عواصم الغرب كانت محرومة من أغلب هذه المؤسسات.

وكان المسلمون آية ناطقة بالتسامح الديني والمرونة العقلية، على حين أن أقطار الغرب كانت مبللة الثرىٰ أبداً بضحايا القتال الديني، والحرية العقلية.

ويظهر أن عدداً من رجالات الغرب رأى أن جحد ما للإسلام من أيادٍ على العالم شيء غير مستطاع، أو عمل غير صالح، فسلك طريقاً أخرىٰ هي أن يعترف للمسلمين بفضل جزئي محدود، ويواجه ما قدّموه للعالم من مدنية وارتقاء، ثم ينسب جرثومته إلى اليونان الأقدمين. .

ومعنى هذا أن العرب نقلوا تراث الفلسفات الإغريقية الأولى، وأنهم أضافوا إليها من عندهم أشياء ذات بال، وأنهم بذلك يستحقون الحمد على ما نقلوه، وما أضافوه.

إذ لولا تلك الجهود ما بدأ عصر النهضة، ولا ظفر العالم الحديث بكنوز الإغريق الأولين، ولا قامت هذه المدنية العظيمة التي يعيش الناس الآن في ظلها.

* * *

وهذا الكلام ــ في رأينا ــ لا يُجدي فتيلاً، ولا يرضينا كثيراً ولا قليلاً.

والحق عندنا أن النهضة العقلية التي صنعها الإسلام مستقلة المنبع والوجهة، وأن التفكير الإسلامي المسْتَقَى من إيحاءات القرآن والسنة، بعيد كل البعد عن منازع الفلسفات الإغريقية على اختلافها، وأنه إذا كان لأفكار اليونان من أثر في ثقافتنا نحن، فذلك الأثر هو أنها اعوجَّت بالعقل الإسلامي وضلّلت سعيه.

ونزيد على ذلك أن الحضارة الحديثة، وكشوفها المادية، وأساليبها العلمية لم تتقدم خطوة إلى الأمام إلا بعد أن نبذت فلسفة الإغريق، ومنطق أرسطو، واعتمدت على الملاحظة والتجربة والاستقراء.

وهي أصول في التفكير الإنساني لا يعوزك أن تلمحها في القرآن الكريم، وهو الكتاب الأول والأخير الذي أهاب بالإنسان أن ينظر في الكون، وأن يبني معارفه على الحقائق لا على الظنون.

والإيحاءات الإسلامية الخالصة هي التي بنت حضارتنا.

وهي التي كذلك أسْدَتْ للغربيين أقباساً من العلم نهضوا به وتحسسوا مستقبلهم عليه.

والإعزاز العجيب للعقل الإنساني وحرية الفكر، هو الذي أغرى أسلافنا الأوائل بغربلة التراث الإنسانيِّ كله، دون شعور بحرج ديني، أو قيد روحي.

وهو الذي دفعهم إلى الإغراق في هذه المذاهب والبحوث، وسوّل

لبعضهم أن يعتنق هذا الرأي أو ذاك من آراء الأقدمين، ويقسر على ضوئه بعض أحكام الدين.

وقد كان المسلمون يصنعون ذلك بينما كانت نوافذ الفكر الإنساني مغلقة بألف مزلاج في أوروبا، فلو حاول رجل حرٌّ التطلع من خلال القضبان إلى آفاق الفكر الرحب فإن جزاءه ضرب العنق، باسم الكهنوت الحاكم بأمره يوم ذاك.

فلما انتشرت الحضارة الإسلامية، وتسرّبتْ مع الزمن إلى أقطار الغرب، ولما بدأ عصر الإحياء من آثار إحيائنا نحن للعقل والفكر في القرون الوسطى، جاء من يقول: إن العرب لا فضل لهم أبداً في شيء...، ثم خفف بعضهم من غلوائه فقال: بل لهم فضل النقل والتجديد، نقلوا تراث اليونان وشرحوه!! كأن أوروبا وأمريكا نهضتا اليوم بفلسفة اليونان من ثلاثين قرناً.

للّه ما أسوأ الكذب.. وما أخَسَّ الجحود!!

إن المحققين المنصفين من مفكري الغرب يصرّحون بأن هجرة البيزنطيين من شرق أوروبا لم تخلق عصر الإحياء، وأن عصر الإحياء جاء من العرب وحدهم، ونضح عن حضارتهم المتفوِّقة، وأن علماء بيزنطة لم يكن لديهم يوم هاجروا إلى الغرب شيء ينفعون به أنفسهم فضلاً عن أن يرفعوا به غيرهم!!!

ومع اعتقادنا بصدق هذا الرأي فنحن لا نرى مانعاً من إثبات طائفة من الاعترافات المحدودة، بفضل العرب «الجزئي» على العالم، مبتدئين بكلام للدكتور «فيليب حتي» الذي سبق أن صرح بأن العرب لم يكن لديهم شيء[1] قط يقدمونه للناس. قال:

(١) المسلمون يعرفون معرفة اليقين أن دينهم يقوم على التوحيد، وأن التوحيد موضوع الإسلام وعنوانه ومع ذلك فإن «فيليب حتي» ينقل للغربيين كلاماً معناه أن المسلمين يعبدون الكعبة!!! أي إنهم وثنيون.
إننا مبتلون بمن يزور ديننا وتاريخنا جميعاً!!!.

«إن فترة الترجمة (٧٥٠ ــ ٨٥٠) التي ناقشناها في فصل سابق قد أعقبتها فترة نشاط وابتكار، لأن العرب لم يقتصروا فقط على هضم علم فارس القديم وما خلفه اليونان، ولكنهم كَيَّفُوا كلاً منهما حسب حاجاتهم الخاصة، وطرائق تفكيرهم، ففي الطب والفلسفة كانت أعمالهم المستقلة أقل وضوحاً منها في الكيمياء، والفلك، والرياضيات، والجُغرافيا.

أما في القانون وأصول الدين والاشتقاق وعلوم اللغة، فإنهم ــ كعرب ومسلمين ــ قاموا بتفكير وبحوث أصلية مبتكرة، وكانت ترجماتهم ــ وقد أُضفِيَ عليها قَدرٌ غير يسير من العقل العربـي في أثناء انتقالها بين القرون العديدة ــ قد نُقلت ــ مع ما أضافوا من مسائل جديدة ــ إلى أوروبا عن طريق «سوريا» و«اسبانيا» و«صقلية» وكانت أساساً في قانون المعرفة الذي تغلب على الفكر الأوروبـي في العصور الوسطى.

والنقل من وجهة نظر تاريخ الثقافة، لا يقل مكانة عن الابتكار.

إذ لو أن بحوث «أرسطو» و«جالينوس» و«بطليموس» فُقدت ولم تصل إلى الخَلَف لأصبح العالم فقيراً في العلم ولَغَدَتْ البحوث وكأنها لم توجد بتاتاً. اهـ.

* * *

ويعود «فيليب حتي» إلى طرق الموضوع بأسلوب أقرب إلى الاعتدال فيقول: في هذا العصر أخذت العاصمة الأموية «قرطبة» مكانتها كأعظم مركز للثقافة في أوروبا.

وكانت هي وكل من القسطنطينية[1] و«بغداد» مراكز الثقافة الثلاثة في العالم أجمع. فكان فيها مائة وثلاثة عشر ألف مسكن وإحدى وعشرون ضاحية وسبعون داراً للكتب، وعدد عديد من حوانيت الكتب والمساجد والقصور.

وكانت لها بذلك شهرة دولية تبعث الرهبة والإعجاب في قلوب السياح، وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة التي تضاء من بيوت تقوم على حدود الشوارع.

---

(١) المؤرخون الصليبيون يزعمون هذه المكانة للقسطنطينية، وهي مزاعم لا أساس لها.

وذلك ما لم تكن تتمتع بمثله «لندن» و«باريس» حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ.

في تلك القرون كان الذي يجرؤ على الخروج من عتبة بيته في باريس في يوم مطير، يغوص في الوحل إلى عقبيه.

وفي الوقت الذي كانت فيه جامعة أكسفورد ترى أن الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة.

ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة[1] الشمال وفكرتهم عنهم ما ورد في كلام العالم الطليطلي صاعد القاضي «المتوفىٰ سنة ١٠٧٠» الذي قال عنهم:

«إن إفراط بُعد الشمس عن مُسامَتَةِ رؤوسهم برَّد هواءهم، وكثف وجوههم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فَعُدِمُوا بهذه دقةَ الأفهام وثقوبَ الخواطر وغَلَبَ عليهم الجهل والبَلادة وفشا فيهم العَمَى والغباوة»!!!

وحينما كان الحكام في «ليون» و«نبرة» أو«برشلونة» يحتاجون إلى جرَّاح أو مهندس أو أستاذ في الموسيقى أو صانع للملابس، كانوا يبحثون عنه في قرطبة ويجدون طِلْبَتَهم فيها.

ولقد وصلت شهرة العاصمة الإسلامية حتى اخترقت المانيا البعيدة، ووصفتها إحدى الراهبات السكسونيات بأنها «جوهرة العالم».

كذلك كانت المدينة التي كان يقيم فيها الحاكم الأموي ورجال حكومته.

ويسرني أن أثبت هنا مقتطفات للأستاذ «عبدالله نعمة» من كتابه «هشام بن الحكم» يتضمن معلومات نافعة في الموضوع الذي خضناه، ويتناول بالعرض والنقد طائفة أخرىٰ من آراء المستشرقين، الصادق منهم والكذوب.

قال ــ يروي هذه الفرية عن رينان ــ:

«لا ينبغي أن نلتمس عند الجنس السامي دروساً فلسفية، فإن الفلسفة

---

(١) برابرة الشمال هو تعبير آبائنا عن غرب أوروبا وشمالها، والدول التي تزعم الآن أنها ورثت الحضارة كابراً عن كابر، ولم تتلق عنا شيئاً أبداً...!!!

لم تكن قط عند الساميين إلا عاريَّة، أخذوها عن غيرهم، ولم تتعد ظاهر حياتهم، ولم تكن عظيمة الثمر، وإنما كانت تقليداً للفلسفة اليونانية.. ولم يفعل العرب أكثر من أنهم تناولوا مجموع المعارف اليونانية، كما كان العالم كله يقبلها في القرن السابع والثامن.. وينبغي أن لا نخدع أنفسنا في من كانوا يسمون بين العرب فلاسفة، فلم تكن الفلسفة إلا أمراً عارضاً في تاريخ العقل العربي»(١).

ويستدرك (رينان) بعد هذا الهراء السخيف فيقول:

«أما الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام، فينبغي أن تُلْتَمَسَ عند فِرَقِ المتكلمين وفي علم الكلام بنوع خاص»(٢).

ولكن (البارون كرادي فو) يثبت وجود حركة فلسفية عند المسلمين قبل تعرُّفهم على الفلسفة اليونانية فيقول: قبل دخول الكتب الفلسفية اليونانية إلى المسلمين، كان هؤلاء من تلقاء أنفسهم قد أنشأوا حركة فلسفية، ثم اتسع تفكيرهم وازداد دقة بسبب ازدياد الأثر اليوناني(٣).

فهو يميل إلى وجود الحركة الفلسفية بين المسلمين، لكن نموها ودقتها كانا بسبب دخول العلم اليوناني.

ثم قال:

«ويرى الدكتور «سارطون» أن بعض المؤرخين يحاولون أن يستخفوا بما قدمه الشرق للعمران، ويصرحوا بأن العرب والمسلمين نقلوا فقط العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً مَّا، إن هذا الرأي خطأ، وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية، ويحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون»(٤).

---

(١) إبراهيم بن سيار، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الخالدون العرب، ص ٤، للأستاذ «قدري طوقان».

ولكن، هل صحيح أن العرب لم يجدِّدوا شيئاً بعد اليونان؟ يقول «نيكلسون»:

«وماكانت المكتشفات اليوم لتُحْسَب شيئاً مذكوراً بإزاء ما نحن مدينون به للروّاد العرب الذين كانوا مشعلاً وضّاءً في القرون الوسطىٰ المظلمة ولا سيما في أوروبا..»(١).

ويقول «دي فو»:

«إن الميراث الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه، حتى سلموه إلى العصور الحديثة»(٢).

فالفكر العربي الإسلامي لم يكن عند هؤلاء راكداً أو ناقلاً، بل كانت فيه الروح والحياة، ولم يكن ميكانيكياً، بل كان مبتدعاً.

ويؤكد «البنديت نهرو» أن العرب كانوا يحملون روحاً استطلاعياً يحاكم ويفكر قال:

«... ولكن العرب امتازوا بهذه الروح الاستطلاعية مما يجعلهم يُدْعَوْنَ ـ بجدارة ـ آباء العلم الحديث.

لقد صنعوا أول مكبر، وصنعوا أول بوصلة، وكان أطباؤهم وجراحوهم ذوي شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا»(٣).

ثم قال المؤلف:

وإننا لو رجعنا إلى الوثائق والمستندات التاريخية، والآثار التي تركها لنا العرب، لوجدنا أرقاماً كافية للتدليل على أنهم لم يكونوا ناقلين فحسب، بل إنهم أضافوا إلى التراث اليوناني ابتكارات وأفكاراً جديدة لم يعهدْها من قبلهم.

إن أكثر ما نشاهده من هذه الخوارق اليوم أو نستخدمه أو نسمع به، إنما جاء نتيجة تجارب وجهود كثيرة في قرون متطاولة، كان العرب يقومون من ورائها ويشاركون ـ بتفوقهم العقلي ـ في وضعها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «لمحات من تاريخ العالم»، ص ٣٥.

وقد يكون هذا القول مفاجأة تثير التساؤل لأول وهلة، ذلك أن تراث العرب مجهول لنا ولكن الحقيقة ينبغي أن تبرز، ورجوعنا إلى الوثائق الثابتة يؤكد أن للعرب القدم الراسخة في أغلب العلوم المعروفة اليوم، وفي الكشوف الحديثة، وسنثبت ذلك فيما يلي:

١ ــ دوران الأرض حول الشمس:

إن الفكرة الشائعة هو أن أول من تكلم عن دوران الأرض حول الشمس هم (غاليلو) و(برونو) و(كوبرنيكوس) لكن الواقع أن السابق لهم جميعاً في الكلام حول دوران الأرض هو «عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد» الذي عاش قبل هؤلاء بمائتي سنة على الأقل.

٢ ــ الجاذبية:

والمعروف أن أول من تكلم على الجاذبية واكتشفها هو (إسحاق نيوتن) حين علل سقوط التفاحة من الشجرة بجاذبية الأرض لها.

ولكن سبقه إلى ذلك «الرازي» بمئات السنين، فقد عاش في القرن السادس الهجري وعلل (المدرة) التي رماها وسقطت بعد ارتفاعها، وانتهىٰ تفكيره إلى القول بأن في الأرض قوة قاهرة تحكم على الأشياء بالانجذاب إليها.

٣ ــ البصريات:

والحسن بن الهيثم هو أول من وضع علم البصريات منذ حوالي ألف سنة، والذي له الأثر العظيم في الحياة المعاصرة، ذلك العلم الذي يبحث في سقوط الأشعة والضوء على الأجسام الصقيلة.

وبهذا العلم اتصلت نظريات الضوء وانفتح الباب أمام مخترعات كثيرة، واستحق ابن الهيثم به أعظم التقدير من علماء أوروبا فقد قال عنه (فياردو):

«إن ابن الهيثم هو العربي الذي تعلم منه رجالنا الكبار من أمثال العلامة لبكر».

٤ ــ الريــاضيات :

ومن الثابت أن «محمد بن موسى بن شاكر» هو واضع علم الجبر بأمر المأمون العباسي في القرن التاسع الميلادي، وعنه أخذته أوروبا، ولا زالت تسميه باسمه العربي (الجبر).

وأولاد موسى وهم «محمد» و«أحمد» و«الحسن» هم الذين وضعوا المعادلات الرياضية.

وعلى هَذْي تلك البداية العربية للرياضيات، كانت تلك المخترعات الهائلة كالصواريخ والأقمار الاصطناعية والراديو وسواها.

٥ ــ الكيمــياء :

وينبغي أن لا ننسى في هذا المضمار إمام الكيمياء «جابر بن حيان» واتكاء أوروبا بعد نهضتها على كشوفه، واحتياجها إلى ترجمة كتابه (الاستتمام) الذي نقلته إلى اللغة اللاتينية عام **١٦٧٢** ميلادية لتتعلم منه ما لم تكن تعلم.

وقال (برتيلو) عن جابر بن حيان: «لِجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق».

ويتبين بذلك أنه ابتكر الكيمياء، كما ابتكر «أرسطو» المنطق.

والثابت أن علماء العرب أحدثوا ثورة علمية عظمىٰ، واكتشفوا «الكحول»، و«حامض الكبريتيك»، و«حامض النتريك»، و«البوتاس»، و«ملح النشادر»، و«الراسب الأحمر».

وهم من أول من استخدموا الطرق الجديدة في عمليات الكيمياء: كالتقطير، والترسيب، والتصعيد، والتذويب، والبلورة، والتحويل.

وهم أوّل من اخترع الساعة الدقاقة والساعة المائية، وقد أهدى الرشيد ساعة دقاقة إلى الأمبراطور «شرلمان» فكانت أعجوبة أوروبا في ذلك الوقت، وقد شاهد السائح بنيامين منذ ٧٠٠ سنة في الجامع الأموي في دمشق ساعةً ذاتَ أثقال أخذ منه الذهول لمرآها كل مأخذ.

وكانت الساعة تحتوي على فتحات بعدد ساعات الليل والنهار، فإذا

انقضت ساعة وقع من فم طائر مصنوع من نحاس كرة في حجم البندقة، فيحدث رنين واضح، ويمد الطائر عنقه، ثم يغلق الباب على فتحة من الفتحات فيعرف الناظر إليها كم مضى من الليل والنهار(١).

وأسطورة (رينان) في العقل العربي السامي، التي خدعت أناساً كثيرين هي من الأساطير التي يشيدها الوهم والخيال، ولا تعتمد على أساس صحيح، إنه يحتكر التأمل الفلسفي ودقة التفكير على العقل الآري، وأما العقل السامي فهو سطحي راكد لا حياة فيه ولا يتعدّى الظواهر!!!

وما أقرب أن تكون هذه الفكرة استعمارية، يذيعها المستعمرون باسم العلم والفلسفة والتاريخ، يُشِيعُون هذا ليخلقوا عقدة نفسية عند العرب، وليزعزعوا إيمانهم بتفكيرهم، ولينتزعوا ثقتهم بأنفسهم، وليبعدوهم عن الانتفاع بآثار الفكر العربي والاستفادة من تراثهم القديم.

إنها فكرة مصدرها الاستعمار الذي لم يكتف بانتزاع أوطاننا وثرواتنا، ثم أخلاقنا وديننا، لم يكفه كل ذلك حتى أخذ يعمل على انتزاع أثمن ما يملكه إنسان وهو ثقتنا بتفكيرنا وأنفسنا، إنه يعمل على ذلك، ليضع الخط الدفاعي عن استعماره، وليخلق فينا عقدة النقص، وليشعرنا بقصورنا عن حل مشاكلنا، ولنقف في جهودنا وتفكيرنا، ولنعتمد على المستعمرين في أخذ كل فكرة ترد عنهم أخذ المسَلَّمَات دون تأمل ولا مناقشة ولا محاكمة، لأننا لا نملك القدرة على التأمل والمناقشة والمحاكمة، ولننظر إليهم وهم الآريُّون أصحاب الفكر الدقيق والنظر العميق نظرة التقديس والإكبار، أو نظرة العبد إلى سيده.

إن وراءها ــ بدون شك ــ غاية استعمارية واضحة، والجدير بالذكر أنهم أرادوا أن يسلبونا الثقة حتى بسعة الخيال، فقد قال بعض المستشرقين: «إن العرب ضيقوا الخيال، وإنّ سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين،

---

(١) جريدة الجمهورية ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨.

وإذا عرض عليهم ابن الرومي الشاعر آمنوا بخياله وعمق تفكيره، ولكن قالوا: إن جدّه رومي من عنصر آري، وإذا عرض عليهم «المعري» قالوا: إنه لا خيال له لأنه عربـي صميم»[1].

وإخال أنه لا حجة لديهم في إنكار عمق تفكيره وسعة خياله اللذَين يبدوان في كتابيه «اللزوميات» و «رسالة الغفران» إلا أنه «عربـي صميم».

* * *

الهدم التاريخي الذي يحمل رايته المبشرون وأغلب المستشرقين، غايته كما ترى إفقادنا الثقة بأنفسنا، واليأس من حاضرنا لأنه لا ماضي لنا، ولا عراقة. . . !!!

وهيهاتَ هيهاتَ، فيكفي من آثارنا الغائرة في التاريخ، الخالدة على الزمن، أننا نحمل رسالة الحق، ونتلو آياته، وأن أمجادنا القديمة إذا غطاها نكران الجميل حيناً، فلا بد أن تعرف على وجهها الصحيح، طوعاً أو كرهاً، وحبل الباطل قصير.

* * *

(١) شرح ديوان زيدون لكامل كيلاني، ص ٢٨.

الهَدمُ العَسكري

كِلا الهدمين: الروحي والتاريخي، يستقي عرامته وخباثته من التفوُّق السياسي والحربي الذي ظفر به خصوم الإسلام في القرنين الأخيرين.

وهو تفوُّق يرجع إلى ازدهار العلم المادي والنشاط العمراني في العالم غير الإسلامي.

على حين هبطت القيم الأدبية والمادية في بلادنا هبوطاً شنيعاً، وفتكت بأمتنا عِلَلٌ نفسية وجماعية لا حصر لها.

عِلَلٌ نبتت في ربوعها مُذْ خَفَّ تمسكُها بالإسلام وعلمها به وعملها له.

ولا عجب فالحقل الذي لا يزرعه صاحبه وينصرف عنه، يزرعه الشيطان بالشوك والحسك، أو يبقى جَدْباً لا ترىٰ فيه إلا الطين...

ومُذْ أهمل المسلمون رسالتهم، وتخففوا من أعباء الجهاد لها، والسير في سناها، أخذت سفينتهم تترنح، وتكاثرت في جوانبها ثقوب الحمقىٰ، فما هي إلا مرحلة أو مرحلتان حتىٰ ترسب إلى القاع!!.

وكان المستعمرون من اليهود والنصارىٰ يرقبون النتائج المحتومة فلم يضيعوها. وكيف يضيعونها وهم لم يفتروا عن مناوشة هذه الأمة في عنفوانها؟

أفيتركونها وقد أثخنتها الجراح، وبدا للأعين أن شمسها غابت أو آذنت بمغيب؟

لقد وثب الاستعمار شرقيُّه وغربيُّه على الأمة المهيضة، واستبقت الذئاب المتربصة نحو الغنيمة الباردة، فعادت كل دولة من دول أوروبا بقطعة

من أرض الإسلام، ثم أعلنت في أرجاء الدنيا أن هذه القطعة أمست لها.

وصحا المسلمون من غيبوبتهم، كما يصحو النيام في دار امتد الحريق إلى جميع غرفاتها، فهم في فزعتهم، مقسمو الجهود بين استنقاذ للمال والولد، وحصار للنار الممتدة في كل ناحية، ومحاولات للإطفاء أو للنجاة، وهول لا يُعْرَف مداه ولا تُدْرَىٰ عُقباه.

وظهر جلياً أن أعداء الإسلام قد صمموا على أمر واحد، يسرعون إلى إنفاذه إن أمكنتهم اليدان، أو يرجئون تحقيقه ساعة بعد أخرى إن اعترضتهم عوائق غير منظورة..

هذا الأمر الواحد، هو الإجهاز على الإسلام وأمته، ودفن رفاتهما تحت جنادل قائمة لا ينبعثان منها أبد الدهر.

والموقف الآن بعد صراع قرنين، بين المغيرين المزوَّدين بكل سلاح، والمدافعين الذين يقاومون بما تيسَّر (!) يتلخص في أن الاستعمار تمكن من إقامة «إسرائيل» في أرض فلسطين تمهيداً لشطر الكيان الإسلامي كله، في هذا الجزء الحساس منه.

كما تمكن من الاحتفاظ بالجزائر في حوزته ـ برغم كفاح أهلها الباسل الرائع الكريم ـ.

وهو يستهدف من إقامة ـ إسرائيل ـ توسيع النطاق الذي تحتله بعد محو العروبة والإسلام من الأقطار المجاورة.

كما يقصد من الاحتفاظ بالجزائر إمكان الوثوب على الشمال الإفريقي كله حين تسنح الفرصة.

وإلى جانب هذا وذاك فقد أنشأ الاستعمار له قواعد مكينة في وسط إفريقية.

وفي شرقها وسع رقعة الحبشة على حساب الشعوب الإسلامية، وفي غرب إفريقية تراه يصنع دويلات نصرانية الحكم في أمم إسلامية!!.

أما في آسيا فقد أطلق القاديانية في «باكستان» فجعلها تولد ميتة،

وشجع الخيانات في كل ناحية، ومهد للإلحاد والفساد، فإذا الشيوعية تبتلع عشرات الملايين من المسلمين في روسيا.

والذي لم تأكله الشيوعية يحيا مزعزع الإيمان سقيم الوجدان..

والخطة الاستعمارية ماضية في طريقها، وفق سياسة توضع بالنهار ولا تبيت بالليل، غرضها واضح، لا إسلام بعد اليوم.

ومن المغفلين من يحسب قضية فلسطين صراعاً بين «مليوني» يهودي و «مليوني» عربي، على قطعة من الأرض اغتصبها هؤلاء من أولئك..

كلا، إن الصراع عالمي بين الدول المكلفة بقتل الإسلام والفتك بأتباعه، وبين العرب والمسلمين جميعاً.. واليهود ليسوا إلا أداة في يد الآخرين.

الآخرين الذين يقولون ــ دون حياء ــ إن إسرائيل خُلِقَتْ لتبقىٰ.

ولو صرحوا بما ينتوون لقالوا ــ للمسلمين جميعاً ــ إن بقاءكم أنتم أيضاً مرهون بأجل قريب، ثم تذهبون إلى حيث ألقت.

ومأساة الجزائر تحمل الطابع نفسه، وانحصار القتال فيها الآن لضرورات موقوتة، وإلا فالهدف الكبير سحق المسلمين في هذه المناطق من الشمال الإفريقي كله..

والهدم العسكري الذي تتعرض له الأمة الإسلامية، بدأ على نطاق واسع في أخريات القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يتأخر في الوصول إلى غاياته المرسومة إلا لما ينشب من حروب بين المستعمرين أنفسهم.

وكلما هادن بعضهم بعضاً شرع الزحف الحقود يطَّرد في مجراه، لا يحيد قيد شعرة عن أمله وعمله، أمله في قتل الإسلام، وعمله لتقريب الوفاة..

وعلى الداعية المسلم ــ وهو يقاوم هذا الهدم ــ إفهام أمته أن ذلك ليس إدراكاً لثأر قديم ــ كما يزعم المستعمرون ــ وإنما هو تجديدٌ لعدوان سابق، وتكريرٌ لمآسٍ سلفت.

فإن الإسلام يرعىٰ حق الحياة لمخالفيه، ويعاملهم على قدم المساواة مع أتباعه.

ولذلك فهو أبعد ما يكون عن التعصب والاعتداء.

أما النصرانية، فهاك ما يكتبه عنها أحد مفكري الغرب الكبار وهو الأستاذ «بابيه» ترجمة الدكتور «عبدالحليم محمود»[1].

أثبت ذلك الباحث أن السبب البارز، بل السبب الوحيد الذي جعل «الأمبراطور قسطنطين» يتخذ المسيحية ديناً رسمياً إنما هو ما رآه فيها من التعصب الذي لا يوجد في غيرها من الأديان المعروفة على عهده، والمنتشرة في «روما» يوم ذاك.

لقد رأى أن هذا التعصب هو الذي سيشد أجزاء الامبراطورية برباط من حديد، ويمنع عوامل الاسترخاء والتحلل التي أخذت منذ أمد تسري في أوصالها.

وكان الأمبراطور مبتئساً محزوناً لحال مملكته المترامية الأطراف، ولملاحظته بوادر التفكك في كيانها الرحب.

فوجّه جهده لجمع هذه الأشلاء، التي توشك أن تتداعىٰ.

فلما نظر إلى الأديان السائدة، وجدها ثلاثة متعادلة، انتشرت بينها العداوات فكل منها يصارع الآخر ليصرعه.

وهو ــ عندما نظر إليها ــ لم يلتمس في أحدها الهداية والرشاد.

ولم يكن باحثاً عن النجاة في الدار الآخرة.

إن ذلك لا يعنيه بقدر ما يهمه اختيار أشدها تعصباً، وأكثرها استعداداً للتنكيل بالمخالفين، والاستئثار دونهم بالحياة والسلطة.

ولقد وجد ضالته المنشودة في المسيحية، فاختارها بعد ما وثق من تحقق آماله في رجالها، وقرر ــ لهذا السبب فحسب ــ جعلها ديناً رسمياً للإمبراطورية...

---

(١) من كتابه «أوروبا والإسلام» بتصرف قليل.

ثم وكل إليها أن تستأصل شأفة اليهود، والوثنيين.

وتحقق للسياسي الداهية ما يريد، فإن الحاكم يعبد دولته كما يعبد الشحيح ثروته، وهو يتخذ كل شيء وسيلة لتوطيد حكمه، وإعلاء شأنه وحده.

وقد حاولت المسيحية ـ لما ظهر الإسلام ـ أن تطبق عليه قانونها العتيد، وأن تعامله بخاصتها الفريدة.

فلما أعجزتها صلابة المؤمنين به تولت عنهم وهي تَصِمُهُمْ بأقبح السباب.

وظلت ـ على بُعد ـ تتربص بهم الدوائر حتىٰ إذا لاحت فرصة للوثوب، هجمت لِتَلِغَ في الدم الحرام، وتنفرد في الأرض بالبقاء.. . . . .

عيب الإسلام أنه عرف هذه العلة، وتغلب عليها، ولم يضعف أمام الحاقدين..

إن طبيعة الصلة بين النصرانية والإسلام تشبه ـ إلى حد بعيد ـ طبيعة الصلة بين «الشيوعية» أو «النازية» وبين النظام البرلماني الأصيل.

فإن ذلك النظام يحقق للأفراد والجماعات أنصبة مطلقة من حرية القول والعمل، ومن حق الحياة والتجمع والمعارضة..

وفي ظل هذا الوضع الديمقراطي يستطيع «الشيوعيون» أن يظهروا، وأن ينشروا رأيهم وأن يهاجموا خصومهم، وأن يكون لهم حزب معترف به. وذلك كما نرىٰ في «إنجلترا» و «فرنسا» و «إيطاليا» وغيرها.

فإذا حدث أن تكونت للشيوعيين كثرة محدودة وصلت بهم إلى الحكم تغيرت الأوضاع القديمة للفور، وألغيت الأحزاب الأخرىٰ، وخنقت الآراء الناقدة، وأمسىٰ مفروضاً على المعارضين أن يذوبوا، أو يتجمعوا ـ إذا شاءوا المخاطرة بأعناقهم ـ في جوف الليل، وفي خفية عن الرقباء، كما نرىٰ في «روسيا» و «الصين» وغيرهما..

وهكذا الحال بالنسبة إلى الإسلام، إنه يمنح غيره ضمانات البقاء كلها، ولذلك عاش الكافرون به في كنفه دون حرج.

ذلك أن طبيعته في المعاملة إذا حكم، هي هذه الديمقراطية الرقيقة.

أما إذا حكم غيره، فإن الأرض الفضاء ستضيق به، وفرص البقاء ستنعدم أمامه.

وذاك هو السبب في أن المسيحيين عاشوا في الأندلس يوم كان الحكم فيها إسلامياً.

فلما انهزم المسلمون وتحول الحكم إلى أيدي الصليبيين لم يُسمَح للإسلام ولا لأمته ببقاء.

ففني وفنُوا جميعاً في هذه البقعة من أرض اللَّه.

وما زالت المأساة تتكرر في غيرها من أقطار الأرض.

هل مرونة النظام الديمقراطي عيب فيه؟ وهل سعة أفقه جناية عليه؟

كذلك يظن بعض الناس، وهم يردُّون مصارع الديمقراطية في البلاد التي تلاشت فيها ــ كألمانيا النازية مثلاً ــ إلى هذه العلة.

والأمر يستدعي التأمل أو التحسر، فإن تقوض النزعات الإنسانية الراقية أمام المذاهب الحاقدة، يعطي هذه النزعات حقوقاً أن تخرج على طبيعتها حيناً لتصون نفسها، وتحفظ بقاءها..

وإذا كان التعصب للنفس وحدها ديدن الصليبية إذا حكمت، فمن الواجب إيصاد أبواب الحكم أمامها، وكذلك الشيوعية.

والغشاوة المضروبة على أعين هؤلاء وأولئك والتي تجعلهم يحسبون الحق ما عندهم وحدهم، والباطل هو كل ما لدىٰ غيرهم، لا تعطيهم بداهة أي حق ضد الآخرين، فهي غشاوة جهالة، وجشع، وضيق عطن، أكثر من أن تكون غيرة على الحقيقة المعتنقة.

والغريب أن الصليبية لما انقسمت على نفسها مذاهب متعددة، عامل

كل مذهب مخالفيه في الرأي على قاعدة: «البقاء للأقوىٰ» «والويل للمغلوب» «ولا حق إلا عندي». والأغرب من ذلك أنها تتهمنا ــ نحن المسلمين ــ بالتعصب.

وقد كتب الأستاذ «عبدالرحمن الشرقاوي» يشرح هذا المعنىٰ فقال:

جرت عادة المستعمرين من الإنجليز والفرنسيين، كلما تناول خطباؤهم أو كُتَّابهم الكلام عن الشرق والشرقيين، أن يتعرضوا ــ من قريب أو بعيد ــ إلى خلائقنا، ليُلصِقوا بها ما تفرق من نقائص البشرية، كأنها خصائصنا اللازمة.

وهم يبادرون فيرموننا بما فيهم من طبائع الجور والنفاق والشهوة.

ولا يزال في مقدمة ما يتجنّون به علينا، نسبة التعصب الديني إلينا.

وهم يسلكون إلى ذلك سبيل الزيف والتلفيق، ولا يرجعون في ذلك إلى شاهد صدق من التاريخ.

والعجيب في الأمر أن وصمة التعصب الديني أظهر ما تكون في تاريخ كلتا الأمتين، كما رواه الثقات الأعلام من مؤرخيهما.

فإن فرنسا الكاثوليكية لا يسعها في سجل تاريخها إلا أن تذكر اضطهاداتها لرعاياها البروتستنت طوال قرنين من الزمان، كانت واسطةُ عقدهما مذبحةَ «سان بارتلوميو» التي بلغ عدد ضحاياها في باريس وغيرها من المدن الفرنسية نحو الثلاثين ألفاً من البروتستانت في مدىٰ شهرين.

ولقد ظل أشياع هذا المذهب من الفرنسيين مغبونين مُضطهَدين لا يعرفون الحرية الدينية، حتىٰ كانت الثورة الفرنسية.

أما في الإمبراطورية البريطانية، فليس أدل على التعصب الديني عند الإنجليز البروتستانت من سوء معاملتهم للكاثوليك في إيرلندة.

فقد سمحت «إنجلترا» بقيام برلمان في «إيرلندة»، ولكنها جعلته مقصوراً على البروتستانت دون غيرهم ممن يخالفون الإنجليز في الدين.

فإذا ذكرنا أن الكثرة في «إيرلندة» هي للكاثوليك المحرومين، تمثل لنا

التعصب الإنجليزي في أرذل مظاهره وأسمجها وقاحة، وأنكاها تضييعاً للحقوق المدنية وإهداراً للكرامة القومية.

ولقد كان هذا البرلمان البروتستانتي الذي صنعه الإنجليز في «إيرلندة» سَوْطَ عذاب على «الكاثوليك» الإيرلنديين.

فقد جعل يصدر كل جائر من القوانين، ويصبها أكداساً على أكداس فوق رؤوسهم، حتى قال أحد المؤرخين المحدثين الإنجليز ـ على الرغم من اعتداده بإنجليزيته ـ: إن هذه القوانين تُعَدُّ شر ما ورد في اللغة الإنجليزية، وعبر عنه اللسان الإنجليزي.

كان من تعصب الإنجليز على الكاثوليك أن لم يَكْفِ حرمانهم من حق التمثيل في برلمانهم الإيرلندي، بل صدرت القوانين إثر القوانين بحرمان الكاثوليك من العمل في أية وظيفة من وظائف الدولة، ومن حق الانتخاب النيابي، وكذلك من الاشتغال بالمحاماة أمام المحاكم، ومن مزاولة صناعة الطب، وعدا ذلك من مرافق العيش، حتى القيام بحراسة غابات الصيد حرم على القوم.

فلما صمد الكاثوليك لهذا الحرمان من وسائل العيش وأسبابه، طلع عليهم البرلمان البروتستانتي بقوانين أخرىٰ تعمل على تفكيك الأسرة، وقطع وشائج الأرحام بين الأخ وأخيه، وبين الأب وابنه، لعلمهم بما قد يؤدي إليه فَصْم العُرَىٰ العائلية من توهين العصبية القومية.

ومن أمثلة ما شرعوه لهذا الغرض من تشريعاتهم، أنه إذا طاب للولد الكاثوليكي أن يعتنق المذهب البروتستانتي، فقد سقطت ولاية والده عليه، ووجب انتزاع الولد من والده وإيداعه في كنف وصي بروتستنتي، مع الحكم على والده بأداء نفقته.

وأبلغ من هذا نكايةً بالرجل الكاثوليكي وأشد تحريضاً عليه وإغراءً به ما يوجبه القانون عليه إذا ارتأىٰ أخوه الأصغر اعتناق البروتستانتية، فإن الأخ

الأصغر في هذه الحالة يخلفه على كل ما ثبت له، ويصبح الصغيرُ البروتستانتي بحكم القانون ربَّ الأسرة.

ومما تناولته هذه القوانين الجائرة من الشؤون الخاصة، أنه ليس لكاثوليكي أن يرث من مات من أهله بغير وصاية، ولو كان أقرب أقربائه، وأمسهم به رحماً.

وأما الزواج فقد كان محرماً عقده بين البروتستانت والكاثوليك مع ما بينهما من جامعة المسيحية. فإذا اجترأ قسيس على عقد مثل هذا الزواج اعتبر باطلاً.

وإذا كان الزوج البروتستانتي محامياً سقط حقه في مزاولة مهنته، وأما القس فقد حق عليه الشنق.

ومن غرائب هذه القوانين التي تشبه النوادر، تحريمها على الكاثوليكي اقتناء جواد يربو ثمنه على الخمسة جنيهات، حرماناً له من مظاهر الوجاهة.

فإذا ثبت أن جواده أعلىٰ من ذلك قدراً، وجب أن يجد له مشترياً بروتستانتياً، وأن يبيعه إياه بخمسة جنيهات فقط.

وفي هذه الشذرات ــ ولا شك ــ الكفاية، وفوق الكفاية، للدلالة على طبيعة ما أصدره البرلمان الإيرلندي البروتستانتي ــ صنيعة الإنجليز ــ من قوانين ظلت أمداً غير قصير سارية نافذة علىٰ الكثرة العظمىٰ الكاثوليكية في الجزيرة الإيرلندية.

ولا نحسب القارىء يستغرب ــ بعد ما قدمناه من عجائب هذه القوانين ــ حين يعلم أن تشريعاتها الأولى قضت ــ فيما قضت به ــ بالقبض على كل كاثوليكي تسوّل له نفسه الجريئة أن يكون بين المتفرجين في شرفة البرلمان.

* * *

هذه هي أساليب المعاملة بين شتىٰ الطوائف هنالك.

وقد انكسرت حدَّة هذه الأحقاد قليلاً مع انتشار العلم، وشيوع الإلحاد، وبغض الكثيرين لنتائج الخلاف الديني التاريخي القديم.

لكن هذه البغضاء لم تَخْفَ في الواقع، بل توارت تحت ألبسة من الختل والمداهنة قضت بها ضرورات موقوتة.

على أن المؤسف أنها بالنسبة إلى الإسلام لم تزدها الليالـي إلا ضراوة.

ولنذكر مثلاً مـا حدث في طليعة هذا القرن، قبل أن نفيض القول فيما يقـع الآن:

حينما نشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من (اليونان، وبلغاريا، والصرب، والجبل الأسود)، من ناحية أخرى، خشيت الدول الأوروبية أن تنتهي الحرب بـانتصار الـدولة العثمانية، فأعلنت الدول الأوروبية الكبرىٰ قـراراً حاسمـاً بلسان المسيـو «بوانكاريه» وزير خارجية فرنسا صرح فيه نيابة عن تلك الدول بأنه لا يسمح للمنتصر في هذه الحرب بأن يجني ثمرة انتصاره، ويضم أي جزء من أراضي خصمه المغلوب إلى بلاده.

ولما انتهت تلك الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية، وفتكت الجيوش البلقانية بالمسلمين نساءً وشيوخاً وأطفالاً في وحشية هائلة وصفها المرحوم أحمد شوقي في قصيدته:

يا أختَ أندلسٍ عليك سلامُ   هَوَت الخلافةُ عنك والإسلام

بدلت الدول الأوروبية الكبرىٰ موقفها فوراً، وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التي احتلتها دول البلقان إليها، وهي ولايات «الرومللي» جميعاً المؤلفة من: (سلانيك، مناستر، قوصوة، يانية، شقودرة، والرومللي الشرقي).

ولم يبق للدولة العثمانية من أراضيها الشاسعة شرقي أوروبا، والتي كانت الكثرة الساحقة من سكانها مسلمـين بل كان عدد المسلمين فيها حينئذ نحو خمسة عشر مليوناً، إلا «أدرنة» التي استرجعها الجيش العثماني قبيل إنهاء تلك الحرب.

ولما ذكَّرت الدولة العثمانية حينئذ الدول الأوروبية بقرارها المذكور كان

جوابها: «إن ما يأخذه الهلال من الصليب يجب أن يعود إلى الصليب، أمّا ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود إلى الهلال».

وعلى أثر ذلك بعثت الدولة العثمانية بأحد وزرائها، وهو (سليمان البستاني) المسيحي، لمقابلة «بوانكاريه»، وتذكيره بتصريحه الرسمي في بداية الحرب.

فلما قابله واسترعىٰ نظره إلى نتائج هذا الموقف، وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءاً وافراً منهم أجابه بوانكاريه:

«مسيو بستاني، إنك مسيحي عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوروبا حسابها، وأما في حالتها الحاضرة فليس لها أي وزن».

* * *

وقد تضطر دول الغرب تحت ضغط الوجل من الحروب، والرهبة من دمارها والاتعاظ بما عانت من آلام، قد تضطر للاحتكام إلى بعض المواثيق الإنسانية، والخضوع لمعاهدات عالمية.

ولكن ذلك كله يُنْسىٰ إذا كان الأمر متصلاً بالمسلمين، إن منطق الحقد وحده هو الذي يعلو.

ولذلك كان السلطان «عبدالحميد» رحمه اللّٰه يردد هذه الكلمة في كثير من المناسبات: «إن لدىٰ الدول الأوروبية ميزانين، أحدهما بالنسبة لجميع شعوب العالم وهو يزن الأمور بالعدل والقسطـاس، وأما الآخر فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين، وهو ميزان جائر خاسر».

حديث ذوشجون..

الدعاة المسلمون فقراء كل الفقر إلى تعرُّف ما أصاب دينهم وأمتهم من كوارث التعصب، وفواجعه القديمة والحديثة على سواء.

ولو أُفْرِدَتْ لهذا الموضوع مادة علمية مستقلة في دراساتهم التاريخية والإسلامية، لما كان ذلك كثيراً.

ويخيل إليّ أن هذا الجهل الشائع، إما أن يعود إلى غفلة حقيقية سوف تنتهي بصاحبها إلى التلاشي حتماً، وإما أن يكون أثراً لخطة مرسومة، تستهدف تجهيل المسلمين في أسباب عَطَبهم، حتى يُستَدْرَجُوا إليها وهم بُلْهٌ ثم يتخلص خصومهم منهم في صمت.

وددت لو أن جمعاً كبيراً من هؤلاء الدعاة كان معي عند السيد «أمين الحسيني» مفتي فلسطين وهو يسرد عليّ أطرافاً من مآسي الحقد الديني التي تعرض لها العرب والمسلمون في الآونة الأخيرة، والتي أصابتهم بجراح لن تندمل أبداً، بل ستظل تقطر دماً على اختلاف الليل والنهار أو يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً.

كان هذا الرجل يتكلم، وليس في صوته رنين حزن، لا لأن شعوره ضعيف بالنكبة التي اجتاحت دينه وقومه في فلسطين، كلا، فإن أثر النكبة راسب في أغوار حِسِّه، ولكنه كما قال أبو الطيب:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نِبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

كان الرجل مثلاً للإسلام المكافح في معركة لا تكافؤ فيها ولا عدالة.

ولكنه ــ بدوافع اليقين والرجاء ــ يصابر الأيام ولا يفكر بتَّة في الانسحاب من الميدان..

سمعته يتحدث ووعيت منه حقائق كثيرة، أثبت نُبَذاً منها في هذه الصحائف علها تكون عبرة للعقلاء، وذكرى للمؤمنين.

قال: إن قِصَار النظر من المسلمين يحسبوْن أن أوروبا وأميركا هجرتا الدين وابتعدتا عن إيحائه الجليِّ والخفيِّ في الشؤون المحلية والعالمية.

وهذا غلط فاحش، بل جهل مطبق بما يدور في العالم من أحداث، وما يقوم وراءها من نيات، وما يطلب بها من نتائج.

فليس يخفى على ذي بصيرة أن الناحية الدينية لها الأثر الأكبر في توجيه السياسة الدولية، وأن التكتلات القائمة على شتى العقائد، هي التي تمسك بزمام الأمور وتديرها وفق هواها، مستعينة بالأوضاع الاقتصادية والعسكرية وما إليها.

وأمام العالم الإسلامي اليوم خمس كتل متميزة تدور في علاقاتها العامة حول محور ثابت، ولا تنسىٰ نفسها أبداً في زحمة المؤتمرات والمؤامرات، وحركات الجذب والإرخاء في المؤسسات الدولية المعروفة.

(أ) هنالك الكتلة البروتستانتية التي تقودها أميركا وإنجلترا، وكلتا الدولتين تعاون الأخرىٰ وتشدّ أزرها في السياسة العالمية، ولما كان البروتستانت شديدي الاعتماد على مقررات العهد القديم، والاهتمام بأحكامه[1] فإن ذلك قوّىٰ آصرتهم باليهود، ودفعهم إلى مناصرتهم ضد العرب، باعتبار أن إقامة وطن قومي لليهود قد قالت به نصوص العهد القديم المعترف به منهم جميعاً.

ومن ثم أعطت إنجلترا وعد «بلفور» بإنشاء هذا الوطن، وقامت «أميركا» بتنفيذه بعد ذلك.

والدولتان الآن متفقتان على حماية إسرائيل بعد خلقها بالقوة، وهو اتفاق تغذيه عقيدة مشتركة من احترام التوراة، وعداوة مشتركة من كراهية القرآن.

ومع أن مصلحة «أميركا» و«إنجلترا» كانت تقضي باسترضاء العرب، لإمكان إنشاء أقوى جبهة ضد الشيوعية، بيد أن الدولتين تضحيان بهذه المصلحة الظاهرة، تحت تأثير ذكريات دينية وأحقاد تاريخية.

(ب) وهنالك الكتلة الكاثوليكية، وهي تنتظم في سلكها بضعاً وعشرين دولة في جنوب أوروبا ووسطها وفي أميركا اللاتينية بأسرها، عدا الطوائف الكاثوليكية الكثيفة المنتشرة في العالم.

---

(١) البروتستانت يحرمون التماثيل استناداً إلى أحكام التوراة.

والجميع يلتفُّون حول الفاتيكان، ويَرَونه المصدر الروحي لكل توجيه نافذ.

وأغلب الدول الكاثوليكية تخضع خضوعاً تاماً لمشيئة بـابا روما، وتستمد منه فكرها وعاطفتها.

ويلاحظ أن البابا حَمَىٰ أسبانيا من كل شرٍّ في أعقاب الحرب العالمية الثانية، مع أنها انضمت إلى دول المحور، وكان المفروض أن تتعرض لشيء من العقوبات الاقتصادية.

لكن سلطان الفاتيكان لم يحمها فقط، بل قدم لها معاونات مالية سخية لإصلاح شؤونها الاقتصادية.

(ج) وهناك الكتلة اليهودية.. وبنو إسرائيل..

وبنو إسرائيل لا يزيد تعدادهم في الأرض على ستة عشر مليوناً، ولكنهم في البقاع التي يوجدون فيها يملكون من أسباب السيطرة المادية والأدبية، ما يجعلهم أقدر من أمة كالصين أو الهند تضم مئات الملايين.

واليهودي حيث كان ابن عقيدته وجنسه، وعصبيته لدينه وقومه لا يرجح أمامها شيء.

فهو في «روسيا» يهودي قبل أن يكون شيوعياً، وفي «أميركا» يهودي قبل أن يكون رأسمالياً.

وقد استطاع يهود روسيا وأميركا أن يجعلوا سياسة الدولتين تتحد ضد العرب على تكوين إسرائيل، برغم ما بين الدولتين من خصام سافر عنيف.

ويهود العالم يتحركون وفق سياسة دقيقة، يرسمها لهم مجلس حكماء صهيون، توضح لكل جماعة منهم دورها الذي تقوم به، كي تبقى لليهود مكانة متميزة في أرجاء العالم.

وهمهم الأول الآن هضم القطعة التي التهموها من كيان الإسلام وأمته، والتهيّؤ لمزيد بعدها.. والتعاون مع الاستعمار لإدراك هذه المآرب.

(د) وهناك الكتلة الشيوعية، وتضم الآن روسيا، والصين، ورومانيا،

وبلغاريا، والمجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وألبانيا، ويوغوسلافيا، وجملة أحزاب ضخمة ينتسب لها قريب من ثلث السكان في إيطاليا وفرنسا، ودول أخرى.

والشيوعي يدين بولائه لمذهبه، ويتجه في قبلته إلى روسيا، والشعوب الضالعة معها. ولا ينظر إلى وطنه إلا من خلال هذا الولاء المقدم.

وبديهي أنه لا يعرف له رباً، وهو يكره الأديان على العموم، ولكن بغضاءه للإسلام أشد إذ إنه يراه مزوداً بطاقة من اليقين أقوىٰ، وجملة من الشرائع المالية والاجتماعية تغني عن أي نظام آخر.

ولذلك لم تظهر الشيوعية إلا في أوروبا، ولم تجد لها موئلاً في أنحاء الوطن الإسلامي الرحب إلا حيث أفلح الاستعمار في زلزلة العقيدة، وإبعاد التشاريع والتقاليد الإسلامية من الحياة العامة.

وإذا استقرت الشيوعية في بلد فمعنىٰ هذا الاستقرار أن الدين كله مات، وأن الإسلام ـ على الخصوص ـ قُضِيَ عليه، وأن ما بقي من رفاته رسوم لا وزن لها ولا أثر، تتخلف عن العدم قليلاً، ثم يدركها المصير المحتوم.

(هـ) وهناك الكتلة الوثنية، ومركزها الرئيسي جنوبي آسيا، وإن كانت مجاهل أفريقية لا تزال مَلْأَىٰ بهذه الفئات المتقطعة من البشر.

إلا أن البرهمية والبوذية والنحل المتشابهة في الهند، والفيتنام، وسيلان، وما جاورها تتمتع بقوى كبيرة.

ولا يستغربن القارىء إذا علم أن مستقبل المسلمين في هذه البلاد مهدد بأخطار شتى، وأن هذه الوثنيات زاحفة لا جامدة!!!

والسر هو ضغط الاستعمار، وضعف المسلمين.

واستطرد السيد مفتي فلسطين يقول: إننا ـ نحن المسلمين ـ نمقت ضروب الاستعمار وألوان التعصب، ونود لو يحيا البشر ـ على اختلاف عقائدهم ـ متعاونين متعارفين، وأن يتنفَّسُوا في جَوٍّ من السماحة والترحم.

ولكن من لنا بتحقيق هذا الأمل؟

إن المؤسسات الدولية التي افترض في قيامها أن تصل إلى هذا الغرض، كانت ــ للأسف الشديد ــ أول من خان قضايا العدل والحرية.

وأيّاً ما كان الأمر فنحن ــ ببواعث خالصة من ديننا ــ سنظل نقاوم ــ ما حيينا ــ كل ظلم يقع بنا، وكل غبن يقترفه الأقوياء ضدنا، وكل أمنيّة حمقاء في تركنا للإسلام، ومحاولة تهويد قطر، وتنصير آخر، من أرضه الطيبة.

وقد قلت لك: إننا نكره الاستعمار كله شرقيَّة وغربية، بيد أني أقصر الكلام الآن على نوع خبيث منه، مرجئاً الكلام عن غيره إلى فرصة أخرى.

إن الغزو الصليبيَّ الذي التهم بعض بلادنا، ويتربص الدوائر بالبعض الآخر له خصائص يجب أن نذكرها.

فهو ــ أولاً ــ امتداد لضغائن قديمة لم تبرد جذوتها على مرِّ الأعصار، واستمرار لنوبات من الحقد تعتري القوم فينطلقون كالقذائف المدمرة، ويصيبوننا بأشد الخسار.

وهو ــ ثانياً ــ العلة التي أوهنت الإسلام في الهند، وقوّضت حكمه، وانتزعت من يده السلطات الحقيقية لتضعها في أيدي الوثنيين.

وهو ــ ثالثاً ــ مصدر الجراثيم التي جعلت بعض الأغرار من شبابنا يظن في الشيوعية خيراً.

وبلاد الإسلام كانت في حصانة أسبغتها عليها تعاليم الكتاب والسنة، وتقاليد الفضل والكرم التي نتوارثها.

غير أن الاستعمار الغربي ــ في حملته على الإسلام، وقتله لدراسته ــ أحدث هذه البلبلة التي تعانيها أمتنا في بعض أجزائها.

وهو ــ رابعاً ــ مُلِحٌّ كل الإلحاح في تقطيع أوصالنا. ومهما هددته الكوارث، وفرضت عليه مصلحته أن يصالحنا أو يهادننا غلبته سورات العداء الغبيِّ، فأبىٰ إلا المضيَّ في إهانتنا.

وهو ــ خامساً ــ يتناسىٰ خلافاته الداخلية ليوحّد صفّه وعاطفته ضدنا.

إن الناس لا يزالون يذكرون كلمة «اللنبي» لما دخل بيت القدس:
«الآن انتهت الحروب الصليبية».

ويذكرون أنه دخل هذا الحرم بين يدي حشد طويل من القُسُس، والرهبان، والمباخر، والصلبان، والتراتيل الدينية.

لكن المدهش أن هذا الانتصار في الحرب العالمية الأولىٰ، لم يرحب به أصحابه فقط، بل رحبت به ألمانيا المهزومة.

ألمانيا التي اندحرت مع حليفتها تركيا في هذه الحرب!!!

إن الألمان ما كادوا يتسمعون إلى نبأ دخول الإنكليز بيت القدس، وتتردد في آذانهم كلمة «اللنبي» حتىٰ سارعوا هم الآخرون يقرعون نواقيس الكنائس في طول البلاد وعرضها، ترحيباً بفوز الإنكليز وإعلاناً للفرحة به.

والمضحك أن الأمير «شكيب أرسلان» كان في ألمانيا يومئذ فكتب يعاتب الألمان على هذا الموقف، ويذكّرهم بأنهم إنما يفرحون بانكسار زملائهم في الميدان. وهيهات!! فقد ذهب العتاب مع الريح، أو مع تيار الحقد القديم.

ثم قال: يجب أن نعترف بأن الصليبية نجحت في محو الإسلام من الأندلس، بعدما غنيت مدائن الأندلس وقراه بهذا الدين ثمانية قرون طوال.

وقد أغرىٰ هذا النجاح بطلب المزيد. ولولا قوة الأتراك العسكرية في السنين التي تلت هذه الكارثة، لتابع القوم زحفهم، وكرروا ما حدث في الأندلس بأقطار أخرىٰ.

فلما ضعف العثمانيون وضاعت هيبتهم الحربية، قرر القوم استئناف عملهم الأول، وبلوغ أهدافهم نفسها، وإن تغيرت بعض الوسائل.

وكان لا بد ــ في نظرهم ــ من محو الإسلام في جنوب أوروبا وشرقها، ثم الوثوب على مواطنه الأولىٰ في القارتين القديمتين، لقطع دابره.

وتمّ لهم ــ بالفعل ــ ما أرادوا، فمحَوا الإسلام من جنوب إيطاليا، ومن صقلية وكريت.

وشرع الصليبيون في إتمام خطتهم، فأوعزوا إلى دول البلقان والقوقاز أن تقاتل الأتراك، وأن تدمر معالم الإسلام في كل بقعة من هذه الأرجاء، كما أوعزوا إلى الأرمن أن يحدثوا فتوقاً في كيان الدولة، وأن يرتكبوا خياناتٍ كثيرةً لحساب روسيا القيصرية وحلفاء الغرب جميعاً.

واندلعت نيران الفتنة في أماكن شتى، وسعرها الأوروبيون بما استطاعوا من وقود.

وانتهى الأمر على ما بيتوا، فقد كان المسلمون من الفرقة والعجز والانحلال بحيث تخلت عنهم العناية، واستمكن من أعناقهم الأعداء.

والموقف الآن جدٌّ خطير، فإن الأندلس كانت في أطراف العالم الإسلامي، وانحسار الإسلام عنها ــ على فداحة المصاب فيه ــ لا يستتبع النتائج الخطيرة التي يستتبعها على وجه اليقين تهويد فلسطين في آسيا وتنصير الجزائر في إفريقية.

إن ذلك إن تمَّ اليوم ــ لا قدر اللّه ــ فمعناه الذي لا شك فيه، أن الإسلام ضائع غداً من إفريقية وآسيا جميعاً، وأن أمته كلها إلى بوار.

ومن ثم فكل محاولة للرضا بقيام إسرائيل، أو للتفريط في قضية الجزائر، فهي ارتداد عن الإسلام وخيانة عظمىٰ لأمته.

وعلى أُولي الغَيرة والنجدة أن يتدبروا العوَاقب، ويَوْجَلوا من سوء المصير. وأنا لهم النذير العريان!!!

أجل، فخلف أسداف مطبقة من الصمت المتعمد، تجري الآن أحداث رهيبة لسحق الإسلام سحقاً لا قيامة منه.

هذه مصيبتنا في الجزائر، هل يعلم الغافلون مداها؟

إن التقدير الابتدائي لخسائر المسلمين في الأرواح منذ قامت الثورة الأخيرة تربو على ستمائة ألف قتيل.

أما القرىٰ التي محيت بعدما تعرضت للنسف والتدمير بوحشية سافلة، فحدِّثْ عنها ولا حرج.

وهذه المجزرة التي لم يتوقف السفاحون إلى الآن لحظة عن المضيِّ في وضائعها تنظر أمام المؤسسات العالمية بشيء ظاهر من قلة الاكتراث، أو عدم المبالاة. وتدحرج من سنة إلى أخرىٰ، فلا يتخذ فيها قرار.

وستظل تدحرج إلى أن يستطيع الجيش الفرنسي الإجهاز على الضحية، وإخماد أنفاسها فلا يُسمع لها صراخ.. ومن وراء الجيش الفرنسي أسلحة حلف الأطلسي كلها.

إن الدم الذي يراق هو الدم الإسلامي. وهو الدم الوحيد الذي لا ثمن له، أو الذي توضع الأكاليل على رؤوس سفّاكيه.

أما فلسطين فقد دخلها الإنكليز وسكانها من اليهود ٥ في المائة، وأملاكهم ـ برغم جميع السلطات الخفية ـ لا تبلغ ٨ في المائة.

وتركها الإنجليز الشرفاء بعدما استجلبوا من يهود الأرض ما جعلهم مثل العرب عدداً، وبعدما ورثوهم أملاك العرب كلها، ونبذوا هؤلاء في العراء.

وهم لم يصلوا إلى هذه النتيجة إلّا بعد سلسلة من المآسي الدامية، قتل فيها ألوف الأحرار، ومحيت فيها عشرات من القرىٰ.

أما المساجد التي دُكَّتْ، والأوقاف التي نُهبتْ، فشيء لا حصر له.

وفي الوقت الذي يدوخ فيه العرب، وتحكم الخيوط حول وجودهم المادي والمعنوي حتى يحتويه ظلام الأبد، في هذا الوقت يتفجر سيل من الأموال الأميركية والأوروبية إلى إسرائيل كي تقوىٰ، وتقوىٰ.

وبلغ ما بعثت به ألمانيا الغربية وحدها ٤٣ مليون ونصف من الماركات، هذا عدا دول أوروبا الأخرىٰ.

أما أميركا فقد أرسلت وحدها أربعة آلاف مليون جنيه.

والمغفلون وحدهم هم الذين لا يحسبون هذا الدعم ليوم له ما بعده، ليوم ترمقه الصليبية من خلال الغيوب. وتعمل ـ بجَلَد ودأب ـ لتقريب موعده.

إنه يومها المأمول. . اليوم الذي تنقضُّ فيه على المنطقة كلها، لتطوي أعلام الإسلام فيها طيًّا لا يعقبه نشور.

ودول أوروبا تزعم لنفسها الحق في حماية المسيحيين أين كانوا، وتتصيد الأكاذيب للتدخل في شؤون الآخرين باسم هذا الحق.

أما المسلمون الذين جعلهم سوء الحظ قلة في بعض الأقطار، فمن حق دول أوروبا أن تضع سياسة صارمة لإبادتهم، دون أن يحتج مسلم أو يعترض.

ولا بأس إذا حدث شيء من ذلك أن يُتَّهم هذا المسلم بالتعصب!!!

أرأيت شبيهاً في العالمين لهذه الصفاقة؟

لقد هاجت الهيئات السياسية والدينية ضد الدولة العثمانية، وافتعلت ضجيجاً عالياً على ما أسمته مذابح الأرمن، ولم تكن هذه إلّا عملاً تأديبياً لقوم حركتهم أوروبا كي يطعنوا المسلمين في ظهورهم، ويسلموهم إلى أعدائهم.

والآن هل يتحرك أحد للأسلوب الهمجي الذي يعامل به العرب مثلاً داخل إسرائيل؟. .

ولندع عرب فلسطين جانباً، فإن قضيتهم معروفة على الأقل للعرب أنفسهم.

أما مسلمو أوروبا الشرقية، أما الثمانية عشر مليوناً من المسلمين المبعثرين في هذه الأرجاء، فإن قضاياهم تحتاج إلى قليل أو كثير من إيضاح.

إن الإسلام يحتضر في تلك البقاع دون صريخ ولا معين. .

إن أندلساً أخرىٰ تصنع الآن في شرق أوروبا إتماماً للخطة التي أشرنا إليها آنفاً. إن المسلمين في هاتيك البقاع يشبهون غديراً تجمعت فيه المياه، ولكنه انقطع من ينبوعه، فهو موشك على الجفاف، مع انقطاع المدد ووقدة الجو.

غير أن أعداءهم يخافون أن تمتد حياتهم لأسباب غير منظورة، فهم يستعجلون هلاكهم بالقتل قبل أن يطول بهم الأجل. !!!

ومن يدري: ربما تجددت لهم حياة مع حب العقيدة وقبول التضحية؟

فليفتكوا بهم اليوم قبل الغد.

ووقعت مذابح البلقان الأولىٰ سنة ١٩١٢، وهلك في أتونها الألوف المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ، وصكَّت أسماعَ العالمين أنباؤها المفظعة.

أما دول أوروبا فلا نقول: إن ذلك أرضاها وحسب، بل نقول إن ذلك كان بإيعاز منها وتشجيع. وأما الشرق الإسلامي فقد ضج بالبكاء.

وترجم «شوقي» عن مشاعره الأسيفة بهذه القصيدة المشهورة.

يا أخت أندلس عليك سلام!! هوت الخلافة عنك والإسلام!!

وفيها يصف ملك الصرب، قائد تلك المجزرة:

سكينه، وحزامه، ويمينه والصولجان، جميعها آثام

ولم يأبه الصليبيون لشيء من هذا.

لقد تركوا الإسلام الجريح يلقىٰ حتفه بعد هذه الطعنة الموجعة.

غير أن الإسلام لم يمت، وتحامل أهله على أنفسهم واستأنفوا السير في قافلة الحياة.

وجاءت الحرب العالمية الثانية.

جاءت ليستقبل المسلمون في شرق أوروبا نكبة أخرىٰ.

فقد انضمت يوغوسلافيا إلى الحلفاء، وحاولت أن تكون عوناً لهم على دولتي المحور: «ألمانيا، وإيطاليا».

فلما حَمِيَ الوطيس لم تلبث «يوغوسلافيا» قليلاً أمام الجيش الألماني حتى استسلمت، وفرّت حكومتها لتقيم في القاهرة تحت جناح إنجلترا المسيطرة يومئذ على الشرق الأوسط كله.

وبقي في «يوغوسلافيا» وزير الحربية اليوغوسلافي يقاوم الألمان على رأس فلول من العصابات المعتصمة بالجبال.

فهل هذه كانت حقاً وظيفة الجنرال «ميخايلوفتش» قائد هذه العصابات؟ كلا. إنه انتهز فرصة انشغال الألمان في الجبهة الروسية، واشتباك أغلب قواهم في معاركها المريرة، وتجنيدهم فرقة من الشباب اليوغوسلافي المسلم

للعمل في هذا الميدان البعيد، انتهز «ميخايلوفتش» هذه الفرصة ووثب على القرىٰ الإسلامية، وأعمل فيها الفتك والسلب والنهب، وأرخىٰ العنان للضغائن التي احتبست حيناً، ثم أمكنها الآن أن تتنفس.

فإذا السيف يحصد من المسلمين كم؟

كم الذين هلكوا في تلك النار الموقدة؟

مائتا ألف مسلم.

إن الفكرة التي استيقظت بغتة هي إخلاء هذه الديار من المسلمين العزل المفجوعين.

وهام جمهور الموحدين على وجهه لا يدري أين يذهب.

ويُقَدَّر الهلكىٰ من المرض والجوع والبرد بمائتي ألف أخرى.

يقول مفتي فلسطين ــ وكان يومئذ لاجئاً إلى ألمانيا ــ : أبرق إليّ بعض زعماء المسلمين يطلبون النجدة، فأسرعت إلى وزارة الخارجية الألمانية أستَحِثُّها على علاج الموقف! فأجابتني: إن هذه المنطقة أصبحت خاضعةً لإيطاليا.

فسافرت إلى «روما» فوراً وقابلت «موسوليني» وقلت له: إنه لو قُتِلَتْ في بلادنا أسرة واحدة من الكاثوليك، بل شخص واحد لقامت الدنيا، ولكن هنا، في منطقة احتلالكم، وقعت مجازر هلك فيها الآن قريب من مائتي ألف مسلم.

فأمر «موسوليني» وزير خارجيته «كونت شيانو» بمقابلة السفير الألماني «فون ماكنزي» لاتخاذ إجراءات مشتركة كي توقف هذه المذابح.

ولكن المذابح لم تقف، وإن تك وطأتها خفت قليلاً.

فسافرت مرة أخرىٰ إلى «برلين»، ثم إلى «فينّا» ثم إلى «زعرب».

وبعد جهود مضنية تمكنت من السفر إلى «سراجيفو» على مقربة من الأحداث الشنعاء.

واستطعت إقناع القائد الألماني هناك أن يزود المسلمين بالسلاح، ليدافعوا عن أنفسهم.

وتفاهمت مع زعماء الطائفة الإسلامية على طريقة العمل، فألفنا جيشاً من شبابهم بلغ تعداده المائة ألف.

وما كاد يظهر في الميدان حتىٰ انسحب الجنرال «ميخايلوفتش» إلى أوكاره في الجبال.

بل إن القائد الوغد أخذ يتودد إلى المسلمين، ويظهر لهم اللين.

واليد التي أسداها مسلمو الشرق إلىٰ إخوانهم مسلمي البلقان في هذه المأساة العصيبة هي قرابة خمسة وثلاثين ألف جنيه، تبرعت بها الحكومة المصرية وهيئة الهلال الأحمر لمواساة المنكوبين.

ولم تجد هذه النكبة شوقيًّا آخر يرسل وراءها عبراته.

ولا استغرقت من تعليقات الأسىٰ إلا سطوراً، قرأها المؤمنون حيناً وعلى وجوههم سيماء الهزيمة والحزن، ثم عمل الغزو الثقافي عمله في جرّ ذيول النسيان علىٰ كل شيء.

ولو أن أربعمائة ألف كلب ماتوا في إحدىٰ البقاع النائية، لكان لذلك الحدث خبر يُروىٰ هنا وهناك. ولكنّ القتلىٰ مسلمون بين جماهير الأوروبيين. مسلمون متعصبون بين أوروبيين معتدلين!!

إن أحداً من رجال السياسة، أو من رجال الدين في القارتين المتحضرتين أوروبا وأميركا لم يأبه لما حدث، لأن الذي حدث صادف هوىً مكيناً في النفوس.

ألم أقل لك: إن استباحتنا، واجتياح بلادنا وعقائدنا شيء يستحق التكريم في منطق هؤلاء ونظرهم إلى الأمور.

إنه عبادة يتقرب بها إلى اللّه، وأدنىٰ جهد في هذه السبيل مأثرة تذكر لصاحبها ــ رجلًا كان أو امرأة ــ بالحمد والثناء.

وإلا فبماذا نفسر ما نشر في الصحف أخيراً من أن الفاتيكان يطلب المعلومات الكاملة عن إحدى المجنّدات في الجيش الإنجليزي الزاحف على السودان من ستين سنة للقضاء على ثورة المهدي؟

إنه يطلب المعلومات عنها تمهيداً لرسمها قديسة. . . !!

بنت مصرية، خرجت على وطنها والتحقت مجندة بالجيش المحتل.

لم تكن طبيبة ولا ممرضة، لأن الأمة المصرية يوم ذاك لم تكن تألف هذا النوع من العمل. إنها كانت شيئاً لا ندريه. . ولا نذكره.

ولكن المهم أن البحث يدور حول تاريخها المجهول، تمهيداً لدرج اسمها مع القديسات.

وهاك الخبرَ كله، كما نشرته مجلة «منبر الإسلام» التي تصدرها وزارة الأوقاف تحت عنوان [هذه هي الحقائق. . فليقرأها الفاتيكان. .].

نشرت جريدة الأهرام بعددها الصادر في يوم الثلاثاء ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٥٨ ما يأتي:

قدّيسة مصرية شهيرة قتلت في ثورة المهدي

الفاتيكان يستعد لإدراجها بين القديسات

هامبورج في ٢٧ ــ ١. ش ١ ــ قالت اليوم مجلة «درشبيجل»: إن الفاتيكان قد طلب من الجمعية «الجيزويتية» (الآباء اليسوعيين) بالإسكندرية أن تجمع معلومات عن سيدة مصرية تدعىٰ «ماري لطيف» كانت قد تحولت إلى الكاثوليكية، وقتلت وهي تحارب إلى جانب القوات المصرية في ثورة المهدي عام ١٨٨٢.

* * *

وتقول الصحيفة إن الفاتيكان قرر جمع المعلومات عن هذه السيدة تمهيداً لإعلانها قديسة بين قديسات الكنيسة الكاثوليكية.

وختمت الصحيفة هذا النبأ بقولها: إن تقديس هذه البطلة المصرية من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربي.

هذا ما نشرته الأهرام.

والحقيقة التي يعرفها التاريخ، أن إنجلترا ــ بعد احتلالها مصر ــ

استشرفت بأطماعها إلى احتلال السودان، وبدأت تمد لذلك حبائلها، وتدبر خططها، مستغلة ضعف الحكام المصريين الذين وقعوا تحت سيطرة احتلالها.

ولما أحس المهدي بوادر التدبير ثار لإحباط ما يراد ببلاده من شر، ورأت إنجلترا في هذه الثورة ما يهدد أطماعها الاستعمارية، فاغتاظت وقررت القضاء عليه، وسيرت إليه جيوشها بقيادة ضباطها الكبار، وأعلنت في الملأ أنها إنما تحاربه لأنه ثائر على السلطة المصرية الشرعية، ولكي تستر أغراضها ونياتها أكرهت الحكومة المصرية على أن ترسل بعض قواتها مع جيشها المحارب في السودان.

وكان المعروف لدى ضباط وجنود القوات المصرية، أنهم مسخرون لخدمة أغراض الاستعمار، وكانوا يشعرون بالغيظ الحانق والألم المر، إذ يرون أنفسهم مُكْرَهِين إلى السير لقتال إخوانهم في العروبة والدين والوطن، أو مُكْرَهين على التمكين للعدو البغيض أن يحتل السودان، وأن يقتل أحراره الثوار، وأن يضرب على إخوانهم من الذلة والمهانة مثل ما ضرب على المصريين من قبل.

فكانوا ينتهزون كل فرصة مواتية، للفرار من الصف الإنجليزي، والانحياز إلى صف الإخوة الأشقاء.

ومن هذا تتضح الحقائق الآتية:

أولاً: أن الجيوش التي كانت تقاتل المهدي هي جيوش إنجليزية لحماً ودماً، وإليك شهادةَ الإنجليز أنفسهم:

يقول المراسل الحربي لجريدة «الديلي نيوز» المرافق للجيش الإنجليزي بشرق السودان:

إن الجيوش الإنجليزية تقاسي مصاعب ومشاق شديدة في قطع الطريق..

ولما حوصر «غوردون» كتبت جريدة الديلي تلغراف تقول:

إن هلاك «غوردون» أو وقوعه في أسر المهدي، يذهب بالأعمال الحربية التي قامت بها العساكر الإنجليزية في السودان.

وكان من قواد هؤلاء الجند: «غوردون» و «جراهام» و «هفت» و «هكس» و«باكر» وغيرهم، وهي قطعاً أسماء إنجليزية صميمة وليست أسماء مصرية.

ثانياً: أن الجنود والضباط المصريين، كانوا يَدَعون صفوف العدو، وينحازون إلى صفوف السودانيين، حتى كان مع المهدي من الضباط وحدهم ما يزيد على خمسين ضابطاً، وتذكر «التيمس» في غيظ: أن «غوردون» لما اشتد عليه الحصار خرج بألفي جندي من المصريين لفك الحصار، فتراخى الجند، وانحاز خمسة ضباط إلى جند المهدي، وقبض «غوردون» على اثنين من القواد الباشوات لأنهما حرّضا الجند على التراخي، وأعدمهما رمياً بالرصاص.

وثالثاً: أن هذه الحرب كانت حرباً استعمارية قذرة، وليست حرباً مقدسة يستشهد فيها القديسون والقديسات، وكيف يكون قديساً من ينهض لحرب أقوام أبرياء مسالمين لم يعتدوا على أحد؟

وكل جريمتهم أنهم أرادوا أن يعيشوا في أوطانهم أحراراً، فقاوموا رغبة المستعمر في إذلالهم.

ولا شك أن مبادىء السيد المسيح عليه السلام تبرأ كل البراءة من أي حرب عدوانية، تراق فيها الدماء، وتزهق الأرواح، ويهدم العمران، وتعم الخسائر والفواجع.

وإذن، فهذه السيدة المصرية، كانت تصحب جيشاً إنجليزياً، لا جيشاً مصرياً!! وكانت تؤازر الجيش الإنجليزي على قتل الأبرياء، وترميل النساء، وتيتيم الأطفال، تمكيناً له على أغراضه الاستعمارية الخسيسة، ولسنا نخلع عليها اللقب الذي تستحقه من وجهة النظر المصرية، ولكنا نحسب أن سيدة هذا شأنها لا يرحّب بها السيد المسيح في زمرة القديسات.

ولعل مما ينشرح له الفاتيكان بهذه المناسبة: أن من وقائع ثورة المهدي الثابتة أن «غوردون» كان قد أرسل في طلب قُسُسٍ لنشر المذهب البروتستنتي بين مسلمي السودان، لا لنشر المذهب الكاثوليكي.

ولنسمع الآن ما يذكره السيد «جمال الدين الأفغاني» عن سماحة «المهدي» مع الكاثوليك، قال في العروة الوثقى:

«جاء إلى الخرطوم ضابط مصري، وأخبر أن رسل الكاثوليك في مدينة عبيد تحت كنف «محمد أحمد المهدي» على حرية تامة، تُجرىٰ عليهم المرتبات من طرفه، وأن كنيستهم مفتحة الأبواب».

رابعاً: أن تقديس هذه البطلة، ليس من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربي كما تظن مجلة «درشبيجل» في آخر كلمتها، لأن السودان قطر عربي شقيق، وكل العرب معه ينظرون إلى مثل هذا العمل ـ إذا وقع ـ نظرة جزع وألم، ولا سيما أن الإنجليز أوقعوا ما أوقعوا بالسودان وهم يعلمون أنه قطر عربي، وها هي ذي جريدة «التيمس» تصف جنود الجيش السوداني بأنهم «عرب» حين ذكرت إحدى هزائم «غوردون» إذ قالت: «وعاد غوردون إلى الحصون المحاصرة، وغنم العرب من جيشه مقداراً وافراً من الذخائر».

ووقف «لورد جرانفيل» في مجلس اللوردات يتكلم عن مقاومة العرب لا مقاومة السودانيين فيقول:

«إن المقاومة التي لاقيناها من قبائل العرب في سواحل البحر الأحمر (شرق السودان) كان الغرض منها تمكين سلطة المهدي في البلاد السودانية».

* * *

وبعد، فقد ذكرت المجلة التي نشرت الخبر أن الفاتيكان طلب من الجمعية الجزويتية «الآباء اليسوعيين» أن تجمع المعلومات عن هذه السيدة التي كانت تدعى ماري لطيف.

وها نحن أولاء نضع تحت أنظار الجمعية «الجزويتية» هذه الحقائق لعلها تصلح لأن ترفع للفاتيكان.

* * *

أما حال المسلمين الآن في ألبانيا ويوغوسلافيا وغيرهما من دول البلقان فإن للكلام فيه صحائف أخرى، نرجو عون اللّٰه قريباً كي تنشر على حقيقتها الكاملة، كما نرجو أن نوفَّق إلى إخراج بحث شامل عن حال المسلمين في البلاد الشيوعية كلها.

وأظن أن الدعاة المسلمين، بعد هذه الإيماءة العجلى إلى حال دينهم وأمتهم أمام الكتل المتألبة عليهم، سيعرفون كيف يحمون الحقيقة من الضياع، وأصحابها من التلاشي والفناء.

أظنهم سوف يذكرون ولا يغفلون.

وإننا لنشكر سماحة مفتي فلسطين، على هذا الدرس الذي وعيناه منه.

* * *

نماذج حيّة

* **القرآن الكريم:**

الداعية إلى اللّه صديق لكتابه الكريم، يألف تلاوته، وينتظم في أداء ورده، ويستوحش إذا حجزته عنه شواغل طارئة.

والأصل أن يستوعبه كلَّه حفظاً وتجويداً. فإن قصر عن تلك الدرجة، فلن يقصر في إدمان مطالعته، واستذكار مواضـع الاستشهاد منه.

وليس المطلوب أن يكون الداعية وعاء لآي القرآن وأحرفه، بحيث لو وصل إلى القمة في هذا المجال وُصف بأنه مصحف متحرك، كلا.

إن صلة الداعية بكلام اللّه أسمى وأجل.

إن المعاني العلمية للقرآن الكريم، يجب أن تكون جزءاً كبيراً من الحياة العقلية له.

تسبح في فكره كما تسبح الكواكب في أجواء الفضاء.

ففي رأسه صورة للكون كما وصفته آيات القرآن.

وفيه تاريخ للأمم البائدة، وَلِمَ لقيَتْ مصارعها..؟

وإحصاء لأحوال النفوس، وبيان للمطلوب منها.

ووعي لشتى التشريعات الموزعة في السور، وفقه لأحكامها.

وتصوُّر لمشاهد الحشر والنشر، يزاحم صور الحياة الحاضرة.

وحسٌّ بقيام اللّه على الخلائق كلها، قياماً يوضحه ختام الآيات بعشرات من أسمائه الحسنى.

وكما أن عقل الداعية يمتلىء بهذه المعارف النظرية، فإن قلبه يجب أن ينتعش ببواعث الذكر الميسر له.

وأن تستجيشه مصادر الرغبة والرهبة، وتهزه معاني الوعد والوعيد.

ويتحرك مع أدوار الصراع المستمر بين الحق والباطل.

ويقشعر جلده في مواطن الوجل، ويستريح ضميره مع بواعث الطمأنينة.

الداعية رجل يحيا في القرآن عقلاً وعاطفة، ويراه أساس وجوده المادي والمعنوي، ووظيفته التي تشغله بمغانمها ومغارمها..

ولا ريب أن حياته على هذا النحو ترقى آماداً رحبة عن مستوى الناس.

إنها ترفعه إلى الملأ الأعلى، وذاك معنى قول رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة».

لكن، هل يسهل الوصول إلى تلك المكانة؟

والجواب: إنه ليسير على من يسره اللّٰه له.

الواقع أن إمساك الآيات في الذاكرة صعب، ما لم يتعهدها الإنسان باستمرار التلاوة.

والقرآن في جوف الإنسان أشد تَفَصِّياً من الإبل في عقلها، كما ذكر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ذلك، فكيف بالحياة معه، والتنفس في جوه؟

إن ذلك يحتاج إلى طول مجاهدة، ودوام صحو.

والدعوة إلى اللّٰه على كل حال ليست مسلاة امرىء خالي البال.

فإن لم يستعد الرجل لها باستجماع قلبه ولبه فهيهاتَ أن يصل.

والجهد الإنساني وحده ضائع ما لم تلحقه العناية العليا، ويدركه الفضل العظيم.

والأمر يتطلب مزيداً من الضراعة والإنابة والدعاء.

وقد كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يدعو فيقول[1]: «اللهم أنا

---

(١) سبق ذكر هذا الدعاء بنصه الكامل في صفات الداعية.

عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، وفي قبضتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك. . . إلخ».

ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسوة حسنة في هذه الصلة بالقرآن.

ومنه يتعلم الدعاة كيف يكوِّنون صلتهم بالوحي المبارك.

والداعية الذي يحيا في القرآن ينشد للمجتمع حوله أن يحيا هو الآخر فيه، وأن يقيم أوامره ويجتنب نواهيه، وينفذ أحكامه، ويرعى حدوده، ويقبل عليه إقبال المعظم لرسالته، الموقن بصدقها، الراجي سعادة الدارين من ورائها.

ومن ثم فهو يلفت النظر بقوة إلى أن التوقير المفتعل لمجالس القرآن وأصوات التلاوة ـ كما مردت على ذلك العامة ـ لا جدوى منه، وأن القرآن ما نزل لهذا، ولا يخدم بهذا.

القرآن أمة تُنشأ في بوتقته، وكيان يصاغ وفق تعاليمه.

قال الهراوي تحت عنوان «نحن نبغي القرآن»:

إن هذا القرآن يهدي إلى الرُّشد ويدعو لصالح الإنسان
نحن نَبْغي القرآن عِلْماً وَفَهْماً ... يخلقان الكمال في الشبان
نحن نبغي القرآن لفظاً ومعنًى ... فهو صَقْلُ الْحِجا وَصَقْلُ اللسان
نحن نبغي القرآن ديناً ودنيا ... يتجلى في هديه الحُسْنَيَان
نحن نبغي القرآن في معهد الدَّرْ ... س وفي كل منزل ومكان

وقال الشاعر في وصف بلاغته:

الذكر آية ربك الكبرى التي ... فيها لباغي المعجزات غناء
صدرُ البيان له إذا الْتَقَتِ اللُّغَى ... وتقدم البلغاء والفصحاءُ
نُسِخَت به التوراة وهي وضيئة ... وتَخَلَّفَ الإنجيلُ وهو ذُكَاءُ
لما تَمَشَّى في الحجازِ حَكِيمُه ... قَضَّتْ عُكَاظُ به وقام حراءُ

والقرآن كله نماذج يتخير منها الداعية، ما يناسب مقتضى الحال.

* * *

* السنن:

كم من السنين كنت سأقضيها بحثاً وراء الحق الذي أهدانيه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وأنا في ضمير الغيب؟

وكم من الآلام كنت أعانيها وأنا أنفق العمر تجارب قبل أن أهتدي إلى السداد؟

ومن الذي يضمن لي مع قدرتي أن أظفر بالحقيقة الغالية، وقد تاه عنها رجال تشابهت عليهم الطرق حيناً، وانسدّت في وجوههم المنافذ حيناً آخر؟

وهبني أوتيت قدراً من الذكاء الكشاف، والنشاط الدؤوب، فمن للألوف المؤلفة من الناس الذين قلَّت حظوظهم المعنوية؟ وكيف يحيون على ظهر الأرض؟

إنني كلما أحسست راحةَ الإيمان في نفسي، وبردَ اليقين في قلبي، وروعةَ الدين الذي ينير باطني، أشعر بميل شديد إلى شكر الرجل الذي يسَّر لي هذا الخير، وأتاح لي أن أعرف ربـيَ الواحد جلَّ شأنه، وأن أقدّر النعمة التي حولي وأدري من بُعث بها؟

نعم إنني أشعر بميل إلى شكر محمد صلى اللّٰه عليه وسلم والتنويه بفضله، والثناء على صنيعه كلما غسلت وجهي في وضوء، وطهرت بدني لصلاة، ووضعت وجهي على الأرض ساجداً أسبح ربـي الأعلى!!!

نعم، وكلما سرت في الطريق منتصب القامة، رافع الرأس، عزيز النفس، أرمق الكبار والصغار على أنهم عبيد مثلي للّٰه الذي أدعوه وحده وأرجوه وحده.

وكلما شعرت بأني إنسان أعرف من أين جئت؟ وإلى أين أصير؟ ولماذا خُلقت، وماذا أفعل وماذا أترك؟

وكلما تصورت أن هناك بشراً كثيرين، تكتنفهم الحيرة والظلمة لأنهم محرومون من ذلك المتاع المتاح لي، أحسست أن في عنقي وعنق كل مؤمن مثلي دَيناً للرجل الطيب الكريم الذي مهد لنا بجهاده هذا الصراط المستقيم، لمحمد

صلى اللّٰه عليه وسلم. إن هذه نظرة قد تكون منبعثة من الأثرة.

رجل أهداني خيراً جزيلاً، وهداني إلى حق جليل، فبديهي أن أذكره وأشكره، وأذيع بين الناس صنيعه.

لكن لماذا لا يُقدَّر المرء لفضله المجرد؟ إن الجمال الرائع يُعْجِب وكذلك الذكاء البارع، والتفوق البارز في أي شأن من شؤون الحياة.

إن المعدن الإنساني النفيس يستحق أن يغالى به تلقائياً، وأن تعرف له مكانته.

لقد طوَّفت ببصري، وأنا تحت، ومعي على السفح ألوف مؤلفة من أوساط الخلق. رفعت الرأس ونظرت إلى القمة المتوَّجة بالنور والبر والبركة.

تأملت سيرة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وشمائله وسياسته..

ورأيت أنه من هنا انبجست جميع القيم والمُثُل التي تحدو الإنسانية إلى أمجادها، فعرفت سر الحقيقة التي تقال دون افتعال أو افتخار، تقال للتعليم لا للاستعلاء، يقولها هذا الرسول نفسه: أنا سيد ولد آدم، ولا فخر.

يقولها ليرسم الطريق أمام كل حُرٍّ يكره الهوان.

أمام كل امرىء يكره حيرة الباطل، وهوان الجمود.

أمام كل إنسان ينشد الوصول إلى أسباب السيادة الصحيحة.

يقولها ليعرف الجميع من أين تؤخذ الأسوة الحسنة.

* * *

على كل داعية إلى اللّٰه أن يعرف قدر محمد صلى اللّٰه عليه وسلم جهد طاقته، وإذا جأر إلى اللّٰه بالصلاة عليه، فَلْيُودِعْ هذه الصلاةَ روحَ الحب، والشكر.

ثم على كل داعية أن يعرف كيف خَلَصَ هذا الحق له.

وكيف وصل هذا الدين إليه.

وكيف مُهِّدَتْ السبيل لجماهير السالكين إلى يوم القيامة.

إن العالم كله كان محكوماً بإشاعات باطلة، وظنون قاتلة، وأوهام لا حصر لها..

وكما تشيع الفرية المختلقة بين بعض الناس، فتمسخ تصوُّرَهم وتفسد أحكامهم، شاعت عن اللَّه وعن دينه أكاذيب بلغت من السُّمْك والصلابة حداً يُعيي المصلحين، وهامت الجماهير في القارات المائجة بسكانها تخبط في ديجور ليس له قرار.

ونظر اللَّه إلى الخلق فمقتهم عربهم وعجمهم. لقد ضلوا ضلالاً بعيداً.

في هذا العماء السائد، بدأ بصيص من الحق يشتعل، ونور من الوحي يتألق.

وبدأ صوت محمد صلى اللَّه عليه وسلم بالهداية المستغرَبة.

وتحولت الدنيا كلها من حول الرجل المبلغ عن اللَّه إلى عاصفة تريد اقتلاعه من جذوره.

وظل العراك بين الفريقين قريباً من ربع قرن، كان الحق الناشىء فيها يُسْقَى بخلاصات من عرق المجاهدين ودماء الشهداء.

وكان البطل الجلد الصبور يضرب بذراعيه هنا وهناك، كما تضرب الشمس بأشعتها أكناف السُّحُب في يوم غائم.

وما زال يقاوم قوى الظلام حتى تغلّب عليها وملأ الأرض بأنوار الإسلام.

وقصة هذا الكفاح، وما أُثِر عن الرسول فيه من قول، أو فعل، أو حكم، أو تقرير هو سنّة الرسول العظيم صلى اللَّه عليه وسلم، التي يجب أن يدرسها الدعاة وأن يجعلوها بعد كتاب اللَّه، أساس الحكمة التي يتعلمون، ويُعَلِّمون.

* * *

ويقول[1] الجاحظ، ومكانته في الأدب ما تعلمون، يصف كلام الرسول: «ألقى اللَّه على كلامه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلام القصير،

(١) عن كتاب «بطل الأبطال» للأستاذ «عبدالرحمن عزام».

ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق.

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً. . من كلامه صلى اللّه عليه وسلم.

وإني محاول الآن أن أسوق لكم نُبَذاً من قوله في مواضع شتى، ومعان متفرقة، فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمدية حية منيرة، لم تُبْلِ القرونُ جِدَّتها ولم تُذْهِبْ شيئاً من طلاوتها.

انظروا إلى هذه الكلمات:

قال رسول اللّه: أمرني ربي بتسع: خشية اللّه في السرّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصِلَ من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفوَ عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فِكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة.

وقد وجدوا مكتوباً على قائم سيفه صلى اللّه عليه وسلم: اعفُ عمَّن ظلمك، وصِل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك.

ويقول ابن عباس: كنت رديفَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لي: يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه (تعالى) لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه (تعالى) عليك، رُفِعَتْ الأقلام وجفَّتِ الصحف. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أبي ذرّ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اتق اللّه حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمْحُها، وخالق الناس بخلق حسن».

وعن ابن عمرو بن العاص قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

«خصلتان من كانتا فيه كتبه اللَّه تعالى شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه اللَّه لا شاكراً ولا صابراً: من نظر في دينه إلى من هو فوقه، فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد اللَّه على ما فضَّله به عليه».

وعن حُذيفة قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «لا يكن أحدكم إمَّعَةً [وهو الذي لا يثبت مع أحد ولا على رأي لضعفه] يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تَجَنَّبُوا إساءتهم».

وعن معاوية أنه كتب إلى عائشة: أن اكتبي إليَّ كتاباً توصينني فيه ولا تكثري، فكتبت: سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «من التمس رضا اللَّه بسُخط الناس كفاه اللَّه تعالى مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط اللَّه وكله اللَّه تعالى إلى الناس، والسلام عليك».

وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «شرّ ما في الرجل، شحٌّ هالع، وجبن خالع، اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حَمَلهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلو محارمهم».

وقال: «إن اللَّه كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

وقال: «لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه اللَّه ويبتليك».

وقال: «ألا أنبئكم بشراركم؟ الذي يأكل وحدَه، ويجلِدُ عبدَه، ويمنع رفدَه».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون في غضب اللَّه، ويروحون في سخط اللَّه».

وقال: «صِنفان من أهل النار ولم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنِمَةِ البُخْت لا يدخلن الجنة، ولا يَرَحْنَ ريحها».

وقال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ».

ثم انظروا إلى هذه الكلمات الموجزة، وتدبّروا ما فيها من حِكَم بالغة: لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له. رحم اللّه عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلِم. الناس بزمانهم أشبه. العِدَةُ عطية. العاقل ألوف مألوف. لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً، والصدقة مغرماً. اتقوا المهلكات: شحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

كان صلى اللّه عليه وسلم خطيباً لا يبارَى، يقصد إلى الحقيقة، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم، لا يحاول أن يستبي القلوب بزخرف القول، يكره التفاصح والتنطع، بيِّن العبارة، واضح المعنى، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير، وقصارى القول إن كلامه هو الكلام الموجز الشامل المعجز.

يقول أبو سعيد الخُدرِيّ: صلى بنا النبيّ يوماً صلاة العصر، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: إن الدنيا خَضِرَة حلوة، وإن اللّه مستخلفكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون.

ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه، ألا إنه يُنْصَبُ لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، ولا غَدْرَةَ أعظم من غدرة إمامِ عامّة.

ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم حمرةَ عينيه، وانتفاخَ أوداجه فمن أحسَّ بشيءٍ من ذلك فَلْيَلْصَقْ بالأرض».

ثم انظروا إلى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع، في صفحة موجزة، يلقيها على مائة ألف، في موقف عرفة، في حجة الوداع،

ففيها ألغى مآثِرَ الجاهلية، وقرر مبادىء المساواة، وحرَّم الثأر، وقضى بذلك على أقدم عُرف للعرب، وأمسِّ شيء بقلوبهم، وقضى كذلك على الربا، ورفع درجة المرأة، وحرم الفتن والنهب والغزو، وكان مفخرة وعزة، وذكر الأشهر الحُرُم، فسوَّى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام، وقد كان الروم يستغلون تحريم العرب للقتال في شهور معينة، فيعتدون على حدودهم، ونصح الناس في أمور شتى، وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم، وما يستهينون به من الآثام.

قال صلى اللَّه عليه وسلم: «أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللَّه السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات:

ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجَبُ مُضَر الذي بين جُمَادى وشعبان.

أي شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟ قالوا: بلى.

قال: فأي بلد هذا؟ أليس البلدة؟ ــ يعني مكة ــ قالوا: بلى.

قال: فأي يوم هذا؟ قال: أليس يوم النحر؟ قالوا: بلى.

قال: فإن وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقَون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض.

ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعىٰ له من بعض من سمعه.

ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل ربا موضوع [أي مهدر] ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى اللَّه أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب [عم النبي] موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أولَ دمائكم أضع دمُ ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب [أي ابن عم النبي].

أما بعد: أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوىٰ ذلك، فقد رضي بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ﴾(١).

أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يُوطِئن فُرُشكم أحداً غيركم تكرهونه، وعليهن ألا يأتين فاحشة مبينة فإن فعلن فإن اللّه قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وأن تضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

أيها الناس: استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان(٢)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، فاعقلوا ــ أيها الناس ــ قولي، فإني بَلَّغْتُ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا: كتاب اللّه وسنة رسوله.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تَعْلَمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلُّ لامرىء مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلّغت؟

فأجاب الناس من كل صوب: نعم، فقال: اللهم اشهد». ونزل عن ناقته.

هذه الخطبة جمعت أصولاً قد تبدو الآن معترفاً بها، مجمعاً عليها، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربي وقت إلقائها، بل حالة المجتمع

---

(١) سورة التوبة: آية ٣٧.

(٢) جمع عانية، أي أسيرات، شبههن بالأسيرات لضعفهن.

الإنساني، يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعي منذ ظهوره صلى اللّه عليه وسلم، ويلحظون إحاطتها على قصدها بالداء والدواء، وأن فيها أسس الحضارة التي جعلت من العرب الضُّلَّال أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة.

وها هي ذي الأيام تمر فتُبْلِي كلَّ جديد، وفصاحةُ محمد صلى اللّه عليه وسلـم وبلاغتُه لا تزال نضرة عذبة، يبتهج بها المتطلع إلى الأدب والعلم، ويجد فيها الأديب رِيّاً وشفاءً.

*** زاد للدعاة:**

هذه نماذج للقراءة والتدبر، لا للحفظ والإلقاء.

قصدت من سوقها إثارة ما في النفوس من مشاعر الخير والصدق.

فإن الكلمات العامرة باليقين، الحافلة بالإخلاص، الصائبة في تصوير جوانب الحياة، الراشدة في إيضاح قضاياها، لها أثر ساحر في إحياء القلوب، وإيقاظ الهمم، وإطلاق العواطف الحبيسة وراء الهموم الصِّغار والأغراض التوافة.

وقد ارتأيت في ترتيب هذه النماذج أن تكون منوعة النزعات، متوازنة الفكرة والوجهة، فلا ينجذب القارىء مع مناجاة خاشعة إلا شَدَّتـه خطبـة مهتاجة، ولا يبغض سَوْرَةَ الحياة إلا ارتد إليها في صراع مع أعداء اللّه.

ولا يهيم في طلب الآخرة إلا أبصر قصده مع هذه الدنيا.

والحق أن التدين الصحيح هو الذي يستكمل في طبيعته عناصر الكمال في المعاش والمعاد جميعاً، وتلتقي فيه شُعَب الإيمان كلُّها، فلا يطغىٰ جانب على جانب، ولا يتضح معنىً ويغيم آخر.

ونريد من الـداعية إلى اللّه ــ إذا عـاش حيناً بين أفكـار الرجـال وكلماتهم ــ أن يقتبس منها ما يؤكد في نفسه هذه الحقيقة.

أي إنه ينتفع بها في زيادة تفهُّمِه لدينه وإفهامه للآخرين.

ثم ليجعل من هذه الكلمات بذوراً تُلْقَىٰ في نفسه، كما تلقىٰ الحبوب

في الأرض الخصبة لتخرج بعد حين، وقد زادت أضعافاً مضاعفة.

ثم إن مستويات البلاغة في هذه النقول تتبع العصور التي قيلت فيها، وأذواق الناس تختلف في تقدير ما احتوته من جمال فني، وأعتقد أن بساطة الأداء الظاهرة في صدر الإسلام، أفضل من ضروب الأناقة التي التُزِمَتْ في العصور الوسيطة.

وأحسب أن عصرنا الحاضر أخذ يقترب في تعبيره من طابع الصدر الأول.

وليس يهمنا ما ينتمي إليه الكلام من طبقات البلاغة، إنما يهمنا ما أودع فيه من روح الإيمان، وقوة الشعور، وأصالة المعنىٰ.

فذلك هو الزاد الذي تربو به ثروة الداعية، ويقتدر به على توجيه الناس.

وصية أبـي بكر لعمر الفاروق

«إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى اللّه.

إن للّه عملاً بالليل لا يقبله بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل.

وإنه لا تُقبل نافلة حتىٰ تُـؤَدَّىٰ الفريضة.

واعلم أنما ثَقُلتْ موازينُ مَنْ ثَقُلت موازينُه يومَ القيامة، باتباعهم الحقَّ في الدنيا وثِقَلِه عليهم.

وحقٌّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً.

وإنما خَفَّتْ موازين من خفت موازينه يومَ القيامة، باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

إن اللّه ذكر أهل الجنة، فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتَهم قلتَ: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء..

وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكرْ حسنـاتِهم، فإذا ذكرتَهم قلتَ: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء..

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب، ليكون العبد راغباً راهباً، ولا يتمنىٰ على اللّه غير الحق، ولا يُلقي بيده إلى التهلكة.

فــإذا حفـظتَ وصيتي فــلا يكنْ غـائبٌ أحبَّ إليــك من المـوت ـــ وهو آتيك ـــ.

وإن ضيعتَ وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت، ولستَ بمعجز اللَّه».

من خطب أبـي بكر

خطب رضي اللَّه عنه عند تولّيه الخلافة فقال ـــ بعد أن حمد اللَّه وأثنىٰ عليه ـــ: «أيها الناس: إني وليت عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني.

أطيعوني ما أطعت اللَّه فيكم، فإذا عصيتُه فلا طاعةَ لي عليكم.

ألا إن أقواكم عندي الضعيفُ حتىٰ آخذ الحق له، وأضعفَكم القويُّ حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم».

* * *

وقال مرة ـــ بعد الحمد والثناء ـــ:

«إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة هم الملوك!!

فرفع الناس رؤوسهم ـــ تعجُّباً ـــ فقال: أيها الناس إنكم لطعّانون عَجِلُون.

إن من الملوك من إذا مَلَك زهّده اللَّه فيما بيده، ورغّبه فيما بيد غيره، وانتقصه شطر أجله، وأَشْرَبَ قلبَه الإشفاق[1] فهو يحسد على القليل، ويسخط على الكثيـر، ويسأم الـرخاء. لا يستجلي العبـرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسِيِّ[2] أو السراب الخادع، جُذُل الظاهر، حزين الباطن؛ فإذا وجَبَت نفسه[3] ونضب عمره وضحا ظله[4]، حاسبه اللَّه فأشدَّ حسابه وأقلَّ عفوه[5].

---

(١) الخوف.

(٢) الزائف الرديء.

(٣) حل أجله.

(٤) زال فلا ظل له على الأرض.

(٥) شدد، وقلل.

ألا وإن الفقراء ـ يعني القانعين ـ هم المرحومون.

ألا وإن خير الملوك من آمن باللّه وحَكَمَ بكتابه وسنة نبيه صلى اللّه عليه وسلم.

وإنكم اليوم على خلافة نبوة، ومفرق حجة، وسترون بعدي مُلْكاً عضوضاً، ومَلكاً عنيداً، وأمة شَعاعاً، ودماً مباحاً.

فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق كبوة، يعفو[1] بها الأثر ويموت لها البشر، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن، واعتصموا بالطاعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر».

* * *

وخطب مرة أخرى فقال:

«أوصيكم بتقوى اللّه، وأن تُثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن اللّه أثنىٰ على زكريا وعلى أهل بيته فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[2].

ثم اعلموا عبادَ اللّه أن اللّه قد آرتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، وعوَّضكم بالقليل الفاني الكثيرَ الباقي.

وهذا كتاب اللّه فيكم لا تفنىٰ عجائبه، ولا يُطفأ نوره، فثقوا بقوله، وانتصروا لكتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة، فإنه خلقكم لعبادته، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون.

ثم اعلموا عبادَ اللّه أنكم تغدون وتروحون في أجَلٍ قد غُيِّبَ عنكم عِلمُه، فإن استطعتم ألا تنقضيَ الآجالُ إلا وأنتم في عملٍ للّه فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا باللّه.

---

(١) يمحى.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٩٠.

فسابقوا في مهل بأعمالكم قبل أن تنقضيَ آجالكم، فتردَّكم إلىٰ سوء أعمالكم؛ فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم، ونسُوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم. فالوحا الوحا(١)، والنجاء النجاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً مَرُّه، سريعاً سيرُه».

من خطب عمر

«الحمد للَّه الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه صلى اللَّه عليه وسلم، فهدانا من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألّف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكّن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين.

فاحمدوا اللَّه على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإن اللَّه قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم.

وإياكم والعملَ بالمعاصي، وكُفْرَ النعمة، فقلّما كفر قوم بنعمة ولم يفزعوا إلىٰ التوبة إلا سُلِبُوا عِزَّهم وسُلِّطَ عليهم عدوُّهم.

أيها الناس:

إن اللَّـه قد أعز دعوة هذه الأمة، وجمع كلمتها، وأظهر فَلْجها(٢)، ونصرها وشرّفها؛ فاحمدوه عبادَ اللَّه على نعمه، واشكروه على آلائه، جعلنا اللَّه وإياكم من الشاكرين».

* * *

وخطب مرة أخرى فقال:

«أيها الناس: إنه قد أتىٰ عليّ زمان وأنا أرىٰ أن قراء القرآن إنما يريدون به اللَّه عز وجل وما عنده.

ألا وإنه قد خُيِّل إليَّ أن قوماً مُرائين يريدون به الناس والدنيا.

ألا فَأَريدوا اللَّهَ بأعمالكم.

ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحي، وإذ رسول اللَّه بين أظهرنا ينبئنا من

---

(١) البدار البدار!!

(٢) فوزها.

أخباركم، فقد انقطع الوحي، وذهب النبي، فإنما نعرفكم بما أقول لكم:

ألا من رأينا منه خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه، ومن رأينا منه شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، سرائركم بينكم وبين ربكم.

ألا وإني إنما أبعث عمالي ليعلِّموكم دينكم وسنتكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم، ويأخذوا أموالكم، فوالذي نفسي بيده لأقِصَّنكم منهم.

فقام عمرو بن العاص فقال:

يا أمير المؤمنين، أرأيت إن بعثت عاملاً من عمالك، فأدّب رجلاً من رعيتك أتقصه منه؟

قال: نعم، والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فلقد رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يُقِص من نفسه».

من آخر ما قال عمر

قال ابن عباس: دخلت على عمر في أيام طعنته، وهو مضطجع على وسادة من أَدَمٍ، وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم..

فقال له رجل: ليس عليك بأس.

قال: «لئن لم يكن علي اليوم، ليكونن بعد اليوم، وإن للحياة لنصيباً من القلب، وإن للموت لكربة؛ وقد كنت أحب أن أُنجِّي نفسي وأنجو منكم، وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة يرجوها، ويخشىٰ أن يموت دونها، فهو يركض بيديه ورجليه، وأشدُّ من الغريق الذي يرىٰ الجنة والنار وهو مشغول، ولقد تركت زهرَتكم كما هي، ما لبستها فأخلقتها؛ وثمرَتَكم يانعةً في أكمامها ما أكلتها، وما جنيتُ ما جنيتُ إلا لكم، وما تركتُ ورائي درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً».

ثم بكىٰ، وبكىٰ الناس معه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أبشِرْ، فواللَّه لقد مات رسول اللَّه وهو عنك راضٍ، ومات أبو بكرٍ وهو عنك راضٍ، وإن المسلمين راضون عنك.

قال: «المغرور واللّهِ مَنْ غررتموه، أما واللّه لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع..».

من عمر إلى أبـي موسىٰ

كتب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إلى أبـي موسىٰ الأشعري:

«أما بعد؛ فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ باللّه، أن تدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهدار متبعة، ودنيا مؤثرة.

أقِم الحدود ولو ساعةً من النهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما للّه والآخر للدنيا، فآثِرْ نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا؛ فإن الدنيا تنفد، والآخرة تبقىٰ؛ وكن من خشية اللّه على وجل؛ وأخِفِ الفُسَّـاق، وآجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً.

وآستدم النعمة بالشكر والطاعة بالتألف، والمغفرة والنصرة بالتواضع والمحبة للناس.

وَعُدْ مرضىٰ المسلمين، واشهد جنائزهم، وباشر أمورَهم، وافتح بابك لهم؛ فإنما أنتَ رجل منهم، غير أن اللّه جعلك أثقلَهم حِمْلاً.

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنه فَشَتْ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلُها؛ فإياك يا عبدَ اللّه أن تكون كالبهيمة: همُّها في السِّمَنِ والسِّمَنُ حتفُها.

واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من يشقىٰ به الناس، والسلام».

وصية عمر للخليفة من بعده

أوصىٰ عمر الخليفة من بعده فقال:

«أوصيك بتقوى اللّه لا شريك له.

وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً وأن تعرف لهم سابقتهم.

وأوصيك بالأنصار خيراً؛ فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم.

وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم درء العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيأهم إلا عن فضل منهم.

وأوصيك بأهل البادية خيراً؛ فإنهم أصلُ العرب ومادة الإسلام، أن تأخذَ من حواشي أموال أغنيائهم فتردَّها على فقرائهم.

وأوصيك بأهل الذمة خيراً، أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يدٍ وهم صاغرون.

وأوصيك بتقوىٰ اللَّه وشدة الحذر منه ومخافة مقته أن يطَّلع منك على ريبة.

وأوصيك أن تخشىٰ اللَّه في الناس، ولا تخشىٰ الناس في اللَّه.

وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن ذلك بإذن اللَّه سلامة لقلبك، وحطٌّ لوزرك، وخير في عاقبة أمرك حتىٰ تفضي من ذلك إلىٰ من يعرف سريرتك، ويحول بينك وبين قلبك.

وآمرك أن تشتد في أمر اللَّه، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتىٰ تنتهك منه، مثل ما انتهك من حرمة اللَّه.

واجعل الناس عندك سواء، لا تبالي على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في اللَّه لومة لائم.

وإياك والأَثَرة والمحاباة فيما ولَّاك اللَّه مما أفاء اللَّه على المؤمنين، فتجور وتظلم وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسَّعه اللَّه عليك، وقد أصبحتَ بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة؛ فإن اقترفتَ لدنياك عدلاً وعفة عما بسط اللَّه لك اقترفت به إيماناً ورضواناً، وإن غلب عليك الهوىٰ اقترفت به سخط اللَّه.

وأوصيك ألا ترخّص لنفسك، ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة.

ولقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك، فابتغ بذلك وجه اللَّه والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنتُ دالاً عليه نفسي وولدي؛ فإن عملتَ بالذي وعظتك وانتهيتَ إلىٰ الذي أمرتُك أخذتَ به نصيباً وافراً، وحظاً وافياً، وإن لم تفعل ذلك، ولم يهمك، ولم تنزل معاظم الأمور عند الذي يرضى اللَّه به عنك يكن ذلك بك انتقاصاً ورأيك فيه مدخولاً، لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة إبليس، وهو داع إلى كل هَلَكَة، وقد أضل القرون السالفة قبلك، فأوردَهم النارَ ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرىء موالاةَ عدو اللَّه الداعي إلى معاصيه.

ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات وكن واعظاً لنفسك.

أنشدك اللَّه لما ترحَّمْتَ على جماعة المسلمين، فأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقّرت عالمهم، ولا تضربهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم في البعوث[1] فتقطع نسلهم، ولا تجعل المال دُوْلَةً بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويُّهم ضعيفَهم.

هذه وصيتي إياك، وأشهد اللَّه عليك، وأقرأ عليك السلام».

لعثمان رضي اللَّه عنه

لما بويع خرج إلى الناس فخطبهم، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: أول كل مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وما كنا خطباء، وسيعلمنا اللَّه»!!!

ومن خطبة له قال:

أيها الناس: اتقوا اللَّه فإن تقوى اللَّه غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور اللَّه نوراً لظلمة القبر، وليخشَ

---

(١) البعوث هي الجيوش التي يبعثها الإمام إلى أرض العدو أو عند الثغور؛ وتجميرهم تركهم هناك بحيث لا يعودون إلى ديارهم وأهليهم.

عبد أن يحشره اللّه أعمىٰ وقد كان بصيراً.

وقد يلقِي الحكيمُ جوامعَ الكلم، ولكن الأصمَّ ينادىٰ من مكان بعيد.

واعلموا أن من كان اللّه له لم يخف شيئاً، ومن كان اللّه عليه فمن يرجوه بعده؟

* * *

وقال في خطبة له: ابنَ آدم: اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطىٰ إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطّى غيرك إليك، وقصدك؛ فخذ حذرك، واستعدَّ له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك.

واعلم ابنَ آدم أنك إن غفلت عن نفسك ولم تستعدَّ لها لم يستعدَّ لها غيرك.

ولا بد من لقاء اللّه، فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك، والسلام.

* * *

وآخر خطبة خطبها عثمان قال:

إن اللّه إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطيكموها لتركنوا إليها.

إن الدنيا تفنىٰ والآخرة تبقىٰ، لا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقىٰ على ما يفنىٰ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى اللّه.

اتقوا اللّه فإن تقواه جُنَّةٌ من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من اللّه الغير[1].

والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً:

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

(١) الغير: تغير الحال، وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.

(٢) سورة آل عمران: آيتي ١٠٣ ــ ١٠٤.

للإمام علي رضي اللَّه عنه

الناس والعلم

قال كميل بن زياد النخعي: أخذ علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه بيدي، فأخرجني ناحية الجبّانة فلما أصحر[1] جعل يتنفس، ثم قال:

يا كميل بنَ زياد: القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: فعالم ربَّاني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهَمَج رَعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال: العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

العلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة.

العلم حاكم، والمال محكوم عليه.

ومحبة العلم دين يدان به.

العلم يُكسِبُ العالِمَ الطاعةَ في حياته، وجميلَ الأُحدوثة بعد وفاته، وصنعة المال يزول بزواله.

مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون على الدهر؛ أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

هاه هاه؛ إن ههنا علماً ــ وأشار إلى صدره ــ لو أصَبْتُ له حَمَلَةً!.

بل أصبت له لَقِناً[2] غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج اللَّه على كتابه، وبنعمه على عباده.

أو منقاداً لأجل الحق لا بصيرة له في أحنائه[3]، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا، ولا ذاك.

أو منهوماً باللذات، سلس القياد للشهوات.

---

(١) أصحر: أي بلغ الصحراء ودخلها. (٢) ذكياً فطناً. (٣) نواحيه وجوانبه.

أو مُغْرًى بجمع الأموال والادخار.

ليسوا من دعاة الدين؛ أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة.

لذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلىٰ، لن تخلو الأرض من قائم للّٰه بحجته، لكي لا تَبْطُلَ حُجَجُ اللّٰه وبيناته. أولئك الأقلُّون عَدَدًا، الأعظمون عند اللّٰه قَدْراً، بهم يدفع اللّٰه عن حججه، حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحُها معلقة بالملأ الأعلى.

أولئك خلفاء اللّٰه في أرضه، ودعاته إلى دينه.

هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر اللّٰه لي ولك.

إذا شئت فقم.

بادروا بالعمل

أما بعد..

فإن الدنيا قد أدبرتْ وآذنتْ بِوَدَاعٍ، وإن الآخرة قد اقتربت وأشرفت باطّلاع.

ألا وإن المضمار اليوم، والسباقَ غداً.

أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟! ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟.

ألا وإنكم في أيامِ أَمَلٍ مِنْ ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرَّه أجله، ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خَسِر عَمَلَه وخَتَرَهُ أجلُه.

ألا فاعملوا للّٰه في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة.

ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبُها، ولا كالنار نام هاربُها.

ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضرُّه الباطل، ومن لم يستقم به الهدىٰ يجرُّ به الضلال إلى الرَّدَىٰ.

ألا وإنكم قد أُمِرتم بالظَّعْن ودُلِلتم على الزاد.

وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتباعُ الهوىٰ وطولُ الأمل، فتزودوا في الدنيا ما تُحرزون به أنفسكم غداً.

المرء في الدنيا

إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، ونهب للمصائب، وفي كل أكلة غُصص، ومع كل جرعة شَرَقٌ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرىٰ، ولا يستقبل يوماً من عُمُرِه إلا بهدم آخر من أجله، فنحن أعوان الحتوف، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء.

فمن أين نرجو البقاء؟ وهذان الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرعا الكرَّة في هدمِ ما بَنَيا، وتفريقِ ما جَمَعَا...!!!

فاطلبوا الخير وأهله.

واعلموا أن خيراً من الخير معطيه، وشراً من الشر فاعله.

لا تذموا الدنيا

ذمَّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه فقال علي:

الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوَّد منها، ومهبط وحي اللَّه، ومصلَّى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة.

فمن ذا الذي يذمها؟ وقد آذنت بِبَيْنِها، ونادت بفراقها، وشبهت بسرورها السرور، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً؟!

فيا أيها الذام للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا؟ أم متى استذمّت إليك[1]؟ أبمصارع آبائك في البِلَى؟ أم بمضاجع أمهاتك في الثرىٰ؟ كم مرَّضْتَ بيديك وكم علّلت بكفَّيك؟ تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطباء، غداة لا يغني عنه دواؤك، ولاَ ينفعه بكاؤك.

(١) صنعت إليك ما تستحق به الذم.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللّه؟

مـرض الربيـع بن زياد الحـارثي، فـذهب أميـر المؤمنين علي بن أبـي طالب يعوده، فكان فيما قال له الربيع: يا أميرَ المؤمنين ألا أشكو إليك عاصمَ بنَ زياد؟ قال: وما له؟

قال: لبس العباءة، وترك الملاءة، وغمَّ أهله، وأحزن ولده.

فقال: عَلَيّ عاصماً... فلما أتاه عبس في وجهه، وقال:

ويلك يا عاصم، أترىٰ اللّه أباح لك اللذات، وهو يكره أخذك منها؟!.

لأنت أهونُ على اللّه من ذلك.

أو ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[1].

ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[2].

وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[3]؟.

أما واللّه إن ابتذال نعم اللّه بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعته عز وجل يقول:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[4].

ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[5].

وإن اللّه عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال:

---

(١) سورة الرحمٰن: آيتي ١٩ ــ ٢٠.
(٢) سورة الرحمٰن: آية ٢٢.
(٣) سورة فاطر: آية ١٢.
(٤) سورة الضحى: آية ١١.
(٥) سورة الأعراف: آية ٣٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾(1).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾(2).

فقال عاصم: فعلامَ اقتصرتَ أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجَشِب(3)؟

قال: إن اللّٰه افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع على الفقير فقره.

قال: فما برح حتى لبس الملاء، ونبذ العباء.

اللّٰه جلَّ جلاله

قال في خطبة له يثني على اللّٰه:

هو أول كل شيء ووليُّه، وكل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به، وكل شيء ضارع إليه، وكل شيء مستكين له.

خشعتْ له الأصوات، وكلَّتْ دونه الصفات، وضلّتْ دونه الأوهام، وحارت دونه الأحلام، وانحسرت دونه الأبصار.

لا يقضي في الأمور غيرُه، ولا يتم شيء منها دونه.

سبحانه ما أجلَّ شأنَه، وأعظمَ سلطانه، تسبِّحُ له السمواتُ العُلا، ومن في الأرض السفلىٰ، له التسبيح والعظمة، والملك والقدرة، والحول والقوة، يقضي بعلم، ويعفو بحلم.

قوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف، وعز كل ذليل، ووليُّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، وكاشف كل كربة؛ المطلع على كل خفية، المحصي كلَّ سريرة يعلم ما تُكِنُّ الصدور، وما تُرخىٰ عليه الستور؛ الرحيم بخلقه،

(1) سورة البقرة: آية ١٧٢.

(2) سورة المؤمنون: آية ٥١.

(3) الطعام الرديء.

الرؤوف بعباده؛ من تكلم منهم سمع كلامه، ومن سكت منهم علم ما في نفسه، ومن عاش منهم فعليه رزقه، ومن مات فإليه مصيره؛ أحاط بكل شيء حفظه.

اللهم لك الحمد عدد ما تحيي وتميت، وعددَ أنفاسِ خلقك ولفظِهم ولحظِ أبصارهم وعدد ما تجري به الريح، وتحمله السحاب، ويختلف به الليل والنهار، وتشرق عليه الشمس والقمر والنجوم، حمداً لا ينقضي عدده ولا يفنىٰ مدده.

اللّهم أنت قبل كل شيء، وإليك مصير كل شيء، وتكون بعد هلاك كل شيء، وتبقى ويفنى كل شيء، وأنت وارث كل شيء، أحاط علمك بكل شيء، وليس يعجزك شيءٌ، ولا يتوارىٰ عنك شيء، ولا يقدر أحد قَدْرَكَ، ولا يشكرك أحد حق شكرك، ولا تهتدي العقول لصفتك، ولا تبلغ الأوهام حدَّك.

حارت الأبصار دون النظر إليك فلم ترك عين فتخبر عنك: كيف أنت؟ وكيف كنت؟ لا نعلم اللّهم كيف عظمتك غير أنا نعلم أنك حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر، ولم يدركك بصر، ولا يَقدِرُ قدرتك مَلَك ولا بشر، أدركتَ الأبصار وكتمتَ الآجال، وأحصيتَ الأعمال، وأخذتَ بالنواصي والأقدام.

لم تخلق الخلق لحاجة ولا وحشة؛ ملأتَ كل شيء عظمة، فلا يُرَدُّ ما أردتَ، ولا يُعطىٰ ما منعتَ، ولا يَنْقُصُ سلطانَك مَنْ عصاك، ولا يزيد في خلقك مَنْ أطاعك.

كل سر عندك علمه، وكل غيب عندك شاهده، فلم يستتر عنك شيء، ولم يشغلك شيء عن شيء.

وقدرتك على ما تقضي، كقدرتك على ما قضيتَ.

وقدرتك على القوي كقدرتك على الضعيف، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات، فإليك المنتهى وأنت الموعد، لا منجى منك إلا إليك. بيدك ناصية كل دابة، وبإذنك تسقط كل ورقة ولا يعزب عنك مثقال ذرة.

طلب التوبة[1]

اللَّهم إنه يحجبني عن مسألتك خلال ثلاث، وتحدوني عليها خلة واحدة.

١ ـ يحجبني أمرٌ أمرتَ به فأبطأتُ عنه.

٢ ـ ونهيٌ نهيتني عنه فأسرعتُ إليه.

٣ ـ ونعمة أنعمتَ بها عليّ فقصّرتُ في شكرها.

ويحدوني على مسألتك تفضُّلُك على من أقبل بوجهه إليك، ووفد يحسن ظنه إليك. إذ جميع إحسانك تفضُّل، وإذ كل نِعَمِكَ ابتداءٌ.

فها أنا ذا يا إلهي واقف بباب عزك وقوفَ المستسلم الذليل، وسائلك على الحياء مني سؤال البائس المعيل، مقرٌّ لك بأني لم أستسلم وقت إحسانك إلا بالإقلاع عن عصيانك، ولم أخْلُ في الحالات كلها من امتنانك.

فهل ينفعني ـ يا إلهي ـ إقراري عندك بسوء ما اكتسبت؟

وهل ينجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبت؟

أم أوجبت لي في مقامي هذا سَخطَك، أم لزمني في وقت دعائي مقتك؟

سبحانك؛ لا أيأس منك وقد فتحتَ لي باب التوبة إليك.

بل أقول مقال العبد الذليل الظالم لنفسه المستخف بحرمة ربه الذي عظمت ذنوبه فجلّت، وأدبرت أيامه، حتى إذا رأى مدة العمل قد انقضت، وغاية العمر قد انتهت، وأيقن أنه لا محيص له منك، ولا مهرب له عنك، تلقّاك بالإنابة، وأخلص لك التوبة، فقام إليك بقلب طاهر نقي، ثم دعاك بصوت حائل خفي.

قد تطأطأ لك فانحنى، ونكّس رأسه فانثنى.

قد أرْعَشَتْ خشيتُه رجليه، وغرَّقت دموعُه خدَّيه.

---

(١) للإمام «زين العابدين علي بن الحسين» رضي الله عنهما.

يدعوك بـ «يا أرحم الراحمين، ويا أرحم من انتابه المسترحمـون، ويا أعطف من أطاف به المستغفرون، ويا من عفوه أكثر من نقمته، ويا من رضاه أوفر من سخطه، ويا من تَحَمَّد إلى خلقه بحسن التجاوز، ويا من عوَّد عباده قبول الإنابة، ويا من استصلح فاسدهم بالتوبة، ويا من رضي من فعلهم باليسير، ويا من كافأ قليلهم بالكثير، ويا من ضَمِنَ لهم إجابة الدعاء، ويا من وعدهم على نفسه بتفضله حسن الجزاء.

ما أنا بأعصىٰ مَنْ عصاك فغفرتَ له. وما أنا بألْوَم من اعتذر إليك فقبلتَ منه. وما أنا بأظلم من تاب إليك فعُدتَ عليه.

أتوب إليك في مقامي هذا، توبة نـادم على ما فَـرَط منه، مشفق مما اجتمع عليه، خالص الحياء مما وقع فيه، عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاظمك، وأن التجاوز عن الإثـم الجليـل لا يستصعبك، وأن احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكاءدك، وأن أحب عبـادك إليك من تـرك الاستكبار عليك، وجانبَ الإصرار، ولزم الاستغفار.

وأنا أبرأ إليك من أن أستكبر. وأعوذ بك من أن أُصِرّ. وأستغفرك لما قصّرتُ فيه. وأستعين بك على ما عجزت عنه.

اللَّهم صلِّ على محمد وآله، وهب لي ما يجب عليّ لك، وعافني مما أستوجبه منك وأجرني مما يخافه أهل الإساءة.

فإنك مليء بالعفو، مرجوّ للمغفرة، معروف بالتجاوز. ليس لحاجتي مطلب سواك. ولا لذنبـي غافـر غيرك، حـاشاك. ولا أخـاف على نفسي إلا إياك.

إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

صلِّ على محمد، وآل محمد، واقضِ حاجتي، وأنجِحْ طِلْبَتي، واغفر ذنبـي وآمِنْ خوفَ نفسي، إنك على كل شيء قدير، وذلك عليك يسير. آمين ربَّ العالمين.

وله رضي اللّٰه عنه في التضرع

اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا من إلى ذكر إحسانه يفزع المضطرون، ويا من لخيفته ينتحب الخاطئون، يا أُنسَ كلِّ مستوحش غريب، ويا فرجَ كل مكروب كئيب، ويا غوثَ كل مخذول فريد، ويا عضد كل محتاج طريد.

أنت الذي وسعتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً.

وأنت الذي جعلت لكل مخلوق في نعمك سهماً.

وأنت الذي عفوه أعلىٰ من عقابه.

وأنت الذي تسعىٰ رحمته أمام غضبه.

وأنت الذي عطاؤه أكثر من منعه.

وأنت الذي اتسع الخلائق كلهم في وسعه.

وأنت الذي لا يرغب في جزاء من أعطاه.

وأنت الذي لا يفرط في عقاب من عصاه.

وأنا يا إلهي عبدك الذي أمرتَه بالدعاء فقال: لبيك وسعديك.

ها أنذا يا رب مطروح بين يديك.

أنا الذي أوقَرت الخطايا ظهرَه.

وأنا الذي أفنَتْ الذنوبُ عُمُرَهُ.

وأنا الذي ـ بجهله ـ عصاك، ولم تكن أهلاً منه لذاك.

هل أنت ـ يا إلهي ـ راحمُ مَنْ دعاك فَأَبْلُغَ في الدعاء؟

أم أنت غافر لمن بكاك فأسرع في البكاء؟

أم أنت متجاوز عمن عفَّر لك وجهه تذلُّلاً؟

أم أنت مُغنٍ من شكىٰ إليك فقره توكلاً؟

إلهي لا تخيِّب من لا يجد معطياً غيرك، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحد دونك.

إلهي فَصَلِّ على محمد وآله، ولا تُعْرِضْ عني، وقد أقبلتُ عليك.

ولا تحرمني، وقد رغبت إليك، ولا تَجْبَهْني بالردّ، وقد انتصبتُ بين يديك.

أنت الذي وصفتَ نفسك بالرحمة، فصلِّ على محمد وآله، وارحمني.

وأنت الذي سميتَ نفسك بالعَفُوِّ فاعفُ عني.

قد ترىٰ يا إلهي فيض دمعي من خيفتك، ووجيب قلبي من خشيتك، وانتقاض جوارحي من هيبتك.

كل ذلك حياء منك لسوء عملي، ولذاك خمد صوتي عن الجأر إليك، وكَلَّ لساني عن مناجاتك.

يا إلهي فلك الحمد، فكم من عائبة سترتها عليّ فلم تفضحني؟

وكم من شائنة ألممتُ بها فلم تهتك عني سترها؟ ولم تقلدني مكروهَ شَنَارِها ولم تُبدِ سوءاتها لمن يلتمس معائبي من جيرتي، وحَسَدَةِ نِعمتك عندي.

ثم لم ينهني ذلك عن أن جريتُ إلى سوء ما عهدتَ منّي.

فَمَن أجهلُ مني ــ يا إلهي ــ برشده؟

ومن أغفل مني عن حفظه؟

ومن أبعد مني عن استصلاح نفسه؟ حين أنفق ما أجريتَ عليَّ من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك؟

ومن أبعدُ غوراً في الباطل؟ وأشد إقداماً على السوء مني حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان، فأَتَّبع دعوته على غير عمىً مني في معرفة به، ولا نسيان من حفظي له، وأنا حينئذ موقن بأن منتهىٰ دعوتك إلى الجنة، ومنتهىٰ دعوته إلى النار؟

سبحانك، ما أعجب ما أشهد به على نفسي! وأُعَـدِّده من مكتوم أمري.. وأعجب من ذلك، أناتك عني، وإبطاؤك عن معالجتي.

وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنِّياً منك لي، وتفضلاً منك عليَّ،

لأن أرتدع عن معصيتك المُسْخِطة، وأقلـع عن سيئاتي المُخْلِقَة، ولأن عفوك عني أحبُّ إليك من عقوبتي.

بل أنا يا إلهي أكثر ذنوباً، وأقبح آثاراً، وأشنع أفعالاً، وأشد في الباطل تهوراً وأضعف عند طاعتك تيقظاً، وأقلُّ لوعيدك انتباهاً وارتقاباً من أن أحصي لك عيوبي، أو أقدر على ذكر ذنوبي.

وإنما أُوَبِّخُ بهذا نفسي طمعاً في رأفتك التي بها صلاح أمر المذنبين، ورجاءً لرحمتك التي بها فكاك رقاب الخاطئين.

اللهم وهذه رقبتي قد أَرَقَّتْها الذنوب، فَصَلِّ على محمد وآله وأعتقها بعفوك.

وهذا ظهري أَثْقَلَتْهُ الخطايا، فَصَلِّ على محمد وآله وخفف عنه بِمَنِّكَ.

يا إلهي لو بكيتُ إليك حتى تسقط أشفارُ عيني.

وانتحبتُ حتى ينقطع صوتي.

وقمتُ لك حتىٰ تنتشر قدماي.

وركعتُ حتى ينخلع صلبي.

وسجدتُ لك حتىٰ تتفقَّأ حدقتاي.

وأكلتُ تراب الأرض طول عمري.

وشربت ماء الرماد آخر دهري.

وذكرتك في خلال ذلك حتى يَكِلّ لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك، ما استوجبتُ بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتي.

وإن كنتَ تغفر لي حين أستوجب مغفرتك.

وتعفو عني حين أستحق عفوك.

فإن ذلك غير واجب لي باستحقاق.

ولا أنا أهل له باستيجاب.

إذ كان جزائي منك في أول ما عصيتك النار.

فإن تعذبني فأنت غير ظالم لي.

إلهي فإذ قد تغمدتني بسترك فلم تفضحني.

وَتَأَنَّيْتَني بكرمك فلم تعاجلني.

وحَلُمتَ عني بتَفَضُّلك فلم تُغَيِّر نعمتك عليّ، ولم تُكَدِّر معروفك عندي.

فارحم طول تضرعي، وشدة مسكنتي، وسوء موقفي.

اللهم صلِّ على محمد وآله، وقني من المعاصي، واستعملني بالطاعة، وارزقني حسن الإنابة، وطهرني بالتوبة، وأيدني بالعصمة، واستصلحني بالعافية، وأذقني حلاوة المغفرة، واجعلني طليق عفوك، وعتيق رحمتك، واكتب لي أماناً من سخطك، وبشرني بذلك في العاجل دون الآجل بشرىٰ أعرفها، وعرفني فيه علامة أتبيَّنها.

إن ذلك لا يضيق عليك في وسعك، ولا يتكاءدك في قدرتك ولا يتصعَّدُك في أناتك، ولا يؤودك في جزيل هباتك التي دلّت عليها آياتك.

إنك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، إنك على كل شيء قدير.

آمين ربَّ العالمين. وصلِّ اللَّهمّ على محمد وآله المطهرين.

أبو الكلام آزاد في سجنه
يتحدث عن الإسلام ويحارب الاستعمار(١)

وتظهر عظمة آزاد، ويتجلى إيمانه الوثيق باللَّه، وفهمه الصحيح للإسلام، حين قدّمه الإنجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة، وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد ألقاهما في مدينة «كلكتا»، يدعو المسلمين خاصة، والهنود عامة إلى العصيان المدني.

كان ذلك في أواخر سنة **١٩٢٢**، و«آزاد» في بقية من شباب يحرص المرء عليها أشد الحرص، ويضن بها أن تذهب في مجال الحياة الجافية المظلمة داخل السجون.

إن المرء في هذه المرحلة من العمر يقف عادة وقفة المشفق على شبابه المتأهب للرحيل، ووقفة الخائف من شبح الشيخوخة المقبلة.

فهو من هذا ومن تلك مقبل على متعه، مشغول بنفسه.

---

(١) عن ثقافة الهند.

ولو وقف «آزاد» هذا الموقف قبل ذلك بسنوات، لقلنا: إنها فورة الشباب وثورة الصبا تدعوه إلى المغامرة وتحمله على التهور.

ولو وقف «آزاد» هذا الموقف بعد ذلك بسنوات، لقلنا: إنه يأس الشيخوخة ومرارة الهرم، حَمَلَتْه على أن يخرج من الحياة من هذا الباب في صورة بطل من أبطال التاريخ!

ولكن شاء القدر أن يتخير لـ «آزاد» هذا الموقف بالذات، في الوقت الذي يقف فيه وإحدى قدميه في دنيا الشباب والأخرى في طريقها إلى عالم الهرم.. أراد القدر ذلك ليثبت في سجل الإنسانية آية من آيات السمو البشري، ومثلاً من أمثلة الإنسانية الرفيعة في الإيمان بالحق والقيام في وجه الظالمين الطغاة.

على حين اشتدت نوازع النفس وقويت رغبتها في الحياة، وفي وقت استغلط فيه بأس الظالمين وجُنَّ جنونهم بالانتقام والتنكيل!

وهكذا التقى «آزاد» وحيداً إلا من إيمانه، أعزل إلا من روحه.

التقى بالامبراطورية الانجليزية كلها، بما كان لها إذ ذاك من قوة متحكمة في العالم، متسلطة على الشرق والغرب، وما كان لها من رهبة مخيفة مفزعة تطوف على الناس بالاستكانة إليها واليأس من الخلاص منها.

التقى «آزاد» بهذه الامبراطورية سجيناً في قفص الاتهام، يواجه قضاة لا يطمع منهم في رحمة، ولا ينتظر لديهم إلا ما ينتظر الحمل الوديع من مخالب الأسد.

وتدور المعركة في ساحة المحكمة، فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها..

يسجل فيها «آزاد» نصراً حاسماً للإنسانية، به يتقرر مصيرها، ويتحدد موقفها لأجيال عديدة مقبلة.

وندع الموقف لآزاد، يتلو علينا فيه من آياته ما تعنو له جباه الجبابرة، وتستخذي له قوى البغي وأبالسة الشر في كل مكان، على قدر ما تشتد به

عزائم الرجال وتقوى نفوس المؤمنين.

استقبل «آزاد» المحكمة ثابت الجأش، ساكن النفس، كأنما يسعى إلى موعد حبيب إليه، مألوف عنده، وساد المحكمة سكون رهيب.. قطعه «آزاد» بقوله:

«أيها القضاة! إني كنت عازماً على ألا أُقدّم إلى المحكمة بياناً مّا لأنها مكان لا رجاء لنا فيه، ولا طلب منه، ولا شكوى إليه، وإنما هي كمنعرج الطريق إلى المنزل، لا بد من قطعه للسابل، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا، وإلا لدخلنا السجن تواً».

فهو إنما يستعجل الطريق إلى السجن، أو الموت، لأن السجن أو الموت أحب إلى نفسه من أن يعيش طليقاً في وطن يتحكم فيه الظالمون، ويستبد به الطغاة..

ثم يقول:

«إني إذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف، وأراني قد شرفت بالوقوف فيه، تسبّحُ روحي بحمد اللّه، ويلهج لساني بشكره من غير قصد مني، وهو وحده يعلم ما أجده من الفرح والابتهاج، إذ أحسِبُني في هذا القفص محسوداً للملوك والسلاطين العظام.. فأين لهم في قصورهم المريحة، تلك المسرّة والراحة التي ترقص في صدري؟ إني أقول حقاً: إنه لو أدركها الناس لتمنوا المثول في هذا المكان ولنذروا النذور لأجله!».

ويقــول:

«إني كنت عازماً على السكوت في المحكمة، ولكن لما أُحضِرتُ إليها، ورأيت الحكومة تقدم في إثبات جريمتي الخطبتين اللتين أُلقِيَتَا في مجامع «كلكتا»، وهما لا تحتويان على جميع الأمور التي ما زلت أكررها في جميع خطبي ورسائلي ومقالاتي والتي إن قدمت كانت أنفع لقصدها ــ علمتُ أنها عاجزة حتى عن تهيئة المستند الذي يُعتبر في هذه الأيام كافياً لإنزال العقاب بي، مع شدة رغبتها وحرصها على سجني، فغيرت قصدي وقلت: إن العلة التي كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له. وأردتُ أن

أثبت بلساني الأمر الذي لا تستطيع الحكومة إثباته.

أرأيتم متهماً يقيم الدليل على تهمته، ويمهد للقاضي سبيل الحكم عليه؟

ولكن هكذا تكون مواقف الرجال في ملاقاة الأهوال والمحن!

ثم يمضي «آزاد» يؤكد للمحكمة في صراحة ثبوت التهمة الموجهة إليه فيقول:

«إن كانت هذه التصريحات جناية فإني معترف بأن قلبي قد اشتغل بها ولساني نطق بها، وأنا الذي صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس.. بل إني لأجدني الآن مدفوعاً إلى التصريح بها أمام المحكمة، ولا أزال قائلاً بها ما دام لساني بين أسناني، وروحي في جثماني، وإن لم أفعل ذلك أكن ظالماً لنفسي، وعاصياً عند الله وعند الناس أجمعين».

وهكذا يرى آزاد أن السكوت عن المنكر ظلم للنفس، وعصيان لله وعقوق للإنسانية.. إنه مُطالَب أمام عقيدته الدينية، وأمام ضميره الإنساني أن يدفع هذا بكل ما يستطيع، وما دامت القوة المادية غير مستطاعة له الآن، فلا أقلَّ من أن يلعن الظالمين بلسانه، ويفضح آثامهم على أعين الناس!

ويصرخ «آزاد» في وجه قضاته:

«إني مسلم.. ولأني مسلم وجب علي أن أُنَدِّدَ بالاستبداد وأقبحه، وأُشَهِّرَ بمساويه. إن الإسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليسَ بالقوة ولا هو القوة، بل الحق هو الحق، وأنه ليس لأحد من البشر أن يعبِّد عبادَ الله ويذلِّهم ويسخِّرَهم.. الناس كلهم متساوون في الإنسانية، متساوون في الحق، متساوون في الحياة، وليس اللون أو الجنس أو النسل معياراً للفضل والحسب، وإنما معياره العمل وحده، فأعلاهم قدراً، وأكرمهم حسباً، أحسنهم عملاً، وأتقاهم لله.. إن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرناً.. ولعمري إن مطالبة المسلم بأن يسكت عن الحق ولا يسمي الظلم ظلماً، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإنسانية، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه، فليس لكم أن تطالبوا

مسلماً بأن يمتنع عن قوله للظالم إنه ظالم».

كذلك كان «آزاد».. إنه لم يكن محترف سياسة، يتحول بها مع الأحوال ويتقلب مع مقتضيات الظروف، ولكنه صاحب دين، وليس لصاحب الدين، أن يقبل المساومة في دينه، والتنازل عن شيء من عقيدته.. إنها كُلٌّ لا يتجزأ.. فإما الحق، وإما الباطل.. وفي سبيل الحق يحتمل المسلم ـ في إيمان وصبر ـ كل ما يعرض له من فتنة وبلاء..

ثم يقول «آزاد»:

«الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة، والجرأة؛ والتضحية، والاستهانة بالموت في سبيل الحق.. وقد ابيضَّتْ عين الدهر، ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة في إعلاء كلمة الحق التي قدمتها الأمة الإسلامية في كل دور من حياتها.. ألا! فلتعلم الحكومة الإنجليزية: أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر، ويتغلغل في أعماء الدواهي والكوارث، ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يخيفه قانون العقوبات الاستعماري، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته.

إني أقول حقاً: إنه لا يؤلمني أن أرى الحكومة عازمةً على معاقبتي، وأنها لا تحاكمني إلا لكي تزجني في السجون، إذ هذا أمر لا بد منه؛ وإنما الذي يؤلمني فيفتت كبدي، هو أن أرى الحالة تنقلب انقلاباً تاماً فبدلاً من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق، يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة، وألاّ يقول للظالم إنك ظالم، لأن قانون المستعمرات يعاقب عليه»!

وفي ختام هذا المشهد الرائع العجيب، يلتفت آزاد إلى أولئك الذين غَرَّرَ بهم المستعمر من أبناء الهند ليقيموا الدليل على إدانته، فيقيم لهم العذر، ويطلب لهم المغفرة، ويوجه إليهم الخطاب قائلاً:

«أصحابي.. ثقوا بأني لا أغضب منكم ولا أحقد عليكم، بل لا أتهمكم بالكذب والزور عليّ، لأن كل ما قلتموه في الشهادة حق وصدق،

ولكني أراكم قد عصيتم اللّه بمساعدة الحكومة الإنجليزية في استبدادها، وظلمها، ومحاربتها للإسلام والإنسانية.. إني أعلم أن صوت الضميريوبِّخكم في أعماق سرائركم على ما تعملونه، ولكنكم إنما اضطررتم إليه اضطراراً، لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم، وترزقون به أهليكم، وليس فيكم قوت لتحمل البأساء والضراء في سبيل الحق.. فلذا لا أحنق عليكم، ولا أعذلكم بل أعفو عنكم، وأستغفر اللّه لكم..».

إن آزاد يعرف الضعف الإنساني الذي يتسلط على بعض الناس.. إنه لا يطلب من الحياة أن ترتفع بالناس جميعاً إلى هذا المستوى الكريم الذي ارتفع إليه في التضحية والاحتمال.. فهو يعذر ويغفر، ومن ثَمَّ، فإن صِلاته بالضالين من مواطنيه تظل قائمة، يعالجها بحكمته، ويداويها بتسامحه.

وقبل أن يسدل الستار على هذه المأساة التي يمثلها الاستعمار على مسرح القضاء ويلبسها ثوب العدل والحق، يوجه آزاد حديثه إلى القاضي فيقول:

«وأنت أيها القاضي ماذا عسى أن أقول لك؟ إن أقول إلا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفي هذا:

﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾(١).

أيها القاضي: لقد طال الحديث، وآن أوان الوداع فليودع كل منا صاحبه، إن ما يدور الآن بيننا، سيسجله التاريخ في سجله ليعتبر به المعتبرون. لقد اشتركنا في ترتيبه على سواء..

أنا من القفص للجناة.

وأنت من ذاك الكرسي للقضاء..

فهلمَّ بنا نفرغ من هذا العمل، لنسرع في المجيء إليك ولتسرع أنت في القضاء علينا، فإن هذا العمل لا يطول قليلاً حتى يفتح باب محكمة

---

(١) سورة طه: آية ٧٢.

أخرى، محكمة قانون اللّه الحق. إن الزمان سوف يقضي فيها، وسوف يكون قضاؤه حقاً، وحكمه نافذاً».

ذلك هوآزاد المسلم، الذي تمكن الإسلام من قلبه، فخاض لجج الأهوال وتقحم سبل المهالك، دون أن تتعثر خطاه، أو ينحرف عن غايته.

إن الإسلام دين الوحدانية المطلقة التي رفعت بصر الإنسان خالصاً للّه، لا يلتفت إلى سواه.. فمن آمن بهذا الدين فليرفع رأسه وليقل كلمة الحق لأنها كلمة اللّه.

وقد وقف آزاد الموقف الذي يدعوه إليه دينه، ويهتف به وجدانه.

صـــلاح النفس

رُوِي أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم فقال:

يا أبا إسحق.. إني مسرف على نفسي، فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً، أو مستنقذاً..

قال إبراهيم: إن قبلت مني خمس خصال فقدرتَ عليها، لم تضرك المعصية.

قال: هات يا أبا إسحق..

قال إبراهيم: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي اللّه عز وجل فلا تأكل رزقه..

قال: فمن أين آكل، وكل ما في الأرض من رزقه؟

قال: أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا.. هات الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال: هذه أعظم من الأولى يا إبراهيم.. إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟

قال: يا هذا، أفيليق بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه؟

قال: لا.. هات الثالثة.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه.. فاعصه فيه..
قال: يا إبراهيم ما هذا؟ وهو يطلع على ما في السر؟
قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه، وهو يراك ويعلم ما تجاهر به؟
قال: لا هات.. الرابعة.
قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له أخرني حتى أتوب.
قال: لا يقبل مني...
قال: يا هذا إذا كنت لا تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟
قال: هات الخامسة...
قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم..
قال: إنهم لا يقبلون مني.
قال: فكيف ترجو النجاة إذن؟
قال: يا إبراهيم.. حسبي حسبي، أنا أستغفر اللّه وأتوب إليه..

* * *

الحياة تافهة إذا خلت من مثل أعلى(١)

علمتني الحياة أنني ما حرصت على بلوغ شيء فبلغته، إلا وأكون عند بلوغه قد زهدته.

كنت صبياً أعيش في أسرة مستورة الحال، تهيأتْ لها أسباب العيش في شيء من الطمأنينة والدعة، ولم تتهيأ لها أسباب الثراء.. فتطلعت إلى خفض من العيش أوطأ مما كنت فيه، فأراد اللّه أن أبلغ شيئاً من ذلك، وإذا أنا أزهد ما في يدي منه، لا أرى البيت الذي أسكنه ـ وكنت أتطلع إلى مثله في مقتبل حياتي ـ إلا شيئاً عادياً لا يشقي ولا يريح، ولا أرى المال الذي أحرزته

(١) للأستاذ عبدالرزاق السنهوري.

ـ وكنت أحسب أنه يحقق شيئاً من السعادة ـ إلا شيئاً تافهاً لا يؤخر ولا يقدم، ولا أرى الجاه الذي بلغته ـ وكنت أنظر إلى مثله لدى غيري فأتوق إليه ـ إلا شيئاً فارغاً لا ينقص ولا يزيد، فعلمت أن الحياة تافهة، ما لم يرسم الإنسان لنفسه هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه، هدفاً يعلو عن المادة، ويبقى على الزمن، إذا ما حقق شيئاً منه طابت نفسه، وطلب المزيد.

* * *

وعلمتني الحياة أن الناس في درك هاوٍ من الخِسَّة، وفي درجة عالية من السمو، ينطوون على الشر والخير معاً، ويهبطون بقدر ما يرتفعون.

عرفت وأنا شابٌّ في العشرين شابًّا في سني، وقامت بيننا أواصر الود والصداقة ثم تنكَّر لي بغتة، وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط في الخُلُق، ودناءة في الطبع، ثم ما لبث هذا الصديق، في ظروف أخرى، أن صفا معدنه، وسمت نفسه، فتقدم في ميدان الجهاد، وبذل روحه فداءً لأمته، ومات شهيداً، فعلمت أن الناس لا يَخْلُصُون شياطين، ولا يتمحَّضون ملائكة، والعاقل من لبس الناس على حالهم، لا يزهد في الصديق وإن بدا شرُّه، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لا يلبث أن يندمل، أو لعارض لا يلبث أن يزول.

* * *

وعلمتني الحياة أن حظوظ الناس تبدو متفاوتة أكثر من حقيقتها، وهم في الواقع متقاربون في الشقاء والسعادة، لكلٍّ من حظه ما يسعده، ومن همِّه ما يشقيه.

عرفت رجلاً كثير العيال رقيق الحال، لا يشك من ينظر إليه في أنه ضيق بحظه من الدنيا، وهو لا يكاد يفيق من همّ إلا ويعثر في همّ. وعلمت بعد ذلك أن الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذي توحي به حاله، فهو قد ألف ضيق العيش، ووطَّن نفسه عليه، حتى إذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من دهره، كان تقديره لها كبيراً، وعلمتُ من ثقة أن أحد ملوك المال في مصر، وهو رجل من أقوى الرجال في بلده، ومن أعرضهم جاهاً وأوسعهم نفوذاً،

رجل عرف بالسيطرة على أقدار الحكومات، حتى إنه ليُسقِطُ حكومةً ويُقيم أخرى.

هذا الرجل كثيراً ما يخلو إلى نفسه، لينسى سوء حظه، وليبتعد بشقائه عن عيون الناس، بل إنه ليتسلل من سريره في جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكي.

وعرفتُ سيدةً كانت تتبرم من ضيق العيش، ثم ورثت شقيقاً لها، فأصبحت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله، فآمنت بعد كل ذلك أن الناس سواسية في الشقاء والسعادة، على خلاف ما يبدو من تفاوتهم في أحوالهم، وأن في الأرض عدلاً بين الناس أكثر مما يظن الناس.

* * *

وعلمتني الحياة أن نجاحي فيها رهن إيماني بنفسي وإيمان الناس بي.

فقد كانت ثقتي بنفسي تدفعني إلى العمل، وكانت ثقة الناس بي تجعلني أطمئن إلى نتيجة عملي، وهذا القدر المتوازن من ثقة الإنسان بنفسه وثقة الناس به، لا بد منه لنجاحه في الحياة.

فإن زادت ثقته في نفسه على هذا القدر كان ذلك غروراً يضله عن الحقائق، وإن جاوز اعتماده على ثقة الناس به هذا القدر، بحيث أصبح لا يصدر إلا عن رأي الناس ولا ينزل إلا عند هواهم، كان ذلك ضعفاً واضطراباً يورثان انقياداً واستسلاماً.

وتابعتُ في نفسي وفيمن حولي هذا التوازن، فأدركت أنه ضروري في كثير من الصفات الأخرى، هو ضروري في الواقعية والخيال، فإن زادت الواقعية على الحد الواجب، كان ذلك جموداً وضيقاً في الأفق، وإن زاد الخيال كان ذلك ميوعة وإغراقاً في البعد عن الحقائق. وهو ضروري في المادية والروحية، فإن زادت المادية كان ذلك بلادة وتنكراً للقيم العليا في الحياة، وإن زادت الروحية كان ذلك عجزاً عن مواجهة الحياة في حقائقها المادية. وهو ضروري في الاختلاط بالناس، والانطواء على النفس، وإلا كان الإمعان في الاختلاط بالناس إهداراً للشخصية، وكان الإغراق في الانطواء على النفس عزلة ضارة.

ومع ذلك، لا بد من التسليم بصعوبة أن يجمع الإنسان في نفسه هذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن، والأمر الجوهري هو أن يعرف كيف يستطيع أن يتخفف من الإفراط في صفة، والتفريط في أخرى.

وعلمتني الحياة أن الغفلة عن المستقبل هي أهم أسباب الراحة.

وما تعبت لشيء أكثر من تعبي عندما أفكر في المستقبل.

ولعل الموت هو الحقيقة الأولى التي لا يتطرق إليها الشك، فهو المستقبل المحتم.

ومن نعم اللّه على الإنسان أن جعله قادراً على التغافل عن هذه الحقيقة، وإلا ظلَّ قلقاً حائراً لا يفكر إلا في الموت.

وعلمتني الحياة ألا تتسع أطماعي، فلا أعرف أين أقف، ثم يتعثر بي الحظ فأرضى بالقليل.

وعلمتني الحياة أنني أتعلم منها كل يوم، ولن أنقطع عن التعلم حتى تنقضي الحياة ومن يدري ـ إذا أنا عشت ـ ماذا سأتعلم منها غداً.

* * *

كم من بئرٍ معطلة بعد عمارها؟

وإن كان مهتماً بتأسيس بناء فلينظر: كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها؟

وإن كان مشغولاً بخدمة سلطان فليتذكر ما ورد في الخبر: أنه ينادي منادٍ يوم القيامة.. أين الظلمة وأعوانهم؟

فلا يبقى أحد مدّ لهم دواة أو بَرَى لهم قلماً فما فوق ذلك إلا أُحضر..

فيُجمَعُون في تابوت من نار فيُلْقَون في جهنم..

وإن كان في طلب المال وجمعه، فليتأمل قول عيسى عليه السلام:

يا معشر الحواريين.. مسرّة في الدنيا. مضرة في الآخرة..

بحق أقول لكم:

لا تدخل الأغنياء ملكوت السماء.

وقد قال نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم:

يحشر الأغنياء أربع فرق:

رجل جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام..

فيقال: اذهبوا به إلى النار..

ورجل جمع مالاً من حرام وأنفقه في حلال..

فيقال: اذهبوا به إلى النار..

ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حرام..

فيقال: اذهبوا به إلى النار..

ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال..

فيقال: قفوا هذا وسلوه.

لعلّه ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه.

أو قصر في الصلاة، أو في وضوئها، أو في ركوعها، أو في سجودها، أو في خشوعها..؟

أو ضيّع شيئاً من فرض الزكاة والحج...

فيقول الرجل:

جمعت مالي من حلال، وأنفقته في حلال. وما ضيَّعتُ شيئاً من حدود الفرائض، بل أتيت بتمامها.

فيقال: لعلك باهيتَ بمالك، واخْتَلْتَ في شيء من ثيابك؟ فيقول:

يا ربّ! ما باهيتُ بمالي، ولا اخْتَلْتُ في شيء من ثيابي..

فيقال: لعلّك فرطتَ فيما أمرناك من صلة الرحم، وحق الجيران والمساكين، وقصَّرتَ في التقديم والتأخير، والتفصيل والتعديل..

ويحيط به هؤلاء فيقولون: ربنا، أغنيتَه بين أظهرنا وأحوجتَنا إليه فقصَّر في حقنا...

فإن ظهر تقصيره ذُهِبَ به إلى النار..

وإلا قيل له: قف...!

هاتِ الآن شكر كل نعمة.. وكل شربة.. وكل أكلة.. وكل لذة..

فلا يزال يُسأل ويُسأل...».

* * *

فهذه حال الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله..

فكيف حال المفرطين المنهمكين في الحرام والشُّبُهات...؟

* * *

هذه المطالب الفاسدة، هي التي استولتْ على قلوب الخلق، تسخرها للشيطان وتجعلها ضحكة له..

فعليه وعلى كل مستمر في عداوة نفسه أن يتعلم علاج هذا المرض الذي حلَّ بالقلوب..

فعلاج مرض القلوب أهم من علاج مرض الأبدان.. ولا ينجو إلا من أتىَ اللَّهَ بقلبٍ سليم.

وله دواءان:

أحدهما: ملازمة ذكر الموت وطول التأمل فيه..

والدواء الثاني: تدبر كتاب اللّٰه تعالى، ففيه شفاء ورحمة للعالمين...

وقد أوصىٰ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بملازمة هذين الواعظين فقال: تركتُ فيكم واعظَين: صامتاً، وناطقاً.

الصامت: الموت... والناطق: القرآن...

وقد أصبح أكثر الناس أمواتاً عن كتاب اللّٰه تعالى، وإن كانوا أحياء في معايشهم، وبُكْماً عن كتاب اللّٰه، وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، وصُمًّا عن سماعه، وإن كانوا يسمعونه بآذانهم، وعمياً عن عجائبه، وإن كانوا ينظرون إليه في مصاحفهم، وأمّيين في أسراره وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم.

فاحذر أن تكون منهم.

وتدبَّر أمرك، وأمر من لم يتدبر، كيف نَدِمَ وَتَحَسَّر؟

وانظر أمرك، وأمر من لم ينظر في أمر نفسه، كيف خاب عند الموت وخَسِر

واتعظْ بآية واحدة من كتاب اللّٰه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

* * *

وإياك. إياك. أن تشتغل بجمع المال.

فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة، وينزع حلاوة الإيمان من قلبك.

قال عيسىٰ عليه السلام:

لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا؛ فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم.

* * *

وأسأل اللّٰه أن يصغر عنده الدنيا التي هي صغيرة عند اللّٰه، وأن يعظم في عينيه الذي هو عظيم عنده، وأن يوفقنا وإياه لمرضاته ويحله في الفردوس الأعلى من جناته. بفضله، وكرمه، آمين.

---

(١) سورة المنافقون: آية ٩.

الرسالة التأديبية للإمام الغزالي

يقول الإمام الغزالي:

إن هاشماً الأصم كان من أصحاب شقيق البلخي رحمة اللّٰه عليهما.

فسأله يوماً فقال:

صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصَّلت فيها؟

قال: حصلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها.

فقال شقيق: ما هي؟ قال هاشم الأصم:

الفائدة الأولى:

إني نظرت إلى الخلق فرأيت لكلٍّ منهم محبوباً يحبه ويعشقه وبعض أولئك المحبوبين يصاحبه إلى مرض الموت، والبعض الآخر إلى شفير القبر.

ثم يرجع كله ويتركه فريداً، وحيداً، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد.

فتفكرت وقلت أفضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ويؤانسه فيه؛ فما وجدته في غير الأعمال الصالحة، فأخذتها محبوباً لي لتكون سراجاً في قبري، وتؤانسني فيه ولا تتركني فريداً.

الفائدة الثانية:

إني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلى مراد أنفسهم فتأملت قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

فتيقنت أن القرآن حق صادق؛ فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضِيَتْ بطاعة اللّٰه سبحانه وتعالى وانقادتْ.

الفائدة الثالثة:

إني رأيت كل واحد من الناس يسعىٰ في جمع حطام الدنيا، ثم يمسكه قابضاً بيديه عليه. فتأملت قوله تعالى:

---

(١) سورة النازعات: آيتي ٤٠ ـ ٤١.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(١).

فلُذْتُ بالإيثار، واستودعت عند اللَّه إعانة البائس، وإسعاف الفقير، لعلي أُحشَرُ في ظل صَدَقتي يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الفائدة الرابعة:

إني رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه في كثرة الأقوام والعشائر فاعتزّ بهم.

وزعم آخرون أنه في حيازة الأموال، وكثرة الأولاد فافتخروا بها.

وحسب بعضهم الشرف والعز في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم.

واعتقدت طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأملت قوله تعالى:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢).

فأقبلت على ربـي ونفضت يديَّ من هذه الملهيات والأباطيل.

الفائدة الخامسة:

إني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد في المال، والجاه، والعلم.

فتأملت قوله تعالى:

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(٣).

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٤).

فعلمت أن القسمة من اللَّه تعالى في الأزل، وأن الضيق بها حمق، فما حسدتُ أحداً ورضيت بقسمة اللَّه تعالى.

---

(١) سورة النحل: آية ٩٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٨٥.

(٣) سورة الزخرف: آية ٣٢.

(٤) سورة الزخرف: آية ٣٢.

الفائدة السادسة:

إني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً لشتىٰ الأغراض والأسباب فتأملت قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(١).

فعلمت أنه لا يجوز غير عداوة الشيطان، فانتصبت له وتأهبت لحربه.

الفائدة السابعة:

إني رأيت كل أحد يسعىٰ بجده، ويجتهد في طلب القوت والمعاش، بحيث يقع في شبهة أو حرام، بل قد يذل نفسه وينقص قدره، فتأملت قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٢).

فعلمت أن رزقي على الله تعالى، وقد ضمنه، فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعي عمن سواه وترفعت عن الشبهات والدنايا.

الفائدة الثامنة:

إني رأيت كل واحد يعتمد على مخلوق:

بعضهم على الدنيا والدرهم.

وبعضهم على المال والملك.

وبعضهم على الحرفة والصناعة.

وبعضهم على مخلوق مثله من الكبراء أصحاب الحول والطول.

فتأملت قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾(٣).

فتوكلت على الله تعالى؛ فهو حسبي ونعم الوكيل.

فقال شقيق: وفقك الله: إني نظرت في التوراة، والإنجيل، والزبور،

---

(١) سورة فاطر: آية ٦.

(٢) سورة هود: آية ٦.

(٣) سورة الطلاق: آية ٣.

والفرقان فوجدت الكتب الأربعة تدور حول هذه الفوائد؛ فمن عمل بها كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة.

بين العلم والعمل

[رسالة من الإمام الغزالي إلى أحد تلاميذه..]

يا ولدي..!

النصيحة سهلة، ولكن الصعبَ قبولُها...! لأنها في فم من لم يتعودها مرةُ المذاق.

وإن من يحصِّل العلم ولا يعمل به؛ تكون الحجة عليه أعظم، كما قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

«أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه».

يا ولدي...

لا تكن من الأعمال مفلساً، ولا من الاجتهاد في الطاعة خالياً، وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد، كما لوكان مع رجل عشرة أسياف هندية وهو في صحراء فخرج عليه أسد عظيم مهيب، فهل تدفع عنه هذه الأسلحة دون أن يستعملها؟

كذلك مثل العلم والعمل، لا فائدة في الأول بدون الثاني.

يا ولدي...

لو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة اللَّه إلا بالعمل.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1].

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ... ﴾[2].

يا ولدي...

ما لم تعمل لم تجد الأجر.

---

(1) سورة النجم: آية ٣٩.

(2) سورة الكهف: آية ١١٠.

وفيما يُنسَبُ إلىٰ عليٍّ كرَّمَ اللَّه وجهه:

من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو مُتَمَنٍّ، والمنىٰ بَضَائِعُ الحمقىٰ.

وقال الحسن البصري رضي اللَّه عنه:

طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب.

وفي الخبر عن اللَّه تعالى:

«ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل».

وقد قال صلى اللَّه عليه وسلم:

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمقُ من اتبع هواها، وتمنىٰ على اللَّه المغفرة».

يا ولدي...

عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به.. والعلم بلا عمل جنون..

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

والعمل بغير علم لا يكون.

فلا بد منهما معاً..

وإن العلم وحده لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا ينجيك غداً من النار.. فإذا لم تجتهد اليوم في العمل، لتقولَنَّ يوم القيامة: ارجعنا نعمل صالحاً. فيقال لك: يا هذا أنت من هناك جئت.

موقفي من الناس[2]

علمتني الحياة خطتين في سياستي مع الناس.. خطة أتبعها فيما يصيبني من الناس، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس مني.

فاسترحت كثيراً من تبديد شعوري في غير طائل، وعرفت كيف يكون الاقتصاد في إنفاق ثروة الحياة.

أما خطتي فيما يصيبني من الناس، فهي أن أتناول طباعهم وأخلاقهم

(١) سورة البقرة: آية ٤٤.

(١) الأستاذ: عباس محمود العقاد.

جملة واحدة، ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف الأشخاص والأفراد.

كان الخُلُق الواحد في مبدأ الأمر يسبب لي الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات، بل مئات المرات.. وكنت في كل مرة أشعر بصدمة المفاجأة، كأنني أكتشف شيئاً جديداً لم أتوقعه من قبل.

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعاً حساباً في رصيد المكسب والخسارة، فهبَطتْ الخسارة كثيراً على الأقل، وهذا في ذاته مكسب معدود.

تعودت أن أجمع الأخلاق إلى أنواعها، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوانه، في الناس أنانية، في الناس صغار، في الناس سخافة، في الناس نقائض وغرائب، وهكذا، وهكذا، إلى آخر هذه المألوفات التي توارثناها نحن أبناء آدم وحواء، فليس فيها من جديد.

فإذا أصابني من الناس شيء مكدر، رجعت به إلى عنوانه، فوجدته مسجلاً هناك ولم يفاجئني بما لا أنتظر، في الناس أنانية، في الناس صغار، نعم.. نعم وماذا في ذلك؟

ألم تعلم هذا من قبل؟ بلىٰ، علمته مرةً بعد مرة؛ فما وجه الاستغراب، ولماذا الألم والشكوى؟

وراقبتُ نفسي طويلاً فوضعتُ نفسي في القائمة؛ وتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها: «وأنتِ أيضاً كذلك» فلا محل للحساب والعقاب.

أما خطتي فيما يصيب الناس مني، فهي أن أسأل نفسي كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم: «هل الأمر يعنيني؟» وبعبارة أخرى «هل يضيرني أن أفقد رضاهم، وهل يعيبني أن أفقده؟».

فإذا كان في الأمر ما يضير أو ما يعيب، فالأمر يعنيني ولا بد من معالجته بما أستطيع، وإلا فلا وجه للتعب والاكتراث، وعوّلت دائماً على المقياس العملي لأن الجري وراء النظريات لا ينتهي إلى غاية، فكنت أضع أمامي على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرفهم، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة

عند الناس، وأن الناس لا يسخطون عليهم، ولا ينتقدونهم، فأتساءل:

وهل يسرك أن تكون مثلهم، وأن تحصل على الرضا كما حصلوا عليه؟

وكان جواب هذا التساؤل نافعاً لي على الدوام، لأنه يحدد لي العمل اللازم، أو يعفيني من كل عمل، ويبين لي في معظم الأحوال أن ثروة الرضا والثناء عملة زائفة، أو عملة صحيحة، على أحسن الوجوه، ولكن الاستغناء عنها غير عسير.

* * *

ومن التجارب الكثيرة في الأشخاص الذين عرفتهم حق المعرفة تبين لي أنهم يحتالون، ويتعبون عقولهم وضمائرهم في الاحتيال، طلباً للشهرة التي لا تهمهم لذاتها، ولكنها تهمهم لغاية يصلون إليها من ورائها.

وحمدت اللّٰه لأن تلك الغاية لا تهمني أنا، ولا تستحق عندي أن أبذل فيها أي تعب حتى لو استطعته كل لحظة، وكنت كمن يتمنى نصيباً من المال ليشتري به شيئاً ثم علم أن الشيء لا يستحق الشراء، فاستغنى عن المال واستغنىٰ عن ثمنه.

خصلتان سهلتان ــ خطة مع الناس، وهي أن أجمعهم جملة واحدة.

وخطة مع نفسي، وهي أن تقصر جهودها وهمومها على ما يعنيها.

والخطتان سهلتان، كما قلت، ولكنني لا أنسى أن أقول: إنهما سهلتان على من هو مثلي، مطبوع على العزلة وقلة الاختلاط بالناس.

وحب العزلة عادة لم أتعلمها من الحياة، بل أخذتها من أبويَّ الاثنين بغير تعليم فمن استطاع أن يتعلمها فليتعلمْها، إن كانت تعنيه.

قال عمر بن عبدالعزيز رضي اللّٰه عنه:

أيها الناس.. إنكم لم تُخلَقُوا عبثاً، ولم تُتْرَكُوا سُدَىً، وإن لكم معاداً يحكم اللّٰه بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة اللّٰه التي وسعت كل شيء، وحُرِمَ جنةً عرضها السموات والأرض، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباق.

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون؟

كذلك حتىٰ تُرَدُّوا إلى خير الوارثين.

ثم إنكم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى اللّٰه، قد قضىٰ نحبه، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صَدْعٍ من الأرض، ثم تَدَعونه غير مُوَسَّدٍ ولا مُمَهَّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب مرتهناً بعمله، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدَّم.

وأيم اللّٰه، إني لا أقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر اللّٰه لي ولكم.

وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناه.

ولا أحد منكم إلا وددت أنّ يده مع يدي ولُحْمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم.

وأيم اللّٰه إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً، عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من اللّٰه كتاب ناطق، وسنة عادلة، دلّ فيها على طاعته، ونهىٰ عن معصيته..

ثم بكىٰ.. فتلَقّى دموع عينيه بردائه ونزل.. فلم يُرَ بعدها على تلك الأعواد حتىٰ قبضه اللّٰه تعالى.

هكذا ترك الخليفة أولاده

دخل مَسْلَمة بن عبدالملك على عمر بن عبدالعزيز في المَرْضة التي مات فيها فقال له: يا أمير المؤمنين إنك فطمتَ أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتَهم عالة، ولا بدَّ لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيتَ بهم إليَّ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء اللّٰه.

فقال عمر: أجلسوني؛ فأجلسوه، فقال:

الحمد للّٰه: أباللّٰه تخوفني يا مسلمة؟

أمـا ذكرت أني فطمتُ أفواه ولدي عن هذا المال، وتركتُهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم.

وأما ما سألت من الوصاة إليك، أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى اللّه الذي نزّل الكتاب وهو يتولّىٰ الصالحين.

وإنما بنو «عُمَر» أحد رجلين: رجل اتقى اللّه، فجعل اللّه له من أمره يُسراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيَّر وفجر، فلا يكون «عمر» أول من أعانه على ارتكابه الآثام.

ادعوا إليَّ بَنِيَّ...

فدعَوهم وهم يومئذٍ اثنا عشر غلاماً.

فجعل يُصَعِّدُ بصره فيهم ويصـوبه ـ حتى اغرورقت عيناه بالدمع ـ ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم!!

يا بَنِيَّ إني قد تركتكم من اللّه بخير، إنكم لا تمرون على مسلم، ولا مُعَاهَد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء اللّه.

يا بَنِيَّ: لقد أدرتُ رأيـي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يَدْخُلَ أبوكم النار. فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخولكم وأبيكم يوماً واحداً في النار. قوموا يا بَنِيَّ عصمكم اللّه ورزقكم.

قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر.

الإمام العادل

طلب عمر بنُ عبدالعزيز حين ولي الخلافة إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه اللّه:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن اللّه جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونِصْفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها،

الذي يرتاد لها أطيب المرعىٰ، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذىٰ الحرِّ والقرِّ.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعَىٰ لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البَرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرىٰ، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيُّ اليتامَىٰ، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين اللّٰه وبين عباده، يَسمع كلامَ اللّٰه ويُسْمِعُهم، وينظر إلى اللّٰه ويُريهم، وينقادُ إلى اللّٰه ويَقُودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما مَلّكَك اللّٰه كعبدٍ ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال، وشرَّد العيال، فأفقر أهله، وفرَّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن اللّٰه أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟

وأن اللّٰه أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتصُّ لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتَزَوّدْ له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك إلى مقرك فريداً وحيداً.

فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثِرَ ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصُّدُور،

فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل، قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد اللّٰه بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يـرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّة، فتبوء بأوزارك، وأوزارٍ مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك.

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤْسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، لا تنظر إلىٰ قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي اللّٰه في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغته أولو النُّهىٰ من قبلي، فلم آلُكَ شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة.

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّٰه وبركاته».

نموذج للحاكم المسلم

دخل ضرار الصدائي على معاوية فقال له: يا ضرار صف لي علياً.

قال: اعفني يا أمير المؤمنين.

قال: لتصفنّه.

قال: أما إذ لا بد من وصفه فكان ـ واللّٰه ـ بعيد المدىٰ، شديد القوى. يقول فصلاً، ويحكم عدلاً.

يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه.

يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته.

وكان غزير العَبْرة[1]، طويل الفكرة.

يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خشن.

---

(١) الدمعة.

وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن واللّه ــ مع تقريبه إيانا وقربه منا ــ لا نكاد نكلمه هيبة له.

يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين.

لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأَشْهَدُ لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخىٰ الليلُ سدولَه، وغارتْ نجومُه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم[1]، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري.. إلـيَّ تعرضتِ أم إليَّ تشوقت؟ هيهاتَ هيهاتَ!! قد باينتُكِ ثلاثاً لا رجعة فيها.

فعمرُك قصير، وخطرُك حقير.

آهِ من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فبكىٰ معاوية وقال: رحم اللّه أبا الحسن.. كان ــ واللّه ــ كذلك.

فكيف حزنُك عليه يا ضرار؟

قال: حُزنُ مَنْ ذُبِحَ ولدُها وهو في حِجرِها.

خطبة يزيد بن الوليد

لما قتل «الوليد بن يزيد» قام ابن عمه «يزيد بن الوليد بن عبدالملك» خطيباً فحمِدَ اللّه وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: واللّه ما خرجتُ أَشَراً ولا بَطَراً، ولا حِرْصاً على الدنيا، ولا رغبة في المُلْكِ، وما بـي إطراء نفسي، ولا تزكية عملي، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربـي. ولكني خرجت غضباً للّه ودينه، وداعياً إلى اللّه وسنة نبيّه لما هُدِمَتْ معالمُ الهدىٰ وأُطفـىء نورُ التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحلُّ لكل حرمة، الراكب لكل بـدعـة، مع أنه واللّه ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب، وإنه لابن عمي في النسب، وكُفئي

---

(١) الملدوغ.

في الحسب، فلما رأيت ذلك، أشفقت إن غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرةٍ من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم؛ فاستخرت اللّٰه في أمري، وسألته ألا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتى أراح اللّٰه منه العباد، وطهّر منه البلاد بحول اللّٰه وقوته، لا بحولي وقوتي.

أيها الناس: إن لكم عليَّ ألا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أُكري نهراً ولا أكنز مالاً، ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن بقي فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين، وتكونوا فيه سواء، ولكم ألا أُجَمِّرَكم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن اهلكم، وألا أغلق بابي دونكم فيأكلَ قوُيّكم ضعيفَكم، وألا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم وأقطع نسلهم.

ولكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم.

فإذا أنا وفيت لكم فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة والمكانفة.

وإن أنا لم أف لكم، فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني، فإن أنا تبت قبلتم مني.

وإن عرفتم أحداً يقوم مقامي ــ ممن يُعرَف بالصلاح ــ يعطيكم من نفسه ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل في طاعته.

أيها الناس: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أقول قولي هذا وأستغفر اللّٰه لي ولكم».

أبو حمزة الخارجي يصف أصحابه

يا أهل مكة..

تعيرونني بأصحابي؟ . تقولون: إنهم شباب!

وهل كان أصحاب محمد صلى اللّه وعليه وسلم إلا شباباً؟
شباب واللّه مكتهلون في شبابهم.
عَمِيّة عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم.

قد نظر اللّه إليهم في آناء الليل متثنيةً أصلابهم بمثاني القرآن.
إذا مرّ أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكىٰ شوقاً إليها.
وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه...

قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم.
أنضاء عبادة..

قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم ورُكَبَهم من كثرة السجود.
مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسادهمَ من كثرة الصيام وطول القيام.

مستقلون لذلك في جنب اللّه، موفون بعهد اللّه، حتىٰ إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحه قد شرعت وسيوفه قد انتُضِيَت، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد اللّه... فمضىٰ الشباب منهم قُدُماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه قد زُمِّلت محاسن وجهه بالدماء...
وعُفِّر جبينُه بالثرى...
وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء...

فكم من مقلة في منقار طائر، طالما بكىٰ صاحبها من خشية اللّه..؟

وكم من كفٍّ بانت من معصمها؛ طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده؟

وكم من خدٍّ عتيق، وجبين رقيق، قد فلق بعمد الحديد..؟

رحمة اللّه على تلك الأبدان..

وأدخل أرواحها في الجنان..

رجل مؤمن يعظ المنصور

بينما المنصور في الطواف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع.

فخرج «المنصور» فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه.

فصلى الرجل ركعتين، واستلم الركن، ثم أقبل مع الرسول، فسلم عليه بالخلافة.

فقال المنصور: ما الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض؟

وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟

فواللَّه لقد حشوت مسامعي ما أمضَّني!!

فقال: إن أمَّنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك، واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل..

قال: فأنت آمن على نفسك.

فقال: يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت!

فقال: كيف ذلك؟ ويحك... أيدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي!!

قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك؟ إن اللَّه استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلتَ أمورهم، واهتممتَ بجمع أموالهم، وجعلتَ بينك وبينهم حُجّاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحراساً معهم السلاح، ثم سجنتَ نفسك عنهم فيها، وبعثتَ عمالك في جباية الأموال وجمعها، وأمرت ألا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفراً سميتهم...، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع، ولا العاري إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتَهم لنفسك،

وآثرتهم على رعيتك، وأمرت ألا يحجبوا دونك تجبي الأموال وتجمعها، ولا تقسمها على أهلها، قالوا: هذا قد خان اللَّه فما لنا لا نخونه؟! فائتَمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم، إلا خوَّنوه عندك حتى تسقط منزلتُه، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظَّمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عُمَّالك بالهدايا والأموال ليقدروا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأتْ بلادُ اللَّه بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل؛ فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم، فبلغ بطانَتك خبرُه سألوا صاحبَ المظالم ألا يرفع مظلمته إليك. . .، فلا يزال المظلوم يختلف إليه، ويلوذ به ويشكو، ويستغيث، وهو يدفعه؛ فإذا أجهد وأحرج ثم ظهَرْتَ صرخ بين يديك!!، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فما تنكر!! فما بقاء الإسلام على هذا؟

وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين، فقدمتها مرة، وقد أصيب ملكُهم بسمعه، فبكى بكاءً شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر. . .

فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته.

ثم قال: أما إذْ قد ذهب سمعي، فإن بصري لم يذهب؛ نادوا في الناس ألاّ يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم.

ثم كان يركب البغل طرفي النهار هل يرىٰ مظلوماً؟

فهذا يا أمير المؤمنين مشرك باللَّه بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن باللَّه ومن أهل بيت نبيه، لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك!!!.

فإن كنتَ إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك اللَّه عِبَراً في الطفل يسقط

من بطن أمه، ماله على الأرض، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه؛ فما يزال اللّٰه يلطف بذلك الطفل حتىٰ تعظم رغبة الناس إليه.

ولستَ الذي تعطي، بل اللّٰه يعطي من يشاء ما يشاء.

فإن قلتَ: إنما تجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك اللّٰه عبراً في بني أمية ما أغنىٰ عنهم ما جمعوا من الذهب، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد اللّٰه بهم ما أراد.

وإن قلت: إنما تجمع المال لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فواللّٰه ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تُدْرَكُ إلا بخلاف ما أنت عليه...

يا أمير المؤمنين هل تُعاقِبُ من عصاك بأشد من القتل؟

فقال المنصور: لا.

فقال: فكيف نصنع بالمَلك الذي خَوَّلَك مُلْكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟ قد رأىٰ ما عقد عليه قلبك، وما عملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعته من يدك ودعاك إلى الحساب؟

فبكىٰ المنصور ثم قال: ليتني لم أُخْلَق!! ويحك كيف أحتال لنفسي؟

فقال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً؛ يفزعون إليهم في دينهم، ويرضون بهم في دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددوك.

قال: قد بعثتُ إليهم فهربوا مني.

قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات على حِلِّها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة.

ثم جاء المؤذنون، فآذنوه بالصلاة فصلّى، وعاد إلى مجلسه، وطُلِبَ الرجل فلم يوجد!

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

لقي أبو جعفر المنصور «سفيان الثوري» في الطواف ــ و «سفيان» لا يعرفه ــ فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟

قال: لا، ولكنك قبضت عليَّ قبضة جبار.

قال: عظني أبا عبدالله.

قال: وما عملتَ فيما علمتَ فأعظُك فيما جهلتَ؟!

قال: فما يمنعك أن تأتينا؟

قال: إن الله نهىٰ عنكم، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1].

فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه، فقال:

ألقينا الحَبَّ إلى العلماء، فلقطوا... إلا ما كان من سفيان، فإنه أعيانا فراراً.

خطبة للمأمون في عيد الفطر

قال بعد التحميد والتكبير:

«ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسرور، وابتهال ورغبة، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج، وجعلهمعقباً لمفروض صيامكم، ومتنفَّل قيامكم، أحل الله لكم فيه الطعام، وحرم عليكم فيه الصيام، فاطلبوا إلى الله حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال لا كبير مع ندم واستغفار، ولا صغير مع تمادٍ وإصرار، ثم كبر وحمد، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأوصَى بالبر والتقوىٰ ثم قال:

اتقوا الله عبادَ الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحضر الشك فيه أحداً منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تستقال بعده عثرة، ولا تحذر قبله توبة، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ولا شيء بعده إلا

---

(١) سورة هود: آية ١١٣.

فوقه، ولا يعين على جزعه وكربه، وعلى القبر وظلمته، ووحشته، وضيقه، وهول مطلعه، ومسألة ملكيه، إلا العمل الصالح الذي أمر اللّٰه به، فمن زلّت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته، وفاتته استقالته، ودعا من الرجعة مالا يجاب إليه، وبذل من الفدية مالا يقبل منه، فاللّٰهَ اللّٰهَ عبادَ اللّٰه، كونوا قوماً سألوا الرجعة فأُعطُوها إذ مُنِعَهَا الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنىٰ المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجلَ المبسوطَ لكم، فاحذروا ما حذركم اللّٰه منه، واتقوا اليوم الذي يجمعكم اللّٰه فيه لوضع موازينكم، ونشر صحائفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يملي في صحيفته الحافظة لما عليه وله، فقد حكى اللّٰه لكم ما قال المفرطون عندما طال إعراضهم عنها، قال جل ذكره: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(1). وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾!(2).

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإن كل ما بها يحذر منها وينهىٰ عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها، ذمّ كتاب اللّٰه لها والنهي عنها فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(3). وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ﴾(4).

---

(1) سورة الكهف: آية ٤٩.
(2) سورة الأنبياء: آية ٤٧.
(3) سورة لقمان: آية ٣٣؛ وسورة فاطر: آية ٥.
(4) سورة الحديد: آية ٢٠.

فانتفعوا بمعرفتكم بها وبأخبار اللَّه عنها! واعلموا أن قوماً من عباد اللَّه أدركتهم عصمة اللَّه، فحذروا مصارعها، وجانبوا خداعها! وآثروا طاعة اللَّه فيها، وأدركوا الجنة بما تركوا منها».

من كلام الأعراب

قال الأصمعي: أصابت الأعرابَ أعوامٌ جدب، وشدة وجهد، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم أعرابي يقول:

أيها الناس؛ إخوانكم في الدين، وشركاؤكم في الإسلام، عابروا سبيل، وقلال بؤس، وصرعىٰ جدب؛ تتابعت علينا سنون ثلاثة، غيرت النِّعم، وأهلكت النَّعم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا، ونُمنّي بالغيث قلوبنا حتى عاد مُخُّنا عظاماً، وعاد إشراقنا ظلاماً، وأقبلنا إليكم يصرعنا الوَعر، ويكنّنا السهل، وهذه آثار مصائبنا لائحة في سماتنا.

فرحم اللَّه متصدقاً من كثير، ومواسياً من قليل، فلقد عظمت الحاجة، وكسف البال، وبلغ المجهود، واللَّه يجزي المتصدقين.

* * *

ووقف أعرابي بقوم فقال:

أشكو إليكم أيها الملأ زماناً كلح فيّ وجهه، وأناخ عليّ كلكله، بعد نعمة من المال، وثروة من الآل، وغبطة من الحال؛ اعتورتني جدائده بنبل مصائبه عن قسيِّ نوائبه، فما ترك ثاغية أجتدي ضرعها، ولا راغية أرتجي نفعها؛ فهل فيكم من معين على صرفه، أو معد على حتفه؟

* * *

وأملى أعرابي يقال له «مرثد» دعاءً فكان منه:

يا رب تظاهرتْ عليَّ منك النعم، وتداركت عندك مني الذنوب؛ فلك الحمد على النعم التي تظاهرت، وأستغفرك للذنوب التي تداركت.

يا رب أمسيتَ عن عذابي غنياً، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيراً.

اللَّهم إني أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل.

اللَّهم اجعل خير عملي ما ولي أجلي.

اللَّهم اجعلني من الذين إذا أعطيتَهم شكروا، وإذا ابتليتَهم صبروا، وإذا ذكَّرتهم ذكروا.

واجعل لي قلباً تواباً أوّاباً، لا فاجراً ولا مرتاباً.

واجعلني من الذين إذا أحسَنوا ازدادوا، وإذا أساءوا استغفروا.

أدعوك دعاء ضعيف عمله، متظاهرة ذنوبه، ضنين على نفسه، دعاء مَنْ بدنه ضعيف، وَمُنَّتُه عاجزة، قد انتهت عدته، وخَلُقَتْ جِدَّته، وتم ظمؤه.

اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك، ولا تعذبني وأنا أدعوك.

اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك.

وأعوذ بك أن أقول زوراً أو أغشىٰ فجوراً، أو أكون بك مغروراً.

وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وعُضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة.

وصية أعرابية لابنها

قال إبان بن تغلب ــ وكان عابداً من عُبّاد البصرة ــ: شهدتُ أعرابية توصي ولداً لها وقد أراد سفراً وهي تقول:

أي بنيّ.. اجلس أمنحك وصيتي ــ وباللَّه توفيقك ــ فإن الوصية أجدىٰ عليك من كثير عقلك.

قال إبان: فوقفتُ مستمعاً لكلامها، مستحسناً لوصيتها، فإذا هي تقول:

أي بني: إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين.

وإياك والتعرُّضَ للعيوب فتُتَّخَذَ غرضاً، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كَلَمتْهُ.

وإياك والجودَ بدينك والبخلَ بمالك.

وإذا هَزَزتَ فاهزز كريماً يلين لهزتك، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها.

ومثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت منه فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه.

ومن كانت مودته بشره، وخالف منه ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها..

ثم أمسكتْ، فدنوتُ منها فقلت: باللّٰه يا أعرابية إلا زدتيه في الوصية..؟

فقالت: أوقد أعجبك كلام العرب يا عراقي؟

قلت: نعم.

قالت: والضررُ أقبح ما تعامل الناس بينهم، ومن جمع بين الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلّة، ريطتها وسربالها[1].

وصية أعرابي لأخيه

آثر بعملك معادك، ولا تدع لشهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك إلى الهدى، ويعصمك من الردى، وألجم هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم، فإنك تبرُّ بذلك سلفك، وتشيد شرفك، وابذل المودة الصادقة تستفيد إخواناً، وتتخذ أعواناً، فإن العداوة موجودة عتيدة، والصداقة متعذرة بعيدة، وجنب كرامتك اللئام، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن نزلت شديدة لم يصبروا.

أعرابي يفحم الحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر[2]، وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدّى معنا؛ فطلبوا فلم يجدوا إلاّ أعرابياً في شملة فأتوه به.

---

(١) «الريطة» الملاءة إذا كانت واحدة، و «السربال» القميص.

(٢) بلغ الصحراء ودخلها.

قال له: هلمَّ.

قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته.

قال: ومن هو؟

قال: اللَّه تبارك وتعالىٰ، دعاني إلى الصيام فأنا صائم.

قال: صوم في مثل هذا اليوم على حر؟!.

قال: صمتُ ليومٍ هو أحرُّ منه!!

قال: فأفطر اليوم وتصوم غداً.

قال: أو يضمن الأمير لي أن أعيش إلى غد؟

قال: ليس ذلك إليَّ.

قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس إليه سبيل؟!

قال: إنه طعام طيب.

قال: واللَّه ما طيَّبه خبازك ولا طباخك ولكن طيَّبَتْهُ العافية.

قال الحجاج: تاللَّه ما رأيت كاليوم، أخرجوه عني!

* * *

قال صاحب الأمالي:

حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه اللَّه، قال: حدثنا العكلي عن أبيه قال: بلغني عن ابن عباس أنه قال: كتب إليَّ عليُّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه بموعظة ما سُرِرْت بموعظة سروري بها.

أما بعد: فإن المرء يَسُرُّهُ دَرْك ما لم يكن ليفوتَه، ويسوؤه فوتُ ما لم يكن ليُدرِكَه، فما نالك من دنياك فلا تُكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تُتْبِعه أسفاً. وليكن سرورك بما قدَّمت، وأسفُك على ما خَلَّفت، وهَمُّك فيما بعد الموت.

وأنشدنا أبو عبداللَّه إبراهيم بن محمد بن عرفة الأَزْدي قال: أنشدنا أحمد بن يحيى الشيباني:

إذا ما خلوْتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقلْ خلوْتُ ولكن قل: عَليَّ رقيب
ولا تحسبن اللَّه يَغفُل ساعة ولا أن ما يخفَىٰ عليه يغيب

قال: وأنشدنا أحمد بن يحيى:

في كل بَلوَىٰ تصيب المرء عافية إلا البلاء الذي يُدْنِي من النار
ذاك البلاء الذي ما فيه عافية من العذاب ولا سِترٌ من العار

وأنشدنا أبو محمد النحوي قال: أنشدنا أبو العباس محمد بن يزيد قال: أنشدني عمرو بن بحر الجاحظ، قال أبو محمد: ـ والشعر لصالح بن عبدالقدوس ـ:

وإنَّ عناءً أن تُفَهِّمَ جاهلاً فيحسب جهلاً أنه منك أفْهمُ
متى يبلغ البنيان يوماً تمامَه إذا كنت تبنيه وغيرك يَهدِمُ
متى ينتهي عن سيِّء من أتى به إذا لم يكن منه عليه تَنَدُّم

وأنشدنا أبو عبداللَّه قال: أنشدنا محمد بن يزيد قال: أنشدني عبداللَّه بن القاسم قال: أنشدني العتبي:

تأنقتُ في الإحسان حتى أتيته إلى ابن أبي ليلىٰ فأنزَله ذَمَّاً
فواللَّه ما آسىٰ على فَوْتِ شكره ولكن خطاءُ الرأي يُحدث لي غمَّا

وحدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا أبو حاتم قال:

كان بالمدينة غلام يُحمَّق، فقال لأمه يُوشِك أن تَرَيْني عظيم الشأن.

فقالت: فكيف واللَّه ما بين لابتيها أحمقُ منك؟

فقال: واللَّه ما رجوتُ هذا الأمرَ إلا من حيث يَئِسْتِ منه.

أما علمتِ أن هذا زمانُ الحَمْقَىٰ وأنا أحدهم!!!.

* * *

خاتمة

اتفقت كلمات الدارسين على أن الإسلام أتى العالم بعد اكتمال رشده، واستواء خصائصه النفسية ومواهبه الذهنية، وأن رسالته جاءت كتاباً يخاطب الألباب، ويناشد الضمائر، وأن أدلتها تجاوزت طور الإعجاز المادي بالخوارق الباهرة، إلى الإقناع العقلي بالمقدمات التي تلفت الحس، والنتائج التي تملك النفس.

أجل، إنهم اتفقوا على ذلك، ونالت هذه الحقائق نصيبها من طول الشرح فلا نضيف إليها مزيداً، وإنما نريد أن نشرح خاصة أخرى في الإسلام، يربطها بهذه الحقائق نسب قريب؛ تلك الخاصة هي ما يتعلق بحماية الدعوة وتمهيد سبلها، وردِّ خصومها، ودفع غوائل المبطلين عنها.

فإن الإسلام امتاز عن الديانات السابقة بطبيعة تزوِّده بأسباب المناعة، كما يمتاز الجسم المحصَّن ضد أنواع الحمَّى.

ألا ترى «المصل» الذي سَرَى فيه يهبه مقاومة للأوبئة المجتاحة؟

كذلك الإسلام! إن العناية العليا ادَّخرت في كيانه طاقةً يرد بها البِلَى، وقوةً يغالب بها العِلل، وقدرة على التجدد والكفاح تُعيِي الخصوم، وتهزم الليالي.

وكأن اللَّه أراد أن يجنبه مصاير كثير من رسالات الإصلاح التي حَمَلها النبيون الأوائل، وأن يجعله تراثاً مصون الجوهر قريب النفع إلى الأبد.

فَلْنُلْقِ نظرة عجلى على هذه الرسالات الأولى وما لقيتْ من كيد،

وما واجهت من ختام، لنعرف سرَّ الخاصة التي تفرد بها الإسلام، وكتبت له خلوداً لم يعرف لغيره.

أول ما نلقاه في مسير الديانات الأولى، والعوائق التي اعترضتها أن كفة الشر كانت أرجح، وأن سطوته على الناس كانت أظهر، وأنه ــ لولا تدخُّل السماء ــ لَحُصِدَ الإيمانُ وأهلُه دون هَوَادة.

ولم يكن ذلك الضعف الذي أذلَّ جانب الدين عن قصور في بيانه، أو تقصير في حمايته، بل لأن ضراوة الكفر بلغت حداً رهيباً من الجسامة!! وإلا فقد ظل نوح عليه السلام بضعة قرون يدعو قومه بكل أسلوب دون جدوى

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . . . ﴾(1).

بيد أن هذه المناشدة الحارة ذهبت سدىً، وبقي المجتمع الكنود على كفره، لم يتغير من أحواله المضطربة شيء، ولم يستقم له حال..

واتضح أن موجة الكفر في مدٍّ متتابع، وأن مستقبل هذه الجماعة لن يكون إلا صورة مكررة لحاضرها السيّء، بل إن نطاق الإيمان ينقص ولا يزيد، وذلك ما جعل نوحاً ينادي:

﴿ . . رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾(2).

وهيمنة الضلال على المجتمع، التي أحنقت نوحاً وأحرجته، أخذت طابعاً أقسى في رسالات أخرى أعقبته، فقد بلغ من استمكان العُتوّ في أرض

---

(1) سورة نوح: آيات ٥ ــ ١٠.
(2) سورة نوح: ايتي ٢٦ ــ ٢٧.

مدين أنْ هَدَّد الكفرُ ــ وزمام الأمر بيده ــ بطرد شعيب، ونفي المؤمنين من أتباعه، إن هم ظلُّوا يؤمنون بالله ويدعون إلى القسط!!

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . ﴾(١).

وكذلك صنعت قرى المؤتفكة مع نبيها الذي يُعَلِّمُها العفاف، ويجنبها الشذوذ، ويريد تطهير أنديتها من المنكر، لقد كان صوت الفساق من العلوّ والقحة، بحيث لم يستح أن يتوعَّد الأطهارَ بالطرد

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وكما تأيدت دعوات أولئك الأنبياء السابقين بالخوارق المعجزة، فإن تخليصهم من براثن عدوهم تنزلَّت به آيات من السماء، وتولته ملائكة اللّه جل شأنه، على النحو الذي وعاه التاريخ، ودوَّنه الوحي.

لكن الرسالة الخاتمة لها في ذلك الميدان شأن آخر، فإن الإيمان الذي تَهدي إليه يعتمد في رسوخه النفسي على حركة العقل الذكي والقلب المنيب، ويعتمد ــ في بقائه الخارجي ــ على عمل اليد الدؤوب، وكدح الإنسان المجاهد.

أجل، على المرء أن يؤمن بإيقاظ فكره، فإذا تيقَّظ واهتدى فعليه أن ينتصب لحماية هذا الإيمان بكل ما لديه من قوى.

لا، بل عليه أن يخلط هذا الإيمان بشؤون الحياة ليجعل منه قانوناً تصلح به الأوضاع، ومناراً تعرف به الغايات، وحضارة يصطبغ بها الركب السائر، وتتوارثها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٨٨.

(٢) سورة الشعراء: آيات ١٦٧ ــ ١٦٩.

وعليه ـ إلى جانب ذلك ـ أن يجالد دونه الخصوم، وأن يرمق ذهاب جذوره في الأرض، واستطالة أغصانه في الجو، وهو حارس ناشط، يُرهب العادين، ويَصُدّ المجرمين.

إن الإسلام الذي قام على كتاب يؤسس الإيمان باستثارة المواهب الإنسانية، دون جنوح إلى الخوارق المعجزة، اعتمد في صيانة الرسالة، واستدامة نورها، وكسر خصومها، على جهود المؤمنين أنفسهم، ومدى ما يبذلون من تضحيات غالية، دون انتظار للآيات التي تقهر الخصوم وتستأصل شأفتهم.

ولذلك ترى الإسلام يغالي بكل عمل صالح، من شأنه أن يمد رواق الإيمان في الحياة العامة ويُحكم هيمنة الدين على الجماعة.

إن مثل هذا العمل أرفع عند اللّه أجراً، من أي عمل آخر، لأنه أوسع في الحياة أثراً.

قد تكون الصلاة عبادة جليلة القدر، لكن العمل الذي يؤديه المؤمن ـ إعلاء لكلمة اللّه، وتمكيناً لشريعته ـ أعظم قدراً.

لماذا؟ لأنه لولا هذا الجهاد ما استطاع مصلٍّ ولا صائم أن يقوم للّه بحق.

وتأمل في هذه الآثار النبوية ينكشف لك وجه الصواب:

١ ـ عن أنس رضي اللّه عنه قال: «سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أجر الرباط؟ فقال: من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين، كان له أجر مَنْ خلفه ممن صام وصلى».

٢ ـ وعن مجاهد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنه كان في الرباط ففزعوا إلى الساحل ثم قيل: لا بأس ـ أي لا خوف من عدوان ـ فانصرف الناس وأبو هريرة واقف فمر به إنسان فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة فقال: سمعت رسول اللّه عليه الصلاة والسلام يقول: «موقف ساعة في سبيل اللّه خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود».

٣ ـ وعن ابن عمر أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال «ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في أرض خوف لعله ألّا يرجع إلى أهله».

٤ ـ وعن عثمان رضي اللّٰه عنه قال: سمعت رسول اللّٰه عليه الصلاة والسلام يقول: «حرس ليلة في سبيل اللّٰه أفضل من ألف ليلة يُقام ليلُها ويُصام نهارُها».

وهذا التنويه الغريب بالجهاد، إنما يرجع إلى أنه الحزام لشعائر الإسلام، وأنواع الطاعات، فإذا انقطع لضعف أو وهن، ذهبت كلها بِدَداً وتلاشتْ في الحياة سُدَى.

وقد رأينا الأذكياء يرفضون مسالك الزهّاد ممن آثروا العزلة واستحلَوْا عبادة اللّٰه بعيداً عن الناس.

رُوي أن بعض العلماء خرج فصعد إلى رأس جبل اجتمع فيه العبّاد والزهاد منقطعين إلى طاعة اللّٰه ـ كما يزعمون ـ فقال لهم: أتجلسون في مأمن هنا، وتتركون الإسلام تعبث به الأهواء الظلوم، والنحل الفاسدة؟ أما كان خيراً لكم ولدين اللّٰه أن تخالطوا الناس وأن تناضلوا عن سبيل اللّٰه بالحجة والبرهان، إن فاتكم الدفاع عنه بالسيف والسنان؟

وذلك حق، فإن الإسلام يرفض بَتَّةً هذه المواقف السلبية تجاه الضلال.

إنه يفترض على المسلم الذي يعتنقه أن يتحول به إلى قوة مؤثرة، تزرع الخير في كل ناحية وتقتلع من حوله الأشواك.

ومن هنا لم يتعب الشيطان من شيء تعبه من هذا الدين الذي يبني النفوس على الحبّ في اللّٰه والبغض في اللّٰه، والذي يأبى مهادنة المنكر أبد الدهر.

فإن أعياه الانتصار عليه وحسم مادته، استبقى له في الضمائر كراهية كامنة تتربص به الدوائر.

وبهذه الخاصة نجا الإسلام من المصاير التي طوت دياناتٍ أخرى قبله،

وبقيت فيه الحقيقة التي تاه عنها كثيرون من الأوائل.

نعم، بقيت مصونة كما نزلت من السماء برغم ما ألقى عليها الدهر من ظلال. .

لقد ظهر نبيُّ الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، بعد عشرات ومئات من المرسلين الذين سبقوه إلى هداية الخلق وتعليم الأمم. . وكانت النتائج المستخلصة من الماضي الطويل لا تدع مجالاً لتحسين الظن بالضلال وأهله ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾(١).

ومن ثم تجاور في تعاليم الإسلام، أن الإيمان بالحق والجهاد عنه صنوان، وأن نبذ الكفر وتقليم أظافره أخوان لا يفترقان. . وأن القضاء العدل، والسلطة المنفذة له أمران لا ينفكان.

وبذلك المنطق شق الإسلام طريقه في الحياة وسط شرك طالما قهر التوحيد، وجبروت طالما استباح الأمم، وأضلَّ الأجيال؛ شق طريقه دون أن يأبه لعصابات القُطّاع وهي تقول: إن سيفه مخوف الحدِّ، شديد الفتك.

ليكن، وما يعيبه هذا، وهو إنما خلص بحياته منكم على ضوء بريقه؟

إن شكايات اللصوص من بطش رجال الشرطة لا معنى لها، والذين يسمعون لها هم الذين ضاقوا بالقوة في كنف الإسلام، أقوام مريبون، كانوا ـ قبحهم اللّه ـ يبتغون الإجهاز عليه، فلما ارتدُّوا مدحورين أخذوا يسبون سيفه، ويعيبون عنفه. . !!

وذلك ـ في نظرنا ـ أفضل من أن يقفوا على جثته يرسلون دموع التماسيح.

* * *

وكأن اللّه ألهم الفاروق «عمر» رضي اللّه عنه هذه الحقيقة عندما جعله يؤرخ بالهجرة لسير الإسلام في الأرض. .

(١) سورة الكهف: آية ٢٠.

إن هذه الهجرة تعني أن المسلم يحيا للّه ولرسوله، ويربط مستقره في أي بلد بمقتضيات العقيدة التي ارتضاها، فهو يتبعها حيث تزدهر وتؤتي ثمارها.

وبَونٌ بعيد بين من يجعل نفسه وماله وأهله تبعَ إيمانه الأثير وغايته الرفيعة. ومن يحيا على أي وضع وفي أي ظل!

والغريب أن اللّه جعل العزة والسيادة للأولين، ومكَّن لهم في العالم بقدر ما خدموا دينه، وأقاموا أمره...

على أن الجهاد العلمي أرفع رتبة وأسبق مكانة من الجهاد الحربي.

فالناس ــ أولاً ــ أحوج إلى من يُعرِّفهم الحق، حتى إذا انشرحت به صدورهم تطلعوا إلى ما يستبقيه فيهم، وإلى ما يثبتهم عليه، وإلى ما يُوَرِّثُه ذراريهم بعد انقضائهم... فالحق أساس، والجهاد حارس.

وَهَبْكَ زرعتَ حديقة يانعة الأثمار مهدَّلة الأفنان ثم أنشأت حولها سياجاً يقيها السطو والاختلاس، ما تظن قيمة هذا السياج إذا انقطع عن الحديقة الماء فذوى باسقها، وجفَّ مُخضَلُّها؟.

أو ما قيمة هذا السياج إذا أصابها إعصار فيه نار فاحترقت؟

إن السياج عندئذ سيكون مضروباً حول صحراء لا خير فيها..

والعلماء عندما يكتبون ويخطبون، وعندما يُرَبُّون ويتعهدون، وعندما يحلون أو يرتحلون، وعندما يدافعون ويجادلون، إنما يغرسون في النفوس حقائق الوحي وهدايات السماء، ويَخلُفُون أنبياء اللّه جل شأنه على رعاية الخلق، وإحسان قيادتهم، وكفالة حاضرهم وغدهم.

وقد راعنا ــ معشرَ الدعاة ــ أن مواطن الإسلام في هذا الزمان تتعرض لعبث هائل في قوامها الروحي والفكري، وأن أسراباً من الحشرات الفتاكة انطلقت مع زحف الاستعمار الأخير، وشرعت تجتاح الأخضر واليابس في ميادين العقائد والأخلاق، وأن آمال الزبانية تركَّزتْ بكل ما واتاها من قوى

باطشة، وسياسات خاتلة لتجعل الإسلام أثراً بعد عين.

ونحن نمدُّ الطرف يمنة ويسرة، نبحث عن العلماء الدعاة ليذودوا هذا البلاء، ويتلافوا تلك المحنة..

يجب أن يبقى الإسلام في أرض لتبقىٰ لها صلةٌ بالسماء، ولِتبقى بين الأحياء رسالةٌ تكفل لهم الرشد واليُمْن، وتقيهم العَثَار والزلل..

لن تنقطع حاجة العالم إلى الإسلام إلا يوم تستغني العيون عن الضياء، والصدور عن الهواء..

فيا دعاة الإسلام في المشارق والمغارب، أدُّوا حق اللَّه عليكم، وانقلوا الإسلام إلى الأجيال اللاحقة نَقِيًّا مُصَفًّى، كما انتقل إليكم عن الأجيال السابقة.

خذوا حذركم من أعداء الحقيقة، الذين قاتلوا الأنبياء في العصور الأولى ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا..

أعيدوا الحياة الصحيحة إلى الأفئدة الفارغة والرؤوس الخربة، ليتحابَّ الناس بروح اللَّه ويتعارفوا على هداه.

• • •

الفهـــرس(*)

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التعريف بالدعوة:	١٥
الحاجة إلى الدعوة	٢٢
أمّة ورسالة	٣٤
أضرار تغيير الكتابة العربية	٤٢
مقومات الوحدة العربية	٤٨
اللغة كعامل للوحدة	٤٩
من لم تبلغهم الدعوة	٥٢
السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين:	٧٩
كيف انتشر الإسلام	١٠١
الدعوة وحملتها:	١٦٩
من صفات الدعاة	١٨١
الإخلاص	١٩٥
الشجاعة	٢٠٣
بعض الصور للثبات على الحق والمجاهرة به	٢٠٦
العلم والعلماء	٢٠٩
خلال جامعة	٢١٢

(*) عناوين الأبواب الأولى لا تغني القارىء في بيان الموضوعات التي تضمنها الكتاب.
إذ إننا لجأنا ــ في سردها ــ إلى الإجمال.

الموضوع	الصفحة

الدين والعلم ٢٢٠
أزمة التدين ٢٣٤
لا مكان للإلحاد بيننا ٢٥٧
أساس الوحدة العظمى ٢٧١

وسائل الدعوة:

القدوة الحسنة ٢٨٥
التعليم والتذكير ٢٩٠
الخطابة ٢٩٥
الترغيب ٣٠٠
الترهيب ٣٠٤
رأي التربية المدنية ٣١١
القصص الدينيّ ٣١٨
الكتابة ٣٢٥
موضوعات الكتابة المعاصرة: ٣٣٠
الدين ضرورة اجتماعية ٣٣٠
الإسلام والديانات السابقة ٣٣١
مصادر التشريع الإسلامي ٣٣٣
المذاهب الفقهية الإسلامية ٣٣٣
المجتهدون في الشريعة الإسلامية ٣٣٥
الإسلام والمدنية الحديثة ٣٣٦
أسباب انتكاس المسلمين ووسائل نهوضهم ٣٣٨
الإسلام بين المادية والروحية ٣٣٩
المسلمون بين التيارات الحديثة ٣٣٩
الإسلام مصدر الحريات ٣٤٠
براءة الإسلام من البدع والخرافات ٣٤١
التيارات الدخيلة في الإسلام ٣٤١
مشكلات إسلامية معاصرة ٣٤١
مجاراة العربية لعوامل التطور ٣٤٢
حكمة التشريع الإسلامي ٣٤٢

الموضوع	الصفحة
بطولات إسلامية	٣٤٣
الأسرة الإسلامية	٣٤٣
الإسلام دين السلام	٣٤٣
البلاد الإسلامية	٣٤٤
مقاومة الهدامين:	٣٤٧
الهدم الروحي	٣٤٨
الدين	٣٥٩
الهدم التاريخي	٣٦٤
الهدم العسكري	٣٨٣
حديث ذو شجون	٣٩٣
نماذج حية:	
القرآن	٤١٣
السنن	٤١٦
زاد الدعاة	٤٢٤
وصية أبي بكر لعمر الفاروق	٤٢٥
من خطب أبي بكر رضي الله عنه	٤٢٦
من خطب عمر رضي الله عنه	٤٢٨
من آخر ما قال عمر	٤٢٩
من عمر إلى أبي موسى الأشعري	٤٣٠
وصية عمر للخليفة بعده	٤٣٠
من خطب عثمان رضي الله عنه	٤٣٢
من كلام الإمام علي «الناس والعلم»	٤٣٤
من كلام الإمام علي «بادروا بالعمل»	٤٣٥
من كلام الإمام علي «المرء والدنيا»	٤٣٦
كلام الإمام علي «لا تذموا الدنيا»	٤٣٦
من كلام الإمام علي «قل من حرم زينة الله»	٤٣٧
خطبة للإمام علي. «الله جل جلاله»	٤٣٨
طلب التوبة للإمام «زين العابدين»	٤٤٠

الموضوع	الصفحة

تضرعات للإمام «زين العابدين»	٤٤٢
أبو الكلام «آزاد» في سجنه يتحدث عن الإسلام ويحارب الاستعمار	٤٤٥
صلاح النفس	٤٥١
الحياة تافهة إذا خلت من مثل أعلى	٤٥٢
من وصايا الإمام الغزالي	٤٥٦
الرسالة التأديبية للإمام الغزالي	٤٦١
بين العلم والعمل: رسالة من الإمام الغزالي لأحد تلاميذه	٤٦٤
موقفي من الناس. للأستاذ عباس محمود العقاد	٤٦٥
قال عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه	٤٦٧
هكذا ترك الخليفة أولاده	٤٦٨
وصف الإمام العادل للحسن البصري	٤٦٩
نموذج للحاكم المسلم	٤٧١
خطبة يزيد بن الوليد	٤٧٢
أبو حمزة الخارجي يصف أصحابه	٤٧٣
رجل مؤمن يعظ أبا جعفر المنصور	٤٧٥
عظة سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور	٤٧٨
خطبة للمأمون في عيد الفطر	٤٧٨
من كلام الأعراب	٤٨٠
وصية أعرابية لإبنها	٤٨١
وصية أعرابي لأخيه	٤٨٢
أعرابي يفحم الحجاج	٤٨٢
قال صاحب الأمالي	٤٨٣
خاتمة	٤٨٥

• • •